

مجلة شهرية - العدد الثالث - السنة الأولى - أبريل ١٩٩٩ - الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل يكتب:

شخصيّة الملك حسين

ضرورات الفهم قبل الحكم ولكن إلى أى مدى؟

كيسنجر واللعب على حساب العرب!

إيڤا بيرون.. الأسطورة وصناعة الشهرة

خريطة الانتخابات الإسرائيلية

إذا ظهر الوباء.. فتش عن الاستعمار!

أفراح الأنجال.. صورة للترف فى عهد إسماعيل

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الأولى
العدد الثالث
أبريل ١٩٩٩

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



كتّاب العدد:

- أيلين كيلى: زميل كلية كينجز بجامعة كامبردج
- جوردون كريج: كاتب متخصص فى الشئون الألمانية
- رءوف عباس: أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة ووكيل كلية الآداب
- رتشارد بيتس: مدير دراسات الأمن القومى فى مجلس العلاقات الخارجية بالولايات المتحدة، ومدير معهد دراسات الحرب والسلام بجامعة كولومبيا.
- زياد أحمد بهاء الدين: محام وكاتب مصرى.
- سارة كير: صحفية بمجلة النيويوركر.
- سلامة أحمد سلامة: صحفى
- صادق صبور: أستاذ الأمراض الباطنة بجامعة عين شمس.
- فواز جرجس: أستاذ عربى يشغل كرسى كريستيان أ.جونسون فى الشئون الدولية ودراسات الشرق الأوسط بكلية سارة. لورانس بنيويورك.
- كامل زهيرى: كاتب صحفى
- محمد الخولى: صحفى، خبير إعلامى لدى الأمم المتحدة
- محمد حسنين هيكل: صحفى
- مروان بشارة: كاتب وصحفى فلسطينى مقيم فى القدس ورئيس تحرير صحيفة «فصل المقال»
- هبة رءوف: أستاذ مساعد علوم سياسية بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين:
محمد حجى ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٢٠٤٩٠/ ٣٩٢٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٨٠ دولاراً أمريكيًا ـ دول أوروبا وأمريكا وكندا: ١٢٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٥٠ دولارًا أمريكيًا.
إدارة اشتراكات الأهرام ـ مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالا ـ اليمن ١٥٠ ريال ـ الكويت دينار واحد ـ الإمارات ١٥ درهما ـ البحرين ١٫٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ١٫٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٢٥ درهما ـ تونس ٣ دنانير.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة..

لاشىء يعدل ثقة القارئ فى مجلته أو صحيفته، كما أنه لا شىء يعدل حرص المجلة أو الصحيفة على قارئها.

فى الحالة الأولى يكتسب القارئ ثقته من خلال ما تلتزم به المجلة من أهداف ومبادئ ، تقوم على احترام عقل القارئ، وتزويده بأحدث المعارف والقراءات والتحليلات فى مجالات متنوعة؛ تنتقل به بين الثقافة والسياسة والفكر والفن، وتمد أمامه جسرا مفتوحا بين الثقافات وعبر القارات، تصل بينه وبين مراكز الفكر والإشعاع فى العالم. وتختزل له من الكتب وتقدم له من كبار الكتاب ما يصعب أن يجده مجتمعا فى مطبوعة واحدة.

وفى الحالة الثانية، تحرص المجلة على قارئها، من خلال ما تتكبده من جهد فى اختيار ما تقدمه، من بين أحدث الإصدارات ، وأهم الدوريات، وأشهر الأقلام العربية والعالمية.. دون أن تهمل فى ذلك وقع الأحداث المعاصرة والتطورات السياسية والفكرية التى تحاصرنا من كل جانب.. بل ودون أن تغفل البعد التراثى فيما تقدمه من «كتاب فى الزاوية» أو قراءة فى كتاب من كتب التاريخ لواحد من المؤرخين العظام فى الفكر العربى.

وفى كلتا الحالين، فإن «الكتب وجهات نظر» تسعى سعيا حثيثا لأن تضاعف ثقة القارئ فيها عددا تلو عدد وأن توسع - شهرا بعد آخر - شريحة من يحملونها إلى بيوتهم.. وأن تستجيب فى الوقت نفسه إلى ما تعتقد أنه يلبى احتياجات القارئ العربى فى العصر الحديث ، ويخاطب همومه الفكرية والثقافية والسياسية التى يحياها كلما أشرق عليه الصباح أو جن عليه الليل.. إيمانا بأن الفكر الذى لا يستجيب لحاجات الإنسان واهتماماته، لا يستحق الجهد الذى يبذل فيه.

ومن هذا المنطلق سوف يجد القارئ فى هذا العدد دراسة تحليلية ممتعة عن شخصية العاهل الأردنى الراحل الملك حسين، يقدمها قلم كاتب من أكبر الكتاب والصحفيين المعاصرين، عايش هذه الحقبة الهامة من حياة الأمة العربية،واطلع على أدق خفاياها ، وربما شارك فى صنع أحداثها وهو الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل.

كما يطالع القارئ تحليلا وافيا عن خريطة الانتخابات الإسرائيلية واحتمالات الفوز والخسارة فيها بقلم مراقب عربى من قلب إسرائيل يعرف دقائق التيارات السياسية ، والدوافع الخفية، والمنافسات الشخصية بين زعمائها.

وصفحات العدد تتسع بعد ذلك ، لعروض عديد من الكتب والإصدارات الحديثة عربية وأجنبية ، تنتقل بالقارئ من تأثير التدين على الجموع الغالبة من الناس فى الشوارع والقرى والنجوع، إلى قراءة فى نصوص المحادثات السرية التى أجراها ثعلب السياسة الأمريكية كيسنجر مع الزعماء الروس والصينيين ، إلى صورة تحليلية للأديب الروسى الكبير تشيكوف.

وسوف يجد القارئ بعد ذلك فرصة للاستراحة فى «الزاوية» وهو يستعيد مقاطع من غزليات الشاعر الرقيق إبراهيم ناجى وغنائياته التى ملأت وجدان الملايين حين غنتها أم كلثوم.

وفضلا عن تعقيبات ورسائل القراء، يقدم العدد سجلا حافلا بآخر عناوين الإصدارات الجديدة من الكتب وعروضا موجزة لمختارات منها.

... نحن نريد للقارئ أن يجد فى صحبة هذه المجلة ما يمتع عقله ويثرى ذوقه، ويخاطب اهتماماته.. يقرأها دفعة واحدة إن استطاع، أو يطالعها فى ساعات الفراغ والتأمل والحوار الداخلى مع النفس على امتداد شهر.

وسوف يظل دائما من حق القارئ أن يلاحقنا بالرأى والنقد والتعليق . وأن يبعث إلينا بمقترحاته وأفكاره.. فاختلاف وجهات النظر لا يفسد للود قضية. ونحن نطمح إلى الدخول معه بوابة القرن القادم بمجلة رصينة هادئة هادفة، تعيد للقراءة وظيفتها وتعيد للوعى العربى يقظته وحيويته.

وجهات نظر

فكرة هذه المجلة:

- تُقدِّم لقارئها أحدث وأهم الكتب الصادرة بمختلف اللغات - وأولها اللغة العربية - حتى يكون متابعا مشاركا فى حوار الثقافات.
- تحاول أن تتناول هذه الكتب بالعرض، وتضيف إلى عروض الكتب أهم المنشورات والتقارير فى مجالات متنوعة بين الثقافة والسياسة والفكر.
- تُجَرِّب النفاذ عبر ما هو منشور فى الكتب والتقارير وغيرها إلى محيط أوسع، وبما يجعل علاقاتها بقارئها صحية فى التعرف على أحوال الحاضر وتصورات المستقبل.
- تستعين فى سبيل تحقيق ذلك بشبكة من العلاقات واصلة إلى كل مراكز الفكر والنشر على اتساع العالم، تريد أن تكون جسرا مفتوحا بين الثقافات وعبر القارات.

محمد حسنين هيكل

يكتب:



شخصية المَلك حسين



ضرورات الفهم .. قبل الحكم

[١]

إذا كان هناك دليل مادى مطلوب لكشف أحوال العالم العربى فى نهاية هذا القرن العشرين - فإن مشهد جنازة الملك حسين مَلك الأردن الراحل - هو ذلك الدليل المادى المطلوب!

وفى حقيقة الأمر فإن هذا المشهد - فكرة وإخراجا وعرضا - كان إنتاجا جديدا لنصين متشابهين سبقاه، الأول جنائزى أيضا وهو تشييع جثمان رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «إسحاق رابين» (شتاء ١٩٩٥)، والثانى لحسن الحظ نص احتفالى هو مؤتمر شرم الشيخ لمقاومة الإرهاب (ربيع ١٩٩٦).

والآن هذا الموكب الجنائزى فى عَمّان.

الصور هى هى، والنجوم نفس الوجوه، والحوار تسلسل طبيعى، والمغزى، أو المعنى، أو الهدف متقارب، ومقصده:

* استيعاب صدمة مفاجئة فى الشرق الأوسط جاء بها الموت أو الاغتيال أو التفجيرات الفدائية.

* العمل على تثبيت مواقف الأطراف فيما يسمى بالمسيرة السلمية فى المنطقة - عند الحد الذى بلغته، وضمان ألا يتراجع أحد بمظنة تغير الظروف.

* وانتهاز الفرصة للتفتيش وسط فوضى المصائب عن فجوة يكون منها مخرج ولو بالهرب إلى الأمام خطوة إذا أمكن أو خطوات!

وتلك مطالب لا تتصل بالأشجان أو الأحزان، وإنما تتصل بممارسة القوة سواء باستغلال جلال الموت أو وحشة القبور.

وليس فى ذلك كله ما يسىء إلى جنازة الملك «حسين»، فلقد كانت جنازة مهيبة جليلة فى نواح عديدة منها، خصوصا عندما تدافعت مشاعر الناس العاديين فى الأردن وقد خرجوا يُوَدّعون رجلا لم يعرف معظمهم فى حياته حاكما غيره، وهم إذ عرفوه تَعَوَّدوا عليه، وحتى حينما كانت التقلبات الحادة تجنح بسياساته على هذا الشاطئ أو ذاك فإنهم كانوا على اطمئنان طول الوقت معه، متأكدين من مرونته، واثقين أنه فى الثانية الأخيرة من الدقيقة الأخيرة سوف يجد لنفسه ولهم شبكة أمان يقفز إليها الجميع.



إن ذلك التقدير لدور المَلك ومشاعر الناس من أبناء شعبه لا يحجب ملاحظات يصح تسجيلها:

أولها: أنه من المؤكد الآن أن المَلك عاد من الولايات المتحدة الأمريكية وهو فى حالة «موت طبى»، وكانت الأجهزة الصناعية وحدها تستخرج أنفاسه، وتستبقى دقات قلبه وإن على وهن!

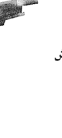
وفيما يبدو فقد كانت تلك فسحة من الوقت مطلوبة لعودة المَلك إلى وطنه، ولمنح بعض الضيوف فرصة استعداد للسفر إلى عمان (وقد أعلن البيت الأبيض فى واشنطن يوم الجمعة ٥ فبراير أن الرئيس كلينتون سوف يكون فى عَمّان يوم الاثنين ٨ فبراير - وهكذا كان) - ولم يكن «كلينتون» وحده هو الذى يجب أن يستعد، وإنما وقع الاتفاق مع آخرين بأن يكونوا هم أيضا على استعداد.

وربما أن فسحة الوقت كانت مطلوبة - أيضا - لإتمام الترتيبات العملية والأمنية للجنازة بما فيها أن تتعرف القوات المشاركة فى الموكب على مسالكها وسط العاصمة الأردنية.

وزاد على ذلك - كما تَكَشّف فيما بعد - أن فسحة الوقت كانت مطلوبة لتسوية خلافات بين أطراف العائلة خصوصا فى شأن ولاية العهد. وكان المَلك «حسين» من الأصل يرغب أن يخلفه ابنه (منَ الملكة نور) الأمير حمزة، ولم تمكنه نصائح دولية وإقليمية من إنفاذ إرادته فأعاد الأمر إلى الأكبر من أبنائه وهو «عبد الله»، ثم أصر على ولاية العهد لـ «حمزة» متخطيا بذلك أربعة من أبنائه بينهم اثنان من أم وُلِدَت عربية مسلمة هى الملكة «عالية» (طوقان) التى قتلت فى حادث سقوط هليوكوبتر سنة ١٩٧٧!![١]

ويبدو أن مجلس الوزراء الأردنى لم يكن مطمئنا إلى توصل أفراد الأسرة لحل سريع، ولذلك اتفق مع الأمير «عبد الله» على أداء اليمين الدستورية نائبا للمَلك دون انتظار - لكنه فى اليوم التالى مباشرةً نادى به مَلكا - لأن الخلافات العائلية أمكن تسويتها على نحو غير متوقع فى الساعات القليلة التى فصلت بين يمين النائب، ويمين المَلك!

ثانيها: أن مراسم الجنازة طالت بأكثر مما هو ضرورى - خمس ساعات تقريبا - ولئن قيل إن ذلك كان ضروريا لإظهار تَعَلُّق الشعب بمَلكه، فإن ذلك القول ينسى أن مشهدا حقيقيا أو صورة صادقة، بل دمعة صامتة - تستطيع



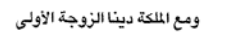


كان أنين موسيقى القرب الاسكتلندية وآهات النفخ فى الأبواق على حواف القبور أقرب إلى تقاليد الجيش البريطانى فى دفن قتلاه أثناء حروب المستعمرات، منها إلى أى موروث عربى أو إسلامى

الملك صبيا ..

ومع شقيقيه محمد وحسن..





ومع الملكة دينا الزوجة الأولى



King Hussein: A Life on the Edge

(الملك حسين : حياة على الحافة)

Roland Dallas

London: Profile, 1998. 296 pp. £17.99

وفى لمحة بصر إظهار ما تعجز عنه مواكب بطول عشرات الكيلومترات.

ويندرج تحت هذه الملاحظة أن بعض المواقف فى مراسم الجنازة بدت مُسْتَغْرَبَةً إلى درجة توحى بأن جهات متعددة تشاركت أو تداخلت فى وضع الترتيبات:

* وعلى سبيل المثال فإن الحصان الذى لا يركبه فارس ويتدلى الحذاء الطويل لذلك الفارس مقلوبا على الجانب الأيسر للسرج. لا يتصل مباشرة (٢) بتقليد عربى أو إسلامى، وإنما بتقليد أمريكى يرجع إلى أيام غزو الغرب والحرب الأهلية بين الولايات. ونفس الشىء ينطبق على طقس إلقاء النظرة الأخيرة على جثمان راحل مسجى أمام زواره. فذلك طقس بدأ فى أوروبا وشاع فى ظروف الحروب الصليبية حين كان رفات المحاربين يعود من الغربة الطويلة فى الشرق ثم يُعْرض أمام الأهل والأقارب والأتباع لنظرة وداع قبل الغياب النهائى!

* يلحق بذلك أن أنين موسيقى القِرَب الإسكتلندية وآهات النفخ فى الأبواق على حواف القبور أقرب إلى تقاليد الجيش البريطانى فى دفن قتلاه أثناء حروب المستعمرات (فى الهند مثلا). منها إلى أى موروث عربى أو إسلامى.

* وربما أن موكب العزاء الطويل الذى اضطر فيه المَلك «عبد الله» وإخوته إلى مصافحة أعداد هائلة من الناس وتجاذب الحديث مع معظمهم بعد انتظار طويل لدورهم فى الصفوف، وبينهم ملوك، ورؤساء، ووزراء، وسفراء، وقُوّاد جيوش، وزعماء أحزاب، إلخ. كان الإسهام العربى البارز فى مشاهد الجنازة، وربما أريد له أن يسترجع العادات القبلية والعشائرية!

وثالثها: أن كثيرا من الكلام الذى قيل فى مناسبة الجنازة وبعدها تجاوز ما يخص المَلك «حسين» نفسه. والحاصل أن المَلك كان إنسانا يملك صفات تُلفت النظر، وله مواقف شديدة الأهمية، ومحاولات أخذته جريئا إلى مهاوى الخطر.. ولكن بعض العبارات والشهادات التى احتواها النص الثالث الجنائزى بدت تَزَيُّدا على السياق ومبالغة لا يقتضيها حواره. ومن ذلك أن يقال إن المَلك «حسين» كان «عميد السياسة فى الشرق الأوسط»، وكان «أعظم شخصية فى القرن العشرين»، وكان ملاذ الشعوب «يتجه إليه الجميع لطلب الرشد حين الحاجة إلى النصح».

وكلها تجاوزات تسىء إلى الرجل بغير ذنب، لأنه لا شىء يسىء إلى رجل أو إلى حدث مثل المبالغة حين تجمح عن حدودها المنطقية!



وأحسب أن المَلك «حسين» نفسه لو عاد للحياة بمعجزة سوف يكون أول مُسْتَغرِب لما قيل عنه بعد وفاته ولم يسمع منه شيئا فى حياته. ولعله كان يفعل كما فعل «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا حين ذهب إليه مساعده «ويليام ديكون» يحمل مقالا عنه كتبه الأستاذ «إيشيا برلين» أستاذ الفلسفة بكلية «جميع القديسين» فى جامعة «أوكسفورد»، وكان المقال مغاليا فى إشادته بمزايا «تشرشل» والتحدث عن عظمته وعبقريته، ويظهر أن «برلين» كتبه فى ساعة نشوة وانبهار. وقرأ «تشرشل» المقال وأعاد قراءته ثم كتب على هامشه بخط يده جملة واحدة نصها : "Too good to be true" وترجمتها: «جميل جدا إلى درجة أنه لا يمكن أن يكون حقيقيا»!

وإنصافا للمنطق ـ قبل الإنصاف للمَلك أو للرجل ـ فإنه ليس فى مقدور سياسى مهما فعل أن يتجاوز بدوره موارد بلاده المادية والمعنوية. والأردن وطن عربى كريم، لكن النفوذ لا تصنعه فضائل البشر، وإنما تفرضه عوامل أخرى.. إلا فى حالة الأنبياء والرسل، وتلك مسألة مختلفة!

ومهما يكن فإنه فى حالة الحشد الدولى الكبير حول جثمان المَلك «حسين» فقد يكون للتجاوز والمبالغة مطلب إضافى هو تبرير هذا الوجود الدولى الكثيف مع عدم الرغبة فى البوح بأهدافه الحقيقية الأصلية! وهى أهداف جرت الإشارة إليها من قبل وبينها: «استيعاب صدمة ـ وتثبيت موقف ـ وانتهاز فرصة».

وبهذا المقياس فإن جنازة «رابين» كان هدفها الرد على اليمين الإسرائيلى الذى قام باغتياله، ومؤتمر «شرم الشيخ» كان هدفه الرد على اليمين (!) الإسلامى الذى فجَّر قنابله البشرية فى القدس وتل أبيب، وجنازة المَلك «حسين» لها بالقطع هدف سياسى إضافى ومُستَجَد (سوف يزداد ظهوره فيما بعد) وذلك هو التفسير الوحيد والمقبول للطريقة التى تم بها ترتيب جنازة المَلك ـ خصوصا إذا تذكر ذاكر ما كان يُكتَب عنه أيام حرب الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) ثم يقارنه بما كُتبَ عنه ـ وهو نفس الرجل ـ حين مرضه ووفاته (١٩٩٨ - ١٩٩٩) ثم يتضح بهذه المقارنة أن هناك عدوانا على حُرْمَة الوعى ـ وعلى كرامة العقل فى آن واحد!

ولو اتُّخذ الإعلام المصرى مقياسا ورَصَدَ راصدٌ ما كان يُقال ويُكتَب حين نَشَر الملك «حسين» ما أسماه بالكتاب الأبيض عن دوره فى حرب الخليج ـ ثم أصغى أو قرأ بعض ما يُقال ويُكتَب هذه الأيام بعد وفاة المَلك «حسين» ـ لهاله الفارق وخصوصا أن مسافة الوقت قصيرة، ومساحتها بالشهور وليست بالسنين بحيث يكون الزمن قد فعَل فعْلَه وأسقط غباره أو أسدل أستاره على الصور والصفحات!

وتلك ـ أيضا ـ مسألة مختلفة!



وربما استطردت من هنا لأقول أن معرفتى بالمَلك «حسين» كانت وثيقة، وأظن أن ذلك كان تقديره أيضا ـ وأزعم أننى خالطته عن قرب ومن زمن. فقد لقيته لأول مرة وعمره اثنا عشر عاما، وكان ذلك عندما ذهبْت لمقابلة صحفية مع والدته الأميرة «زين» (وهى سيدة شديدة الذكاء شديدة الطموح) فى فندق «شبرد» القديم فى القاهرة ـ سنة ١٩٤٧ ـ وكانت يومها زوجة ولىّ عهد الأردن الأمير «طلال» (وأصبحت فيما بعد مَلكة على الأردن وظل لها اللقب رسميا حتى توفيت).

ثم صادفت المَلك «حسين» بعد ذلك مرات عديدة يركب دراجته فى حديقة قصر «رغدان» مَقرّ جَدِّه ـ وكنت وقتها مراسلا مُتَجَوِّلا لـ «أخبار اليوم» فى الشرق الأوسط متنقلا باستمرار بين عَمَّان والقدس وبيروت ـ وكان قصر «رغدان» أهم بؤرة فى السياسة العربية فى ظروف حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ـ ولذلك كثر ترددى عليه للقاء المَلك «عبد الله»، وكثرت رؤيتى لحفيده ووقوفى مرات عديدة معه.

ثم تابعت المَلك «حسين» بعد ذلك غداة اغتيال جَدِّه ـ وكنت أغطى الحدث (سنة ١٩٥١) حتى كانت المناداة بوالده الأمير «طلال» ملكا على الأردن.

ثم عُدت إلى متابعته أثناء مشاورات سياسية وعائلية جرت فى قصر «بسمان»، وكان يديرها رئيس وزراء العراق «نورى السعيد» (باشا) والسير «أليك كيركبرايد» المُعتَمَد البريطانى فى عَمَّان، ومعهما الجنرال «باجوت جلوب» (باشا) قائد الفيلق العربى ـ! ـ وكان موضوعها مشكلة الملك «طلال». وقد أصبحت هذه المشاورات مطلوبة إثر روايات وحكايات شاعت وذاعت عنه ـ ثم تقرر بعدها الحَجْر عليه وتم ترحيله إلى إستانبول حيث أودع مصحا للأمراض النفسية قضى فيه بقية عمره. وكان يمكن للعرش أن يؤول بعد المَلك «طلال» إلى شقيقه الأمير «نايف»، لكن

ولكن إلى أى مدى؟!

المشاورات استبعدته في اللحظة الحرجة، وكذلك أصبح «حسين» مَلكًا على الأردن.

وكان فارق السن بين المَلك «حسين» وبيني اثني عشر عاما - ولم يكن هذا الفارق في السن تلك الأيام يسمح بأكثر من أن أراه وأقابله وأتابعه - لكنه مع مَرّ السنين وتعاقب التطورات والأوضاع في العالم العربي فإن أثر الفارق في العُمر راح يتلاشى - تدريجيا وطبيعيا - بما سمح بعلاقة توثقت بالتجارب اتفاقا واختلافا، اقترابا وتباعدا، لكنها ظلت موصولة، حية، ويقظى.



ولم تكن علاقتي بالمَلك «حسين» بسيطة، ولعلها كانت أقرب إلى أن تكون علاقة مركبة، وفي بعض الأوقات معقدة! - والسبب أن كلينا كان يعرف أنه يتصرف حيال الآخر من موقف مختلف. فهو - في اعتقاده واعتقادي - يقف على ضفة - وبنفس المعيار - وفي اعتقاده واعتقادي - فقد كنت أقف على الضفة الأخرى، لكننا برغم التناقض أقمنا صلات بين رجلين، كلاهما غارق مستغرق في الشأن العربي العام مع اختلاف التقديرات والضرورات لدى كل منهما. ومع دواعٍ كثيرة تقتضي جسور لقاء عبر الضفاف!

وأتذكر على سبيل المثال أنني سنة ١٩٩٠ ظننت أن الأمور وصلت بيننا إلى درجة القطيعة، لأنني نشرت تحت عنوان «الانفجار» كتابا عن وقائع نكسة سنة ١٩٦٧ - وفي الكتاب فصول تناولت دور المَلك «حسين» في تلك الوقائع، وبينها أنه كان يَعرف الكثير من تفاصيل مؤامرة جَرّ مصر إلى فخ تلك الحرب، وأن مجيئه المفاجئ إلى القاهرة في ٣٠ مايو ١٩٦٧ - أي قبل بدء الهجوم الإسرائيلي بأيام - وتطوعه بدخول المعركة مع مصر - وتصرفاته السياسية والعسكرية طوال هذه الحرب - تثير جميعها أسئلة تطرحها وثائق تحفل بتلميحات وإشارات ترقى إلى مستوى الشك - على أقل تقدير.

وقد تَرَدّدتُ يومها في نشر ما ظَهَر لي من دور المَلك «حسين» في تلك الوقائع باعتبار أن الأمر خَطير وأن الاعتماد فيه على الشك، قد لا يكون سليما، لكني انتهيت إلى أنه في مثل هذه الظروف فإن التلميحات والإشارات إذا كانت متصلة متكاملة تكفي - خصوصا أنه في مخططات سياسية من نوع ما جرى سنة ١٩٦٧ - لن يكون هناك قط ذلك اليقين الدامغ، لأن الجميع تعلموا من درس السويس سنة ١٩٥٦ ألا يكرروا الخطأ الذي وقع فيه «دافيد بن جوريون» رئيس وزراء إسرائيل حين أصَرّ على كتابة خطة وتفاصيل المؤامرة الثلاثية على مصر بينه وبين رئيسي وزراء بريطانيا وفرنسا (إيدن، وموليه) في صورة معاهدة يوقعها الأطراف (معاهدة سيفر) ويتفقون على إبقائها سرًّا في عالم لم يعد فيه مجال لسِرّ.

وهكذا نَشَرْتُ سنة ١٩٩٠ - وبغير اتهام - ما توصلت إليه بشأن دور المَلك «حسين» في حرب سنة ١٩٦٧، وظننت أن تلك نهاية الطريق في علاقتي مع «سَيِّد عَمَّان».

[٢]

ولم أكن مُصيبًا في ظني، وكان المَلك صاحب الفضل.

والذي حدث بعد شهور من نشر كتاب «الانفجار ١٩٦٧» (فبراير ١٩٩٠) - أن انفجارا من طراز آخر وقع في الشرق الأوسط حين أقدم العراق على احتلال الكويت (أغسطس ١٩٩٠)، ثم توالت الحوادث خاطفة إلى «عاصفة الصحراء» (يناير ١٩٩١) - وكان للمَلك «حسين» في أجواء تلك السنة الحافلة دور رئيسي ومِحوَري، وفي مطلق الأحوال فإنه كان السياسي العربي الوحيد الذي ظل من البداية

بعض الشهادات التي احتواها النص الثالث الجنائزي بدت تزيدا على السياق ومبالغة لا يقتضيها حواره. ومن ذلك ما يقال إن الملك حسين كان عميد السياسة في الشرق الأوسط، وكان أعظم شخصية في القرن العشرين، وكان ملاذ الشعوب يتجه إليه الجميع لطلب الرشد حين الحاجة إلى النصح

القهوة العربية مع فيصل ملك العراق..



إلى النهاية على اتصال بجميع الأطراف، مُتابعا لكل التطورات. وكان من حظه أن أصحاب القرار العالمي في واشنطن - وهُم يعرفون أحواله - تركوا له مجاله يتحرك فيه بحرية لم يتركوها لغيره.

وحين طَلَبَت مني مؤسسة «هاربر كولينز» أن أضع كتابا عن موسم الرياح الهوج من «عاصفة الكويت» إلى «عاصفة الصحراء» - ورد على بالي أن المَلك «حسين» مرجع يصعب تجاوزه. لكنني كنتُ أعرف مسبقا أن ما كتبته عن دوره سنة ١٩٦٧ ضايقه - وربما آلمه!

وبعد تردد رأيت أن أبعث إليه برسالة عن طريق ممثله في القاهرة ذلك الوقت السفير «نبيه النمر»، وكان مؤدى رسالتي:

«إنني أريد أن أسمع منه رؤيته وروايته للقصة من أغسطس ١٩٩٠ وحتى فبراير ١٩٩١. وأنا أعرف في نفس الوقت أن ما كتبته عن دوره سنة ١٩٦٧ لم يكن مُرْضيا له. وأنا لا أعتذر عما كتبت، فذلك ما توصلت إليه واقتنعت به. لكنه - ومن ناحيته - إذا اعتذر عن مقابلتي فسوف أفهم موقفه مُقَدِّرا أن ذلك حقه وأبرره له من غير تردد وبدون ضيق»!

وفي اليوم التالي مباشرة تلقيت - عن طريق السفير «نبيه النمر» - رسالة من القصر الملكي في عَمّان مؤداها أن «المَلك ينتظرني في أي موعد يناسبني» وهو يقول: «إن خير البرّ عاجله». كذلك بالنص.

وأتممت أعمالا تتصل بإعداد مواد ذلك الكتاب الذي شرعت فيه لمؤسسة «هاربر كولينز» (وأصبح عنوانه «أوهام القوة والنصر»)، ثم قصدت إلى عَمّان بعد شهر من دعوة المَلك.

وفي اليوم التالي كان موعدي معه، وقد استقبلني في مكتبه في قصر «الندوة» ولم تقع عودة إلى ما سبق، ولا تمهيد بشرح أو اعتذار، وإنما التقينا وتحادثنا وكأننا افترقنا بالأمس على موعدنا اليوم. وجلسنا معا من الساعة الحادية عشرة في الصباح وحتى الساعة الثامنة في المساء. وتغدينا وتعَشّينا معا. وأجاب عن كل ما سألته فيه، واستدعى مستشاره السياسي وهو يومها السيد «عدنان أبو عودة» فانضم إلينا ومعه مَلَفّات من الوثائق تضيف إلى رؤية المَلك وروايته.

منذ ذلك الوقت سنة ١٩٩١ ظللت ألتقي المَلك «حسين» عدة مرات في السنة، وأكثر لقاءاتنا في لندن، وساعد على ذلك أننا ننزل نفس الفندق فيها «كلاريدج»، وحتى بعد أن اشترى المَلك قصرا في «كنسنجتون» لإقامته في العاصمة البريطانية، وقصرا في الريف القريب منها (Surrey) لعطلات نهاية الأسبوع - فإنه احتفظ بجناح في فندق «كلاريدج» اتخذه شبه مكتب في قلب العاصمة البريطانية.

وربما أشرت هنا إلى لقاءين - لكل منهما مذاق خاص - في تلك الفترة بالذات:

* الأول منهما - مايو ١٩٩٢ - وكان لقاء مشحونا ومؤثرا إلى أبعد حد.

اتصلت بالمَلك في بيته في لندن ولم يكن هناك، وعاد فاتصل بي ولم يجدني وترك لي رسالة بأنه سيمُر عليّ بعد الغداء. الساعة الثالثة في قاعة الاستقبال الداخلية لفندق «كلاريدج».

وجاء متأخرا عن الموعد عشر دقائق ومعه مرافق واحد ظاهر اطمأن عليه حتى جلس، ثم ابتعد وغاب. ولم تكن القاعة في تلك الساعة بعد الظهر الباكر مزدحمة، بل إن معظم موائد الشاي كانت خالية تنتظر - إلا ثلاث موائد أو أربع جلس إليها أصحابها، وقد عرف بعضهم المَلك واحترموا وجوده دون فضول وإن راحوا يسترقون النظر أحيانا إليه، وما أظن أن أحدا منهم - رجالا أو نساء - تخيل أو خطر بباله شيء عن الموضوع الذي تطرق إليه المَلك في حديثه.

فبعد حوار عام لم يستغرق أكثر من ربع ساعة ألقى إليّ المَلك مفاجأة أن أطباءه اكتشفوا إصابته بالسرطان (في المسالك البولية) وأنه في الغالب سوف يضطر إلى جراحة في أمريكا. ولحظة بعد لحظة راح المَلك يغوص في مشاعره ويحكي كيف عرف أنه مريض بالسرطان، وكيف كان وَقْعُ الكلمة عليه حين وصلت سمعه أول مرة! إن أطباءه صارحوه بالحقيقة بناء على رأي زوجته (الملكة نور) التي استوعبت الصدمة ثم كان تقديرها «أنه لابد أن يعرف كل شيء، واثقة أن لديه الشجاعة لمواجهة أي شيء». ولقد لَمَح في عيني زوجته ظلالا لم يستطع فهمها وشعر أنها أقلقته دون تحديد لمعنى هذا القلق.

وعندما سمع من أطبائه ما سمع، كان أول ما فعله أن تَحوّل ببصره إلى «نور»، وكانت عيناها في انتظاره برسالة تشجيع وأمل. وفي البداية تلقى ما سمع هادئا ومُعَلّقا لأطبائه بأنه تَعَوّد على المخاطر، وكما قال فقد تماثل الخطر في فكره أولا مع احتلال إسرائيل لنصف مملكته، لكنه بعد ذلك راح يكتشف أنه أمام خطر من نوع مختلف عن كل ما واجهه. «هو الآن أمام عدو لا يستطيع أن يراه، وهذا العدو نفذ إلى جسده واحتل فيه موقعا أو عدة مواقع، وهو غير قادر على رصد حركة هذا العدو، وغير قادر على متابعتها، وغير قادر على الدفاع عن نفسه. وحتى حين ينام فإن هذا العدو ساهر، وحين يعمل فإن هذا العدو متفرغ له، وفي خاتمة المطاف فإن هذا العدو غير مستعد للتفاوض ولا للوساطة» (قالها المَلك وهو يحاول أن يبتسم) - وفي الليلة التي عرف فيها «أن السرطان معه في فراشه، تحت الأغطية والملاءات، داخل جسمه وفي عُمق خلاياه - لم يستطع أن يغمض عينيه»، وكان يحس بزوجته «نور» إلى جواره، وقد تكلمت كثيرا ثم لاذت بالصمت، ولعلها أحست أن زوجها يحتاج أن يفكر وحده، ويستوعب. وقرب الفجر قال لها: «إنه سوف ينام، فهذه ليست معركته رغم أنها تجري داخل كيانه، هي أمر مقادير، وحين حدثته «نور» عن إمكانيات العلم الحديث، كان رده عليها: «إن العلم قد يكون شفاعة لدى المقادير.. مقبولة أو مردودة».

....

وعاد موضوع مرض المَلك بعد شهور قليلة - سبتمبر - إلى حديثنا، فقد قصد المَلك إلى «مايو كلينيك» وأجرى جراحة استئصال للكلية، وعاد إلى لندن. وقال لي حين لقيته: «إنه باق هنا أياما يسترد فيها بعض العافية بعد الجراحة، وخصوصا أن الإخوة والأهل هناك يريدون أن يجعلوا من عودتي مناسبة فرح. وبانت في عينيه نظرة احترت في فك رموزها - وقلت له: «أليست المناسبة بالفعل فرحا؟» - ورد بسرعة «والله لا أعلم»؟!

وكانت شفاعة العلم لدى المقادير قد نجحت في منحه سنوات - إضافة إلى عمره.

ثم وقع ما لم يكن منه مهرب حين بَطُل مفعول «شفاعة العلم لدى المقادير»، وانتهت حياة رجل سوف يظل الناس حيارى - وإلى أمد

طويل ـ في البحث عن الحقيقة بشأنه، ومن هو فعلا وراء هذه الابتسامة العريضة دائما على شفتيه؟!



* وكان اللقاء الثاني ـ سبتمبر ١٩٩٣ ـ نقيضا للقاء الأول. كانت المفاجآت موجودة ـ لكن ثورة الغضب كانت هناك بدلا من لوعة الألم. كان لقاؤنا على مائدة العشاء في مطعم «سانتيني» الذي اشتهر بمطبخه الإيطالي على طريقة «فينيسيا». وكان المَلِك «حسين» قد سبقنا إلى هناك بالفعل ومَعه الملكة «نور» وابنهما الأمير «حمزة» وإحدى بناته الصغيرات وفي ذاكرتي ـ ولم أسجلها في أوراقي ـ أنها الأميرة «إيمان»، ثم وصلنا نحن (قرينتي وأنا).

ومن أول لحظة وجدت المَلِك متأثرا ومنفعلا، بينما هو في العادة منضبط وكتوم. ويظهر أن الأحداث يومها أخذته على غرة، فقبل ساعات من لقائنا في «سانتيني» كان المَلِك قد عرف بأن اتفاق «أوسلو» سوف يجرى توقيعه في واشنطن بين «ياسر عرفات» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، و«اسحاق رابين» رئيس وزراء إسرائيل، وبحضور ورعاية «بيل كلينتون» رئيس الولايات المتحدة.

ولقد تضايق المَلِك ـ فيما يبدو ـ لأن أحدا لم يخطره بشيء، ولم يستشره في شيء، ولم يدعه إلى شيء. وعلى نحو ما، فقد كان إحساس المَلِك بـ «الخيانة» أقوى من سيطرته على أعصابه.

إن قصة «أوسلو» في حد ذاتها لم تكن غريبة عليه ولكن إعلان الاتفاق فاجأه، وكان المَلِك على علم بوجود اتصالات واجتماعات بين الإسرائيليين والفلسطينيين في عاصمة النرويج ـ إلا أنه كما بدا لي لم يُعلّق على ذلك أهمية تُذكَر. ففي أثناء لقاء سابق قبلها بشهر (أغسطس ١٩٩٣) بمكتبه في عَمَّان كان هو الذي ذكر لي بنفسه أمر هذه الاتصالات والاجتماعات في «أوسلو» ـ وكان تعليقه بسرعة «أن عرفات لا يستطيع أن يَقبَل ما يعرضه رابين ـ وما يقبل به عرفات يستحيل على رابين أن يناقشه مجرد مناقشة»! ـ كان ذلك قوله بالنص ونحن نمشي من حيث كنا نجلس في مكتبه إلى باب الغرفة خارجين إلى الممر الطويل نحو مدخل قصر «الندوة» والحرس من الشركس العجائز بلباسهم التقليدي تزينه الخناجر المعلقة من الأحزمة ـ يؤدون له التحية كل بضعة أمتار في طريقنا!

ودون أن يقولها صراحة فقد راودني إحساس لازمني منذ بدأت عمليات التفاوض بين العرب وإسرائيل ملخصه أن المَلِك ينتظر أن تتطور الأمور إلى نوع من الخيار الأردني لا يسعى المَلِك له، لكن هذا الخيار سوف يسعى للمَلِك بطبائع الأمور.

لكن اتجاه الحوادث بدا الآن وقد اتخذ لنفسه منحنى آخر.

وتلك الليلة في مطعم «سانتيني» في لندن كان اتفاق «أوسلو» أمام كل الناس ومعه الأسوأ منه، وهو ذلك الاحتفال المقرر في واشنطن، في البيت الأبيض، وبحضور «بيل كلينتون»، وإلى جانبه «عرفات» من ناحية، ورابين من ناحية أخرى. بينما هو (الملك حسين) بعيد عن الأحداث والأضواء في مطعم إيطالي في لندن!

وما كدت أجلس إلى المائدة وأسأل المَلِك رأيه فيما جرى ـ حتى انطلق.

ولم أكن وحدي الذي اندهشت، وأحسب أن المَلِكة نور كانت أكثر اندهاشا مني.

يومها لم يكن المَلِك هو الذي يتكلم، وإنما الإنسان فيه بمشاعره المتناقضة لا يخفيها ولا يداريها. ولقرابة ساعة لم يوفر المَلِك طرفا، ولم يقصر في أوصافه لأحد. وأظن

كانت الساعات بين أداء الصلوات شكرا وتصفية الحسابات مع الشقيق علنا مأساة إغريقية، تؤكد لمن يهمه الدرس أن الحضارة والتكنولوجيا لم تتركا في العالم الثالث إلا خدوشا على السطح، وأما تحت السطح فمعظمه لايزال حيث كان قبل قرون من الزمان...

.. الكوكاكولا مع الحسن الثاني ملك المغرب



أن ما سمعته منه تلك الليلة عن الأحداث والرجال في المنطقة وفي العالم سوف يظل في ذاكرتي ـ وفي أوراقي ـ شهادة فوّارة وتلقائية على دخائل السياسة العربية وطبائع المشاركين في صنعها على المستوى الإقليمي والدولي ـ وبدون مجاملة أو تزويق مما تصنعه المساحيق!

ومرة أخرى، فقد كان ما يقوله ـ الآن ـ يعيد طرح مسألة شخصيته وقضية الحقيقة في شأنه.



إن البحث عن الحقيقة ـ في شأن الرجال أو الأحداث ـ لا يتطلب من الناس أن يبادروا بالحكم، وإنما أن يسعوا للفهم، وبعده وليس قبله يحق لهم أن يقرروا كما رأوا وكيفما شاءوا!

وسبب ذلك الطلب أن الحقيقة ليس لها وجه واحد، وإنما وجوه الحقيقة متعددة.

وحتى في حالة أي شخص عادي أو أي حَدَث سياسي، فليس هناك ـ بالفعل ـ وجه واحد للحقيقة، فكل شخص عادي له شكل وشبه، وهذا وجه من الحقيقة. وله اسم وأسرة، وهذا وجه آخر. وله وطن وهوية، وهذا وجه ثالث.. وله تجربة وعمل، وهذا وجه رابع، وهكذا، وهكذا.. ونفس الشيء في أحداث السياسة.

وفي حالة شخص سياسي فإن ثنائية الرجال والأحداث تتداخل مع بعضها بمعنى أن وجوه الحقيقة الإنسانية تبقى ـ ثم تزيد عليها وجوه الحقيقة السياسية وهي أيضا متعددة:

* حكم الجغرافيا هو الوجه الأول من وجوه الحقيقة السياسية.

* ثم إن حكم التاريخ هو الوجه الثاني من وجوه هذه الحقيقة.

* ويجيء حكم العصر ـ الزمن ـ ليكون الوجه الثالث.

* وأخيرا يقع حكم التجربة ـ كما في حالة الشخص العادي ـ لأن التجربة هي القاسم المشترك في توجيه تصرفات الناس خارج أحداث السياسة أو في قلبها.

وفي حالة كل الناس، فإن أحكام الوجوه المتعددة للحقيقة ـ إنسانية وسياسية ـ تسرى في الأفعال وردود الأفعال بطريقة لا يكاد يلحظها أحد لأنها مكونات «شخصية متكاملة» لا يفصح أي جزء منها عن نفسه منفصلا عن بقية الأجزاء، بل تتفاعل المكونات طبيعيا مع بعضها ـ إلا في استثناءات قليلة تظل فيها الوجوه المتعددة للحقيقة منفصلة.. متجاورة، لكنها متباينة!

وفي حالة المَلِك «حسين» بالذات، فإن الاستثناء يبلغ مَداه لأن الوجوه المتعددة للحقيقة تظهر مثل الوشم مرسومة وظاهرة ـ ولعله الضغط الزائد عن الحد لكل وجه من وجوه الحقيقة.

والواقع، إن شخصية المَلِك «حسين» بما يتداخل فيها إجمالا وتفصيلا يَصْعُب فهمها ـ حتى وإن استحال في بعض الأحيان تبريرها ـ إلا بالنظر إلى وجوه الحقيقة المختلفة، وهي في حالته كما قلت: رسوم وشْمٍ جرى دقه دقا على جلد لحمه الحي!

[٣]

وإذا بدأنا بحكم الجغرافيا وهو بالفعل أهم وجوه الحقيقة فيما يتعلق بالأردن وملكه ـ

فسوف يتأكد أن الجغرافيا كانت شديدة الصرامة مع الاثنين. فتلك دولة اصطُنِعَت بقرار سياسي خلافا لما هو طبيعي في نشأة الدول، وكان إنشاؤها بتوجيه من «ونستون تشرشل» وزير المستعمرات البريطاني أثناء مؤتمر عُقِد في القاهرة برئاسته في فندق «سميراميس» وعلى جدول أعماله مستقبل الممتلكات البريطانية في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى وما وقع خلالها وبعدها من أحداث أهمها معاهدة «سايكس بيكو» التي قَسَّمت إرث الخلافة العثمانية أنصبة بالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا، ومن ثم رَسَمَت للمنطقة خريطة جديدة.

كان وزير المستعمرات البريطاني «ونستون تشرشل» هو المهندس الأول للخريطة على الجانب البريطاني، وقد راح يخطط، وبين ما خط موقعٌ تَحَيَّر الذين رسموه في اختيار اسم له، ثم كان أن استعملوا وصفا جغرافيا بسيطا هو «شرق الأردن». والدول لا تسمى في العادة على هذا النحو، والمألوف أن الدول الجديدة تستعيد اسما قديما ينسب نفسه إلى أصل تاريخي، أو سلالة بشرية، أو قبيلة، أو نهر، أو حتى لغة ـ لكن نسبة الأوطان إلى اتجاهات أو مواقع على خريطة، سابِقَةٌ لم تحدث من قبل.

وعلى أي حال فقد كانت للضرورات أحكامها، وظهرت إمارة «شرق الأردن» و«عبد الله» على عرشها.



لكن الخريطة كان عليها موقع آخر اختار له أصحابه اسما من أساطير التاريخ وليس من تضاريس الجغرافيا: إسرائيل.

والواقع أن قرار إنشاء «شرق الأردن» يمكن اعتباره ملحقا إضافيا إلى معاهدة «سايكس بيكو»، وهو رابط بينها وبين وعد «بلفور» الذي أعطى اليهود حقا بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

والشاهد أن «شرق الأردن» تكاد تكون مساحة على خريطة تنطق حدودها بالمطلوب منها مجملا على النحو التالي:

١ ـ إذا كانت المملكة الجديدة هي «شرق الأردن» ـ فإن غرب الأردن هو فلسطين حيث أعطت بريطانيا لليهود حقا بإنشاء دولة يهودية. وإذا كان إنشاء دولة يهودية مطلوبا ـ فإن نقطة مراقبة وحراسة ـ بريطانية وعربية إذا أمكن ـ تصبح مطلوبة، على مقربة.

٢ ـ إن موقع «شرق الأردن» محشور بين الحجاز (المملكة العربية السعودية فيما بعد) وبين سوريا ـ وفي نفس الوقت محشور بين العراق وبين الدولة اليهودية الموعودة ـ وإلى حد ما بين العراق وسوريا أيضا.

٣ ـ إنه مع ظهور احتمالات البترول المؤكدة في مناطق الخليج وشبه الجزيرة العربية ـ ومع إمكانات ظهور دولة يهودية لا يزال قيامها وحجمها وقدرتها وقبول الجيران بها ـ أسئلة تنتظر ـ فإن «شرق الأردن» وحتى يبين جواب الأسئلة يمكن أن يقوم بدور حاجز بين اليهود في فلسطين ومنابع النفط العربي، وخصوصا إذا تأزمت العلاقات ـ وهي مُعَرَّضة في الغالب أن تتأزم ـ بين اليهود والعرب!

٤ ـ إن المنطقة التي اقتُطِعت لإمارة «شرق الأردن» فقيرة وتكاد تكون بلاَ موارد، ثم إنها في حالة شبه حصار حيث حشروها، وهذا يجعلها في حاجة دائمة إلى مساعدة أجنبية. و«الأمراء العرب (و«عبد الله» أولهم) يُفَضِّلون سؤال الغريب على القريب»، وذلك يجعل بريطانيا في وضع فريد، فهي الغريب القريب في نفس الوقت، وإذا كانت هي التي خططت ورسمت وأنشأت وساعدت، فإن الكلمة العليا لابد أن تكون لها.

ومهما يكن فإن التكاليف محدودة ـ اثنا

عشر مليون جنيه استرليني سنويا، نصفها لحكومة الملك «عبد الله»[٣]، ونصفها الآخر لجيش يرفع رايته.

٥- إن قيام كيان سياسي في «شرق الأردن» تحميه بريطانيا وتتحكم فيه، يصنع بالفعل نقطة اتصال أساسية بين أهم القواعد العسكرية الإمبراطورية في الشرق الأوسط. وكانت قاعدة قناة السويس غربا في مصر وقاعدة الحبانية شرقا في العراق هما أهم هذه القواعد. وفي «شرق الأردن» جرى إنشاء قاعدة «الزرقاء» في المفرق وهي نقطة في الوسط تماما من خط المواصلات البريطاني بين وادي النيل وأودية دجلة والفرات.

وهكذا جرى رسم حدود دولة «شرق الأردن» وتعيين «عبد الله» أميرا عليها - وكذلك تقرر إنشاء جيش لها روعي أن يكون جنوده من البدو بتصور أن ولاء المقاتل البدوي مضمون لشيخ قبيلته - أو للأمير الكبير فوق شيخ القبيلة، وقد اختير لهذا الجيش اسم «الفيلق العربي»، ونُصّب على قيادته ضابط بريطاني هو «جون باجوت جلوب»، وبقصد تعريب الجنرال البريطاني، فقد منحه الأمير «عبد الله» رتبة الباشوية الهاشمية فأصبح اسمه «جلوب باشا»!

ثم كان أن أصبح «الفيلق العربي» أقوى الجيوش في المنطقة بكفاءة تدريبه وكفاية سلاحه رغم صغر حجمه.



إن ذلك الدور الذي حكمت به الجغرافيا على إمارة «شرق الأردن» ظهرت فوائده في الحرب العالمية الثانية حين أصبحت منطقة «المفرق» مرتكزا رئيسيا لقيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط - كما أصبح الفيلق العربي الذي اتخذ قيادته في قاعدة «الزرقاء» طليعة القوات البريطانية التي ضربت انقلاب «رشيد عالي الكيلاني» - ١٩٤٠ - وأعادت الفرع «العراقي» للأسرة الهاشمية إلى عرش بغداد بعد طرده منها. وقد تكرر نفس الشيء بعد ذلك حين أصبح الفيلق العربي (والفيلق اليهودي أيضا) - طليعة قوات الجنرال «ميتلاند ويلسون» عندما طرد الألمان من سوريا - يوليو ١٩٤١ - بعد أن جاءوا إليها بسماح من حكومة «فيشي» التي قامت في فرنسا بعد سقوط باريس واستسلامها أمام جيوش «هتلر»!

إن ذلك الموقع الجغرافي بعد ذلك هو الذي وضع الفيلق العربي داخل فلسطين عندما بدأ مشروع إنشاء الدولة اليهودية يأخذ شكله النهائي بعد الحرب العالمية الثانية، وكان دخول هذا الفيلق إلى فلسطين ضمن قيادة قائد القوات البريطانية فيها وتحت تَصَرُّف حاكمها العام الجنرال «آلان كننجهام». وكان شاغل «كننجهام» في الشهور الأخيرة للحكم البريطاني في فلسطين هو حصر العنف الصهيوني وردة الفعل العربية تجاه هذا العنف، وكان العنف الصهيوني وردة الفعل العربية إزاءه كلاهما يُجرِّب قدر ما يستطيع أن يفرض أمرا واقعا على الحكومة البريطانية قبل انسحابها من فلسطين، وفي ذلك الوقت كانت الخطط اليهودية تستقوي بالإمبراطورية الجديدة البازغة التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية وهي الولايات المتحدة الأمريكية - وكان رد الفعل الفلسطيني يتمنى أن يستقوي بالدول العربية المحيطة بفلسطين.

وهكذا، فإن حكم الجغرافيا وضع عرش «شرق الأردن» (الأردن فيما بعد) وسط دوامة السياسة، وتقاطع النيران، وضباب الحرب وبرقها ورعدها - وفي قلب الحدود والتخوم بين مصر والعراق، وبين سوريا والسعودية، وبين العرب واليهود، وبين فلسطين وإسرائيل، وبين بريطانيا وأمريكا.

أربع أزمات عربية ظهر على خلفيتها ظل الملك وصورته، والأزمة الأخيرة منها كشفتها هيئة الإذاعة البريطانية في برنامج قدمته أواخر ١٩٩٨، في مناسبة مرور خمسين عاما على إنشائها، أن الملك حسين ذهب يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣ إلى مقابلة سرية مع رئيسة وزراء إسرائيل (قبل أيام من ٦ أكتوبر ١٩٧٣) وحذر جولدا مائير من أن مصر وسوريا تدبران لشن معركة مفاجئة ضد القوات الإسرائيلية



.. مع رونالد ريجان وزوجتيهما



وباختصار، فإن موقع الأردن الذي كان بالجغرافيا الطبيعية بقعة ساكنة على الخريطة - أصبح بالجغرافيا السياسية فوهة بركانية متفجرة أو مستعدة للتفجير عند أي حركة محسوبة أو غير محسوبة.

ذلك عن حكم الجغرافيا وقد كان قاسيا!

[٤]

إذا كانت تلك قسوة الجغرافيا على مملكة الملك «حسين» وقت إنشائها في عهد جده - فإن قسوة التاريخ كانت أشد.

إن المملكة كانت بغير تاريخ قديم يخص الشعب الذي يعيش فيها حين أنشئت الدولة الجديدة وأقيم عرشها - إلا بمقدار ما يخص التاريخ العربي في مجمله كل العرب في عمومهم.

والشاهد أن المنطقة التي أنشئت فيها إمارة «شرق الأردن» كانت محرومة من وفرة الموارد، ولهذا فإنها لم تعرف مجتمعات مستقرة تترك وراءها بمضي العصور تراكمات حضارية متواصلة.

ولأن المنطقة كانت قبل الإسلام وبعده مسالك طرق من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب - فقد ظهرت عند بعض تخومها آثار شعوب وإمبراطوريات علا نفوذها في المنطقة، ومشت جيوشها أو سارت قوافلها عبر الأردن. ثم إنه على طرق زحف الجيوش وحركة القوافل نشأت مراكز محدودة للعمران ظلت آثارها باقية مثل معبد «بترا» والملعب الروماني في قلب عَمَّان، ثم مقابر لبعض قُوّاد الفتح العربي للشام استشهدوا بالسيف في الجهاد أو بالعطش وسط التيه، ثم حُفظت قبورهم شاهدا إذا صدق الرواة. كذلك بقيت أطلال بيوت أريد لها في زمانها أن تكون ملاذا بعيدا لبعض أمراء الأمويين إذا أوحشتهم حياة الصحراء.

لكن المنطقة في عموم أحوالها كانت ممرا أكثر منها مستقرا، ومَعْبَرا أكثر منها مقاما.



كانت عَمَّان التي وصل إليها ركب الأمير «عبد الله بن الحسين» معاتبا لأبيه ومغاضبا لشقيقه الأصغر منه - قرية صغيرة تتناثر بيوتها على مجموعة من التلال. وكانت حياتها تجارة محدودة وزراعة في واحات محصورة حول بئر هنا أو بئر هناك. ثم بعض مبان إدارية تركتها الإمبراطورية العثمانية وراءها حين كانت عَمَّان محطة ضرورية على الطريق من دمشق إلى مكة والمدينة في الحجاز.

ولم يكن الأمير «عبد الله» شديد السعادة بالإمارة التي أقطعه إياها وزير المستعمرات البريطاني، وقد قال وقتها، وظل يقول حتى سمعتها منه سنة ١٩٤٨ - أن هناك «ممالك دون ملوك» وهناك «ملوكا بدون ممالك»، وكان يُصَرِّف المعنى على هواه وهوى سامعيه، فـ «المملكة بلا مَلِك» في بعض الجلسات هي السعودية - وفي بعض الجلسات هي العراق - بل وفي إحدى المرات - على الأقل - هي مصر - لكنه هو «عبد الله بن الحسين» في كل الأحوال كان «الملك بلا مملكة»!

وفي صميم قلبه - وعلى لسانه إذا وجد من يسمع ويكتم السر - فإن الملك «عبد الله» لم يكن سعيدا على الإطلاق بمن يراهم حوله من ملوك العرب. فالملوك السعوديون مُغتَصِبون للمُلك مرتين: من أسرة «الرشيد» في نَجد، ومن أسرته هو - والده مباشرة - في الحجاز. والملوك المصريون «ألبان»، لا هُم من العرب ولا هُم من قريش، ثم إنهم يتعاملون مع بقية الأمراء باستعلاء رغم أنهم بلا حَسَب ولا نَسَب يعطيهم سببا للفخار. وحتى ملوك العراق رغم أنهم إخوته وأبناؤهم - خانوا الأخ والابن، وخطفوا العرش العراقي ممن يستحقه وهو (عبد الله) أولهم وأكثرهم جدارة لأنه أكبر من شقيقه الملك «فيصل» وأسبق في الاتصال بالإنجليز لترتيب الثورة ضد العثمانيين.

ومن هنا بالتحديد، فإن تاريخ الهاشميين يصبح مقدمة لا غنى عنها في فهم سياسة الأردن من عصر الجَد «عبد الله بن الحسين» إلى عصر الحفيد «حسين بن طلال»!

* وتاريخ الهاشميين بالدرجة الأولى مشكلة.

* وحكايتهم من القرن السابع الميلادي وحتى القرن العشرين مأساة.

* ثم إن التعقيدات التي صنعوها وصنعتهم - مشكلة ومأساة - تركت آثارها عليهم وعلى التاريخ الإسلامي، وعلى السياسة العربية المعاصرة من وقتها وإلى اليوم - وكانت النتائج - ولازالت - مُرْهِقة!

....

....

* إن المشكلة بدأت حين تصور البعض من أسرة الرسول ﷺ أن لهم حقا في خلافته، ثم رأت غالبية من المسلمين أن النبوة ليست ملكا يؤول إلى عائلة «محمد» ﷺ بعد انتقاله إلى الدار الآخرة.

وكانت تلك هي القضية المثارة علنا أو همسا في المجتمع الإسلامي طوال الجزء الأكبر من عصر الخلفاء الراشدين، وكانت ضمن العوامل التي أدت إلى الفتنة الكبرى وقد حسمها «معاوية» - أو هكذا بدا وقتها - بقيام دولة الأمويين.

* وكانت المأساة أن «معاوية» لم يكتف بالنصيحة كما فعل «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان»، وإنما قاد عملية تمرد ضد «علي» (وهو أول خليفة من أسرة الرسول ﷺ)، ثم إن «معاوية» قاد العالم الإسلامي إلى تجربة إنشاء دولة قوية (تحولت إلى إمبراطورية إسلامية عظمى). وهي دولة لم تكن طول عمرها على استعداد - بالطبع - لقبول دعاوى بالأحقية في الخلافة لغيرها، وكان بين النتائج ما سُمي في الأدبيات الإسلامية بـ «مصارع الطالبيين» (نسبة إلى «علي بن أبي طالب»)، وكان أشهرها مذبحة كربلاء واستشهاد «الحسين».

واستفحلت المشكلة واستفحلت المأساة معها حينما اختلفت أسرة النبي ﷺ نفسها مع بعضها - هاشميين وعباسيين وعلويين، إلى آخره.. وكانوا أشد على بعضهم من شدة غيرهم عليهم.

ونتيجة التفاعل بين المشكلة والمأساة جاءت التعقيدات التي صنعها الهاشميون كما صنعتهم، وهي باختصار (وحتى لا يتوه أحد في سراديب الماضي وكهوفه) - كما يلي:

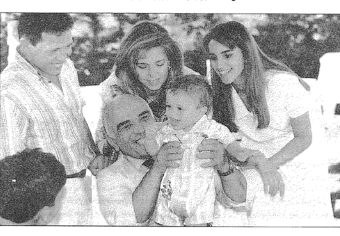
١- أن الهاشميين اعتقدوا وظلوا على اعتقادهم بأنهم أصحاب حق في ولاية الأمر - ومنطقهم أن صلتهم بالنبي ﷺ لا يمكن أن تكون مصادفة.

٢- أن عامة المسلمين، أغلبية المسلمين، لم تعترف لهم بهذا الحق مؤيدة لفكرة أن الرسالة اختيار إلهي لرجل اصطفاه ربه وحده، وأي حديث عن أسرته - ينقل الأمر في الإسلام من الخلافة برضا الناس إلى المُلك بالإرث حتى وإن غطته مظاهر البيعة!

٣- لكن الهاشميين لم يقتنعوا، ولأنهم لم

أمامنا الآن ما يؤكد - صريحا وموثقا - أنه على طول الفترة من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٧٧ كان اسم الملك حسين على قائمة المرتبات السرية في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. . وكانت تلك هي السنوات التي شهدت انقلاب الأردن ١٩٥٧، وانفصال الوحدة المصرية - السورية ١٩٦١، والحرب في اليمن ١٩٦٢، والنكسة ١٩٦٧ ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣





.. مع الملكة نور وعبدالله وزوجته رانيا وأحفاده

يقدروا على المطالبة الصريحة إزاء إجماع معظم المسلمين، فإن عتبهم على الأمة ظهر وزاد، فقد كان مناهم أن تُقدّم لهم ما اعتقدوا أنه حقهم دون أن يضطروا هم إلى المطالبة به.

٤- وإزاء ذلك الوضع المعقد فإن الهاشميين في كل ما سعوا لتحقيق مطلبهم - حاولوا سرا ولم يحاولوا جهرا. وعلى هذا فإن دورهم عبر التاريخ اكتسب على نحو ما طابع العمل الخفي - وأحيانا لحقته شبهة المؤامرة!

٥- والشاهد أنه من عصر الأمويين إلى عصر العثمانيين فإن الهاشميين تحركوا دائما ومن وراء عواصم كل دولة إسلامية في التاريخ ومن مكة إلى دمشق، ومن الكوفة إلى استانبول - وكانت حركتهم في كل الاتجاهات ومع كل قريب أو بعيد! - تصوروه قادرا على فهم لغة الإشارات!

٦- وربما نتيجة لذلك أن الهاشميين صنعوا ما يمكن حسبانه لغة خاصة تقول بالعين ما لا ينطق به اللسان، وتُعبِّر بجمل توحي ولا تبوح، وقد تفاقم الإبهام المقصود - والذي أصبح طبيعة فيما بعد - إلى درجة يمكن معها تمييز «أسلوب هاشمي» في الكلام أو الكتابة، يقبل كل تأويل ويحتمل أي معنى.

٧- ومع مرور السنين والقرون فإن الخطاب الهاشمي غلبت عليه نبرة من الإحساس بالاضطهاد والادعاء بالاستشهاد، فالأمة ضَنَّت عليهم بحقهم، ودولها الكبرى (الأمويين بالذات) ظلمتهم، واستباحت ذمامهم، وأهدرت دمهم - ثم لم ينتصر لهم أحد رغم تعاقب الدول - ومع أنهم استُعملوا - أحيانا - رايات في معارك الآخرين، إلا أنهم خرجوا في النهاية - ودائما - صفر اليدين، لا دولة ولا عرش ولا تاج!

وأخيرا، فقد قَيَّض الله لهم من أنصفهم من الظلم بما فيه «كيد الأعداء وحَسَد الأمراء» - طبقا للنص الرسمي الذي أصر عليه الشريف «حسين» حين قَدَّم لحلفائه البريطانيين مشروع اتفاقه معهم!

ولم ينجح مشروع الشريف «حسين»، ولكن اثنين من أبنائه - «فيصل» و«عبد الله» - عثر كل منهما لنفسه على عرش: أولهما في بغداد، وثانيهما في عَمَّان!

[٥]

إن الأمير «عبد الله» الذي أقام مضارب خيامه على جبل عَمَّان، بدأ يبني بيتا هناك يتخذه مَقرا يحكم منه إمارته الجديدة «شرق الأردن»، ثم راح يمد بَصَره إلى الضفة الأخرى للنهر حيث الأرض الخضراء والمراكز الحضرية للمجتمع الفلسطيني الذي هزته اليقظة العربية العامة بعد انتهاء الحرب وإعلان الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» بحق شعوب المستعمرات في تقرير مصيرها، والآمال التي تعلقت بمؤتمر الصلح في «فرساي» حيث كان الرجاء أن يظهر نظام عالمي جديد!

وفي ذلك الوقت وفي تلك الأجواء، فإن الحلم الذي تَبَدَّى على الفور للأمير «عبد الله» والذي أقنعه بقبول إمارة «شرق الأردن» مقدمة لجائزة أكبر منها - كان حلم فلسطين، فلو استطاع أن يمد إمارته من «شرق الأردن» إلى غربه وأطل على البحر الأبيض إذن فإنه يصبح مَلكا لمملكة كبرى لا تقل أهمية عن مملكة العراق التي كانت من نصيب شقيقه الأصغر «فيصل». ثم لعله إذا أخذ فلسطين أحاط بعدها بسوريا، وإذن أصبح قريبا من الحلم الذي راود والده وأصحابه - بدولة عربية كبرى تملأ الهلال الخصيب من البحر الأبيض إلى الفرات!

ولم يكن الأمير «عبد الله» في حاجة إلى جهد كبير لكي يدرك أن العقبة الكبرى أمام مشروعه هي الوعد البريطاني بوطن لليهود في فلسطين، ولقد أدرك أهمية «وعد بلفور» - كما أدركه من قبله أخوه الملك «فيصل» حين رَتَّب له «لورانس» أن يلتقي قُرب «العقبة» بالدكتور «حاييم وايزمان» رئيس الوكالة اليهودية الشهير (وأول رئيس لدولة إسرائيل فيما بعد). وفي ذلك اللقاء وكما تبين من نصوص محاضره - فإن «فيصل» تَبَيَّن أن قبوله بحق اليهود في فلسطين هو جواز مروره إلى أي مملكة في المشرق - وقد قبل!

ولما كان الأمير «عبد الله» أكثر طموحا من شقيقه، فإنه لم يكن فقط على استعداد لأن يَتَبَيَّن ويَقْبَل، ولكنه كان على استعداد لأن يساعد ويُسَهِّل، وهكذا فإنه عرض على الوكالة اليهودية وطنا قوميا في إطار حكم ذاتي (فيدرالي) داخل حدود مملكته.

وبذلك العرض فإن الأمير «عبد الله» أثبت أنه تعامل مع اليهود دون أن يعرف شيئا عن حجم مشروعهم، وقد تصور أنه يستطيع أن يستعمل طموحهم لتحقيق حلمه، وكانوا أقدر منه على استعمال حلمه لتحقيق طموحهم.



وعندما أصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ فقد كان الملك «عبد الله» لا يزال أسير أوهامه، يتعامل مع الوكالة اليهودية، ويقابل جميع أقطابها - مدنيين وعسكريين (وايزمان - جولدا مائير - إلياهو ساسون - وحتى موشي ديان) لكنه ظن وحتى آخر لحظة أنه يستطيع إغراءهم بفيدرالية داخل مملكته «حقنا للدم وابتغاء وجه السلام»!

إن الوكالة اليهودية سارت في مخططها الذي أعدت نفسها وسلاحها ونفوذها له منذ صدر وعد «بلفور» وأعلنت قيام إسرائيل، وتلاءم أمير «شرق الأردن» بسرعة مع المخطط الجديد، ولم يكن لديه غير ذلك لأن جيشه كان يحمل رايَتَه دون أن يلتزم بأمره.

ومن قبل أن يدوي صوت الرصاص في حرب فلسطين بعد إعلان قيام إسرائيل، فإن الملك «عبد الله» رَتَّب نفسه على أن يكون الجزء المُخصص للعرب بقرار التقسيم امتدادا لمملكته، لكن إسرائيل لم تترك له الفرصة، وإنما زحفت مندفعة إلى بعيد وراء خطوط التقسيم. وكان أن تواضع مطلب «عبد الله» إلى القبول بأخذ ما تبقى من فلسطين بعد عاصفة النار الإسرائيلية، وفي سبيل تحقيق ذلك، فإن الملك «عبد الله» راح يعمل - وبكل الوسائل - على خروج جميع العرب الآخرين من فلسطين بحيث لا يظل على أرضها من العرب غيره، وقد وصل في ذلك إلى حد التلاقي الكامل في النوايا - وترتيبا على ذلك في الخطط - مع إسرائيل، وكانت وطأة هذا التلاقي شديدة على الجيش المصري في الجنوب كما تؤكد الوثائق. وعندما سكتت المدافع فإن حرب ١٩٤٨ انتهت، وقد استولت إسرائيل بالغزو المسلح على ٧٢٪ من الأراضي غرب الأردن (مرة ونصف بالزيادة عن قرار التقسيم).

وكان أن قنع الملك «عبد الله» بأن يأخذ ما تبقى غرب الأردن من أشلاء فلسطين ويضمه إلى إمارته يحَوِّلها إلى مملكة تعقد له البيعة عليها.

لكن الملك «عبد الله» في هذا كله كان يحتاج إلى غطاء شرعي، وكان الغطاء الشرعي جاهزا.

ومن وقتها زاد التركيز على عنصر المسئولية التاريخية الخاصة والدور السياسي الخاص الموكول إلى «الهاشميين» استنادا لهذه المسئولية.

وكانت تلك دعوة راجعة عكس حركة الزمن، وربما أن بعض آثار الماضي البعيد جرى استخراجها من حفائر طبقات غائرة في تربة التجربة العربية والإسلامية وأعيد بعثها لكي تخدم مطالب مستجدة وطارئة، ومع أن تلك كانت علَّة ملائمة أخذ بها الإنجليز في ظروف الحرب العالمية الأولى، فإن الاستمرار فيها وتحويلها إلى سياسة - شملت صياغة اسم البلد ذاته (المملكة الأردنية الهاشمية) - أصبح مخاطرة لا لزوم لها لأنها تضفي على بعض التصرفات الصحيحة أو الخاطئة مسحة من العصمة تصد عنها حق الدرس والمناقشة والتقييم بدقة وموضوعية وبدون تَحَرُّج من رموز يُعاد بعثها بعد زمانها!



وليس هناك شك أن مسار التاريخ عرف أدوارا عظيمة لرجال ونساء من الهاشميين. لكن هذا التاريخ لم يعرف مسئولية معينة موكولة إلى أسرة بعينها ويكون على الجميع أن يُسَلِّموا لها بما يترتب على ذلك من حقوق، بما في ذلك عصمة تغطي على أي قول أو فعل.

لكن بعض أمراء الأسرة الحاكمة في عَمَّان بالذات بالغوا في تقديم الأسطورة الهاشمية وجعلوا منها حقيقة سياسية ليس يحق إنكارها، ووصل بعضهم في المبالغة إلى بعيد!

وأذكر أنني ناقشت الملك «حسين» في ذلك مرات، وكان يأخذ ويعطي، لكن الغريب أن آخرين كانوا على تصميم أن يأخذوا فقط!

ومن المفارقات أن الأمير «حسن» شقيق الملك «حسين» الذي نُحِّي عن ولاية العهد في ظروف وملابسات لم تعد الآن سرا. كان يشرف على مؤسستين: أولاهما تحت اسم «المنتدى» واختصاصها أن تكون مركزا للدراسات السياسية والإستراتيجية، أما المؤسسة الثانية فقد كان اسمها «مؤسسة آل البيت»، وهو وصف ملتبس إلى درجة التلغيم بما لا داعي له من مظان.

وأتذكر أنني (ما بين سنتي ١٩٩٥ و١٩٩٨) كتبت ونشرت تفصيلا وتحليلا عن دور - أو حلم - يتصوره الهاشميون لأنفسهم في مستقبل العراق. وكان الأمير «حسن» عندما يعن له أن يناقشني في قضية يكتب إليَّ بمَوَدَّة ورغبة في الإقناع - لكنه في تلك الفترة آثر أن يبعث إليَّ برسائل شفوية مع صديق له ولي، وكان مؤدى رسائله:

«إنني تجنيت على الهاشميين بما ذكرت عن نواياهم في مستقبل العراق، وذلك قَدَّر الهاشميين أن يظلمهم الناس عبر عصور التاريخ وأن يشككوا في مقاصدهم ويروا في تصرفاتهم ما ليس من طبائعهم. ويظلونهم أطرافا في خطط خفية، وتحركات سرية، ومغانم يريدونها لأنفسهم غيلة من حق غيرهم - وليس ذلك إنصافا».

ثم تضيف الرسائل الشفوية ما مؤداه:

«إن الهاشميين لا يعرفون ما يسمى بالتعبير المصري الشائع «تدبير المقالب» للإخوان أو للشعوب أو للأمة».

وفي الأسابيع الأخيرة وحين كانت عَمَّان مسرحا لكل ما جرى فيها، خصوصا للأمير «حسن»، فقد هممت أكثر من مرة أن أبعث إليه برسالة أسأله إذا كان متأكدا من أن «تدبير المقالب» على فرض صحة إسناده إلى تعبير مصري - ليس له مقابل هاشمي؟!

....

....

[والآن طلب إذن للخروج عن النص:

أقول فيه إنني كنت أتمنى لو أتاحت لي الظروف أن أرى الأمير «حسن» وأن أسمع منه وجهة نظره فيما جرى، لكن ذلك لم

يحدث، وإنما حدث شيء آخر هو أنني سمعت نقلا عنه من أحد أفراد أسرة ملكية أوروبية التقاه في مناسبة العزاء وزاره في نهاية يوم طويل مرهق وثقيل.

إن الضيف المَلَكي الأوروبي - الذي أحجب اسمه بناء على طلبه - سأل الأمير «حسن» عن تفسيره لتصرف أخيه معه؟ وكان رد الأمير «حسن» أن «دهشته مما حدث لا تَقِلّ عن دهشة «سائله». فقد كان آخر ما تلقاه من المَلِك قبل وصوله إلى الأردن بأسبوع (وهي عودته الأخيرة لبلده والتي أجرى خلالها تغييرات على قمة السلطة وضمنها عزل شقيقه عن ولاية العهد). هو خطاب حمله إليه أحد مرافقي المَلِك، وكان مكتوبا بخط يده ومُوَجها إليه باعتباره «أخي. وقرة عيني. وولي عهدي». وفي هذه الرسالة أعطى المَلِك لشقيقه توجيهاته بما يريد أن يكون عليه استقباله في المطار، بما في ذلك مَن يستقبله داخله ومن يستقبله خارجه، وكيف يكون موكبه!. وفي نفس هذا الخطاب طلب المَلِك أن تكون هناك سجّادة جاهزة للصلاة موجهة إلى القِبْلة قبل نزوله من الطائرة. وكانت الإشارة الوحيدة الملفتة للنظر أن المَلِك قال لولي عهده «أنه يريد أن يطوف موكبه بشوارع عَمَّان الرئيسية، وأن تكون مسيرة الموكب كله مذاعة مباشرة على الهواء مهما أخذت من الوقت لأنه يريد أن يشكر «أسرتنا الكبيرة». ثم أضاف المَلِك «أنه يرى أن لا يركب معه شقيقه لأن ظروف الأمن. مع دقة الموقف. تقتضي ألا يكون المَلِك وولي عهده معا في نفس السيارة»!

وروى الأمير «حسن» لضيفه مستغربا «أنه ذُهل من الخطاب الذي وجهه إليه المَلِك علنا وحوى تُهَمًا لم يكن لها سبب». وقد أدهشه أن الخطاب على قسوته أُعطي لكل وسائل الإعلام قبل أن يقرأه هو، وكان يتوقع على الأقل أن يسأله شقيقه فيما بلغه عنه وأن يسمع دفاعه.

وعلى سبيل المثال (طبقا لما قاله الأمير «حسن») فهو لم يعترض على طلب المَلِك أن يكون أحد أبنائه (أبناء المَلِك) وليا للعهد بعد الأمير «حسن»، وإنما كان موقفه هو الحرج من طرح مسألة الخلافة على هذا النحو الصريح بينما المَلِك مازال على قيد الحياة. و«مع ذلك فإن المَلِك لو أراد لكان له حق الأمر في ولاية العهد وليس طلب الرأي».

وكانت رواية الأمير «حسن» أنه على العكس من كل ما قيل كان حريصا على شعور شقيقه رغم أن جهات دولية أبلغته أن «الملك في عداد المُنتَهي». وكان هناك من طلب منه ترتيب الأمور على هذا الأساس، ولكنه. من جانبه. رفض لأنه لم يتصور أن يتصرف على أساس أن شقيقه «ميِّت» فيما هو على قيد الحياة. لا يزال!

وقال الأمير «حسن» أيضا إن أصعب ما واجهه في حياته بعد إذاعة خطاب الملك العلني بأسباب عزله. هو كيف يشرح لأبنائه ما وقع له دون أن يُعرِّضهم «إنسانيا لصدمة»، أو يضع ولاءهم «للأسرة» و«للمَلِك» في امتحان عسير.

وقال الأمير «حسن» أيضا إن «خلعه عن ولاية العهد بطريقة تشبه الانقلاب» وضعه في حرج شديد إزاء آخرين. فلسنوات طويلة (خمس وثلاثين سنة) تعامل معه كثيرون باعتباره وليا للعهد ونائبا للمَلِك، وقد تعاملوا معه «بوصفه الرسمي» وليس بصفته الشخصية، وبعضهم بسبب طبيعة المسئوليات الموكولة إليهم اقتربوا منه إلى درجة أنهم «حُسبوا من رجاله». ومبعث الحرج الذي يحس به (الأمير) الآن هو أن الطريقة التي خرج بها، أو عُزل بها، وضعت الذين تعاونوا معه جميعا في «خانة» المشتبه فيهم أو «على الأقل غير الموثوق بهم»، وهذا يصيبه بكثير من عذاب الضمير حيالهم، وهو يجد نفسه حتى عاجزا عن أن يتصل بهم ولو «ليعتذر»!

وأكد الأمير «حسن» لضيفه أنه عندما سمع أن قلب شقيقه تغير عليه نتيجة لعملية تحريض كبرى ركزت عليه وقت مرضه. طلب منه أن يطلق النار عليه إذا خالجه الشك في ولائه. «ولكن لا تترك أحدا يدخل بيننا».

وتدخلتْ زوجته الأميرة «ثروت» في الحديث بين زوجها وضيفه. تنفي ما نُسب إليها من أنها زارت أحد القصور المَلَكية وأجرت فيه إصلاحات وكأنها أصبحت بالفعل ملكة جلست مع زوجها على العرش.

وقالت الأميرة «ثروت» إنها حزينة أن يقال هذا الكلام لأن الحقيقة كانت شيئا مختلفا. وطبقا لرواية الأميرة «ثروت» فإنها أُبلغَت رسميًا أن زوجة رئيس ألمانيا التي كانت مع زوجها في زيارة دولة إلى إسرائيل (١٧ نوفمبر ١٩٩٨) أبدت رغبتها أن تجيء إلى الأردن لكي تزور آثار «بترا». إن زوجة رئيس ألمانيا قالت: «إنها لا تتصور أن تكون قريبة إلى هذه الدرجة من أثر له شهرته العالمية دون أن تزوره بينما هي الآن على خطوة قدم منه». ورأت الأميرة «ثروت» أن تتأكد من أحوال القصر الذي سوف تنزل فيه قرينة الرئيس الألماني، فذهبت وأطلّت عليه وكان القصر مُهْمَلا بسبب غياب المَلِك وأسرته عندما كان يُعالج في «مايو كلينيك» (بالولايات المتحدة)، وقد أشارت الأميرة «ثروت» ببعض الإصلاحات «وبهدف تنظيف القصر بحيث يكون لائقا بضيافة زوجة الرئيس الألماني. وهذا هو كل شيء».

إن الضيف المَلَكي الأوروبي الذي سَمِعْتُ منه استطرد قائلا لي: «إنه تأثر إلى أبعد مدى حين سمع صديقه الأمير «حسن» يقول له وهو يُوَدّعه: «أن ما جرى حرمني حتى من حق البكاء على أخي، فلا أستطيع الآن أن أذهب إلى قبره إلا في الليل حتى لا يراني أحد يضايقه وجودي أو يضايقني وجوده»!

وإلى هنا ينتهي هذا الخروج عن النص بعودة إلى سياقه الأصلي]

....

....

ولما كان هدف هذا الحديث كله هو الفهم قبل الحكم - فلابد من الاعتراف بأن الهاشميين في بعض الظروف كانوا ضحايا تجربة صنعوها وصنعتهم - لكنه من سوء الحظ أن الأمة دفعت ضرائب هذه الظروف، وكذلك دفع «الهاشميون».

وربما كان المَلِك «حسين بن طلال» نفسه أكثر دافع لضرائب المشكلة والمأساة، وقد بدأ «حسين» يدفع وهو صبي في الثانية عشرة من عمره تصادف وقوفه بجوار جده المَلِك «عبد الله» على أبواب المسجد الأقصى بعد انتهاء صلاة الجمعة في أحد أيام شهر يوليو ١٩٥١، وكان الذي أطلق عليه الرصاص فلسطينيا - ضمن مليون فلسطيني أضيفوا إلى رعاياه حين أضاف إلى مُلكه ما تبقى من فلسطين - ولم يكن هذا الفلسطينيّ الذي أطلق الرصاص مقتنعا بالغطاء الهاشمي عصمة كافية لتصرفات المَلِك «عبد الله» في فلسطين.

وكان الرصاص المدوي والدم المسفوح على عتبات المسجد الأقصى بداية وَشْم التاريخ بالحريق على لحم صبي هاشمي بدأ يواجه قَدَرَه ويستعد لدوره - مَلِكا على الأردن لمدة ست وأربعين سنة!



مع الجنرال فرانكو ديكتاتور أسبانيا

كان الصبي الهاشمي الذي أصبح ملكا على الأردن، بعد مشاهد درامية متلاحقة بينها شقاء والدته، ومصرع جده، والحجر بالجنون على أبيه، وتزيد عليه ضغوط المشكلة والمأساة في تاريخ الهاشميين، ويتضخم شعوره بالحق الضائع وتزداد معه عقدة الاستشهاد

[٦]

«الجغرافيا ظل الله على الأرض»، و«التاريخ ظل الإنسان على الطبيعة» - وبين الاثنين يدير كل إنسان تجربته - أو يحاول - في مناخ عصر بذاته. وهنا يحين موضع الحديث عن دور العصر وحكمه في صنع شخصية المَلِك.

إن طفولة المَلِك «حسين» لم تكن سعيدة، ولم يكن السبب هو الفقر الذي اضطر أمه إلى بيع دراجته كي يصرفوا من ثمنها - كما روى المَلِك في مذكراته - والحقيقة أن تلك الرواية تَزَيُّد! - ذلك أن الهاشميين في عَمَّان لم يكونوا في ذلك الوقت ضمن الأغنياء، لكنهم على وجه القطع لم يكونوا من الفقراء، وكان لدى الأمير «طلال» ولي العهد الأردني ما يكفيه ليعيش مع أولاده دون أن يضطروا إلى «بيع دراجة» مستعملة لا يزيد ثمنها في ذلك الوقت عن دينارين أو ثلاثة.

لكن التعاسة في حياة أسرة ولي العهد (الأمير طلال) أن علاقته بوالده المَلِك «عبد الله» كانت سيئة لخلافات شملت كل شيء تقريبا: من المشاكل المادية، إلى صحبة الناس، إلى آراء بدت للمَلِك العجوز طائشة، إلى سلوك كان غالبا موضع انتقاده.

وفي ذات الوقت فإن علاقة ولي العهد (الأمير طلال) بزوجته الأميرة «زين» لم تكن على ما يرام لأن زوجها هجرها إلى فتاة إيطالية اسمها «فلافيا» كان أبوها طبيبا جاء من بلاده إلى عَمَّان يفتح مستشفى صغيرا وجد دَخْلَه منه أفضل بكثير مما كان يستطيع الحصول عليه لو بقي في بلاده.



وكان الصبي الهاشمي الذي أصبح مَلِكًا على الأردن بعد مشاهد درامية متلاحقة بينَها شقاء والدته، ومصرع جده، والحجر بالجنون على أبيه - يرى هذا كله من حوله ويختزن في نفسه ويجتر، وتتراءى له مشاهد من الماضي البعيد ومن الماضي القريب، وتزيد عليه ضغوط المشكلة والمأساة في تاريخ الهاشميين ويتضخم شعوره بالحق الضائع، وبالتوازي معه تزداد عقدة الاستشهاد.

ثم إن المَلِك الصبي كان يتأمل أوضاع بلده ويشعر حتّى دون أن يُدرِك - أن الدواعي التي تشعره بعقدة الاضطهاد ليست تاريخية، وإنما هي سياسية أيضا. فمملكته محشورة بين من هم أقوى منها، ونصف شعبه وهو من فلسطين ناقم على أسرته إلى درجة القتل، وموارد بلده منحة من القوى الكبرى التي رسمت حدوده وأقامت عرشه وانفردت بالنفوذ في عاصمته، ومن حوله مجموعة دول عربية كلها تسيء الظن في أسرته لسبب أو آخر (السعوديون بعداء قديم مع الهاشميين، وسوريا باعتقاد أن الأردن جزء سُلِخ من جنوبها، ومصر من تجربة حرب فلسطين).

ثم إن كونه وافدا إلى العرش الأردني شابا جديدا لم يكن كافيا ليُغفَر له إلا إذا تحرك على هوى الآخرين بسرعة يعرف هو قبل غيره أنه ليس قادرا عليها بطبيعة الظروف، خصوصا وقد كان الجميع (كل العرب) أمام قوة إقليمية لديها مطامع تتخطى ما حصلت عليه من أرض، وقد هضمت ما ابتلعت، وهي الآن شهية مفتوحة لالتهام الضفة الغربية من مملكته، وإذا استطاعت فإنها جاهزة أن تمد يدها إلى الشرق وفي خططها أن تقترب أكثر من منابع النفط في العراق والخليج وأن تدخل بالقوة والقسر - طرفا رئيسيا في موارد المنطقة الاقتصادية والإستراتيجية.

وكان على المَلِك «حسين» - وتلك نصائح جده - أن يوفر لنفسه من الحذر ما يجعله ولو بالغريزة - قبل الحكمة - يرسم لنفسه سياسات تضمن كل متطلبات السلامة والنجاة - وكذلك تحددت خطوط سياسته:

١ - عليه أن يتمسك بعلاقته بالقوة العظمى المهيمنة على بلاده وفي المنطقة.

٢ - ومع أنه عرف أن جَدَّه حين قُتِل كان يتفاوض على صلح منفرد مع إسرائيل، فإن الظروف تفرض عليه أن يتمهل ولا

يتوقف تماما مع إسرائيل، وأن ينتظر الظروف وفى نفس الوقت لا يتخطى الحدود ولا حتى بالهمس أو باللمس!

٣ـ وعليه أن يجد لنفسه قدر الإمكان أصدقاءً من العرب ـ لأن لديه بالفعل بينهم من الأعداء كفاية.

٤ـ وهو مُطالَب فى ذلك كله بأن يعطى نفسه مرونة فى الحركة، فهو لا يستطيع بسبب تعارض الضغوط أن يسير فى أى طريق إلى نهايته.

٥ـ وخلال ذلك كله فليس أمامه إلا أن يخفى مشاعره وعواطفه وأن يكتم نواياه وسياساته، وأن يمسك بأعصابه وأحيانا على حساب كرامته الشخصية، وأن يواجه كل الناس وكل الأحداث بابتسامة عريضة. لأنه ببساطة لا يملك ترف الغضب ـ على الأقل إظهار الغضب!



وبعد سنة على العرش ـ ١٩٥٢ ـ كان المَلِك ـ فيما بدا أمامه ـ يواجه ما لا طاقة له به:

أولا ـ حدث تغيير كبير فى موازين القوة فى الشرق الأوسط، وأخذت الإمبراطورية البريطانية تتراجع وتترك موقع السيطرة فى المنطقة للإمبراطورية الأمريكية الصاعدة إلى قيادة الغرب بسرعة الصاروخ.

ثانيا ـ ثم إن هذه القوة الإمبراطورية الأمريكية تريد قيادة العالم وليس قيادة الغرب وحده، ولهذا فقد دخلت إلى صراع عنيف عقائدى وسياسى وعسكرى (إلى حد ما) مع القوة الأخرى التى خرجت منتصرة معها فى الحرب العالمية الثانية وهى الاتحاد السوفيتى.

ثالثا: وفى إطار الصراع بين الكبار (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) فإن الولايات المتحدة تطرح على المنطقة حلفا عسكريا تحت قيادتها ـ وبالفعل فقد تَحَمَّس له الفرع الهاشمى فى بغداد، وعليه هو الآن فى عَمَّان أن يختار. وفى الواقع فلم يكن حق الاختيار الحر مطروحا عليه، وإنما كان مطلوبا منه أن يسارع ويلتحق.

رابعا: لكن هناك تيارات فى المنطقة تقاوم المخطط الأمريكى الجديد وتخشى منه أكثر من الاستعمار البريطانى العجوز، وكان بين هذه التيارات حزب البعث العربى الاشتراكى فى سوريا ـ والتيار السلفى الدينى تمثله حركة الإخوان المسلمين ـ ثم وبطبيعة الأحوال كل الأحزاب الشيوعية التى نشطت تحت الأرض ـ وفوقها بقدر ما سمحت لها الظروف ـ فى عواصم العالم العربى بدون استثناء تقريبا.

خامسا: وبالتحديد والتخصيص فقد كانت مصر فى عهد المَلِك فاروق ووقت وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) تعارض هذه المخططات، وكانت المملكة العربية السعودية إلى جانب مصر، وكانت الأسباب عديدة اختلط فيها الوطنى بالعائلى والشعبى بالقبلى، إلى آخره.

سادسا: وكانت إسرائيل مع فكرة هذا الحلف العسكرى طالما أنه سوف يُدخِلُها ـ بطبيعة الحال ـ فى شراكة مع العالم العربى تفرض بالضرورة قبول أوطانه بالصلح معها على أساس الأمر الواقع ـ فإذا تحقق ذلك، فإن إسرائيل تثق سلفا فى قدرتها أن تكون القوة الإقليمية الأولى فى المنطقة بنفوذها فى العالم، وبطش سلاحها، وكفاءتها فى استيعاب التقدم بما فيه ثورة العلوم التى تراكمت خلال تجربة الحرب العالمية الثانية ثم انطلقت بعد انتهاء الحرب تغزو كل نواحى الحياة المدنية فى عالم جديد.

....

....

سابعا: وفجاة وفى هذا المناخ الذى تتزاحم فيه الأفكار والتيارات والسياسات والجيوش ـ فجأة صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر قامت ثورة ٢٣ يوليو ـ ثم ظهر «جمال عبد الناصر».

....

....

حكمت الجغرافيا ـ وحكم التاريخ ـ وحكم العصر.

ثم جاء الدور على التجربة الإنسانية للمَلِك «حسين»، لتكون الوجه الرابع للحقيقة فى شأنه وفى شخصيته.

[٧]

من المفارقات الملفتة أن تجربة المَلِك «حسين» تقاطعت بشكل واضح مع الدور الذى قام به «جمال عبد الناصر» فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

وفيما رواه لى المَلِك «حسين» بنفسه (أثناء لقاء فى باريس) [٤] أنه مع سنة ١٩٥٥ أصبح شديد الإعجاب بـ «جمال عبد الناصر» إلى درجة أنه وضع صورته على مائدة بجوار سريره، «وكان يتمنى لو أنه وضعها على مكتبه لكنه خشى أن تَجُرّ عليه من المشاكل ما لا داعى له».

وكانت دعوة «جمال عبد الناصر» ـ هكذا قال المَلِك ـ إلى مقاومة الاستعمار هى التى جعلته يتردد فى الانضمام إلى حلف بغداد منذ طُرِح مشروعا مبكرا سنة ١٩٥٣.

وحين عُرِض على الأردن رسميا أن ينضم إلى الحلف سنة ١٩٥٤ ـ فإن المَلِك لم يكن متحمسا، وقد زاد الضغط البريطانى عليه لدرجة أن رئيس أركان الحرب الإمبراطورى وهو الماريشال «جيرالد تمبلر» كُلِّف ـ خريف سنة ١٩٥٥ ـ بالذهاب إلى عَمَّان والبقاء فيها حتى يضمن انضمام الأردن.

وعندما فشلت محاولة الماريشال «تمبلر» وسقطت محاولة جَرّ الأردن إلى حلف بغداد، تضايق الملك «حسين» لأن «بعض الناس اعتبروا فشل «تمبلر» فشلا له (للمَلِك) ـ وكان ذلك من وجهة نظره «افتراءً على الحَق» أساء إلى مشاعره وظَلَمَه. ومن المحتمل أن هذا الافتراء على الحق كان من العوامل التى أغرت المَلِك على اندفاعة قصد بها أن يستعيد لنفسه ما حسبه «حقا» و «عدلا».

وهكذا وجد المَلِك نفسه يقترب من مجموعة من ضباط جيشه تعاهد معهم على «تحرير الإرادة الأردنية» بطرد «جلوب باشا» وتأكيد سيطرة الحكم الوطنى فى الأردن على قواته المسلحة. ومع أن تلك كانت خطوة بالغة الخطورة فإن المَلِك قام بتأمين ظهره عن طريق إخطار الكولونيل «جيمس سوينى» الملحق العسكرى الأمريكى فى سفارة الولايات المتحدة فى عَمَّان. ولعل «سوينى» لم يحاول إثناء المَلِك عن عزمه لأن تلك كانت لحظة انتقال الإرث الإمبراطورى فى المنطقة. ولقد عرف بعض الضباط الوطنيين ذلك الوقت أن المَلِك تحدث فى طرد «جلوب» باشا مع الأمريكان، لكن الذين عرفوا لم يعتبروا ذلك فى حينه خرقا مخيفا لأن حركات وطنية عديدة كانت ـ تلك الأيام ـ على استعداد لأن تلعب على التناقض بين قوتين إمبراطوريتين. والشاهد أن الوجه القبيح للسياسة الأمريكية لم يكن قد ظهر بعد، ثم إن كثيرين تَصَوَّروا أن فرصة تغيير الحرس الإمبراطورى البريطانى القديم بحرس أمريكى جديد كفيلة بأن تفتح الباب لألف فرصة وفرصة.

ومن هذا المنطلق فإن مغامرة المَلِك وإن بدت مجازفة شديدة ـ كانت فى الوقت نفسه مجازفة محسوبة. (وتَكشَّف فيما بعد [من شهادات ووثائق] أن السفارة الأمريكية فى عَمَّان ـ بما فيها ممثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ تَحَمَّست لطرد «جلوب» لأن ذلك سوف يرفع شعبية المَلِك ويجعله قادرا على دخول حلف بغداد محمياً بشعبية طرد «جلوب»).



ويقول المَلِك (وهذه الآن عودة إلى ذلك اللقاء فى باريس) أن تيار الحوادث فى المنطقة ابتداء من طرد «جلوب» (باشا) من الأردن فى مارس ١٩٥٦ وحتى تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ تحَوَّل إلى شلال متدفق يهدد بأن يجرف أمامه كل شىء بما فى ذلك كيان الأردن. وفى رأى المَلِك أن «عناصر غير مسئولة» حاولت دفَع الموقف فى بلده إلى أكثر مما تحتمله الحقائق.

ويروى المَلِك: «أن الضغط زاد عليه عندما بدأت حرب السويس لأن شعبه راح يدفعه دفعا إلى دخول الحرب مع مصر. وكانت تلك وصفة لكارثة مؤكدة فى رأيه». ووجد نفسه فى مأزق عنيف بين ما يحسه من رغبات شعبه وبين ما يراه من خطر على بلده، ولم ينقذه غير «جمال عبد الناصر» الذى اتصل به على التليفون المفتوح يرجوه ألا يخضع لأى ضغط ولا يفكر فى التدخل عسكريا فى القتال الدائر بين مصر وإسرائيل (وبريطانيا وفرنسا) فى سيناء وبورسعيد.

ويروى المَلِك: «أن جمال عبد الناصر قال له: إننا قررنا إخلاء سيناء بعد الإنذار البريطانى الفرنسى، وبالتالى، فإن الجيش المصرى سوف يركز معركته على منطقة القناة، ومعنى ذلك أن هذا الجيش لن يكون فى وضع يسمح له بمساندة الأردن إذا قررت إسرائيل انتهاز الفرصة لاحتلال الضفة الغربية للأردن. وإذا حدث ذلك فهو خطر عاجل ـ ذلك أنه إذا دخلت إسرائيل سيناء فتلك مسألة تَقْدِر مصر عليها فور انتهائها من تصفية العدوان البريطانى الفرنسى فى منطقة القناة ـ وحتى إذا بقيت إسرائيل خلال ذلك أسابيع أو شهورا فى سيناء، فإنها لن تستطيع تغيير طبيعة الأرض فيها، بينما الأمر فى الضفة الغربية مختلف لأن إسرائيل سوف تفعل ما بدا لها. وباختصار، فإنه إذا احتلت إسرائيل سيناء فخروجها محقق بالغصب أو بالحرب، وأما إذا دخلت ضفة الأردن الغربية فإن خروجها سوف يكون معركة أكثر صعوبة».

ويواصل المَلِك «حسين» روايته قائلا: «إن جمال عبد الناصر خَوَّله أن ينقل لمن يشاء فى الأردن مجمل رأيه منسوبا إليه، وهو على استعداد لأن يتحمل مسئوليته السياسية والتاريخية. وقد فعل المَلِك. ولكن بعض الناس (كذلك قال المَلِك) أرادوا أن يكونوا ناصريين أكثر من الرئيس عبد الناصر نفسه ـ ولقينا مصاعب من بعضهم عندنا فى الأردن». ثم يستدرك المَلِك: «لكنى مضطر أن أقول لك بصراحة أن آخَرين من عندكم كانوا يفسدون الأمور ويُحَرِّضون دون فهم أو اطلاع... وهذا فرض علينا فيما بعد أن نتصدى لأن المسألة تَحَوَّلَت إلى حياة أو موت»!

وهكذا فإنه طوال سنة ونصف السنة ـ خريف سنة ١٩٥٥ وحتى شتاء سنة ١٩٥٦ ـ كان المَلِك فى حالة ذهاب خطر إلى الحافة ـ وعودة خَطرة من الحافة!

ومع بداية سنة ١٩٥٧ جاء مفترق طرق بالغ الأهمية فى تجربة المَلِك «حسين»، وفى التجربة السياسية العربية المعاصرة كلها.

انتهت حرب السويس فى ديسمبر ١٩٥٦ باضطرار بريطانيا وفرنسا إلى الانسحاب من بورسعيد، وكان ذلك الانسحاب هو الإعلان الرسمى بنهاية الإمبراطوريات القديمة (بريطانيا وفرنسا).

ثم انتقل المطلب الإمبراطورى فى المنطقة إلى الولايات المتحدة التى طرحت فى بداية سنة ١٩٥٧ وفى مطلع مدة الرئاسة الثانية للجنرال «دوايت أيزنهاور» ـ مشروعا لحماية المنطقة أطلق عليه فعلا اسم «مبدأ أيزنهاور». وكان «مبدأ أيزنهاور» فى تقدير السياسة المصرية ذلك الوقت مجرد تعبئة أمريكية جديدة مزوقة لنفس مطلب السيطرة الذى اهتزأ وعاؤه البريطانى القديم.

وكان المَلِك «حسين» يرى ما يحدث وحسابه (طبقًا لروايته) كما يلى:

ـ لقد استطاع أن يقاوم دخول حلف بغداد رغم ضغط شديد مارسه الماريشال «تمبلر» عليه. لكنه هذه المرة يواجه ما هو أصعب. فالولايات المتحدة التى تقدمت لتمسك بمقادير الشرق الأوسط ـ ليست الإمبراطورية البريطانية التى غرقت فى مياه قناة السويس ـ وإنما هى قوة أخرى تملك وسائل السيطرة العالمية بغير منازع.

ـ والعناصر الوطنية فى الأردن لم تعط المَلِك فرصة كافية. وإنما سارت إليه الجموع تطالبه برفض مشروع «أيزنهاور»، وكان فى بنود هذا المشروع كثير عن مساعدات مالية للأردن هو فى حاجة إليها ولا يستطيع ببساطة أن يرفض عرضا أمريكيا سخيا بها. وقد وصل المَلِك فى النهاية إلى أن مصلحة «العائلة الأردنية» تقتضيه أن يقف ضد الرأى العام فى البلد. ثم هاله أن أصداء ما يجرى فى الشارع الأردنى وصلت إلى الجيش، وكان عليه أن يتصرف بأقصى الحزم وأقسى الإجراءات.

ـ وكانت الدعاية المصرية ضد مشروع «أيزنهاور» (كذلك يقول المَلِك) زيتا صَبَّتْه إذاعة «صوت العرب» على نار مشتعلة فى عَمَّان ـ وحسب تعبير المَلِك بالنص ـ «وقد كادوا يحرقون كل شىء ولا يبقون على أخضر أو يابس، ونحن بلد صغير لا يحتمل...».

....

....

وفى المحصلة النهائية فإن المَلِك «حسين» قاد انقلابا ضد قوى شعبية كثيرة فى بلده، وقوى وطنية معروفة فى جيشه. والمشكلة أن الانقلاب لم يكن عملية محض أردنية، وإنما كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طرفا فاعلا فيه بالتمويل والتخطيط والتنفيذ وبطريقة كادت تكون علنية، وثبت فيما بعد ـ وبالوثائق ـ أن عملية الانقلاب فى الأردن جرت بحضور وتخطيط «كيرميت روزفلت» مسئول المخابرات المركزية الأمريكية الشهير فى الشرق الأوسط، ثم إن عشرات ملايين الدولارات صُرِفت فى عَمَّان لتدبير الأمور!

والظاهر أنه فى تلك الظروف، مشى المَلِك «حسين» مع مفترق الطرق إلى الحواف الأكثر وعورة.



إن المَلِك «حسين» ظهر بعد ذلك، بظله أو بصورته مرئية من بعيد، خلال أزمات مهمة مما عرفته المنطقة وعاشته، وبين هذه الأزمات بالتحديد أربع:

*** الأزمة الأولى: هى أزمة الانقلاب على الوحدة بين مصر وسوريا. ففى يوم وقوع ذلك الانقلاب (٢٨ سبتمبر ١٩٦١) وصلت إذاعة الأردن نفسها بإذاعة الانفصاليين من دمشق، وذهب المَلِك بملابسه العسكرية ومسدسه فى حزامه إلى رئاسة أركان حرب الجيش الأردنى مستعدا للطوارئ، وكان الحديث فى رئاسة الأركان الأردنية أن «سَيِّدنا (أى الملك حسين) هو مُدَبِّر ذلك الانقلاب لطرد مصر من سوريا عقابا لها على تأييدها لانقلاب العراق (١٤ يوليو ١٩٥٨) ـ الذى قُتل فيه كل أفراد الفرع العراقى من الأسرة الهاشمية. ولما كان المَلِك**

«حسين» قد اعتبر الثأر لأبناء عمومته واجبا يلقيه «التاريخ الهاشمى» عليه، فقد كان مطالبا أن يتصرف» (هكذا نقلوا عنه)!

والواقع إن المَلك لم يتصرف وحده، وإنما كانت معه (كما تُظهر الوثائق) وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (كيرميت روزفلت ـ شخصيا ـ مرة أخرى)، وكان المُمَوِّل الرئيسى لمؤامرة الانقلاب هو المَلك «سعود» (الذى قال لى بنفسه أثناء لقاء بيننا بعد لجوئه إلى مصر فى ديسمبر ١٩٦٦ أنه دفع حوالى خمسة عشر مليون دولار ضمن تكاليف هذا الانقلاب). وعلى أى حال فلم أكن فى حاجة إلى تأكيد إضافى حتى أرى ظل المَلك «حسين» وصورته على خلفية أزمة الانفصال لأننى فى ذلك اللقاء فى فندق «كريون» بباريس سنة ١٩٦٣ (وأثناء محاولة المَلك حسين لطَيِّ صفحة الماضى وطلب فتح صفحة جديدة. وكان ذلك مطلبه فى هذا اللقاء كى أنقله إلى جمال عبد الناصر) ـ سألت المَلك صراحة عن دوره فى الانفصال، واعترف به وتبريره «أنه كان غلطة» (ونَشَرْت بالفعل تقريرا طويلا عن لقائنا ضمن مقالى الأسبوعى فى الأهرام «بصراحة» فى العدد الصادر يوم الجمعة ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣). وأكدت قول المَلك على لسانه (ولم يعترض): «إنه يعترف أن دوره فى الانقلاب على الوحدة كان غلطة».

❊ وكانت الأزمة الثانية التى ظهر فيها المَلك، بظله أو صورته، هى أزمة حرب اليمن التى قامت ضد أسرة «حميد الدين» (يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢) ـ وكانت قوات الملكيين فى اليمن قد خيمت على الحدود مع السعودية وراحت تضغط عسكريا على الثورة الوليدة فى صنعاء، وتدخلت مصر لحماية الثورة، وسارع المَلك «حسين» إلى إرسال طيرانه من عَمَّان يحمل أسلحة وذخائر إلى بقايا النظام القديم فى اليمن. وكانت المفاجأة القاسية التى تلقاها المَلك وأصدقاء له أن قائد الطيران الأردنى (العقيد سهل حمزة) قاد سربا أردنيا إلى القاهرة بحمولات طائراته من السلاح والذخيرة مرسلة إلى الملكيين فى اليمن!

وحين أدرك أصحاب هذه الخطط الملكية أن استخدام قوات مسلحة عربية ضد التيار الكاسح للحركة القومية ـ مخاطرة غير مأمونة، فإن الجميع لجأوا إلى الاستعانة بقوى خارجية. ثم إن عملية واسعة لاستئجار مرتزقة أجانب نشطت فى باريس ولندن، وكانت النتيجة أن مسرح القتال فى اليمن شهد دخولا واسع النطاق لجيش (بضعة آلاف) من المرتزقة الأوروبيين من الإنجليز إلى الفرنسيين إلى الألمان، وحتى من إيطاليا وأسبانيا والبرتغال!



والملفت أن ترتيب هذه العملية آل إلى مجموعة من النواب البريطانيين كان على رأسهم «جوليان إيمرى» رئيس مجموعة المحافظين المعارضة للانسحاب البريطانى من السويس ومن العالم العربى بأسره. وكان «جوليان إيمرى» شخصا يستحق التوقف ـ أو التوقيف ـ لفحص هويته:

هو ـ أولا ـ ابن اللورد «ليو إيمرى» الذى كان سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء البريطانى أثناء الحرب العالمية الأولى (وقبل أيام قليلة من وفاة المَلك «حسين» أذيع نقلا عن الوثائق البريطانية أن «ليو إيمرى» هو الذى كتب بخط يده مسودة «وعد بلفور» تعهدا بريطانيا بوطن قومى لليهود فى فلسطين. وتكشف أن «ليو إيمرى» يهودى هاجرت أسرته من أوروبا الشرقية فى أواخر القرن التاسع عشر ـ إلى الغرب، ثم اندمج فى مجتمعه الجديد حتى وصل إلى مواقع القرار فى الإمبراطورية البريطانية).

جميع الأطراف عليهم أن يفهموا ـ بالحدس أو بالعلم ـ أن الأردن طرف فى ترتيب إقليمى يضم أربع دول هى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وتركيا والأردن. وهذا الترتيب هو المدير المقيم للأمن فى المنطقة. وكل من عداهم ساعد أو شارك وفق مواقع الأزمات. ولذلك فإن دور الملك حسين هو أهم الأدوار العربية فى هذا الترتيب

زفاف الأمير حسن وعروسه الباكستانية ثروت



وكان «جوليان إيمرى» ـ ثانيا ـ مرتبطا بمصاهرة رئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الوقت «هارولد ماكميلان»، فقد تزوج «جوليان» من «أليس» ابنة «ماكميلان» وزوجته الليدى «دوروثى» ـ وبالتالى فإن «إيمرى» الابن أيضا أصبح شديد القرب من مركز صنع القرار البريطانى فيما بعد العهد الإمبراطورى.

وثالثا ـ فإن «جوليان إيمرى» كان هو الذى تولى فى شهر مارس سنة ١٩٦٥ ترتيب اجتماعات بين شخصيات عربية وشخصيات يهودية، وكان ضمن الاجتماعات لقاء بين المَلك «حسين» وبين الجنرال «موشى ديان» ـ رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى ـ وقد تم هذا اللقاء فى بيت «جوليان إيمرى» نفسه فى «إيتون سكوير» ـ لندن ـ (وقد نَشَرْت بعض التفاصيل عن هذا اللقاء فى الجزء الثانى من كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» صفحة ١٣٤[٥] ـ ونَشَرْت وسَنَدى فيما نَشَرت (وقد كتبت ذلك نصا) هو «جوليان إيمرى» نفسه الذى دعتنى معه إلى فنجان شاى فى بيتها الليدى «جيلكو» وهى أرملة القائد البريطانى الأميرال لورد «جيلكو» قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض بين الخمسينات والستينات).

وقد روى لى «إيمرى» (ونَشَرت عنه ذلك أيضا): «أن المَلك حسين قدم نفسه متحدثا باسم آخرين معه فى المنطقة يشاركونه أهدافه لكنهم لا يملكون جرأته». وقال لى «إيمرى»: «إن هدف الاجتماع كان تنسيق جهود أعداء عبد الناصر العرب مع إسرائيل». وقال معقبا: «إن أطرافا كثيرين فى العالم العربى كانوا على استعداد للتعامل مع الشيطان ضد ناصر». وأضاف «جوليان مُوَجِّها ملاحظته إلىّ: «وعلى أى حال فإن إسرائيل ليست الشيطان مهما كان رأيك فيها»!

وفى لقاء مع المَلك «حسين» فى لندن بعد نشر الجزء الثانى من كتابى عن «المفاوضات السرية» ـ ١٩٩٦ ـ فتحت معه هذا الموضوع وقلت له: «إننى عندما نشرت واقعة اجتماعه مع ديان سنة ١٩٦٥ فى بيت جوليان إيمرى لم أشأ أن أحدده بالاسم مُعْتَمِدا على رواية جوليان إيمرى وحدها» ـ وكان رد المَلك غامضا لا هو بالنفى ولا التأكيد، وقد قال بسرعة:

«يا أخى.. الآن بعد أن جرى كل ما جرى لم يعد فى مقدور أحد أن يحاسب غيره على أنه اجتمع بالإسرائيليين ـ أين؟ ومتى؟».

ولم أشأ أن أضغط ـ وربما لأنه لم يعد هناك معنى للجدال مع المَلك فى شىء أقدم عليه كثيرون غيره من الساسة العرب!



❊ وأخيرا ـ ولم يكن آخرا ـ تجىء الأزمة الثالثة التى ظهر فيها ظل المَلك «حسين» وصورته، وهى الدور الذى قام به فى سنة ١٩٦٧ ـ وكنت كما أسلفت فى مقدمة هذا الحديث نَشَرْت فى كتاب «الانفجار» (١٩٩٠) وقائع ظننتها بالغة الخطورة، وهى بالفعل كذلك ـ بينها:

١ ـ أنه عندما بدأت أزمة الحشود الإسرائيلية ضد سوريا تتفاعل مع موجبات تأهب مصرى لنجدتها، وصلت المشاعر فى العالم العربى إلى درجة غير مسبوقة من التعبئة، ثم وصلت التعبئة إلى الذروة الخطرة عندما أغلقت مصر خليج «العقبة» أمام الملاحة الإسرائيلية، وكان ذلك نذيرا بأن الحرب مسألة أيام ـ وفجأة يوم الثلاثاء ٣٠ مايو وصل المَلك «حسين» إلى القاهرة يطلب اجتماعا مع «جمال عبد الناصر» قائلاً: «إن الشعب الأردنى لن يسمح له بأن يظل بعيدا عن المعركة رغم أى خلافات سبقت، ثم إنه هو نفسه ـ مع شعب الأردن ـ لا يستطيع أن يقف متفرجا فى معركة عربية مقدسة!

ومع أن التغيير المفاجئ فى موقف المَلك «حسين» أثار تساؤلا ـ فقد نسبه الجميع إلى إحساس المَلك بضغط الرأى العام فى بلده إلى جانب تَوَصُّله أكيدا إلى أن العرش الأردنى نفسه سوف يكون فى مهب الريح إذا قامت الحرب وبقى الجيش الأردنى بعيدا.

٢ ـ وكان داعى التساؤل مرة ثانية ـ أن المَلك طلب تعيين قائد مصرى للقوات الأردنية فى المعركة القادمة، بل واختار بنفسه واحدا من ألمع الضباط المصريين وهو الفريق «عبد المنعم رياض» الذى عرفه أثناء عمل الفريق «رياض» رئيسا لأركان حرب القيادة العربية الموحدة (فى إطار ميثاق الضمان العربى الجماعى).

ثم أصر المَلك «حسين» على أن يأخذ «عبد المنعم رياض» معه فى الطائرة ليتولى قيادة الجيش الأردنى من أول لحظة، وكان السفر إلى عَمَّان مساء ٣١ مايو ١٩٦٧ (أى قبل خمسة أيام من الهجوم الإسرائيلى على سيناء).

٣ ـ إن المَلك «حسين» أثناء اجتماعاته فى القاهرة مع «جمال عبد الناصر» تَطَوَّع بالسماح للجيش العراقى بدخول الأردن للمشاركة فى المعركة، والجميع يعرف أن دخول قوات عراقية إلى الأردن واحد من النذر التى تعتبرها إسرائيل مبررا لشن الحرب. وبدا ذلك مستدعيا لتساؤل ثالث ـ لكن أحدا لم يدقق.

ثم إن المَلك «حسين» اجتمع أيضا فى القاهرة ـ وفى حضور «جمال عبد الناصر» ـ بالسيد «أحمد الشقيرى» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وأخذه ـ مع الفريق «عبد المنعم رياض» ـ فى طائرته إلى عَمَّان. وكان ظهور رئيس منظمة التحرير الفلسطينية فى عَمَّان بدوره نذيرا آخر مما تعتبره إسرائيل مبررا لشن الحرب ـ والمَلك «حسين» أول من يعرف ذلك. ومع أن تصرفه فى هذا الأمر أثار هو الآخر تساؤلا رابعا... وخامسا وسادسا، إلى آخره ـ فإن أحدا ـ رغم تكرار التساؤلات ـ لم يتوقف ليدقق لأن الكل كان مشغولا بالاحتمالات القادمة، ومأخوذا بفكرة أن يظهر الصف العربى كله محتشدا ومعبأ على خطوط النار، مع ظن ان ذلك فى حد ذاته قد يكون بين الروادع.

٤ ـ وذهب الفريق «عبد المنعم رياض» إلى عَمَّان، وعاد منها بعد انتهاء القتال وهو يحمل هواجس وهموما ضاغطة على أعصابه.

فهو من البداية ـ رغم لقاءات متكررة بالمَلك «حسين» وعدد من قيادات الجيش الأردنى جرت فى إطار القيادة المشتركة ـ لم يكن مستريحا لفكرة أن يجد نفسه على رأس قوات لم يعرفها ولم تعرفه ـ وأن يكون ذلك فى ظروف حرب.

ولقد راوده على نحو ما إحساس بأن صلته بالقوات فى الميدان ليست سالكة، ولقد أحس أن بعض ما يُعرَض عليه من المواقف التى تتطلب قراره، يحمل دواعى الشك فى دقته، وطبقا لتعبيره فقد أحس أنها كانت "Hollow" (مُجَوَّفة ـ فارغة من الداخل) ـ ثم تَحَوَّلَت هواجسه وهمومه إلى شكوك مُعَذِّبة حين عرف من مصادر خاصة ـ وقبل أن يغادر عَمَّان عائدا إلى القاهرة ـ أن خسائر الجيش الأردنى فى الدفاع عن الضفة الغربية بما فيها القدس لم تزد على ١٦ شهيدا ـ وبدا ذلك له مذهلا على ضوء ما كان يتلقاه من التقارير عن سير العمليات بواسطة ضباط الاتصال الذين ألحقوا بقيادته.

....

....

وفيما بعد ظهرت وثائق تتماشى فى أقل تقدير مع هواجس وهموم «عبد المنعم رياض»، وقد أتيح لـ «عبد المنعم رياض» أن يرى واحدة منها، لكنه استُشهد قبل أن يرى بقيتها أو يعرف شيئا عنها. وكانت الوثيقة الواحدة التى عَرَف بها تقريرا من المخابرات العسكرية الأمريكية حصل عليه مندوب مخابرات مصرى فى نيويورك، وكان حصوله عليه فى ظروف لا

تحتمل الشك فى صحة ما حصل عليه [٦].

وكان نصها: «علمت أن مقابلة جرت بين رئيس الأركان الأردنى الجنرال «خماش» وبين السفير الأمريكى فى الأردن يوم الخميس أول يونيو ١٩٦٧، وفى هذه المقابلة طلب رئيس الأركان الأردنى من السفير الأمريكى سرعة نقل الطائرات المقاتلة «ف ١٠٤» من الأردن وعددها ٢٥ طائرة - وذلك بصفة مؤقتة حتى تنتهى الأزمة بين الدول العربية وإسرائيل».

وكان «عبد المنعم رياض» يستطيع أن يفهم معنى هذه البرقية أكثر من غيره، فقد تذكر وكتب فى تقريره عن مهمته فى الأردن «أن الطائرات من طراز «ف ١٠٤» لم يظهر لها أثر رغم تكرار سؤاله عنها».

وكذلك عرف القائد المصرى المنتدب لقيادة القوات الأردنية على الجبهة أن الطيران الذى كان مفروضا أن يخدم خطته خرج من الأردن قبل الساعة التى تسلم فيها مسئوليته!



ولم يتح لـ «عبد المنعم رياض» أن يعيش ويطلع على وثائق أخرى إضافية لديها ما تقوله وبينه:

* أن الملك «حسين» قابل ضباطا إسرائيليين على مستوى عال فى الأردن يوم ٢٦ مايو ١٩٦٧ وأنهم أبلغوه بشكل ما هو قادم دون تفاصيل، وتركوا له مسئولية اختيار موقفه مع تحذيرات له بألا يتدخل فيها.

(محضر مجلس الوزراء الإسرائيلى يوم ٢ يونيو ١٩٦٧، وقد اطلع عليه وأشار إليه الدكتور «مايكل بريشر» وهو المؤرخ المعتمد لصنع القرار الإسرائيلى).

* وفى ذلك الاجتماع مع قادة إسرائيليين فإن الملك «حسين» أبدى أنه لا يستطيع فى حالة نشوب عمليات أن يقف موقف المتفرج لأن ضغط الشعب الأردنى عليه يمكن أن يطيح بالنظام، وأنه من الضرورى لسلامته أن يسمح له بهامش مناورة يُمَكِّنه من مقاومة الضغوط.

وكان الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» (وهو المهندس الأكبر لعملية ١٩٦٧) على استعداد لتقدير موقف الملك، لكن الحكومة الإسرائيلية أبلغته (الرئيس جونسون) أنها تستطيع أن تتفهم وإنما إلى حد.

وفى جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلى بتاريخ ٤ يونيو عرض الجنرال «ديان» الخطوط العامة لإستراتيجية إسرائيل فى معركة الغد كما يلى بالنص:

١ - على الجبهة المصرية: الهجوم الرئيسى - هجوم شامل.

٢ - على الجبهة السورية: موقف دفاعى إلا إذا وجدت القوات أنها فى موقف الدفاع عن نفسها.

٣ - على جبهة الأردن: يطلب وزير الدفاع عدم إجراء أية مناقشة فى مجلس الوزراء حول هذا الموضوع.

(محضر جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلى فى ٤ يونيو - وقد اطلع عليه ونقل منه «مايكل بريشر»).

* إن إسرائيل فى الصباح الباكر من يوم ٥ يونيو بعثت برسالة من رئيس الوزراء «ليفى أشكول» حملها كبير مراقبى الهدنة الجنرال «أود بول» طلبت فيها إلى الملك «حسين» أن يبقى بعيدا، وإذا أراد تغطية موقفه فلابد أن يفعل ذلك بحذر. وبالفعل فقد سمح للجيش الأردنى بحرية إطلاق نيران محدودة وبدون رد عليها. وفى الساعة الحادية عشرة والنصف صباح يوم ٥ يونيو، وبعد أن تأكد أن الضربة الجوية ضد مصر نجحت، طلب الجنرال «أوزى ناركيس» القائد الإسرائيلى لقوات الجبهة الشرقية إذنا ببدء هجوم على الأردن، وقد رُفض طلبه، وعاد الجنرال «ناركيس» يجدد طلبه فى الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق، ورُفض طلبه مرة ثانية، ثم رُفض طلبه مرة ثالثة فى الساعة الثانية عشرة والنصف. وبعد ساعتين تماما أى فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر تلقى الجنرال «ناركيس» أمرا بالهجوم الشامل لاحتلال الضفة الغربية بما فيها القدس (كان إغراء حلم أرض إسرائيل أكبر من أن يقاوَم، وإذا أراد الملك أن يناور مرة فإن إسرائيل لها نفس الحق فى مناورة العمر).

(كتاب «حياة على الحافة» صفحة ١١٨، ١١٩ - وهو سيرة معتمدة للملك «حسين» كتبها عقب لقاءات متعددة معه الصحفى البريطانى «رولاند دالاس»، وقد نُشر فى لندن سنة ١٩٩٨ ضمن مجموعة «صور مكتوبة»).

* إن الملحق العسكرى الأمريكى فى تل أبيب قال أثناء مناقشة مع وزير الدفاع الإسرائيلى: «إنكم فى إسرائيل أسأتم تفسير موقف الملك حسين فى حوادث الشهر الماضى دون مبرر»!

(برقية من الملحق العسكرى الأمريكى فى إسرائيل برقم ٢٥١٥٢٥ بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٦٧).

* إن وزارة الخارجية الأمريكية تلقت من القصر الملكى الأردنى فى عمَّان مجموعة محاضر للقاءات قمة سياسية جرت فى القاهرة فى الأسبوع الثانى من يونيو ١٩٦٧، وقد شارك فيها الملك «حسين» والرئيس «هوارى بومدين» رئيس الجزائر مع الرئيس «جمال عبد الناصر»، وكان هدف القمة المحدودة فى القاهرة تقييم الموقف بعد ما جرى ورسم سياسة لما بعده.

(المحاضر تشير إليها برقية رمزية لوزارة الخارجية الأمريكية برقم ٤٩٤٥ بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٦٧).

* وأخيرا. أخيرا. جاءت الأزمة الرابعة التى ظهر فيها ظل الملك وصورته. وقد أعلنتها هيئة الإذاعة البريطانية فى برنامج قدمته أواخر سنة ١٩٩٨ فى مناسبة مرور خمسين سنة من حياة الشرق الأوسط شهدت ظهور وقوة إسرائيل. وكان مؤدى ما أعلنته الإذاعة البريطانية مؤكدا وموثقا أن الملك «حسين» ذهب. يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣. إلى مقابلة سرية مع رئيسة وزراء إسرائيل (قبل أيام من ٦ أكتوبر ١٩٧٣) وحذر «جولدا مائير» من أن مصر وسوريا تدبران لشن معركة مفاجئة ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء والجولان، وأن «جولدا مائير» لم تأخذ هذا التحذير جدا. ثم حدث أن هيئة تليفزيون فضائية مملوكة لشركة سعودية أعادت نشر البرنامج وترجمته إلى اللغة العربية، وأحدث ما نُسب إلى الملك «حسين» ضجة كبرى فى العالم العربى.

والمزعج أن هذه الواقعة لم تكن سرا، فقد نشرها الجنرال «إيلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية فى مذكراته عن حرب سنة ١٩٧٣ وقد ظهرت فى كتاب باللغة العبرية وحدها، وجاءت الواقعة الخاصة بالملك «حسين» مع كل تفصيلات اللقاء فى صفحة ٩٥ من المذكرات.

....

....

[ثم ألحق بها ما أذيع نفس الفترة - عن تعيين «أبراهام هالفى» رئيسا للموساد، وقيل - رسميا - أن مبررات تفضيله على غيره أنه كان لثلاثين سنة صلة وصل خاصة مع الملك «حسين»، وأن لقاءات بينهما كانت منتظمة كل أسبوع للتنسيق السياسى والأمنى!]

....

....

كانت تلك كلها ظلالا وصُورا - ثم طرأ جديد!

[٨]

كان الجديد الذى طرأ وحوَّل الظلال والصور إلى جسد وحياة هو أن «بن برادلى» رئيس تحرير جريدة «الواشنطن بوست» نشر مذكراته تحت عنوان «حياة جيدة» (A Good Life).

و«بن برادلى» ليس صحفيا عاديا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما واحد من أكبر نجوم المهنة فى الخمسين سنة الأخيرة. فقد كان هو على صفحات «الواشنطن بوست» قائد الحملة على الرئيس «ريتشارد نيكسون» فى فضيحة «ووترجيت»، وكانت هذه الحملة هى التى اضطرت أقوى رجل فى العالم وفى التاريخ إلى ترك منصبه فى البيت الأبيض والهرب إلى ظلام النسيان.

وقال «بن برادلى» فى كتابه (ونشر فى تدعيم كلامه ما هو أكثر من مجرد رواية) - وابتداءً من صفحة ٤٢٤ ما يلى بالحرف:

«ذات صباح فى نوفمبر ١٩٧٦ جاءنى «بوب وودوارد» (أحد أشهر الصحفيين فى الواشنطن بوست وقتها وحتى الآن) وقال لى إنه «عرف من مصادره أن أحد رؤساء الدول فى الشرق الأوسط موجود باسمه على قائمة المرتبات فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية». وقلت له «أن هذه قصة إخبارية مهمة، لكن عليه أن يتقصاها أكثر».

ويمضى «برادلى» فى روايته فيقول: «إنه سأل وودوارد عن رئيس الدولة المعنى لأنه لن يستغرب إذا كان هناك أكثر من رئيس دولة واحد فى الشرق الأوسط موجود على قائمة مدفوعات وكالة المخابرات المركزية»!

ويستطرد «برادلى»:

«بعد يومين جاءنى بوب يقول لى: «إنه تأكد أن الملك حسين ملك الأردن هو رئيس الدولة المعنى وأنه يتقاضى مكافأة سنوية (شخصية لا علاقة لها بالمعونات الرسمية للأردن) مقدارها مليون دولار، وهى مرصودة لمصاريف الملك الخاصة، وقد بدأ دفعها له من سنة ١٩٥٧ ولا تزال مستمرة حتى الآن»!

ويقول «برادلى»:

«إننى طلبت من بوب أن يؤكد معلوماته بمصدر ثان لأننا لا نستطيع فى الواشنطن بوست أن نعتمد على مصدر واحد فى قصة بهذه الدرجة من الحساسية، وبالفعل فإن بوب اتصل بـ «جودى باول» المستشار الصحفى للرئيس الأمريكى الجديد (فى ذلك الوقت) وهو «جيمى كارتر» وروى له ما وصل إلى علمه، وطلب تأكيدا أو نفيا».

وفى اليوم التالى - الصباح الباكر - اتصل «بوب وودوارد» برئيس تحريره «بن برادلى» ليقول له طبقا لرواية هذا الأخير (صفحة ٤٢٥ من مذكراته): «إن زبجنيو برجينسكى مستشار الأمن القومى للرئيس الجديد اتصل به ودعاه هو ورئيس تحريره إلى لقاء مع الرئيس فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض» - وذهب الاثنان بالفعل إلى لقاء مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

ويقول «بن برادلى» بالحرف:

«إن الرئيس قال لنا بداية إن الخبر صحيح!

ثم أبدى لنا دهشته من أن وزير الخارجية السابق (هنرى كيسنجر) حين جاء إليه يضعه فى صورة الحوادث والرجال فى الشرق الأوسط مع بداية رئاسته لم يذكر له شيئا عن هذه الحكاية - ولا ذكرها له «جورج بوش» (رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى ذلك الوقت) عندما التقاه أيضا لنفس الغرض (كلاهما تعامل بها كأمر عادى روتينى)!

ثم استطرد الرئيس «كارتر» فقال: «إنه يريد أن يقول لنا شيئين: الأول أن نشر الواقعة يضر الأمن القومى للولايات المتحدة - والثانى أنه أصدر أمرا بإيقاف دفع المبلغ للملك حسين».

[وظنه أن الملك لم يعد يحتاجه لأنه الآن واحد من أكبر أغنياء المنطقة].

ويقول «بن برادلى» إن الرئيس قال له فى نهاية المقابلة: «إنه لا يستطيع أن يتدخل فى الطريقة التى يدير بها (بن برادلى) صحيفته - لكنه وضع الحقائق أمامه ويترك له التقدير النهائى. فهذه مصالح بلدك كما هى مصالح بلدى».

ويقول «بن برادلى» (صفحة ٤٢٦) «إنه بعد اجتماع للتشاور مع هيئة تحرير الواشنطن بوست قرروا أن مهمتهم هى نشر الحقيقة. وبالفعل نشروها».

ثم يقول «بن برادلى» أخيرا:

«فى اليوم الذى نشرنا فيه القصة تلقيت خطابا على ورق البيت الأبيض وبتوقيع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نصه كما يلى بالحرف:

إلى «بن برادلى»

أعتقد أن نشركم لقصة المخابرات المركزية الأمريكية بينما وزير الخارجية (سيروس فانس) يقوم بمهمة فى الشرق الأوسط الآن - وهذه المهمة على وشك أن تحمله إلى الأردن - هو عمل غير مسئول.

إننى أكتب إليك هذه الرسالة كتعليق من قارئ وليس من رئيس الولايات المتحدة.

جيمى كارتر



وهكذا فإن أمامنا الآن. صريحا وموثقا. ما يؤكد أنه على طول الفترة من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٧٧ كان اسم الملك «حسين» على قائمة المرتبات السرية فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وكانت تلك هى السنوات التى شهدت انقلاب الأردن سنة ١٩٥٧. وانفصال الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١. والحرب فى اليمن سنة ١٩٦٢. والنكسة سنة ١٩٦٧. ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣.

والرجل الذى يقدم شهادته هنا هو رئيس الولايات المتحدة نفسه ذلك الوقت وهو «جيمى كارتر». ومن المفارقات أنه كان واحدا من موكب الرؤساء السابقين الذين صاحبوا الرئيس الحالى «بيل كلينتون» فى الوقوف أمام جثمان الملك «حسين»!



وفى مناسبات سبقت. مرتين أو ثلاثا. سألت الملك مباشرة وصريحا عن حدود علاقاته بالولايات المتحدة وإسرائيل. وكان واضحا من لهجة سؤالى أننى لا أتحدث عن ظواهر العلاقات وإنما عن بواطنها، وكان الملك فى كل مرة يجيب بلباقة!

مرة واحدة - لم تتكرر لا قبل ولا بعد - تخلت اللباقة عن الملك أو هو تخلى عنها.

كان ذلك أثناء مؤتمر قمة القاهرة فى سبتمبر ١٩٧٠، وكان الصدام الدامى بين جيش الملك «حسين» وفصائل من المقاومة الفلسطينية قد حوَّل الأردن إلى ميدان قتال حقيقى. ودعت مصر إلى مؤتمر قمة عربى يتدارك الكارثة. وبعد تردُّد وتمنُّع جاء الملك «حسين»، وجاء - فيما أحسست - وهو على استعداد لأن يقلب الموائد على الذين حاولوا قلبها عليه. وأمكن بصعوبة تفادى انفجار مؤتمر القمة، وتشكلت لجنتان إحداهما سياسية، والثانية عسكرية لمتابعة الحلول التى توصل إليها الملوك والرؤساء بعد عناء. وكانت اللجنة السياسية تضم كلا من السيد «حسين الشافعى» نائب رئيس الجمهورية، والسيد «الباهى الأدغم» رئيس وزراء تونس، وكنت معهما (عضوا فى الوفد المصرى كوزير للإعلام ذلك الوقت)، وكنت (ضمن هذه اللجنة)

مسئولا عن التنسيق مع اللجنة الأخرى العسكرية، وكان نظيرى فيها الفريق «محمد أحمد صادق» رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية.

واقتضى الأمر أن تلتقى اللجنتان مع الملك «حسين» قبل عودته إلى عمّان بعد انتهاء دوره فى المؤتمر، وقد كان لديه كثير يواجهه هناك.

وذهبت قبل الآخرين بعشر دقائق إلى جناح الملك، ووجدته شاعرا بكثير من الضيق والمرارة، وسمحت لنفسى أن أقول له إن بعض ما رآه من زملائه ملوك الدول العربية ورؤسائها يمكن تفسيره بما سمعوا عنه وأحسوا به من علاقات له مع قوى يعادونها وتعاديهم.

وتخلّت عن الملك لباقته ـ أو هو تخلّى عنها ـ لأن صبره نفد، واندفع إلى الرد بضيق، ولم أشأ مقاطعته مدركا أن مشاعره تتحدث وليس حذره.

أول ما قاله: «إن هؤلاء الذين يعادون الآخرين ويعاديهم الآخرون ـ أكثرهم منافقون، فهم يقولون فى العلن عكس ما يفعلون فى السر، وهو على علم. وإذا قرر أن يتكلم فإن بعضهم سوف يلزم الصمت ربما إلى الأبد»!

ثم انتقل ليقول: «ماذا يريد منى هؤلاء؟ بلدى فى حاجة وهم لا يعطون شيئا، وإذا أعطوا فقطرة قطرة. وبلدى مُعرَّض للخطر وليس فيهم من يستطيع أن يبعث جنديا إلى خندق أو يطلق رصاصة فى اشتباك».

وضغط الملك على كلامه وهو يقول: «إذا كان بينهم من يتصوّر أننى أتصرف فى سياسة الأردن من موقف يملك ترف الاختيار فهو «يكذب». إننى أعرف أن هناك من ينتظر حركة «غير مسئولة» أقوم بها ثم يتخذها ذريعة لابتلاع البلد كله، وساعتها سوف أسمع وأقرأ بيانات تنديد ويذهب الأردن إلى حيث ذهبت فلسطين قبله.. هل هذا ما يريده منّى..!!
(وذكر الملك بعض الأسماء)!

ولاحظت أن الملك لم يتوقف فى حديثه عندما دخل الآخرون من الذين كان مقررا أن يراهم قبل سفره (رئيس وزراء تونس ـ ونائب رئيس الجمهورية المصرى ـ ورئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرى) ـ وإنما استمر مكررا ما كان يقول، ومن أوله!



فيما بعد أيضا، وكنت أتحدث عنه مع الملك «خوان كارلوس» ملك أسبانيا، روى لى كيف شرح له الملك «حسين» ذات مرة موقفه.

كان الملك «حسين» مع الملك «خوان كارلوس» يحضران مباراة مصارعة ثيران مهمة فى مدينة «أشبيلية»، وبعد انتهاء المباراة راح الملك «خوان كارلوس» يشرح لضيفه أسلوب مصارع الثيران فى مواجهة ثور هائج يهاجمه ولابد لأحدهما أن يقتل الآخر، وذُهش ملك أسبانيا حين سمع تعليق صديقه ملك الأردن الذى قال له:

«إننى أعرف ما تتحدث عنه، وأنا أجرّبه كل يوم فى المنطقة التى أعيش فيها، وحالى أخطر من حال المصارع الذى تتحدث عنه، فهو على الأقل يواجه ثورا واحدا، وأنا عندى كل يوم فى المنطقة عشرة ثيران على الأقل، وكلها هائجة، وكلها تهجم، وكلها مواجهات يمكن أن تؤدى إلى القتل.

ومصارعك الأسبانى لديه مساعدون يحملون السنون والحراب، وأما أنا ففى الحلبة وحدى، وأحيانا تجىء إلىّ السنون والحراب من وراء ظهرى!

وسألنى الملك «خوان كارلوس»:

«هل حسين مبالغ فى وصف صعوبة موقفه»؟!

ورددت على الملك، وكنا فى مكتبه فى قصر «زرزويلا»: «إن الصورة فنية ونابضة بالحيوية، لكنى فى الحقيقة لا أعرف، لأن كثيرا فى شخصية الملك يحيرنى رغم محاولات من ناحيتى مستمرة لفهمه...»

ثم جاء كتاب «بن برادلى».

طبقا لمعلومات أولية، فإن هناك سيناريو تجرى كتابته الآن لمستقبل الشرق الأوسط فى مطالع القرن الواحد والعشرين. وهذا السيناريو نوقش مرة أخرى فى واشنطن ولندن فى الأسابيع الأخيرة من حياة الملك حسين

أحد زعماء العشائر يقبل يد «سيدنا»



[٩]

سوف يظل معى إلى مدى لا أستطيع تقديره ـ شعور يمتزج فيه نوع من الحزن المبهم ونوع من الندم المتفحم على أننى فوّت الفرصة لسؤال الملك «حسين» فيما نشره «بن برادلى» وضمنه خطاب يؤكد ويعزز من رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت «جيمى كارتر».

والذى حدث أننى قابلت الملك مرة فى قاعة الطعام فى فندق «كلاريدج» وكان معه ضيوف لا أعرفهم، ودعانى بعد انصرافهم إلى فنجان قهوة تحدثنا فيه قرابة ساعة تركّز معظمها على الموقف فى العراق والخليج. وخطر لى فى إحدى اللحظات أن أفتح السيرة، لكننى على نحو ما لم أجد الهمّة الكافية لطرح السؤال الذى يلح علىّ. كان السؤال محرجا، ولم أكن أريد أن أحوّل السؤال إلى استجواب، ثم يتحوّل الاستجواب إلى اتهام تصورت وقتها أنه لا يصح ولا يليق.

وقد عرانى فيما بعد شعور اختلط فيه ملمس الشوك بطعم الرماد، وكان ذلك الإحساس هو الذى دعانى إلى الاعتذار عن الذهاب إلى عمّان مرتين دُعيت فيهما إلى هناك.

وحاولت أن أذكر نفسى بأن الحقيقة ليس لها وجه واحد ـ وأن السعى للفهم مطلوب قبل التصدى للحكم، لكنى هذه المرة لم أكن متأكدا، لأن إلحاح السؤال كان طاغيا فوق أى إجابة عليه!

هل تكفى حَشْرة الجغرافيا؟ وهل تكفى مشاكل ومآسى التاريخ وعُقَده؟ وهل تكفى مفاجآت العصور والأزمنة؟ وهل تكفى ضغوط ـ وحتى أهوال ـ تجربة شخصية لملك عربى فرضت عليه ظروفه أن يتحرك بسرعة إلى حافة الخطر ثم يعود فى الثانية الأخيرة بشبه معجزة؟

ثم أين هو الخط الفاصل بين المرونة والسيولة، والممكن وغير الممكن؟

أين هذا الخط الفاصل خصوصا بعد أن تنسحب من الذاكرة أصوات وأصداء نص جنائزى كان فى حد ذاته مهيبا وجليلا؟

إن الرؤساء الأمريكيين الأربعة (رئيس حالى هو كلينتون، وثلاثة سابقون هم «بوش» و«كارتر» و«فورد»، كانوا بين جميع الأدوار فى النص الجنائزى ـ الأقرب إلى وضوح المشاعر أمام جثمان الملك «حسين»، لأنهم كانوا الأقرب إلى جوهر الحقيقة الوافية الشافية من أى شك!

بعدهم فى قائمة وضوح المشاعر كان قادة إسرائيل الذين لم يتخلف منهم واحد عن الوقوف بالصلاة أمام الجثمان، وقد مشوا جميعا صفّا متصلا رغم أنهم على الضفة الأخرى من النهر منهمكون فى معارك تقارب الحرب الأهلية.

يزيد على ذلك ـ وكما بان من قبل ـ أنه لم يكن لهذا الوضوح فى المشاعر علاقة بالماضى ولا بالتاريخ، لأن مجتمع الدول لا وقت عنده للمآتم ولأن الحياة وحدها شاغله، وقد يتأثر مجتمع الدول لفقد صديق، لكنه لا يتوقف، وقد ينكس مجتمع الدول أعلامه حدادا، لكن ذلك حكم المراسم دون أن تتحوّل الأعلام إلى مناديل تُجفّف الدموع.

وإذا كان ذلك صحيحا ـ وأظنه صحيحا ـ إذن فماذا كان هدف الوقوف بالخشوع من جانب الرؤساء الأمريكيين ـ الأربعة ـ والقادة الإسرائيليين ـ بالعشرات ـ أمام جثمان ملك عربى له بالتأكيد مزايا ـ لكنه الآن بين يدى ربه وحيث لا تستطيع مزاياه أن تساعد أصدقاءه فى هذه الدنيا؟

* ولا يصلح للإجابة عن هذا السؤال أن يقال إن الخاشعين أمام الجثمان كانوا خائفين على أمن الأردن وبقائه بعد رحيل الملك ـ ذلك أن الكل يعرف أن الأردن ليس مُعرّضا لخطر لأن معادلة أمنه مضمونة إقليميا ودوليا لأسباب تتخطى حدود الأردن وتصل إلى إستراتيجية الحفاظ على توازن ما بين البحر الأبيض إلى الخليج وما بين البحر الأحمر إلى البحر الأسود!

* وكذلك لا يصلح للإجابة أن يقال إن أصدقاء الأردن هرعوا إلى عاصمته ليتلقوا درسا فى شرعية انتقال السلطة من جيل إلى جيل، سلميا وديمقراطيا، لأن هؤلاء جميعا كان لهم قول فى انتقال السلطة!



وإذن ما هى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال الدقيق إذا كان ما سبق ليس صالحا؟

لقد أشرت فى بداية هذا الحديث إلى نصوص سبقت ذلك النص الجنائزى الأخير فى تشييع الملك «حسين».

وأضيف ـ وهذا الحديث يوشك على بلوغ نهايته ـ أن هناك فيما يبدو مطالب أخرى ـ غير ما ورد ذكره من قبل ـ وكلها مطالب تبحث عن فرصة وراء جلال الموت ووراء زحام الجنازات، وبينها على الأرجح:

١ـ أن الولايات المتحدة وإسرائيل ـ وربما غيرهما ـ بكل هذا الذى حدث فى جنازة الملك «حسين» قصدوا أن يقولوا لكل من يعنيه الأمر فى المنطقة أن فى يدهم وحدهم ـ وبوسائلهم وليس وسائل غيرهم ـ الحق والقدرة على تدشين الأبطال وترسيم القدّيسين فى منطقة الشرق الأوسط.

وتلك قضية لابد أن تُؤخذ باهتمام وأن تُدرس بجد لأن المعنى الكامن فيها ـ سلطان!

٢ـ إن جميع الأطراف عليهم أن يفهموا ـ عن طريق الحدس إذا لم يقدروا عن طريق العلم ـ أن الأردن طرف فى ترتيب إقليمى يضم أربع دول هى الولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا والأردن، وهذا الترتيب هو المدير المقيم للأمن فى المنطقة، وكل من عداهم مساعد أو مشارك وفق مواقع الأزمات! ولذلك فإن دور الملك «حسين» فى هذا الترتيب كان أهم الأدوار العربية.

....

....

[يستحق التسجيل هنا أن «إيتان هابر» مدير مكتب رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «إسحاق رابين» سئل فى برنامج تلفزيونى إخبارى (عنوانه «بوليتيكا») أذيع غداة تشييع جنازة الملك «حسين»، عن «السبب الذى جعل كل قيادات إسرائيل تسعى على هذا النحو إلى المشاركة فى جنازة الملك حسين؟» ـ كان السائل هو زعيم حزب «موليدت»، وكان رد مدير مكتب «رابين» على الهواء هو قوله بالحرف: «لو عرفت مع فعله الملك من أجل أمن إسرائيل لما سعيت وراء جنازته فقط وإنما هرولت»!].

٣ـ إن هناك دورا فى المنطقة لخليفة يتبع خطى الملك ـ وليس بالضرورة أن يكون ولىّ عهده ـ فالملك الجديد فى الأردن شاب، ومازال أمامه الكثير يتعلمه رغم كل ما تعلم من والده (ومن سوء الحظ أن «جولدى دور» سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة وقف أمام عدسات الـ C.N.N. يوم جنازة الملك «حسين» ليقول: «إن أول درس علّمه الملك لأولاده هو أهمية العلاقة الحميمة مع إسرائيل»).

ومع أن أبناء الملك يمكن أن يتعلموا، فإنهم يظلون فى حاجة إلى التجربة ترسخ معارفهم، وحتى يتحقق ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن بديل يدخل فى ملابس الدور!

وربما ـ ربما! ـ كانت للملك «حسين» أعذار من الجغرافيا والتاريخ والعصر، لكن هذه

الأعذار يصعب استعارتها لآخرين مهما بلغ حجم الغواية أو الضغط. وكان كلاهما - الغواية والضغط - ماثلا في جنازة المَلك «حسين» - رسالة موجهة إلى كل من يهمه الأمر ولديه الاستعداد والقدرة!!

٤- وحتى إذا استطاع أحد أن يملأ الفراغ الذى تركه المَلك «حسين»، فقد كان للأردن - كما هو الآن ودون حاجة إلى تجربة - دور يمكنه القيام به إذا وجد العهد الجديد فيه جرأة الخيال وجسارة القبول بالمخاطرة.

وهذه محطة على مسار هذا الحديث تستحق الوقوف عندها!



محطة تستحق الوقوف عندها لأن بعض الطريق وراءها - إذا صدقت معلومات أولية مازالت تحتاج إلى تأكيد - سوف يصل بآثاره فى مستقبل المنطقة إلى بعيد على خرائط الجغرافيا وخرائط التاريخ وخرائط السياسة فيها - ليرسم عليها ألوانا وخطوطا وعلامات مستجدة.

وطبقا لمعلومات أولية فإن هناك «سيناريو» - كما يقولون - تجرى كتابته الآن لمستقبل الشرق الأوسط فى مطالع القرن الواحد والعشرين. وهذا «السيناريو» نوقش (مرة أخرى) فى واشنطن ولندن فى الأسابيع الأخيرة من حياة المَلك «حسين»، وبالتحديد فى الفترة التى خرج فيها المَلك من مستشفى «مايو كلينيك» فى شهر ديسمبر الماضى وقضى أكثر من أسبوعين بين واشنطن ولندن - والكل - بما فيهم هو نفسه - عارف أنه المشهد الأخير قبل نزول الستار!

إن السيناريو - كما أسلفت - جرت مناقشته - لكن غير الواضح هو ما إذا كان اعْتُمد أو تأجل اعتماده بعد المناقشة - ذلك أن المَلك رغم حماسته كانت لديه تحفظات على بنيان «السيناريو» وعلى سياقه (وربما تكون هذه التحفظات قائمة بعده فى عَمّان، وربما حدث تغيير!).

كان «السيناريو» الذى نوقش - ولايزال - فى واشنطن ولندن على النحو التالى:

١- إن الأردن - فى الغالب - قد لا يكون له دور إضافى فيما يسمى بعملية سلام الشرق الأوسط، وذلك سوف يخلق فيه ومن حوله فراغات يمكن أن تكون لها مخاطر.

٢- إن بؤرة التوتر فى الشرق الأوسط التى انتقلت سابقا من شواطئ البحر الأبيض والبحر الأحمر إلى الخليج - تنتقل الآن من الخليج إلى ما فوقه، أى إلى حدود الاتحاد السوفيتى السابق، وبحيث تشمل منطقة التوتر الكبير القادم مستقبل العراق (وإيران؟) - ومناطق الأكراد (وتركيا؟) - وأفغانستان (وممتدة منها إلى كازاخستان وعبر القوقاز وحتى إلى كوسوفو على أطراف البلقان).

٣- إن الاستعداد للتفاعلات المحتملة والمتفجرة لبؤرة التوتر الجديدة يقتضى الخلاص من النظام الحالى فى العراق. وهذا النظام حتى هذه اللحظة لا يريد أن يذهب - ومع أنه منهك بالحصار الاقتصادى الخانق وبالعمليات العسكرية من «عاصفة الصحراء» إلى «ثعلب الصحراء»، ثم بالغارات الجوية المستمرة إلى الآن - فإن هدف إسقاطه لم يتحقق بعد. والحل الذى يراه معظم الخبراء أنه لابد من وجود قوة عسكرية قريبة على الأرض قادرة على التدخل بشكل ما فى لحظة تتهيأ فيها الأجواء بحدث داخلى يتصادف وقوعه أو يمكن ترتيبه!

٤- وليس هناك من لديه فى المنطقة مثل هذه القوة العسكرية القادرة على التدخل للحسم فى العراق إلا الأردن. ذلك أن دول الخليج المعنية قبل غيرها بالتغيير فى بغداد لا تملك قوة تقدر على العمل فى ميدان قتال حقيقى. وكان هذا الخيار معروضا على المَلك «حسين» وكان فيه ما يلبى أحلاما قديمة لديه (سواء من طموحه الشخصى أو من اعتقاد أنه الوريث الشرعى للهاشميين فى بغداد)، لكن المَلك وإن تحمس أحيانا تردد فى اللحظات الحَرجة شكًا فى أوضاع الإقليم المحيط به وقلقا من نوايا بعض الحكام القريبين من حدوده.

٥- وكان بين بنود «السيناريو» المقترح تَصَوُّر يرى بإضفاء الشرعية والطمأنينة على أى دور أردنى فى هذا السيناريو عن طريق دعوة الأردن للانضمام إلى مجلس التعاون الخليجى - خصوصا وقد تَكفّلت الأقدار بشكوك لدى «بعض الشيوخ» فى موقف المَلك «حسين» أثناء غزو الكويت - والأمل أن يقوم خلفٌ له فى عهد جديد بما هو مطلوب ضمن شرعية خليجية توفر له فى نفس الوقت مطالبه المادية والسياسية والمعنوية (بما فى ذلك مخزون معدات عسكرية مكدَّسة تبحث عمن يستعملها) - إن المَلك «حسين» لم يكن قادرا على التأقلم مع مثل هذا التصوّر. وكان بين تحفظاته أنه يريد أن يعرف بالتحديد ما يحق للأردن أن يتوقعه فى ختام هذا «السيناريو» (وإذا كان يستطيع ضمان عرش العراق لواحد من أبنائه) - علمًا بأن إسرائيل كانت على استعداد لإعطاء ضوء أخضر لهذه الفكرة (باحتمال أنها تستطيع تهجير مئات ألوف من الفلسطينيين إلى شمال العراق).

إن الذين فكروا وناقشوا فى واشنطن ولندن كانوا يعرفون طبيعة المَلك «حسين»، وقد خبروا ما اعتبروه ترددا وبالذات فى موضوع السلام مع إسرائيل. فقد تصوّروه مقبلا على صلح منفرد معها - بحقائق الأشياء - بعد سنة ١٩٦٧، وبعد سنة ١٩٧٣، وبعد «كامب ديفيد» - لكن المَلك لم يرض بمجاراة تصوراتهم رغم علاقته الوثيقة دون اتفاقات صلح مع إسرائيل - لأنه لم يكن يريد أن يكون السابق علانية، ولا الثانى - كان يريد لمقتضيات سلامته أن يكون الثالث أو حتى الرابع إذا استطاع.

لكن البعض فى واشنطن ولندن يرون الآن ظروفا متغيرة، وإمكانيات متاحة، وأهدافا جاء وقت تحقيقها خصوصا أن مطلب الصلح بين العرب وإسرائيل يمكن اعتباره الآن عصفورا فى اليد وليس بين العصافير على الشجرة!



هكذا فإن دور الرؤساء الأمريكيين الأربعة فى النص الجنائزى لتشييع المَلك «حسين» لم تكن له علاقة بالماضى أو التاريخ، ومع أن هذا النص الجديد تشابه مع نَصّين سابقين فإنه فى هذه المرة الثالثة تخطى وتجاوز رغم كل ماقالت به الصور. وكان يقال فى وقت من الأوقات أن الصور لا تكذب، ولكن الأزمنة الجديدة أثبتت أن الصور (خصوصا فى الشرق الأوسط!) يمكن أن تكون أكبر محترف للكذب فى التاريخ. ويكفى أن يتذكر أحد صورة الملك «حسين» فى ذهابه إلى الأردن - حيا آخر مرة - وهو يطل على مستقبليه من مقعد قائد الطائرة وكأنه كان يقودها عبر الأجواء من لندن إلى عمَّان . بينما هو يعرف أن أيامه معدودة وأنه وداعه الأخير لعاصمة مُلكه!

وربما أن خداع الصوَر تفوق على نفسه عندما تجرى المقارنة بين صور تفصل بينها ساعات قليلة. صور للمَلك يُصَلى على أرض مطار عمّان شكرا على أن الله شفاه - ثم صور تالية لها تظهر فيها رسالة المَلك إلى شقيقه الأمير «حسن» ، فإذا الصور لرجل مختلف لم يَعُد ليقيم صَلاته على أرض وطنه، وإنما عاد - وربما كانت لديه أعذاره فهو الأدرى - ليُصفى حساباته مع شقيق له - بألفاظ مثل الهمز واللمز، واغتياب الزوجات والأبناء، والغدر بالأحباب والأصدقاء، والحنث بالوعود والعهود، واللعب غير المسئول بالأمن والسلاح. وكانت الساعات بين أداء الصلوات شكرا وتصفية الحسابات مع الشقيق علنًا مأساة إغريقية تؤكد لمن يهمه الدرس أن الحضارة والتكنولوجيا لم تتركا فى العالم الثالث إلا خدوشا على السطح. وأما تحت السطح فمعظمه لا يزال حيث كان قبل قرون من الزمان فى مشاهد القتل والاقتتال والنحر والانتحار فى ملاحم الإلياذة وفواجعها الدامية!

والفهم مطلوب قبل الحكم - وباستمرار.

لكنه يخطر ببالى أحيانا أن الفهم ضرورى إلى الحد اللازم - ولكن ليس بعده. لأن الزيادة فى الفهم قد تجنح بالأحكام إلى حيث تضيع الحدود!

وبين هواجسى أخيرا أن البشر إذا زاد فهمهم قَدَّروا - وإذا قَدَّروا فقد تركوا التسامح يغلبهم وعَذَروا - وإذا عَذَروا فإنهم فى نفس اللحظة حتى وإن لم يقصدوا غفروا.

والغفران ليس مِلْكَ البشر، وإنما مِلْكُ التاريخ وحده، بمقدار ما أن التاريخ كله مملكة الله! ▩

الهوامش:

(١) حسين وُلد الأمير «على» ١٩٧٥. أول أبناء الملك «حسين» من الملكة «عالية» (طوقان) بعث المَلك «حسين» برسالة مكتوبة إلى مجلس النواب الأردنى يبدى فيها نيته فى اختيار «على» وليا للعهد عندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره.

(٢) ذكر الدكتور «محمد حسن عبد الله» أستاذ النقد الأدبى بجامعة القاهرة فى مقال بالأهرام (١٩ فبراير الماضى) أن تقاليد بعض القبائل العربية كانت بعد رحيل الفارس تقتل حصانه حتى لايركبه بعده غيره.

(٣) كان مُرتَّب الملك «عبدالله» ثلاثة آلاف جنيه استرلينى فى الشهر (٣٦ ألفا فى السنة). وكان المَلك يشعر أن المبلغ لا يكفيه. وابتداء من الثلاثينات بدأ المَلك يتلقى عائدا منتظما من جهات يهودية تولت أمر استغلال أملاك له فى فلسطين.

(٤) لقاء طويل مع المَلك «حسين» فى فندق «كريون» فى باريس - سبتمبر ١٩٦٣ . وكان الذى جاء لاصطحابى من غرفتى فى الدور الثانى إلى الجناح المَلكى فى الطابق الأعلى هو المقدم «عمر المدنى» الملحق العسكرى الأردنى فى سوريا ولبنان ذلك الوقت، وكان المرافق العسكرى للمَلك فى زيارته تلك للعاصمة الفرنسية.

(٥) صدر الكتاب ضمن مجموعة «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» عن دار «الشروق» خلال سنة ١٩٩٦.

(٦) ظروف الحصول على الوثيقة منشورة فى كتاب «الانفجار» (صفحة ٦٦٢-٦٦٦)، كما أن صورتها منشورة فى الملحق الوثائقى للكتاب (صفحة ١٠٢٠). وقد صدر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٩٩٠.

«إن الهرب من الموت موت، وطلب الحياة حياة..
وإن الحرية هى شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم المفسوح، والإسارة هى شجرة الزقوم، وسقياها أنهار من دم المخاليق المخانيق».

الكواكبى



«أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإن لكل شىء جهتين: جهة مدح، وجهة ذم، فإما أن تساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى. فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثانى، وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما فى سلسلة الاختلاف فى طرفها الأخير».

مصطفى لطفى المنفلوطى



كانت ميول كيسنجر الواقعية
المتشددة، وتركيزه علي الأمر الواقع وتوازن القوي،
تدفعـه إلي تجاهـل قضـايا العـدالة الاجتماعيـة،
وحقوق الإنسان، والأخلاق. وكانت مثل هذه الأمور ثانوية،
بل ولا صلة لها بـ«التوازن»، و«النظام»، و«الاستقرار الدولي»،
والوثائق التي رفعت عنها السرية برهان ساطع علي جهود
كيسنجر لتنفيذ دبلوماسيته بغض النظر عما تتكبده
الدول الصغيرة، كما أنه لم يجد حرجا في الكذب
والغش من أجل مصلحة بلاده



اللعـــب عـــلى حســـاب

فـــواز جـــرجـس

يقدم الكتاب - لأول مرة - نصوصاً مطبوعةً، ورفعت عنها السرية لمحادثات هنري كيسنجر العديدة مع قادة الصين والاتحاد السوفيتي عندما كان مساعداً خاصاً لرئيس شئون الأمن القومي وبعد ذلك كوزير للخارجية، في عهد كل من ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد. وتكتسب هذه الوثائق التي رفعت السرية عنها مؤخراً قدرًا غير عادي من الأهمية، نتيجة للضوء الذي تلقيه على سلوك الشخصيات التاريخية الكبرى وتفاعلاتها الدبلوماسية خلال مرحلة شديدة الأهمية من تاريخ الحرب الباردة. وهي المرحلة التي سعت فيها إدارة نيكسون إلى تحقيق الوفاق الدولي - أي القضاء على التوترات القائمة مع عدوها القوي الاتحاد السوفيتي، وإعادة العلاقات الودية مع حليفها القديم جمهورية الصين الشعبية. وهذه السنوات ذات الأثر المهم - الممتدة من ١٩٧١ حتى خروج كيسنجر من وزارة الخارجية في سنة ١٩٧٦ - تغطي، بالإضافة إلى دبلوماسية القوى الكبرى، أحداثاً إقليمية مهمة من بينها الحرب العربية الإسرائيلية في أكتوبر ١٩٧٣، ودبلوماسية كيسنجر المكوكية بين القاهرة وتل أبيب ودمشق وغيرها من العواصم العربية والشرق أوسطية، والحظر العربي على تصدير البترول، ورد فعل كيسنجر ومحاولته إجبار الدول العربية المنتجة للبترول على إنهاء الحظر، وخطة كيسنجر الاستراتيجية لإبعاد الاتحاد السوفيتي عن دبلوماسية الشرق الأوسط وفرض الهيمنة الأمريكية على المنطقة.

والمؤكد أن اهتمام كيسنجر بالشرق الأوسط لم يكن نابعاً من أي فهم متدرج أو تعاطف مع الأطراف المحلية، (على الرغم من أنه ظل ينظر دومًا إلى إسرائيل على أنها حليف متميز)، وإنما من اهتمامه بالنظام والاستقرار العالمين. بعبارة أخرى، لم يكن كيسنجر مهتماً بالشرق الأوسط في حد ذاته، ولكن باحتمال أن تقلب المنطقة الميزان الدولي وتعكر صفو العلاقات بين القوى الكبرى. ولم يكن كيسنجر يكن لثوار العالم الثالث والنزعة القومية في الدول الصغيرة سوى الازدراء. وقد عبر صراحة عن مشاعره: فقادة العالم الثالث، بما لديهم من «إحساس بسيط بالمسئولية نحو التوازن العالمي الشامل» يمكن أن «يبتزوا» إحدى القوتين الأعظم أو كلتيهما - أو حتى يهددون السلام - مستغلين تنافسهما.

وربما كان أفضل ما يوضح ازدراء كيسنجر للدول الصغيرة هو ما حدث خلال مواجهة كلامية جرت سنة ١٩٦٩ مع وزير خارجية شيلي جابرييل فالديس، الذي جرؤ على أن يعطي درساً لنيكسون في تعقد العلاقات بين الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية، ولم

The Kissinger Transcripts, The Top Secret Talks with Beijing & Moscow.
(محاضر كيسنجر: المحادثات فائقة السرية مع بكين وموسكو)
William Burr (editor)
New York: The New Press, 1999.

العـــــرب !

يتردد كيسنجر في أن يرد علي الرجل بإهانة يشرحها فالديس الذي يشير إلى أن كيسنجر بدأ بقوله:

«سيدي الوزير، لقد ألقيت خطابًا غريبًا، إنك تأتي إلى هنا لتتحدث عن أمريكا اللاتينية، غير أن هذا ليس مهماً. فلا يأتي من الجنوب أي شيء مهم. والتاريخ لم يصنع قط في الجنوب. إن محور التاريخ يبدأ في موسكو، ويتجه إلى بون، ثم يمتد إلى واشنطن، وبعد ذلك يتجه إلى طوكيو. إن ما يحدث في الجنوب لا أهمية له. فأنت تضيع وقتك».

وتتضح أفكار كيسنجر أكثر ما تتضح في كتابه *A World Restored*، وهو دراسة حول الدبلوماسية الأوروبية في القرن التاسع عشر وميزان القوة في أعقاب انتهاء الحرب النابليونية التي استمرت من ١٧٨٠ حتى ١٨١٤ وكان كيسنجر يعتقد أن النظام يقتضي «توازناً للقوة» يقوم على فرض القيود على المشاركين من الدول الأقل تعاوناً . وكان كيسنجر يرى أن الاستقرار هو هدف التوازن الأساسي، وكان يعتقد أن من الواجب على كل الدول أن تتعاون في الحفاظ على التوازن، وفي تجنب الأفعال الحاسمة التي يمكن أن تحدث اضطراباً في «الميزان الأخلاقي» العالمي. وأخيراً كان كيسنجر يعتقد أن شرعية أي نظام لا تعتمد على صفاته الداخلية، قدر اعتمادها على كون سياسته متوافقة مع التوازن والاستقرار الدوليين.

وكانت ميول كيسنجر الواقعية المتشددة، وتركيزه على الأمر الواقع وتوازن القوى، تدفعه إلى تجاهل قضايا العدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان، والأخلاق. وكانت مثل هذه الأمور ثانوية، بل لا صلة لها «بالتوازن »، و«النظام»، و«الاستقرار الدولي». فقد ضحى كيسنجر بمسائل حقوق الإنسان والعدالة على مذبح «الدبلوماسية المثلثة» الخاصة به – والتى كانت تركز علي السعي إلى توجيه وتشكيل العلاقات مع الاتحاد السوفيتي والصين لما فيه مصلحة الولايات المتحدة. والواقع أن الوثائق التي رفعت عنها السرية تعد بمثابة برهان ساطع على جهود كيسنجر لتنفيذ الدبلوماسية المثلثة بغض النظر عما تتكبده الدول الصغيرة، أو حتى الاهتمام بالأخلاق وحقوق الإنسان والحقيقة.

وإذا كان هناك وصف لتعامل كيسنجر بقسوة مع الدبلوماسية الدولية: فهو الاحتيال السياسي. وكانت تكتيكاته التي تقوم على الاحتيال، وغروره، والتغاضي عن الحق تعزز جميعاً صورة كيسنجر باعتباره سياسياً كان يتمتع بقدر كبير من اللامبالاة بالأعراف، كما كان مقتنعا تماما بأفكار الدبلوماسية الأوروبية في القرن التاسع عشر. وحسبما قاله الدبلوماسي الفرنسي الكلاسيكي داغاليا، فإنه ينبغي إعداد أي دبلوماسي وأي سياسي كي يكذب ويغش من أجل مصلحة بلاده. ولم يجد كيسنجر حرجاً في القيام بذلك.

وقد كشف غرور كيسنجر عن نفسه في تباهيه بنفوذه وفي إبدائه ملاحظات مشينة عن مساعديه، بل وعن نيكسون نفسه. وعندما كتب السفير الروسي لدى الولايات المتحدة أناتولي دوبرينن، الذي اتسم بقوة الملاحظة، إلى رؤسائه في الكريملين، وصف كيسنجر بأنه «شخص ذكي وواسع المعرفة، ... ومختال إلى حد كبير». وكدليل على نفوذ كيسنجر وغروره، نقل دوبرينن عنه قوله:

«هناك شخصان فقط يمكنهما أن يجيبا إجابة محددة في أية لحظة بخصوص موقف الولايات المتحدة بشأن هذه المسألة أو تلك: وهما الرئيس نيكسون وكيسنجر».

ومع ذلك كان دوبرينن يعتقد أن التباهي له شيء من الأساس: فقد كان لكيسنجر «وضع ثابت» في البيت الأبيض، وكان هو صاحب «التأثير المسيطر على الرئيس في مجال السياسة الخارجية».



والأمر الأكثر إثارة فيما يتعلق بتلك الوثائق السرية هو أنها تكشف مدى محاولات كيسنجر لإثارة العملاقين الشيوعيين – الاتحاد السوفيتي والصين – أحدهما ضد الآخر. ويكمن في جوهر استراتيجية نيكسون/كيسنجر الخاصة بالحرب الباردة، ثم بالوفاق، السعي من أجل توازن يقوم على التنافر الصيني السوفيتي، والتعاون مع موسكو، والميل المستتر نحو بكين، بينما يسعى لضمان أن أياً من القوتين الشيوعيتين لن تصبح على علاقة وثيقة بحلفاء أمريكا في آسيا وأوروبا. وقد اتضح ميل واشنطن نحو بكين في محاولة كيسنجر تحسين العلاقات مع الصين وتعميقها، والمشاركة في المعلومات الاستخبارية، وفتح خط ساخن لتحذير الصينيين في حال حدوث تطورات طارئة. وحتى بعد أن بدا الوفاق الأمريكي السوفيتي راسخاً بعد ١٩٧٢، تبين الوثائق أن كيسنجر حذر الصينيين من احتمال حدوث هجوم سوفيتي في منتصف السبعينيات. كما أنه في مسعاد لإقامة تحالف «ضمني» مع بكين، بالغ بطبيعة الحال في حجم التهديد السوفيتي للصين.



ومع ذلك لم ينخدع القادة الصينيون بتكتيكات كيسنجر، حيث أوضحوا له أن موسكو كانت تمثل تهديداً لواشنطن أكثر من تهديدها لبلادهم. فعلى سبيل المثال، أبلغ نائب رئيس الوزراء الصينى شياوبنج دنج كيسنجر في اجتماع معه سنة ١٩٧٤ أن «القوة العسكرية السوفيتية في الشرق ليست موجهة ضد الصين وحسب، بل هي موجهة كذلك ضد اليابان، وأسطولكم السابع، وقواتكم الجوية والبحرية». ورغم أن الوثائق تبين أن القادة الصينيين، ماو تسي تونج وشو إين لاي ودنج شياوبنج، كانوا يخشون السوفييت وبذلوا الجهد لمنع أي هجوم سوفيتي محتمل على بلادهم، فقد بدا أنهم يعتقدون أن كيسنجر حاول التلاعب بهم. وقد يفسر هذا الواقع الطريق المسدود الذي وصلت إليه العلاقات الصينية الأمريكية خلال عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥

وأثبت تناول كيسنجر لدبلوماسية القوى العظمى، الذي يقوم على التلاعب، نجاحه من الناحية التكتيكية على المدى القصير. وأكثر ما يهمني هو مدى الشك وعدم الثقة الذي أبداه القادة الصينيون نحو نظيرهم الشيوعي – الاتحاد السوفيتي. وهو ما تكشفه لقاءات القادة الصينيين المطولة مع كيسنجر التي أطلعهم فيها على الأزمات العالمية، بما في ذلك أزمة الشرق الأوسط، والتي عكست اهتمامهم العميق بالطريقة التي يمكن بها لأحداث وتطورات بعينها أن تحد من النفوذ الروسي. وفعلا طلب القادة الصينيون أكثر من مرة من كيسنجر معلومات عن النفوذ السوفيتي القوي في العراق واليمن واستفسروا عن الاحتمالات والاستراتيجيات الخاصة بإزاحة السوفييت من معقلهم هناك. وكان كيسنجر مستعدًا لتقديم العون: فقد أخبرهم بأن الرئيس السورى حافظ الأسد وعد بأنه بعد تحقيق الفصل بين القوات «سوف يتوجه إلى العراق ويعمل على تقليل الوجود السوفيتي في العراق». وفي نوفمبر ١٩٧٣ أثناء زيارته للصين، أبلغ كيسنجر الرئيس ماو أن «استراتيجيتنا مع العراق هي في بادئ الأمر محاولة كسب سوريا وإبعادها عنه، وبعد ذلك تقليل نفوذه في المشيخات الواقعة على الخليج. وبعد ذلك عندما يرى أنه لا يمكنه تحقيق أي شيء باعتماده على الاتحاد السوفيتي، سوف نتجه إليه. ولكن لا بد أن يعلموا أولاً أنهم لا يكسبون شيئاً من مسارهم الحالي».

وكان كيسنجر يلمح إلى حقيقة أن الولايات المتحدة كانت تطبق كلاً من الضغط السياسي والضغط العسكري على العراق كي يغير مسلكه، وأكد لمضيفيه الصينيين أن «إيران نشطة في العراق»، وأنه «يمكنكم أن تحققوا نتائج طيبة مع إيران».

كان كيسنجر يبغي تلقين العراق درساً، كي يعترف بأخطاء الطريقة التي اتبعها. وقال شو إين لاي كذلك إن الأمر سوف يحتاج من العراقيين إلى «فترة من الزمن» كي يغيروا توجههم «بعد أن عانوا منهم». بينما أكد ماو على أن «الموضع الأضعف نسبياً في الموقف العالمي المعاصر سيظل هو العراق». ومن المفارقات، في الماضي والحاضر، أن القوى الكبرى رأت أن مسلك العراق المتمرد لا يمكن السكوت عليه. وواقع الأمر أن كيسنجر رد بالتأكيد على أن «العراق في الوقت الراهن هو أصعب مكان في المنطقة». وهنا ضحك رئيس الوزراء شو إين لاي وقال إن الرئيس معمر القذافي ذهب إلى العراق «لإثارة» المتاعب هناك وحث العراقيين على عدم قبول وقف إطلاق النار الذي اتفق عليه على الجبهة العربية الإسرائيلية. وانضم ماو إلى المناقشة ليقول:

«إنه [القذافي] رجل لا أفهمه. وهناك شخص آخر، وهو رئيس اليمن الجنوبي. فقد اتصل بي الرئيس اليمني الجنوبي. وقال إنه يريد قطع العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وطلب مني المشورة. ولم أنخدع بما قاله وأبلغته بضرورة أن يتدبر عواقب الأمور. وهاهم الآن يربطون أنفسهم ربطاً شديداً بالاتحاد السوفيتي». وصدق كيسنجر على كلامه وقال «نعم، إنهم شديدو الارتباط بالاتحاد السوفيتي. وهم يثيرون المشاكل في كل أنحاء الخليج». وأكد كيسنجر كذلك لمضيفيه الصينيين أن المصريين وعدوا بالمساعدة في إقناع اليمن الجنوبي على تغيير توجهه الموالي للسوفييت.

وفي أكثر من موضع في الكتاب الذي يحرره وليام بير كبير محللي أرشيف الأمن القومي الأمريكي تتتابع مؤشرات ونصوص حوارات لتؤكد أن القيادتين الصينية والأمريكية كان لهما اهتمام مشترك بإضعاف الوجود السوفيتي في الشرق الأوسط. ففي لقاء مهم جرى في بكين ، انتقد ماو نيكسون وكيسنجر نقداً غير مباشر لمساهمتهما في تدعيم الموقف السوفيتي في المنطقة. وأبلغ ماو كيسنجر بطريقة دبلوماسية أن «البعض هنا يرى أنكم أضعتم فرصة لاتخاذ إجراء ما عندما لم تفعلوا ذلك عندما طردت مصر الخبراء العسكريين السوفييت [سنة ١٩٧٢] وأنه كان ينبغي عليكم في ذلك الوقت مساعدة مصر بعض الشيء. وعندما سمعت ذلك فكرت أكثر. فقد اعتقدت أنه بسبب وجود أسطوليكم في ذلك الوقت في كل جنوب شرقي آسيا [فيتنام] ولم تكونوا قد خرجتم منه بعد». ووافقه كيسنجر على ذلك قائلاً: «معك الحق سيدي الرئيس. فقد كانت هناك مشكلتان. إذ كانت لدينا انتخاباتنا. والأمر الثاني أننا كنا لا نزال في فيتنام. ولم يكن بالإمكان معالجة الاثنتين معاً في وقت واحد». وعقب ماو: «هو كذلك. والآن أنتم أقل انشغالاً من قبل». فرد كيسنجر قائلاً: «بكثير». وشجع ماو كيسنجر على التحرك قدماً نحو بناء الجسور مع العالم العربي. وما كان ماو يراد هو أن الرئيس المصري الراحل أنور السادات لم يكن قد سعى سعياً جاداً لإجراء مساومة مع الأمريكان قبل طرد الخبراء العسكريين والفنيين السوفييت من مصر. وبدلاً من ذلك قدم للأمريكان سياسة خارجية تحقق مصلحتهم دون أن يحصل في مقابلها على أية تنازلات. وكان نيكسون وكيسنجر أكثر واقعية من أي من أسلافهما وكانا يحترمان القوة ويقدرانها. وقد أخطأ الرئيس السادات خطأ كبيراً في حساباته.

وأكد ماو لكيسنجر على ضرورة تهدئة مخاوف العرب . كما أبلغ كيسنجر أن العرب ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها تناصر الجانب الإسرائيلي. وأشار الزعيم السوفيتي إلي زيارة نائب الرئيس المصري حسين الشافعي لبكين قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ بقوله:

«جاء إلى هنا وقال إنهم لا يثقون فيكم. كما قال إنكم منحازون لإسرائيل. وقلت أنا إن الأمر ليس كذلك بالضرورة. كما أن هؤلاء الذين ينحدرون من أصول يهودية ليسوا كتلة من نسيج واحد؛ فنحن على سبيل المثال تعاملنا مع إنجلز [وهو منظر ألماني يهودي] ولم نتعامل مع غيره من اليهود الرأسماليين». ورد كيسنجر قائلاً إن «المشكلة في الشرق الأوسط هي الحيلولة دون سيطرة الاتحاد السوفيتي عليه». غير أن ماو اختلف معه وقال: «إنهم [السوفييت] لا يحتمل أن يسيطروا على الشرق الأوسط. ذلك أنه رغم عظم طموحهم، فإن قدراتهم ضعيفة. ولنأخذ كوبا، على سبيل المثال. لقد أفزعتموهم ففروا من هناك».

كان الاتحاد السوفيتي مسيطرا على تفكير كيسنجر ويعميه عما سواه. وكان كيسنجر يفسر كل شيء من وجهة نظرة كونية، وليست إقليمية ومحلية. وبينما كانت القيادة الصينية تقدر الجذور المحلية لأزمة الشرق الأوسط، كان كيسنجر يرى أن هناك تآمراً سوفيتياً وراء عدم الاستقرار هناك. وكان هدفه هو استبعاد الاتحاد السوفيتي وإخراجه من الشرق الأوسط، باستخدام كل الوسائل المتاحة. وأتاحت حرب ١٩٧٣ فرصة ذهبية لإعادة رسم توازن القوى الإقليمي وتعزيز الهيمنة الأمريكية. وهو ما تشير إليه محادثات كيسنجر مع القادة الصينيين ، فقد جعلهم على علم بالتطورات التي تحدث على جبهة القتال وعلى طاولة المفاوضات كذلك. كما شرح

الاستراتيجية الأمريكية أثناء الحرب وبعدها بشكل بالغ الوضوح.

وتكمن أسباب كرم كيسنجر مع الصينيين في حاجته إلى دعمهم لاستكمال محاصرة السوفييت في الشرق الأوسط. وكان كيسنجر يرغب في ضمان تأييد الصين، أو على الأقل موافقتها التكتيكية في حال حدوث تعادل بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في المنطقة. وفي اجتماع مهم مع المسئولين الصينيين في ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣، أبلغهم كيسنجر أن السوفييت حاولوا في اليوم السابق إفزاع الأمريكان بالتهديد بالتدخل من جانب واحد ما لم تجبر إسرائيل على احترام وقف إطلاق النار. وجري الحوار علي النحو التالي:

[قال كيسنجر مازحاً إن السوفييت «حاولوا الإلقاء بثقلهم في الليلة الماضية». غير أنه قال إنه لم ينزعج: «إن سياستنا هي ما سبق أن أبلغتكم بها في أول ليلة. فنحن لنا هدف أساسي، وهو الإبقاء على الوجود العسكري السوفيتي خارج الشرق الأوسط بغرض تقليل النفوذ السياسي السوفيتي بقدر الإمكان. أعرف أنكم سوف تختلفون مع هذه الأهداف اختلافاً عنيفاً (ضحك)». لم يقدر السفير الصيني لدى واشنطن سخرية كيسنجر ورد بقوله: «ليس بالضرورة». واستمر كيسنجر قائلاً: «ولكننا سوف نتتبعهم بغض النظر عن توصياتكم». وقال كيسنجر إن الاتحاد السوفيتي بعث برسالة « عنيفة في لغتها»، يحذر فيها من «أننا ينبغي أن نتفق على الفور على إرسال قوة مشتركة معهم إلى الشرق الأوسط، وإذا لم نتفق على إرسال قوة مشتركة معهم فقد يرسلون قوات سوفيتية خالصة». وأضاف كيسنجر أنه لم يكن مستعداً لدخول القوات المقاتلة السوفيتية في الشرق الأوسط: «لقد دعوت إلى اجتماع لمجلس الأمن القومي. عندما وضعنا قواتنا العسكرية في وضع الاستنفار [إشارة إلى الاستنفار النووي الذي أمرت به الحكومة الأمريكية]. كما أننا نقلنا أسطولنا إلى الجانب الشرقي من البحر المتوسط ووضعنا حاملة طائرات أخرى في الجانب الغربي من البحر المتوسط. وبعد أن تأكدنا من أن السوفييت التقطوا كل هذه التحركات أرسلنا رداً، قلنا فيه إننا مستعدون لإرسال مراقبين أفراد، وليس أفرادا مقاتلين، كجزء من قوة مراقبة تابعة للأمم المتحدة. ولكن إذا كان الاتحاد السوفيتي سيتصرف من جانب واحد، فإن ذلك ستكون له أوخم العواقب»].

والنقطة التي يجب تأكيدها هي أنه يبدو أن نيكسون وكيسنجر كانا يرغبان في دخول حرب ضد الاتحاد السوفيتي لمنعه من التدخل لصالح العرب. وكان كيسنجر يستعرض عضلاته السياسية كي يعطي للطرف الصيني في المحادثات انطباعاً بأن أمريكا مصممة وعازمة على احتواء السوفييت. وعلى النقيض من ذلك، لم يكن السوفييت مستعدين لإعطاء الفرصة لنيكسون وكيسنجر بتصعيدهم المواجهة أكثر وأكثر. وأبلغ السوفييت الأمريكان أنهم سوف يرسلون مراقبين ولن يرسلوا قوات عسكرية. وهذا التعادل بين واشنطن وموسكو يتضح في مجالات عديدة. أولها أنه بينما كانت الولايات المتحدة راغبة في دخول الحرب لدعم الدولة اليهودية، لم يكن الاتحاد السوفيتي لديه تلك الرغبة، حسب التحليل النهائي. الأمر الثاني هو أن نيكسون وكيسنجر لم ينأيا بنفسيهما عن شفير الحرب النووية، في الوقت الذي مارس فيه الاتحاد السوفيتي قدراً كبيراً من ضبط النفس. وكان مسلك السوفييت إبان أزمة الصواريخ الكوبية في أوائل الستينيات والحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٦٧ و١٩٧٣ حالتين وثيقتي الصلة بذلك. ففي كل مرة كان الاتحاد السوفيتي يتراجع. وقد شجع الواقع الولايات المتحدة وأضعف الاتحاد السوفيتي وقضى على قوته في أعين دول العالم الثالث.

وكان الرئيس السادات يعي هذه الحقيقة ولم يتردد في طرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر. وقدر السادات حدود القوة السوفيتية واستعدادها وقدرتها على تغيير ميزان القوى في الصراع العربي الإسرائيلي تغييراً كبيراً. ومع أن السادات كان محقاً تماماً في تقييمه للقدرات والنوايا السوفيتية، فهو لم يصل بخياراته إلى الحد الأقصى قبل طرد الخبراء العسكريين الروس من مصر.

وبما كان عليه كيسنجر من صلف، وما كان ينعم به من مجد القوة الأمريكية، فقد حاول التأثير على القادة الصينيين بادعائه أن السبب في تراجع السوفييت عن المواجهة العسكرية هو أنهم «انهزموا». وهنا تساءل سفير الصين لدى واشنطن، هوانج زن، «من الذي انهزم؟» وكان كيسنجر صريحاً هذه المرة حين قال: «المصريون هم الذين انهزموا في الأساس، وعليه فقد انهزم الروس». وبنى كيسنجر رأيه على أن الروس والعرب كانوا يطلبون وقف إطلاق النار بإلحاح بسبب تغير الموقف العسكري لمصلحة إسرائيل. وعندما لم يقتنع هوانج برد كيسنجر، طلب منه تقييم الموقف السياسي والعسكري في الشرق الأوسط. وهنا قال كيسنجر في تعليق يبتعد كثيرا عن الموضوعية أو التواضع: «إن رأيي بأمانة هو أن الاتحاد السوفيتي مُني بهزيمة استراتيجية ضخمة. وهذا هو السبب في محاولتهم خداعنا بالأمس. فللمرة الثالثة حتى الآن يفقد الاتحاد السوفيتي أصدقاءه [العرب] معظم المعدات التي أعطاهم إياها. بل إن على القادة العرب أن يعلموا أن بإمكانهم الحصول على المعدات العسكرية من الاتحاد السوفيتي. أما إذا كانوا يرغبون في تحقيق تقدم دبلوماسي، فإنه يجب عليهم التعامل مع الولايات المتحدة. ولأننا لسنا معادين للعرب، فسوف نساعدهم الآن في تحقيق تقدم دبلوماسي. وبناء عليه، فإننا نتمتع الآن بوضع جيد جداً يسمح بالحد من النفوذ السياسي السوفيتي».

ما قاله كيسنجر يعد مضللاً من ناحيتين. أولاهما أنه لم يلق أي من السوفييت أو العرب هزيمة استراتيجية ضخمة في حرب ١٩٧٣ بل على العكس من ذلك، فقد حقق المصريون والسوريون نجاحاً استراتيجياً في ١٩٧٣، رغم تلك الانتكاسة التكتيكية التي ألمت بهم في نهاية الحرب. وينبغي على كيسنجر نفسه، وهو الخبير الاستراتيجي، أن يعرف ذلك. الأمر الثاني هو أن حكومة الولايات المتحدة ما كانت لتنشط في سعيها لإقناع إسرائيل بعدم جدوى احتلال الأراضي العربية لولا حرب أكتوبر التي شنتها مصر وسوريا، حيث غيرت الأوضاع الجامدة للقوات على المسرح العربي الإسرائيلي، فضلا عن أنه فيما بين ١٩٧٠ و١٩٧٣ فإن الرئيس السادات سعى سعياً حثيثاً للوصول إلى اتفاق سلمي مع إسرائيل. إلا أن مبادرات السادات لم تلق آذاناً صاغية في واشنطن وتل أبيب. فقد كان الإسرائيليون منتشين بقوتهم، وازدادت شهيتهم بعد حرب ١٩٦٧ ولم يخرج الأمريكيون عن مسارهم ليضغطوا على إسرائيل كي تستجيب لمبادرات السادات. وكان ما حقق أكبر قدر من الصدمة هو أن نيكسون وكيسنجر لم يبديا أي رد فعل لقرار السادات المهم بطرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر سنة ١٩٧٢.

إن القيادة الأمريكية تحترم حسم القوة. فبعد ١٩٦٧ لم تتعامل بجدية مع ما يقوله العرب ولم تشعر بأن هناك حاجة ملحة لأن تشارك بفاعلية في دفع إسرائيل نحو تسوية عادلة. وكانت حرب ١٩٧٣ بمثابة صدمة أفاقت كلاً من قيادة الولايات المتحدة وإسرائيل. وفي هذا السياق بدأ كيسنجر دبلوماسية الخطوة خطوة والدبلوماسية المكوكية، فور توقف الأعمال القتالية بين إسرائيل وجاراتها العربيات.

ويستحق رد هوانج المسهب على كيسنجر أن نورده هنا بالكامل، لما يلقيه من ضوء على استراتيجية الصين نحو الشرق الأوسط، واهتمامها، ليس فقط بسير الأحداث والتكتيكات، بل كذلك بالعدل والمصالحة التاريخية:

هوانج: ولكن هناك اختلافاً أساسياً في التقديرات هنا. فإننا نرى الأمور من منظور أي الجانبين عادل وأيهما ليس عادلاً. ونحن نرى كذلك أنه بينما توجد أهمية للسلاح، فإن من يستخدمون هذا السلاح أكثر أهمية.

وترون أن الشعب العربي عانى في العقود العديدة الماضية من المهانة، منذ الوصاية البريطانية على فلسطين سنة ١٩٤٧. وعندما أقيمت إسرائيل أصبحت هناك دولتان - واحدة في فلسطين وأخرى في إسرائيل - بدعم من القوى الكبرى في الخامس من مايو ١٩٤٨. وفي اليوم التالي، شنت إسرائيل هجمات على الدول العربية، وطُرد العرب الذين كانوا في المنطقة الفلسطينية، وعددهم حوالي المليون، ليصبحوا بلا مأوى. وطوال هذه العقود الطويلة يعيش العرب والفلسطينيون بعيداً عن بيوتهم مضطرين للعيش في معسكرات اللاجئين: وبعد حرب ١٩٦٧ شعر أصدقاؤنا العرب بالمهانة. وهذا هو السبب في معاناة الشعب العربي معاناة شديدة في حرب ١٩٦٧ صحيح أن السوفييت أعطوهم السلاح، ولكنهم لم يدعوهم يستعملونه. فقد كان غرضهم هو السيطرة عليهم. وفي ظل تلك الظروف لم يكن بإمكان الشعب العربي بالطبع أن يجد من يهدئ مخاوفه. وفي مواجهة استفزاز إسرائيل، حارب العرب دفاعاً عن أنفسهم. كما أوضح نائب الوزير في كلمته أمام مجلس الأمن. إذ قال إن العرب حاربوا ببسالة شديدة، ورفعوا العلم المصري منتصرين شرقي السويس. وعلى جبهة الجولان، زعم السيد [موشي] ديان أن القوات الإسرائيلية سوف تستولي على دمشق، ولكنها لم تفعل ذلك. كما أن العرب الفلسطينيين كافحوا كفاحاً بطولياً كذلك. وشاركت دول عربية أخرى في المعركة. وازدادت وحدة الشعب وقوته. وليست لدي فكرة واضحة عن الموقف الحالي.

إن موقف الشعب العربي فيه قوة. وفي هذا الوقت أو ذاك قد تكون هناك نكسات عسكرية، غير أني لا أشاركك التقييم الذي يقول بأنهم انهزموا. فنحن على اقتناع تام بأن الجانب صاحب الحق هو الذي سينتصر في نهاية الأمر. وطالما أن الأراضي لم تعد لأصحابها، وأن الحقوق المشروعة للعرب الفلسطينيين لم تتم تسويتها، فلن يكون هناك سلام. وفيما يتعلق بما فعله الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، فأنا أعبر عن آرائي بشكل صريح. وفي النهاية، سوف ينتصر العرب بكل تأكيد.

كيسنجر: نحن لسنا معادين للعرب. وهدفنا الأساسي هو التصدي للنفوذ السوفيتي، كما أخبرتك من قبل. ونحن نتعامل بجدية شديدة مع ما قاله نائب الوزير في نيويورك. وسوف ترى أننا سوف نتبع سياسة فعالة تجاه العرب. وأنا أوافقك الرأي على أنهم عانوا من المهانة في السنوات الماضية، وأنهم حاربوا ببسالة.

هوانج: أردت فقط ذكر هذه الأمور، ولن أخوض فيما هو أكثر من ذلك. إننا أصدقاء قدامى. صحيح أن لنا وجهات نظر مختلفة، ولكننا أصدقاء قدامى. وأنت تعرف أننا متعاطفون مع قضية الشعب العربي.

كيسنجر: ونحن لا نطلب منكم التخلي عن هذا.

هوانج: ونحن قلنا في السابق إننا لسنا ضد الشعب اليهودي؛ نحن معارضون للصهيونية والعدوان الصهيوني. وهذا ما يقوله العرب كذلك.

وعلاوة على ذلك، فأنا نفسي باعتباري جندياً، لا أومن بالنظرية التي تقول إن السلاح يحسم كل شيء. ذلك أنه لو كان السلاح أكثر حسماً، فما كان للثورة الصينية أن تنتصر. ولما حقق جورج واشنطن انتصاره. وآخرون كذلك؟.

وفي اجتماع لاحق عقد في بكين يوم ١٢ نوفمبر ١٩٧٣، أقرت القيادة الصينية بـ«التناقض» بين أقوالها والسياسة الخارجية تجاه الشرق الأوسط. فقد أبلغ ماو كيسنجر أنه بينما كانت الصين تريد من الولايات المتحدة أن تضع في حسبانها الطموحات العربية، فإن احتواء الاتحاد السوفيتي لا بد أن تكون له

بعد ١٩٧٢ كان كيسنجر يعرف المأزق العربي تمام المعرفة وعندما طالبه نائب رئيس الوزراء الصيني دنج شياو بنج بالإنصاف رد عليه بسخرية أن العرب لا يفرقون بين شعر الملاحم وبين السياسة الخارجية. إلا أن الزعيم الصيني لم تعجبه هذه الإشارة وطالبه بألا يهون من شأن العرب



الأولوية: «نحن من ناحية ساعدنا العديد من الدول العربية ضد الصهيونية الإسرائيلية. ومن ناحية أخرى رحبنا بوضع الولايات المتحدة للاتحاد السوفيتي تحت الضغط، وبجعله عاجزاً عن السيطرة على الشرق الأوسط. وقد أوضح سفيرنا هوانج زن هذا الدعم الذي نقدمه للعرب، ولكنه لم يفهم أهمية المقاومة الأمريكية للاتحاد السوفيتي». **وبهذا الكلام لا يقضي ماو مصداقية سفيره لدى واشنطن وحسب، وإنما يقضي معه على الموقف الصيني.**

ولم يكن ماو مضطراً لأن يشغل باله بكيسنجر الذي أخذ سياسة هوانج مأخذ الجد فتابع قوله: «لقد أخذته على حين غرة وكرر هو الموقف الرسمي [موقف الصين] من الأمم المتحدة (ضحك). وأنا أفهم أنكم مضطرون لاتخاذ مواقف معينة في العلن، وليس ما تفعلونه ضد موقفنا المشترك. ولكن الواقع هو أننا سوف نحرك الأمور نحو تسوية في الشرق الأوسط، غير أننا نريد كذلك أن يبدو الأمر على أنه لم يتم بضغوط سوفيتية. وبذلك فإنه حيثما يضغط السوفييت، لا بد أن نقاوم بغض النظر عن حقائق النزاع. وبعد أن نهزمهم، ربما نسير في الاتجاه ذاته. إننا لسنا ضد المطامح العربية؛ ولكننا ضد تحقيقها بالضغوط السوفيتية».



وهناك توضيحان لا بد منهما في هذا المقام. أولهما أننا لا ينبغي أخذ تأكيدات كيسنجر على أنها أمر مسلم به، إذ ينبغي أن يكون هناك فرق واضح بين الكلام الإنشائي والواقع. الأمر الثاني هو أن كيسنجر كان يعرف معرفة جيدة أن العرب موقفهم ضعيف بدون الدعم السوفيتي. وبعد أن حرم العرب من المساعدات السياسية والعسكرية الضئيلة التي يتلقونها من موسكو،أصبحوا تحت رحمة الولايات المتحدة وإسرائيل ومشيئتهما. وحيث إن البر والإحسان لا وجود لهما في الشئون الدولية، فعلاقات القوة هي التي تحدد من الخاسر ومن المنتصر في نهاية المطاف.وأنا واثق من أن كيسنجر كان يعي ذلك تماماً.

لقد اتفق ما قاله ماو مع ما قاله كيسنجر. فمن الواضح أن الصين كانت ترى أن الحد من الخطر السوفيتي كانت له أولوية كبيرة على جدول سياستها الخارجية تفوق أية اعتبارات أخرى، مثل الحقوق العربية. ونتيجة التنافس المكثف والمحموم بين العملاقين الشيوعيين نجح كيسنجر فى إثارة كل منهما على الآخر، وليؤسس بذلك الاحتكار الأمريكي في المنطقة ويعززه. وكانت كل من القوتين الشيوعيتين لا تثق في الأخرى، بقدر يفوق عدم ثقتها في الولايات المتحدة. ووجه كيسنجر هذا التنافس لما فيه مصلحة بلاده. ودفعت الدول الصغيرة - ومنها الدول العربية - ثمناً باهظاً لكونها بدائل في لعبة سياسة القوى الكبرى.

ونصوص المحادثات التي دارت بين كيسنجر والقادة الصينيين تكشف عن أمور أكثر من تلك التي تكشفها مناقشاته مع القادة الروس . والاختلاف يرجع إلي أن كيسنجر كان ينسق السياسات والاستراتيجية مع الصينيين بغرض الحصول على دعمهم التكتيكي ضد السوفييت. إلا أن ذلك لا يعني أن محادثات كيسنجر مع القادة السوفييت لم تكن مهمة. وفي حالة الشرق الأوسط، كانت محادثات كيسنجر مع سفير روسيا لدى الولايات المتحدة أناتولي دوبرين، وغيره من الشخصيات، تتسم بالتوتر والمراوغة. ومع أن السوفييت والأمريكيين كانوا مشاركين في الوفاق وكانوا يسعون إلى التعاون مع بعضهم البعض على جبهات مختلفة، فقد كان السوفييت مستائين من استراتيجية كيسنجر المخادعة خلال حرب ١٩٧٣ وما تلاها من دبلوماسية الخطوة خطوة، التي استبعدهم فيها من جهوده لتسهيل انسحاب القوات الإسرائيلية من قناة السويس والتفاوض على فك الاشتباك الإسرائيلي السوري في هضبة الجولان.

ومن المفارقات أن السوفييت شعروا بأنهم لا حول لهم ولا قوة فيما يتعلق بالتأثير على مجريات الأحداث. ومن الواضح أن المصريين والسوريين، وخاصة الرئيس السادات، كانوا يفضلون التعامل مع الأمريكيين دون إشراك السوفييت في الأمر. والواقع أن السادات أوضح للأمريكان أنه لا يرغب في قيام السوفييت بدور فعال في المفاوضات. واعترف بريجينيف بحدود النفوذ السوفيتي على حلفائه العرب السابقين. وفي اجتماع عاصف في الكريملين يوم ٢٦ مارس ١٩٧٤، وجه بريجينيف اللوم لكيسنجر واعترض بشدة على جهوده الرامية إلى استبعاد الاتحاد السوفيتي من مفاوضات الشرق الأوسط. ورد كيسنجر بأن القادة السوفييت اتهموه بتجاهل روح مؤتمر جنيف ونصه باستبعاد السوفييت تماماً من المفاوضات. وأصر بريجينيف كذلك على نقل الولايات المتحدة للمحادثات السورية الإسرائيلية الوشيكة إلى جنيف كي يتسنى للسوفييت المشاركة.

وتعطي برقية بعث بها كيسنجر إلى السفير الإسرائيلي سيمحا دينتز في اليوم ذاته فكرة عن طبيعة الاجتماع: «إن اجتماعي الذي دام ثلاث ساعات ونصفا ... مع بريجينيف وجروميكو ... هو أصعب الاجتماعات التي عقدتها مع القادة السوفييت وأثقلها على نفسي. فمن الواضح أنهم في حالة من الضيق الشديد بشأن دورنا في مفاوضات فك الاشتباك ونجاح دبلوماسيتنا». **ومع ذلك رفض كيسنجر محاجات بريجينيف وأعلن أن المحادثات السورية الإسرائيلية سوف تفشل إن هي ألحقت بمؤتمر جنيف. واعترف كيسنجر بالوضع الصعب الذي وجد فيه السوفييت أنفسهم ولم يشعر بضرورة إشراكه لبريجينيف في افتراضاته الأساسية، ذلك أنه سوف يسيطر بصفة شخصية على المفاوضات وسوف يكون دور موسكو هامشياً في أحسن الأحوال.**

ولم يستسلم بريجينيف بسهولة. فقد عاد لموضوع الشرق الأوسط في اليوم التالي. كما أنه ضغط على كيسنجر كي يوافق على «التعاون، ولا أعني بذلك مجرد تبادل المعلومات. إذ ينبغي أن يميز هذا علاقتنا في الشرق الأوسط». **ووعد كيسنجر وعدا كاذباً:** «إننا مستعدون للتعاون وليس للسعي إلى تحقيق مصلحة أحادية». **وأجابه بريجينيف:** «ونحن بكل تأكيد لا نهدف إلى تحقيق أية مصلحة أحادية. إلا إذا كنتم تعتبرون ضمان أمن إسرائيل وكل الدول العربية مصلحة أحادية». **وقال كل منهما إن هدفيهما في المنطقة «متطابقان». واتفقا على تنسيق تحركاتهما السياسية. وكانت المشكلة الوحيدة تكمن في أن كيسنجر لم يكن يعتزم في يوم من الأيام تنسيق الدبلوماسية مع السوفييت. والواقع أن استراتيجيته كانت تقوم على استبعاد السوفييت من المنطقة إن أمكن ذلك. وبصراحة تامة لم يقل كيسنجر الحقيقة عندما وعد بريجينيف بضم السوفييت إلى مفاوضات السلام على الجبهتين المصرية والسورية. وفي أغسطس ١٩٤٧ استقال نيكسون وأصبح جيرالد فورد رئيساً. وفي أكتوبر زار كيسنجر موسكو وأجرى محادثات مع القيادة السوفيتية. ومن جديد كان الشرق الأوسط واحدة من المناطق المثيرة للخلاف التي سيطرت على المحادثات الأمريكية السوفيتية.**

وذكّر بريجينيف كيسنجر باجتماعهما العاصف قبل سبعة أشهر وبنصيحته بأنه «لا يمكن أن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط دون تسوية حقيقية للمشكلة». وأضاف بريجينيف أن التسوية الحقيقية ينبغي أن تكون في إطار الأمم المتحدة التي تضمن الحقوق المشروعة لكل دول المنطقة. بما فيها إسرائيل. وحذرد بريجينيف من أن «الموقف ينحو منحى مختلفاً. لقد بدأت رحلاتك. و لعبت على الدول كي تفرق بينها. ... وانتهك جانبكم تفاهماً بشأن اتفاق في تلك المنطقة». وحذر الزعيم السوفيتي كيسنجر من أنه بتجاهله المصالح العربية أو إهمالها يضع الأساس لـ«انفجار أسوأ مما وقع في أكتوبر». كما أكد على أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يمكنهما من خلال التنسيق الاستراتيجي استغلال نفوذهما في الضغط على الأطراف المحلية وتحقيق السلام الدائم في الشرق الأوسط.

وكشف الحوار بين بريجينيف وكيسنجر عن رؤى ثاقبة مذهلة. فقد اتفق كيسنجر مع بريجينيف على أن الموقف خطير في الشرق الأوسط وأن الأمريكان أخطأوا فيما اعتقدوه عن وجود علم مسبق لدى السوفييت عن حرب أكتوبر ١٩٧٣. وأشار بعض الساسة الأمريكان إلى حرب ١٩٧٣ على أنها نموذج لميل موسكو إلى المغامرة ولسوء استغلالها شديد الوضوح للوفاق. كما دعوا إلى إعادة تقييم العلاقات الأمريكية السوفيتية. وأكد بريجينيف حقيقة أنه لم يكن على علم مسبق بالهجوم المصري السوري على إسرائيل.

بريجينيف: أقسم بشرفي أنني لم أكن أعلم وقتها أنه ستنشب حرب جديدة في ذلك التاريخ. ولم تكن هناك مناقشة ما مع العرب. في ذلك الوقت أو في أي وقت آخر، حتى بداية حرب أكتوبر. لقد رأيت الموقف وهو يتطور وحسب.

كيسنجر: أنا شخصياً أصدق ما تقول. رغم أن هناك كثيرين في أمريكا لا يصدقونه.

بريجينيف: من المؤكد أنك سمعت ما قلته.

كيسنجر: وإني أصدق ما قلت. فقد طلبت من رجال استخباراتنا عمل تحليل لكل المعلومات التي يمكن تجميعها معاً. وأصدق ما قلت.

بريجينيف: ما علينا. ما علينا.

كيسنجر: نحن نعتقد أنكم علمتم بالأمر قبل حدوثه بثلاثة أيام.

بريجينيف: بل أقل من ذلك. لقد أحطنا علماً وحسب، في وقت وبطريقة حرمانا تماماً من أية إمكانية لعمل أي شيء حيال الأمر. ...

كيسنجر: اعتقادي الصادق أنه حتى موعد سان كليمنت [اجتماع القمة الأمريكي السوفيتي سنة ١٩٧٢] كنتم تحاولون كبح جماح العرب. غير أنكم بعد سان كليمنت لم تبذلوا أي جهد آخر لكبح جماحهم. ولكنكم لم تعرفوا على وجه التحديد أنهم سوف يهاجمون. ولكنكم شجعتموهم تشجيعاً بسيطاً، دون أن يكون لديكم علم محدد بأنهم كانوا يعتزمون الهجوم.

بريجينيف: بل إنني أنكر أنه كان هناك ذلك التشجيع البسيط. وأنتم تعلمون ما وقع من أحداث. فقد أبلغنا السادات برغبته في سحب مستشارينا العسكريين. ونحن نفذنا ذلك دون تردد. وكان ذلك إجراء سياسياً.

كيسنجر: هذا هو ما لم نعلمه.

رغم اعتراف كيسنجر بأن السوفييت لم يكونوا على علم مسبق بحرب أكتوبر، ورغم تحذير بريجينيف من أن المنطقة كانت «برميل بارود»، فهو لم يقدم أية تنازلات للسوفييت. ولم يكن كيسنجر صريحاً حين قال إنه «مهما كان ما فعلناه، فلم يكن ذلك بنية الإضرار بالاتحاد السوفيتي». غير أنه غاب عنه أنه قبل ذلك ببضعة أشهر أبلغ دنج شياوبنج، نائب رئيس الوزراء الصيني، أن استراتيجية الولايات المتحدة كانت تقوم على استبعاد الاتحاد السوفيتي من دبلوماسية الشرق الأوسط.



وفي اجتماع لكيسنجر مع دنج، أبلغه كيسنجر أنه رغم «أن بريجينيف ظل يصرخ في وجهي لمدة ثلاث ساعات، قائلاً إنه لا بد أن يكون لهم دور في المفاوضات». فهو لم يكن يعتزم إشراك السوفييت أو إبلاغهم بـ«أي شيء». **كما أكد كيسنجر على أن العرب والإسرائيليين لم تكن لديهم الرغبة في إشراك السوفييت:** «تكمن الصعوبة في أن العرب والإسرائيليين لا يريدون السوفييت في المفاوضات. وعندما كنت في موسكو أرسلت برقية للأسد أسأله عما يريده. وجاءني رده بأنه يريد أن تتم معالجة الأمر بالطريقة التي اتبعت معالجته في حالة المصريين.... واقترح جروميكو أن التقي به في دمشق. ولكن عندما سألت السفير السوري في واشنطن عن رأيه في هذا الأمر، قال إنه لا يؤيد ذلك. وكل شيء الآن يتوقف على إن كنا سننجح

«في أكتوبر ١٩٧٤ حذر بريجنيف كيسنجر من أنه لايمكن تحقيق السلام في الشرق الأوسط دون تسوية حقيقية للمشكلة.. وقال له: لقد بدأت رحلاتك.. ولعبت على الدول كي تفرق بينها، وتجاهلك للمصالح العربية يضع الأساس لانفجار أسوأ مما وقع في أكتوبر»



العدد الثالث - أبريل ١٩٩٩م

في جعل الإسرائيليين يوافقون على الانسحاب من جزء من هضبة الجولان أم لا».

وكانت قوة كيسنجر تكمن في قدرته على توجيه الأطراف المختلفة نحو غايته هو. وفي هذه اللحظة التاريخية، ليست لدينا طريقة لمعرفة ما قالته القيادة السورية لكيسنجر. إلا أنه ربما كان السوريون، شأنهم شأن نظرائهم المصريين، قلقين بشأن التوصل إلى تسوية من خلال مساعي الولايات المتحدة الحميدة. ولم يكن لدى المصريين والسوريين قدر كبير من الثقة في الدبلوماسية الأمريكية وقدرتها على الضغط على إسرائيل. وقد ناور كيسنجر - الذي سبق أن قرر استبعاد السوفييت، المصريين والسوريين كي يعتمدوا فقط على الوساطة الأمريكية. وكانت النتيجة أن الولايات المتحدة بات لها احتكار لا ينافسها فيه أحد في المنطقة، وهو ما يضر الأطراف المحلية الضعيفة، وخاصة العرب. وهو على سبيل المثال كان يسخر من الروس لأنهم كانوا يعلقون آمالاً كبارًا على مؤتمر جنيف: «صحيح أننا أمضينا أربعة أشهر في الإعداد له. ثم اجتمع يوماً واحداً، أغلقناه بعده. (ضحك) .... وطالما أن العرب يعتقدون أنهم يحرزون تقدماً خارج المؤتمر، فلن يتعجلوا الذهاب إلى هناك. إذ ليس هناك من يرغب فيه سوى السوفييت الذين لهم سفير في جنيف، هو فلاديمير فينوجرادوف الذي يمضي كل وقته في انتظار مؤتمر لا ينعقد. ونحن من حين لآخر نرسل السفير إلسويرث بانكر مرة كل شهرين كي يجلس معه هناك دون أن يفعلا شيئاً».

وأبلغ كيسنجر ضيوفه الصينيين أنه كان يحاول إقناع الإسرائيليين، «الذين يصعب التعامل معهم»، كي ينسحبوا من مرتفعات الجولان على مراحل. وحاول إقناع ضيوفه الصينيين بأن الانسحاب من الجولان بكاملها لم يكن ممكناً في ذلك الوقت لأنه كان سيؤدي إلى الوقوع في مأزق، وسوف يعود السوفييت من جديد». ولوح كيسنجر بالخطر السوفيتي في وجه القادة الصينيين. إلا أنه أضاف «في حال نجاحنا في محادثات فك الاشتباك هذه، يمكن أن نأمل في تقليص النفوذ السوفيتي، كما فعلنا في مصر». وكان كيسنجر أستاذاً في إثارة الخوف في نفوس المشاركين معه في المحادثات ومعرفة نقاط ضعفهم. وصدق دنج على ما قاله: «إذا نجح الاتحاد السوفيتي في سوريا، فسوف يكون للسوفييت ثلاثة مواقع في الشرق الأوسط يمكنهم الاعتماد عليها: وهي سوريا والعراق واليمن الجنوبي». وعقب عليه كيسنجر قائلاً: إن الولايات المتحدة كانت تسعى لإبعاد سوريا عن النفوذ السوفيتي، و«نحن نعمل بالفعل على إقناع اليمن الجنوبي. كما نعتقد أن المصريين سوف يساعدوننا في ذلك». لقد اتفق كل من كيسنجر ودنج على القيام بدور الشرطي الطيب والشرطي الشرير على المسرح الإسرائيلي العربي، لإقناع الأطراف المحلية بضرورة التوصل إلى تسوية، واستبعاد السوفييت من دبلوماسية الشرق الأوسط.

ولخص كيسنجر مناقشته مع الصينيين فيما يلي: «نحن نتفق مع تقديركم بأن النقاط السوفيتية القوية في الشرق الأوسط هي سوريا والعراق واليمن الجنوبي. كما أننا نحدث تغييرات كبيرة في السياسة الخارجية المصرية. ولمعلوماتكم فإننا لدينا الأسباب للاعتقاد بأن المصريين سوف يلغون معاهدتهم مع الاتحاد السوفيتي هذا العام. وهذا بطبيعة الحال سري للغاية. غير أني لم أقرأ قط تسريباً في إحدى الصحف الصينية!». وأبلغ كيسنجر القادة الصينيين أنه كان يسعى إلى إقناع حلفاء الولايات المتحدة بتقديم المساعدات الاقتصادية لمصر، بل إنه كان يأمل في أن تفعل الصين الشيء نفسه: «والرأي رأيكم». إن المصريين يحاولون معنا حل مشكلة اليمن الجنوبي. وسوف تتولى سوريا مشكلة العراق، وكذلك إيران، التي لها دور نشط كذلك في عُمان. ونعتقد أن بإمكاننا تقليص النفوذ السوفيتي في المنطقة بصورة مرتبة».

وعلى النقيض من الأمريكيين، كان القادة الصينيون يعتقدون أن الطريقة الوحيدة للحد من النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط هي أن يضعوا في اعتبارهم ما يشكو منه العرب وأن يتبعوا منهجاً عادلاً في الصراع العربي الإسرائيلي. وأبلغ نائب رئيس الوزراء دنج كيسنجر بصراحة أن «أضعف نقطة» لدى الولايات المتحدة في الشرق الأوسط هي دعمها «لإسرائيل ضد العالم العربي، الذي يقدر عدد سكانه بمائة وعشرين مليون نسمة، وموقف الاتحاد السوفيتي في هذا المجال أفضل من موقفكم». وهنا أخذ كيسنجر يراوغ وقال: «إسرائيل هي أضعف نقاطنا وأقواها في آن واحد. ذلك أنه في نهاية الأمر ليس هناك سوانا يمكنه تحريكهم. فلا يمكن للعرب أن يجبروهم على شيء، ولا يسع الروس أن يقوموا بذلك. وأي إنسان يرغب في التقدم سيكون عليه أن يأتي إلينا. ويدخل في ذلك الفلسطينيون».. وعندما حثه دنج علي اتباع نهج منصف متوازن وافقه كيسنجر علي ضرورة وضع أهداف العرب في الاعتبار، لكنه حذر من أن الأمر سينطوي علي حالات مد وجزر خاصة عندما يجتمع ١٥ طرفا عربيا في غرفة واحدة، ذلك أنهم لا يفرقون بين شعر الملاحم وبين السياسة الخارجية،إلا أن الزعيم الصيني دنج لم يقبل هذه الإشارة السخيفة إلي العرب ورد عليه قائلا: لاينبغي لك أن تهون من شأنهم.

ولماذا يأخذ كيسنجر العرب مأخذ الجد؟ إنهم على أية حال منقسمون وبحاجة ماسة إلى اهتمام أمريكا. وقد وضع العرب معظم البيض في السلة الأمريكية، وكانوا يتمنون الخلاص. وكان كيسنجر يعرف المأزق العربي تمام المعرفة وكان يتصرف بناء على ذلك. وليس مستغرباً كثيراً أن كيسنجر كان واثقاً من تقييمه الذي يرى أن الولايات المتحدة هي الطرف الوحيد الذي يمكنه أن يرعى أية تسوية. والسؤال المهم هو: ما نوع التسوية وما هو الثمن؟ وإدراكاً لطبيعة ما وقع بالفعل من أحداث، نحن الآن نعرف نتائج دبلوماسية الخطوة خطوة الخاصة بكيسنجر - وهي تحييد مصر وخروجها بعد ذلك من النظام الإقليمي العربي والمزيد من تشظي السياسة العربية العربية.



ولم يكن كيسنجر يرغب في استبعاد السوفييت وحدهم، بل كان يرغب كذلك في استبعاد الفرنسيين الذين «كانوا يعارضوننا في كل نقطة - وفي كل تفصيلة - من وراء ظهورنا». وقد امتدح الصينيين على استراتيجيتهم التنسيقية مع الولايات المتحدة. «ولكن الفرنسيين ليست لديهم استراتيجية، بل تكتيكات. ولذلك فهم يعملون على القضاء علينا في الشرق الأوسط». ولم يكن كيسنجر ليقبل الاختلاف من صديق أو من عدو وكان ينظر بكراهية لأية قوة كانت تسعى للقيام بدور مستقر في الشرق الأوسط، بمن في ذلك الحلفاء الأوروبيون. والواقع أن العلاقات بين الولايات المتحدة وشركائها الأوربيين أصابها التوتر في أعقاب حرب أكتوبر عندما حاولت أوروبا وضع سياسة أكثر استقلالاً ومنهج عادل للصراع العربي الإسرائيلي ومسائل الطاقة. وحذر كيسنجر الأوروبيين من مغبة الميل إلى التصرف باستقلالية عن الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

وبمباركة من الصين، ونتيجة لاعتماد مصر وسوريا على الولايات المتحدة، نجح كيسنجر في تحييد السوفييت وتحقيق احتكار الولايات المتحدة لدبلوماسية الشرق الأوسط. ومع أن السوفييت ظلوا غير راضين وأخذوا يشكون من احتكار كيسنجر لدبلوماسية الشرق الأوسط، فقد كان نفوذهم محدوداً. ولم يكن أي من الأطراف المحلية أو القوى الكبرى الأخرى يرغب في أن يكون للسوفييت دور فعال في المحادثات العربية الإسرائيلية. وفي يونيو ١٩٧٥ بينما كان كيسنجر يحقق تقدماً في دبلوماسية الخطوة خطوة بالتفاوض على انسحاب القوات الإسرائيلية من بعض أجزاء سيناء، ضغط جروميكو على كيسنجر كي يدعو إلى عقد مؤتمر جنيف وإدخال موسكو من جديد في عملية السلام للحيلولة دون انفجار أعمال العنف مرة أخرى في المنطقة. كما ناشده جروميكو أن يضع في حسابه الحقوق الفلسطينية. إلا أن كيسنجر ظل يتشكك من جدوى عقد مؤتمر جنيف، بل أشار كذلك باستعلاء إلى أنه لو اجتمع السوريون والفلسطينيون وغيرهم من الوفود العربية في غرفة واحدة «فإنهم سوف يشعلون حماسة بعضهم البعض». ورغم عدم رغبة كيسنجر في إشراك السوفييت في دبلوماسية الشرق الأوسط، فقد قرر السوفييت ألا يدخلوا في نزاع مع الأمريكيين فى الشرق الأوسط لأنهم كانوا بحاجة إلى المساعدات الاقتصادية الأمريكية والتعاون على جبهات مهمة أخرى. وكان الوفاق أهم بالنسبة لموسكو من أن تضحي به على مذبح مصالحها الضعيفة في الشرق الأوسط.

والواقع أنه بحلول سنة ١٩٧٥ كانت دبلوماسية كيسنجر المكوكية قد حققت الاتفاقية الثانية الخاصة بسيناء، التي تضمنت انسحاباً إسرائيلياً محدوداً آخر، إلى جانب الدور الأمريكي في مراقبة الاتفاقية، ومئات الملايين من الدولارات في صورة مساعدات اقتصادية لإسرائيل، وتعهد أمريكا بألا تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية أو تتفاوض معها إلا إذا اعترفت بحق إسرائيل في الوجود. وأدت اتفاقية سيناء الثانية إلى حدوث مزيد من الانشقاق في العالم العربي ودفعت الأسد إلى انتقاد السادات والذي رأي أنه تنازل عن أكثر مما يجب لإسرائيل. وكان من الطبيعي أن يساند السوفييت الأسد وأن يدعوا إلى الاعتراف بالحقوق الفلسطينية. ودفع التشدد الإسرائيلي بشأن المسألة الفلسطينية الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى أن تتخذ قراراً في نوفمبر ١٩٧٥ بأن الصهيونية «شكل من أشكال العنصرية أو التفرقة العنصرية»، وبدأ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في مناقشة الأزمة العربية الإسرائيلية في شهر يناير. وفي تلك الآونة كانت دبلوماسية الخطوة خطوة قد وصلت إلى طريق مسدود. وباستثناء المصريين والإسرائيليين، كانت سياسة كيسنجر تواجه من الجميع بالانتقاد. بل إن الصين أعادت في ذلك الوقت النظر في إخفاء المسألة الفلسطينية تحت المصالح الأمريكية.

وعرض كيسنجر على جروميكو احتمالات الدعوة من جديد لعقد مؤتمر جنيف. غير أن ذلك لن يكون إلا باعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بحق إسرائيل في الوجود. ووجد جروميكو أن هذه المحاجة الأحادية غير مقبولة، وقال إن على كل من إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية أن ينفتحا على بعضهما في نفس الوقت. ويشير وليام بير محرر كتاب محاضر محادثات كيسنجر بذكاء إلى أن المناقشة أظهرت تحيز كيسنجر بشأن مشكلة الفلسطينيين: فبدلاً من معالجة المسألة الفلسطينية معالجة مباشرة عن طريق تشجيع المرونة الإسرائيلية،فإنه سعي إلى تمييع المسألة أملاً في أن تخبو جذوة منظمة التحرير الفلسطينية ويظهر بديل أكثر اعتدالاً. وفي كتابه «عملية السلام: الدبلوماسية الأمريكية والصراع العربي الإسرائيلي (١٩٦٧)، يشير ويليام كوانت باقتناع إلى أن كيسنجر كانت لديه «نقطة عمياء» تجاه الفلسطينيين. فقد خصص جزءاً كبيراً من دبلوماسيته «لمحاولة التحايل على هذه المسألة المهمة، وتأجيل لحظة الحق، وإضعاف جذوة الحركة الفلسطينية، أملاً في ظهور بديل ما».

وقد يتوقع المرء كذلك أن يكون موقف كيسنجر المتشدد من الفلسطينيين متأثراً بالمواقف الإسرائيلية. فرغم إبلاغ كيسنجر

كان كيسنجر أستاذا في إثارة الخوف لدي مضيفيه وجرب طريقته مع الصينيين وغيرهم، وقد ناور لكي يستبعد الاتحاد السوفيتي من دبلوماسية الشرق الأوسط ولكي يعتمد المصريون والسوريون فقط علي الوساطة الأمريكية، وكانت النتيجة أنه أصبح للولايات المتحدة احتكار لاينافسها فيه أحد في المنطقة



لجروميكو أنه لم يكن يتحدث باسم إسرائيل عن الفلسطينيين، فإن أفعاله كانت أعلى صوتاً من أقواله. وسلم كيسنجر برأي إسرائيل القائل بأن منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية، وجعل الاعتراف بها أو التفاوض معها غير مشروع إلى أن تعترف هي بحق إسرائيل في الوجود. وأثر هذا التعهد السياسي على تعامل أمريكا مع عملية السلام العربية الإسرائيلية حتى آخر الثمانينيات. بل إن الكونجرس ما زال يصنف منظمة التحرير الفلسطينية على أنها إرهابية، بفضل تعهد كيسنجر لإسرائيل في ١٩٧٥ .

ويقودني هذا إلى نقطة مهمة: وهي أن تأثير كيسنجر على دبلوماسية الشرق الأوسط كان كبيراً في كثير من الجوانب. فإن تناوله التدريجي، خطوة خطوة، لعملية السلام العربية الإسرائيلية أوجد آلية أصبحت هي الأساس الذي تقوم عليه السياسة الأمريكية. وفي هذا السياق، نجحت إسرائيل في عقد اتفاقيات منفصلة مع الدول العربية المختلفة، بدلاً من اتفاقية شاملة تضع في اعتبارها كلية الصراع العربي الإسرائيلي. وهذا التناول الثنائي والتدريجي لصنع السلام كان في مصلحة إسرائيل، في ظل ميزان القوى غير المتكافئ بين الدولة اليهودية وجاراتها العربيات.

وكان لكيسنجر كذلك تأثير طاغ على سياسة صنع السلام الأمريكية في الشرق الأوسط في مجملها. وبداية، كان نيكسون يعتقد أنه ليس من الحكمة جعل كيسنجر مسئولاً عن السياسة الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط، بسبب خلفيته اليهودية. إلا أن كيسنجر أشرك نفسه من البداية في قضايا سياسية تتعلق بالشرق الأوسط. وفي الوقت الذي اندلعت فيه حرب أكتوبر، اتضح أن كيسنجر كان مسئولاً عن السياسة الأمريكية تجاه المنطقة. وهناك قول مقنع بأنه في الفترة بين ١٩٧٣ و١٩٧٦ كان كيسنجر يتحكم تحكماً تاماً في كل القرارات المهمة الخاصة بالشرق الأوسط. وأدى موقف نيكسون الضعيف في الداخل إبان فضيحة ووترجيت إلى تزايد تأثير كيسنجر بصورة كبيرة. وتظهر الوثائق أن كيسنجر كان يوجه السياسة غير عابئ بوجهات نظر الهيئات والوزارات الأخرى ومواقفها. وكان انشغاله الشديد بفكرة السرية مرده إلى الرغبة في استبعاد تلك الهيئات والاستحواذ على أدوات السياسة. وقد نجح في ذلك في وقت الأزمة.

وهذا هو السبب وراء الأهمية الشديدة لهذا الكتاب . فهو يقدم لنا صورة شاملة عن الطريقة التي كان كيسنجر يفكر بها في السياسة الأمريكية ويوجهها.كما تكمن أهميته فيما يتضمنه من وثائق في أنه يسمح للقارئ بالحكم بنفسه على الطريقة التي وجه بها كيسنجر السياسة الأمريكية في أجزاء مهمة كثيرة من العالم. وظل كيسنجر عدة سنوات وهو يحاول التأثير على تفكير الشعوب بشأن هذه الفترة التاريخية من خلال تقديم رؤيته هو ومنع وصول الباحثين إلى أوراقه الخاصة أو إلى أية أوراق حكومية أخرى أعدها وراجعها. وباعتبار كيسنجر دارساً للتاريخ، فقد سعى للتأثير على التقييم التاريخي لفترة توليه منصبه. والآن فإن هذا الدليل الذي يقدمه الكتاب يحدث توازناً مع الرؤية الأحادية التي قدمها كيسنجر. ورغم عدم اكتمال الصورة حتى الآن، فقد أصبح الأمر أكثر وضوحاً وأقل عتامة من خلال الرؤى التي تم الحصول عليها بطريقة «اخدم نفسك» والتي تثبت في نهاية الأمر كيف ظل كيسنجر يلعب طوال الوقت ولمصلحة من وعلي حساب من!. ■

ترجمة : أحمد محمود

و.. قراءة أخرى فى محاضر كيسنجر

التفاوض مع الشيطان !

محمد الخولى

■■ قبل واحد وعشرين عاما وبالتحديد فى يناير عام ١٩٧٧، غادر هنرى كيسنجر مكتبه، للمرة الأخيرة، فى مبنى وزارة الخارجية الأمريكية. وبينما كانت تدور الاحتفالات الصاخبة فى العاصمة واشنطن بمناسبة تنصيب رئيس جديد اسمه چيمى كارتر، وبينما كان موظفو الخارجية الأمريكية يستعدون لاستقبال وزيرهم الجديد، سايروس فانس، كان الدكتور كيسنجر يعد حقائبه التى حملها معه.

كانت الحقائب متخمة بكميات ضخمة من الوثائق والمذكرات والمستندات، وقد خلع عليها صاحبها صفة «الأوراق الشخصية»، ثم أضاف إليها نسخا طبق الأصل من الوثائق والمذكرات الحكومية والدراسات الرسمية التى أمر بإعدادها طيلة فترة ولايته سواء فى موقع مستشار الأمن القومى لدى الرئيس ريتشارد نيكسون فى البيت الأبيض، أو فترة توليه المنصب السامى الذى طالما طمح إليه وهو وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، حيث عاش أربعة تحولات جذرية شهدها عقد السبعينيات فى سياسة أمريكا الخارجية، بل وفى مسارات السياسة الدولية بشكل عام، وهذه المتغيرات الأساسية الأربعة هى الوفاق الدولى بين واشنطن وموسكو، واستهلال علاقات أمريكا مع الصين الشعبية، والتوصل إلى نهاية لحرب ڤيتنام ثم تحويل سياسات الشرق الأوسط إلى ما يحقق مصالح أمريكا - على حساب الاتحاد السوڤييتى، وما يضمن بقاء المشروع الاستيطانى الصهيونى فى إسرائيل.

وعلى مدى السنوات التى أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية، توالى على منصب وزير الخارجية وهو الوزير الأول - حسب التقاليد - فى حكومة واشنطن ساسة عديدون، لكن يظل كيسنجر بين هؤلاء الوزراء نجمًا تخطب وده أجهزة الإعلام - المرئية بالذات نتيجة عوامل شتى بينها:

١- أنه جاء من صفوف الأكاديميا، واستطاع أن يضع الكثير من رصيده الجامعى كأستاذ علوم السياسة فى جامعة «هارڤارد»، وكدارس متعمق لفن التوازنات السياسية منذ عهد الوزير النمساوى الأشهر مترنيخ، وقد استطاع كيسنجر أن يضع هذا كله فى خدمة الدبلوماسية الأمريكية.

٢- أنه كان يشكل مركز قوة وطيدا وديناميا سواء من موقعه كمساعد لرئيس الدولة فى البيت الأبيض، أو كوزير للخارجية فى عهد ريتشارد نيكسون الذى شاءت حظوظه العاثرة أن يسقط فى مستنقع فضيحة ووترجيت، وأن يمضى ردحا طويلا من فترة رئاسته الثانية وهو «بطة عرجاء» كما يقول التعبير الأمريكى - فى البيت الأبيض. بينما كان وزير خارجيته هنرى كيسنجر مكوكا بشريا «يرمح» بطائرة خاصة تحط وتحلق كل عدة ساعات فى هذه العاصمة أو تلك.

٣- إن وجوده فى منصبه الدبلوماسى الرفيع، تزامن - بصدفة سعيدة بالنسبة لكيسنجر - مع عهد الرئيس المصرى أنور السادات، رحمه الله، الذى بدأ هنرى فى التعامل معه بمنطق يكاد يقارب الاستصغار إلى أن تعمق فى شخصية الرئيس المصرى.. فإذا به يفهم مفاتيحها ولم يكن بحاجة إلى أدوات فى هذا المضمار سوى لسان ذرب يكيل المديح للسادات ويستخدم فى ذلك تنويعات ولحونا شتى تحفها ألفاظ انتقاها بعناية ولاشك من «بضاعة هارڤارد» من قبيل: «صنع التاريخ» أو «تصحيح المسار» أو «كسر الحواجز النفسية». وبديهى أن ترتفع نبرة هذه التنويعات إلى حيث القول بأن الرئيس السادات يمكن أن يختاره الأمريكيون رئيسا لبلادهم من فرط الإعجاب.. الخ!

وبديهى أيضا، أن ينال وزير خارجية أمريكا ألقابا فى المقابل ومسميات خلعها عليه الرئيس السادات ومنها «عزيزى هنرى» . ولاعجب إذن أن يصرح الدكتور كيسنجر يوما بأنه ظل يرفض شخصنة التاريخ، مؤكدا أن التاريخ تحركه أساسا عوامل موضوعية أكثر مما يستجيب لشخصيات الأفراد..ولكنه - كيسنجر - بات يدرك أن العوامل الشخصية لها دورها الفاعل والمؤثر فى رسم أو تغيير مسارات الأحداث.. وقد أرجع هذا التغير فى مدركاته إلى ما عايشه ولمسه فى تعامله - عند منتصف السبعينيات مع شخصيتى كل من أنور السادات وجولدا مائير.

والحاصل أن الدكتور هنرى كيسنجر مازال يشكل نوعا من المرجعية فى مجال السياسة الخارجية الأمريكية. تضطرم الأحداث وتتشابك الظروف فى العراق أو فى الصومال أو على مستوى المحالفة الأطلسية (الناتو) أو داخل أروقة الأمم المتحدة.. فإذا بالكاميرات تحرص على أن تنتقل إلى الدكتور كيسنجر تستفتيه وتستطلع ما يعنّ له من آراء.. ونقول «تنتقل» إلى الرجل وهو قابع فى مكتبة بيته الباذخ فى «سكار سديل» وقلما يأتى هو ضيفا إلى الاستديو،وهو لا يكذّب خبرا بل هو جاهز دوما بالآراء يعرضها بصوته الأجش ذى الرنين المعدنى العميق، وفى إنجليزية لا تخطئ الأذن المدربة أنه كثيرا ما تشوبها رطانة أو لكنة ألمانية موروثة. إن هذه النجومية تعكس نفسها بالتأكيد على هذا الكتاب وعنوانه:

«محاضر كيسنجر الحرفية» وقد تم تفريغها ونقلها من متونها الأصلية التى كانت مسجلة على شرائط . ومعنى ذلك: .. أننا أمام نصوص موثّقة بالصوت والكلمة والحرف لعدد من أهم المحادثات التى جرت فى الربع الأخير من هذا القرن، ودارت بين وزير خارجية أكبر دولة فى العالم وبين عدد من أبرز زعماء العالم فى عقد السبعينيات وفى مقدمتهم : ماوتسى تونج. وشواين لاى فى الصين . وليونيد بريجنيف وآندريه جروميكو وإليكسى كوسيجين فى الاتحاد السوڤييتى، إضافة إلى الرئيس الفرنسى الراحل جورج بومبيدو.

ومن المفارقات أن حرص كيسنجر على إيداع حقائبه كل متعلقاته خلال ولايته الوزارية من مستندات وأشرطة ومذكرات . وضع العديد من العقبات والعراقيل أمام الباحثين الراغبين فى الاطلاع بعمق على مستندات تلك المرحلة الحافلة بالتحولات -

لاسيما أن الرجل أوصى بعدم الاطلاع على أى منها إلا بعد خمس سنوات كاملة من رحيله عن الدنيا، ثم يتكشف الأمر فى مصادفات علمية أو بحثية سعيدة كما نسميها ـ عن أن نصوصا سبق تفريغها من أشرطة كيسنجر كانت قد وجدت طريقها إلى ملفات أخرى فى أروقة المحفوظات الدبلوماسية بالخارجية الأمريكية. وعندما نمى هذا الاكتشاف إلى علم مسئولى الأرشيف القومى الفيدرالى للولايات المتحدة نشط القوم، مثل كلاب الصيد المدربة،إلى تقصى أثر هذه التفريغات لمحاضر اللقاءات بين زعامات العالم وبين كيسنجر. ومن خلال هذه النصوص تشكلت مادة الكتاب. غير أن كل الحرص الذى أبداه كيسنجر لم يمنع المصادفة من أن تكشف سرا يمكن أن يشكل حرجا شديدا له وربما تنال من نجوميته. فمن حيث لايدرى «الدكتور» شاءت المفارقات أن تكشف مدى تواطؤه مع ديكتاتور شيلى السابق بينوشيه فى ارتكاب ما اقترفه الجنرال المشئوم من جرائم ضد حقوق الإنسان فى بلاده، عقب الانقلاب العسكرى الذى أطاح فيه بالرئيس اليسارى المنتخب سلفادور الليندى عام ١٩٧٤. وربما حسب كيسنجر أن أمر تأييده لبينوشيه لن ينكشف، ولكن تشاء أقداره أو أقدارهما التعسة أن تحمل الديكتاتور العجوز إلى لندن، وأن يقدم إلى المحاكمة فى أسبانيا وأن يجمع النائب العام الأسبانى مستندات وأوراقا لإدانته. والذى حدث أن الضربة التى كانت موجهة فى الأساس إلى بينوشيه أصابت كيسنجر شخصيا ـ إذ كشفت جريدة الأوبزرفر البريطانية (عدد ٢٨/٢/١٩٩٩) عن نص برقية أزاحوا عنها خاتم «سرى للغاية» وأمكن إذاعة فحواها ويكشف ـ كما تقول الصحفية الإنجليزية لوسى كوسيمار ـ المدى الذى ذهب إليه كيسنجر فى التغطية على مذابح بينوشيه بل وفى ترضيته والتعهد بأن أمريكا لن تطالب بمعاقبته عما جنته يداه بل ويتمني لحكومته كل الخير!

غير أن الحديث عن محفوظات أو أرشيف الأمن القومى فى أمريكا يوقظ لدينا على الصعيد المصرى أو العربى ـ مواجع شتى.. فهذا الأرشيف ليس مؤسسة «تابعة للحكومة» وكل إدارة حكومية هى خصم طبيعى لمبدأ إعلان المستندات الرسمية، كما أنها ـ فى الغالب ـ حليف للاتجاه نحو التكتم أو التستر وعدم الكشف عن الوثائق وما فى حكمها من المحاضر والمذكرات. ولديها بالطبع ذريعة «التمحك» فى سرية المعلومات حفاظا على الأمن الوطنى أو الاستقرار الاجتماعى أو غيره من المبررات. لكن ها هى مؤسسة أرشيف الأمن القومى فى أمريكا ـ وهى عبارة عن مكتبة بحثية فى العاصمة واشنطن. وقد احتوت على الوثائق الحكومية المفرج عنها أو المنزوع عنها خاتم السرية. وتعتز بأنها قد استطاعت أن تبنى أرشيفا يحتوى على أكبر مجموعة فى العالم تملكها مؤسسة خاصة، من الوثائق والمستندات المفرج عنها.

كان هنرى يلعب لعبته وحيدا كما قال يوما فى حديث إلى الصحيفة الإيطالية الشهيرة «أوريانا فالاتشى» ولكن لم يقل لها إنه كان يستمتع بهذه اللعبة إذ كان رئيسه ـ نيكسون ـ وهو من أقدر ساسة أمريكا المعاصرين غارقا فى أوحال ووترجيت ومعزولا من ثم عن الإمساك الحقيقى بمقاليد الأمور.

ومحاضر المفاوضات السرية لكيسنجر ترسم بعد ذلك صورة معاصرة وحية لكيفية بناء ما يمكن أن نسميه شبكة دبلوماسية سرية بديلة أو مؤسسة خاصة ـ خلفية أو موازية ـ لمؤسسة السياسة الخارجية الأصلية والمعتمدة والخاضعة من ثم لبنود الدستور وأحكام القانون، وهى الشبكة التى كان يطلق عليها كيسنجر نفسه ومعاونوه الاسم الأثير: «القنوات الخلفية» كما فى اتفاق كيسنجر ـ السادات فى بداية السبعينيات على وجود قناة خلفية تستخدم للاتصالات من خلف ظهر المؤسسات المختصة. كما تجسد من خلال تلك الشبكة نوع من احتكار المعلومات أو هو الكهنوت السياسى الذى كان كيسنجر ـ كمستشار للأمن القومى ـ يفضله فى إدارة دفة الشئون الخارجية سواء فى صراعه ضد سلفه فى وزارة الخارجية وليام روجرز أو ضد خصومه فى مؤسسة الدبلوماسية المحترفة فى الوزارة».

فى هذا المضمار يشرح وليام بير محرر هذا الكتاب كيف كان كيسنجر يعمل جاهدا للحفاظ على سرية هذه الاتصالات (الخلفية) التى كانت تتم كلها من خلف ظهر وزير الخارجية روجرز والذي استبد به الغضب مثلا عندما فوجئ بأن بلاده ـ التى يفترض أنه يدير سياستها الخارجية قررت ـ أو أن كيسنجر هو الذى قرر ـ مساندة باكستان لدى اشتعال حربها مع الهند فى شتاء عام ١٩٧١ (الحرب التى أخرجت إلى الوجود دولة بنجلاديش) بعد أن ظلت سياسة واشنطن المعلنة لسنوات هى تأييد الهند من منطلق مساندة استقلال بنجلاديش.

وعلى امتداد فصوله نجح الكتاب فى أن يقدم سجلاً حافلا بالمعلومات التاريخية المهمة فى حد ذاتها أو من حيث إنها تصحح بدورها معلومات أو مفاهيم وتصورات طرحت وشابها خطأ أو تعرضت لسوء الإدراك أو خطأ التفسير.

من هنا جاء وصف الكتاب بأنه واحد من أهم سجلات الحرب الباردة التى نشرت حتى الآن، على حد تعبير الصحفى الأمريكى «باتريك تايلر»، والذى عمل لسنوات عدة مديرا لمكتب «نيويورك تايمز» فى العاصمة الصينية. والكتاب أيضا كما يقول الكاتب الأمريكى «چيمس هيرشبرج» وهو من المهتمين بالتأريخ لحقبة الحرب الباردة، وخاصة فى الجانب النووى منها، بفتح الباب أمام تقييم جديد وطازج وفعال لسنوات حافلة اضطرمت فيها الأحداث وشهدت اتخاذ عدد من قرارات المصير، وذلك بعد عقدين من الزمن لم يكن منها مناص سوى التعويل على مذكرات صانعى تلك الأحداث بكل ما احتوته من الدوران حول الذات.



.. ويبقى أن غلاف الكتاب يحمل صورة فوتوغرافية للدكتور كيسنجر بنظارته السميكة الشهيرة وهو فى كامل عافيته وربما أوج تألقه السياسى فى عقد السبعينيات، ولأمر ما، شاء الفنان مصمم الغلاف أن يلوّن النظارة بلون أحمر تطل من ورائه العينان، وهواللون الذى يختارونه عادة فى مفردات الفنون المرئية للإيحاء بوجود الشيطان! ... فهل كان القادة والساسة والزعماء الذين عرضت لهم فصول الكتاب يعقدون اجتماعاتهم مع «هنرى» المهاجر الألمانى اليهودى الذى كان نجما من نجوم السياسة الدولية منذ ربع قرن؟ أم أنهم كانوا ـ فى التحليل الأخير ـ يتفاوضون فى اجتماعاتهم تلك مع الشيطان شخصيا؟! ■

كتاب الزاوية

من شعر إبراهيم ناجى

ظلام

لا تقل لى ذاك نجمٌ قد خبا
يا فؤادى كلُّ شىء ذهبا
ذلك الكوكبُ قد كان لعينى
السماوات وكان الشُّهُبا
هذه الأنوارُ ما أضيَعَهَا
صرنَ فى جَنْبى جراحًا وظُبى
كلما أهْدَتْ شعاعًا خَلَّفَتْ
بعده سجنًا ومَدَّتْ قُضُبا

* * *

قلتُ أسلوك وكم من طعنة
بالمُداراة وبالوقت تهون
فإذا حُبُّك يَطْغَى مُزْبِدًا
كَدفُوق السَّيْلِ طُغْيَانَ الجنون
وكذا تمضى حياتى كلُّهَا
بين يأس ورجاء وظنون
ما على الهجر معينٌ أبدًا
وعلى النّسيانِ لا شىءَ يُعين

* * *

ذلك الحبُّ الذى فُزْتُ به
لا أُبالى فيه ألوان الملامه
ذلك الشطُّ الذى ذُقْتُ به
بعد لُجِّ البحر أمنًا وسلامه
إنّه مزّق قلبى قسوةً
وسقانى المُرَّ من كاسِ الندامه
صارَ نارًا ودمارًا فى دمى
وصراعًا بين قلبٍ وكرامه



« رودنبـك أعطـى لكـل من يقـرأ كتابه سببا لكى ينقده، فالكتاب لابد أن يضيقوا بتطاول رودنبك على جميع الرموز الوطنية من رمسيس الثانى إلـى عبـد الناصـر».

« والإسلاميون لن يعجبهم دفاعه عن طه حسين أو نصر حامد أبو زيد.. كما لن يستريح الحكوميون لإشاراته إلى معاناة القاهرة من انحطاط الذوق وفساد الذمة، والناصريون سيعترضون على وصف ما فعلته الثورة بالمدينة وبسكانها».

القاهرة مدينة تنتصر على نفسها

«أم الدنيا» فى عيون «الخواجة»..

زياد أحمد بهاء الدين

لعل أكبر صعوبة تواجه من يسعى لعرض كتاب ماكس رودنبك عن مدينة القاهرة هو كيفية تصنيفه. فعندما رأيت الكتاب معروضا فى المكتبات المختلفة، سواء فى مصر أو خارجها، تبين لى أن كل واحدة قامت بتصنيفه على نحو مختلف، مما أكد أن حيرتى فى محلها وأن باب الاجتهاد مفتوح فى هذا المجال. فبعض المكتبات وضعت الكتاب فى الطائفة العامة التى تسمى كتب السياحة والسفر. ومكتبات أخرى رأت أنه ينتمى إلى كتب التاريخ المصرى، وبخاصة الفرعونى. بينما عرضه بعضها الآخر مع كتب الفن والمعمار المصرى. وقد خطر على بالى أن أسأل أحد المسئولين فى مكتبة لم تجد للكتاب مكانا إلا بين صنف جديد ـ وعجيب ـ من الكتب اسمه «كتب الهدايا» عن المقصود بذلك.

ولكن هذه الحيرة لها ما يبررها فى ضوء ما يتضمنه بالفعل كتاب «القاهرة: مدينة منتصرة» "Cairo: The City Victorious". فهو ليس مؤلفا فى وصف القاهرة، ولا يزعم تلخيص تاريخ المدينة بشكل مبسط، وهو ليس دليلا للآثار التى تحتويها، ولا يتضمن قائمة بالمطاعم والملاهى المفضلة. بل هو بحث عميق فى التاريخ والاجتماع والسياسة والمعمار، وفى عادات وسلوك الناس على نحو يعطى مدينة القاهرة ملمسا ومذاقا ورائحة وصوتا يندر أن ينجح عمل مكتوب فى نقله إلى القارئ. والأهم من كل ذلك أن الكتاب ينجح فى مزج كل العناصر السابقة من خلال رؤية شاملة تثير لدى القارئ أسئلة أكثر مما تجيب عليها، وتستثير فضوله أكثر مما ترضى يقينه، وتدفعه إلى الشك والتأمل والنقد بدلا من أن تجنبه ويلات التفكير. ولذلك فإن كتاب ماكس رودنبك فى تقديرى ينتمى بجدارة إلى طائفة أدب الرحلات التى كانت حتى وقت قريب، ولا تزال فى أحوال نادرة، تتضمن أرقى كتابات العصر وتحوى تحليلا اجتماعيا وثقافيا وحضاريا بالمعنى الكامل. وهذه الطائفة من الكتب كادت أن تختفى تحت وطأة المؤلفات والمطبوعات السياحية التى لا هدف لها سوى تأكيد يقين السائح فى معتقداته السابقة، وطمس الخصوصية الحضارية للمجتمعات المختلفة، وتبسيط الحقائق واجتزائها، وإبراز المعلومات التى لا قيمة لها سوى أنها مما يسهل استقراره فى ذهن السائح واسترجاعه حينما يرغب فى أن يروى لأصدقائه أو زملائه بعض نوادر البلد الذى زاره.

ومن هنا فإن ما يجعل لهذا الكتاب قيمة خاصة هو أنه يأتى فى وقت تعانى القاهرة فيه ـ على وجه الخصوص ـ من ظاهرة تراجع الكتب الجيدة فى مختلف المجالات أمام المؤلفات السياحية. وعلى القارئ أن ينظر فقط إلى عشرات الكتب والمطبوعات التى تزدحم بها المكتبات عن السياحة فى مصر، وأن يقلب صفحاتها لكى يدرك حجم المأساة التى يعانى منها القارئ الجاد والمهتم بمعرفة أكثر عمقا عن البلد. والكتاب المعروض هنا يأتى بعد طول انقطاع لكى يملأ فراغا كبيرا ويكمل مسلسلا من الكتابة عن القاهرة وعن مجتمعها، بدأه كُتّاب رومان سافروا إلى مصر قبل اندثار حكم الأسر الفرعونية، وتابعه رحالة وباحثون من عصور الحكم الإسلامى المختلفة، واشترك فيه العلماء والباحثون الذين صحبوا الحملة الفرنسية على مصر أو زاروها تحت حماية الاحتلال البريطانى، ثم كتب فصوله الأخيرة الباحثون الأجانب والوطنيون على حد سواء فى عصر الاستقلال.

ولأن الكتاب لا ينفصل عن كاتبه، فإن ما يعطى هذا الكتاب تنوعه الفريد ويجعل قراءته أقرب إلى مغامرة السفر بين عصور القاهرة المختلفة وبين أحيائها والعيش مع أهلها هو أن الكاتب هنا ليس مجرد عابر سبيل بالقاهرة أو باحث شغوف بها أو قاطن مؤقت لها، بل هو جزء منها، وعلى دراية كاملة بخباياها. ولذلك فإن الكتاب يكاد يكون رحلة استكشاف لذات الكاتب من خلال تراكم معرفته بالقاهرة وبالقاهريين ومن خلال طرح الأسئلة التى تحير أهل البلد مثلما تحير زائريها.

ماكس رودنبك ليس غريبا عن القاهرة، فهو حاليا كاتب مقيم بها وصحفى ومراسل لعدة صحف وجرائد أجنبية منذ سنوات. وقد بدأت علاقته بالقاهرة منذ حضر إليها بصحبة والديه اللذين يعملان بالتدريس الجامعى وعمره عامان، ثم لم يبرح المدينة من وقتها إلا لفترات متقطعة، فتعلم فى القاهرة، ونشأت صداقاته مع أبنائها، وعرف مباهج الحياة ومصاعبها فى أحيائها، ثم تزوج مصرية، وإن كانت من مدينة الأسكندرية، وقد درس تاريخ الشرق الأوسط وفنونه بالجامعة الأمريكية فى القاهرة، واشترك قبل عمله بالصحافة فى رسم خرائط للقاهرة الإسلامية.

ولكن كل ما سبق لا يبرر إقدام الكاتب على الخوض فى عمل على هذا القدر من الطموح والاتساع. فليس كل من سكن القاهرة وتزوج من أهلها وسار فى طرقاتها مؤهلا لكتابة وصف معاصر لها يشمل تاريخها ومجتمعها ومعمارها وحضارتها وفنونها وتياراتها السياسية. ومع ذلك، فإن هذا العمل الطموح إلى حد مخيف هو ما أقدم عليه ماكس رودنبك، مسلحا فى ذلك بأدوات ومؤهلات إضافية، أهمها فضوله المستمر نحو كل ما يراه ويسمعه، وقدرته على استخدام أدق التفاصيل من أجل تكوين الصورة الشاملة، ودأبه على التعرف على المدينة عن طريق التجول فى طرقاتها، والجلوس على مقاهيها، والحديث مع أهلها من كل مكان وطبقة وحرفة، على نحو لا يجرؤ عليه أو لا يكترث به فى معظم الأحوال أهل البلد ذاتهم.

هذا الاهتمام الشخصى بتجربة جميع جوانب العيش فى القاهرة أحد ثلاثة أركان أساسية لمنهج الكاتب فيما أقدم عليه من عمل طموح، إذ حاول فى كل فرصة ممكنة أن يعرض أفكاره عن القاهرة ليس فى إطار نظرى، وإنما من خلال التجربة الشخصية والمعايشة الحقيقية. فهو لا يصف مثلا معمارا معينا وصفا هندسيا جامدا، وإنما يصف ما يراه المشاهد اليوم حينما يقف فى الشارع أمام هذا المعمار، وما بقى منه وما حل محله وما يهدد استمراره. وهو لا يحكى تاريخا جامدا ومجردا عن الحقبة المملوكية أو الفرعونية، وإنما يروى حكايات محددة من خلال ما بقى من زمنها فى قاهرة اليوم، ومن خلال التجول فى الطرقات التى جرت فيها تلك الأحداث ووصف حالها اليوم. وهو كذلك يتابع فى كل مرحلة من تاريخ مصر التيارات الثقافية السائدة أو المعارضة ويربطها على نحو ما بالفكر المصرى المعاصر. بل إنه يصف حتى زيارته للسوق الأسبوعية للحيوانات المنزلية فى حى الخليفة، ويتوقف عند قرد محبوس فى قفصه انتظارًا لمشتر ذى خيال، ويقارن حالته المزرية بالتمجيد الذى حصل عليه أجداده قبل آلاف السنين حينما كان فراعنة مصر لا يزالون يعتبرون القرد تمثيلا لأحد الآلهة ويكرمونه فى حياته وحتى مماته عن طريق التحنيط والدفن اللائق.

ولعل هذا ما يجعل الكتاب منتميا فى نهاية الأمر إلى طائفة كتب الرحلات والسفر لما يتميز به من وصف للمدينة ولمجتمعها من خلال منظور اليوم وعبر ما يراه المرء بالفعل حينما يزورها أو يعيش فيها، وليس من زاوية البحث التاريخى أو الفنى أو الاجتماعى فى حد ذاته.

أما الركن الثانى فى منهج الكتاب، فهو الابتعاد الكامل والمتعمد عن القالب الأكاديمى، وما يرتبط به من وسائل فى البحث والكتابة والعرض. وفى اعتقادى الخاص أن ماكس رودنبك قد أحسن عملا بهذا الاختيار. فالمؤلفات الأكاديمية عن مختلف جوانب تاريخ القاهرة ومجتمعها والقضايا السياسية التى تشغلها أكثر من أن تحصى. والأهم من ذلك أن ما له قيمة حقيقية ومضافة فى هذا البحر من البحث الأكاديمى قليل جدا. وهذه ظاهرة ليست متصلة بالكتابة عن القاهرة وحدها، بل صارت جانبا لصيقا من البحث الأكاديمى عموما، حتى أصبح الحديث عن البحث الأكاديمى مرادفا فى معظم الأحيان للكتابة الجامدة الرتيبة التى لا يقرؤها سوى المتخصصين، والتى تضيع فيها الرؤية الشاملة تحت وطأة التفاصيل. ولعل هذا هو السبب فى الاتجاه المتزايد الذى تبناه عدد من أهم الأسماء الأكاديمية فى العالم، من مختلف المشارب والتخصصات للكتابة

Cairo: The City Victorious

(القاهرة: المدينة المنتصرة)

Max Rodenbeck

London: Picador, 1998.

المبسطة التى تتوجه إلى القارئ العام، والتى تعبر حواجز العلم الواحد إلى مناقشة المواضيع الكلية.

ولكن البعد عن التناول الأكاديمى فى حالة كتاب القاهرة له أسباب أخرى. فاتساع موضوع الكتاب، وحجم المواضيع والقضايا والأفكار التى يسعى لتقديمها، لا يسمح للكاتب بالالتزام بقواعد البحث الأكاديمى، وإلا تحول عمله إلى موسوعة تملأ آلاف الصفحات وتظل قاصرة عن تغطية موضوعها. ومن جهة أخرى، فإن الكاتب لا يلزم نفسه بمجال واحد للبحث، بل يخلط السياسة بالفن، والتاريخ بالجغرافيا، والعادات بالمعمار، والأسطورة بالواقع... وهذا كله بسبب القصور فى البحث الأكاديمى والعاملين به، لا يجد مكانا فى المفهوم الجامد للبحث العلمى الذى صار يفضل رسم الحدود والفواصل بين المناهج والمجالات المختلفة ويجزع من تخطى تلك الحواجز، مهما كان فى ذلك من إضافة قيمة ومن رضوخ للواقع محل البحث. وقد ترتب على ابتعاد الكاتب عن المنهج الأكاديمى التقليدى أن صار لديه قدر من الحرية فى اختيار ما يرغب فى تناوله من المواضيع وما يرى تجاهله. وهذه حرية ضرورية بالنظر إلى أن الكتاب يتناول مدينة القاهرة عبر العصور ومن مختلف الزوايا. كما ترتب على ذلك أيضا أن ماكس رودنبك قد اختار شكلا جديدا لتناول موضوعه، وهو تقسيم الكتاب إلى عدة فصول، كل منها يتناول موضوعا مستقلا تتداخل فيه الرؤى التاريخية والمعمارية والسياسية، دون التقيد بقواعد تحكم تسلسل هذه الفصول واختيارها. وسنعود إلى هذه الفصول المستقلة بعد قليل.

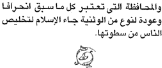
أما الركن الثالث من منهج البحث الذى اعتمده الكاتب، والذى يعطى الكتاب وحدته فى ظل غياب محور محدد له، فهو أنه يطرح على نفسه وعلى القارئ أيضا عدة أسئلة بسيطة ومباشرة، ولكنها أساسية فى فهم قاهرة اليوم. فما الذى يجعل هذه المدينة التى تزدحم بأهلها إلى حد لا يطاق وتعجز بنيتها الأساسية عن تحمل الضغط الملقى عليها، ويصم ضجيجها آذان أهلها. ما الذى يجعلها فى نظر سكانها «أم الدنيا» التى لا غنى عنها ولا بديل؟ وكيف يتعايش سكان القاهرة من مختلف الطبقات والمهن والأمزجة ويتفاعلون؟ وما الذى بقى فى قاهرة اليوم واستمر من تاريخ هذه المدينة العريقة فى سلوك أهلها وعاداتهم؟ أسئلة بسيطة بلا شك، والإجابة عليها تبدو للوهلة الأولى سهلة، ولكن التعمق فيها يثير قضايا أكثر عمقا وتعقيدا ويأخذ من يرتادها فى رحلة طويلة عبر العقلية المصرية المعاصرة. هذه الأسئلة البسيطة والصعبة فى آن واحد هى ما يحدد إطار الكتاب وما يعطيه وحدته، وما يجعل كل الأفكار المتناثرة فيه تسقط فى موقعها، وهى أيضا ما يجعل الكتاب أقرب إلى المحاولة الخاصة للاستكشاف والتفكير التى يشرك الكاتب فيها قراءه.

ولنعد إلى فصول الكتاب ذاته، وقد سبق القول إنها تتناول مواضيع متفرقة، وكل منها من منظور مختلف ولكن يضم رؤى مختلفة لا يجمعها سوى اختيار الكاتب لها وتجاربه الشخصية، وحركته الرشيقة بينها.

فهناك فصل عن المدن التى نشأت واندثرت محل القاهرة الكبرى الحالية، ومن خلاله يستعرض الكاتب تاريخ هذه المدن ويصف أنماط الحياة بها، وما ترك تأثيرا منها على حياة القاهريين المعاصرين. فالبداية كانت مدينة ممفيس، عاصمة الحكم الفرعونى منذ وحد الملك مينا قطرى مصر قبل ما يقرب من خمسة آلاف عام، وما ارتبط بذلك من بناء تدريجى للأهرامات فى الضفة الغربية للنيل لكى تصبح المنطقة فى نهاية الأمر أكبر مقبرة عرفها العالم. وقد شيد قدماء المصريين مدينة أخرى على الضفة المقابلة للنيل، هى مدينة هليوبوليس، لتكريم وعبادة إله الشمس رع، ولم يبق منها اليوم سوى مسلة يتيمة فى حى المطرية بشمال القاهرة. وقد استمرت ممفيس هى العاصمة الرئيسية حتى سقوط مصر تحت الحكم الرومانى عقب انهيار الدولة البطلمية، فبدأ الحكام الجدد ينقلون قواتهم إلى الضفة الشرقية للنيل على نحو أدى إلى اضمحلال مكانة ممفيس وحكم مصر من حصن بابل الذى شيده الر ومان فى مكان تحتله اليوم أقدم وأهم الآثار القبطية فى حى مصر القديمة. فلما فتح الجيش الإسلامى مصر بقيادة عمرو بن العاص، أراد الحاكم الجديد أن ينقل مركز الحكم إلى مدينة الإسكندرية، إلا أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، مدركا الأهمية الإستراتيجية لموقع القاهرة الحالية، أصر على استمرار إدارة البلاد منها، فنشأت فى جنوب الضفة الشرقية أيضا مدينة الفسطاط، قريبا من أنقاض حصن بابل. وأخيرا، تطور الأمر مرة أخرى إبان الحكم الفاطمى، ومع بلوغ المعمار الإسلامى مرحلة متقدمة من الإتقان، فنشأت القاهرة شمال الفسطاط حول سلسلة من المساجد والأضرحة التى مثلت قمة المعمار الإسلامى فى دولة المماليك.

والكاتب لا يكتفى فيما سبق بمجرد رصد التغير والانتقال من مكان إلى آخر، وإنما يبحث عن تفسير لكل ذلك، ويجده فى عناصر متعددة. فهناك الظروف الطبيعية وتغير مجرى النيل وما لذلك من تأثير على المدن. وهناك الحركة المستمرة لمركز التجارة، وما يتبع ذلك من انتقال للسكان والخدمات. ولكن هناك أيضا ظاهرة ملفتة ومزعجة يشير إليها الكاتب، وهى عدم قدرة أو استعداد كل مرحلة من المراحل السياسية الرئيسية فى تاريخ مصر لاحتمال ذكرى ما سبقها ،والرغبة فى أن يبدأ تاريخ مصر من جديد مع كل حاكم جديد. وهكذا لم يكتف فقط بعض الحكام بنقل مركز الحكم من مكان إلى آخر، بل ذهب بعضهم إلى حد هدم المعابد والقصور والمقابر التى شيدت فى العصر القديم للاستفادة بالأحجار والأعمدة والتماثيل الناتجة عن ذلك فى بناء رموز الحكم الجديد. وللأسف أن هذه الظاهرة التى بدأت منذ ممالك الفراعنة ذاتهم، قد امتدت عبر التاريخ المصرى، ولم تفارقه منذ هذا الوقت، وإن كان ذلك أحيانا بهدم المبانى، وأحيانا أخرى بالتلاعب بالحقائق التاريخية.

وفى الكتاب فصل آخر بعنوان مدن الموتى، يتناول فيه الكاتب الأبنية والمعابد والمقابر والمساجد والأضرحة التى شيدها المصريون فى القاهرة عبر العصور من أجل تمجيد موتاهم. ومن خلال هذا الوصف يقتحم موضوع تعامل المصريين مع الموت، وهوموضوع شديد الأهمية والسيطرة على العقل المصرى وعلى العادات والطقوس الاجتماعية السائدة فى مصر إلى اليوم. فالموت كان - ولا يزال - لدى المصريين الحقيقة الأكثر رسوخا والمناسبة الاجتماعية الأهم، والمحور الذى تدور حوله الحياة وينتظم به المجتمع. لذلك فالكاتب يصف طقوس الموت فى مختلف الحضارات، ويتوقف طويلا أمام ظاهرة «الموالد» التى يرى فيها امتدادا لمحاولة الفراعنة للتقرب من الآلهة العديدة آنذاك من خلال الفراعنة، أوللإله الواحد حاليا من خلال الأولياء الصالحين، وهويشير فى سياق ذلك إلى ظاهرة أخرى هامة، وهى التناقض الذى لا يزال قائما بين الرؤية الإسلامية الشعبية - بما فيها من طقوس وموالد وذكر وزيارة للأضرحة وتقديس للأولياء - وبين الرؤية الإسلامية الرسمية والمحافظة التى تعتبر كل ما سبق انحرافا وعودة لنوع من الوثنية جاء الإسلام لتخليص الناس من سطوتها.



أما فى فصل بعنوان مجتمع الثراء ومجتمع الفقر، فإن الكاتب يصف نماذج التباين الطبقى والثقافى الذى عرفته القاهرة على مر العصور، بما فى ذلك التناقضات التى لا تزال المدينة تعرفها اليوم بين الثراء الفاحش والفقر المدقع. والكاتب لا يقف فقط عند حد وصف بعض مظاهر الفقر(منها حياة سكان المقابر، ومجتمع جامعى القمامة، وقهوة المرضى التى يرتادها من يعانون من أمراض وعاهات مستديمة لانتظار من يرغب فى خدماتهم من طلاب مستشفى قصر العينى التعليمى أوأساتذته الراغبين فى إجراء الامتحانات)، ولا عند بعض مظاهر الثراء الفج، وإنما يطرح سؤالا هاما عن كيفية تعامل فقراء القاهرة مع الظروف الشاقة التى يعيشونها ، ويقترح إجابة تدور حول إدراك لطبيعة وحجم الاقتصاد غير الرسمى الذى يمثل لمعظم القاهريين المصدر الأساسى للدخل، والمصدر الأول للخدمات والسلع. وهو يجد فى نفس الظاهرة تفسيرا للغز آخر طالما حير الباحثين فى تاريخ مصر، وهوكيف احتمل المصريون على مر العصور وتحت مختلف أنظمة الحكم ظروفهم الشاقة بدون ثورة أوعنف.

وفى فصل آخر بعنوان صوت القاهرة - وهوفى اعتقادى من أفضل مقاطع الكتاب - يصف الكاتب ألوانا مما تصدره القاهرة من أصوات بكافة الوسائل، بدءا من صوت أم كلثوم الذى يتابعه السائر فى الأسواق الشعبية وفى سيارات الأجرة وما يمثله صوتها من نوع من الهوية الوطنية، مرورا بأمسيات إنشاد مدائح أبى زيد الهلالى، وبمقامات الموسيقى العربية و«الربع تون» الذى يميزها، انتهاء بالأصوات المزعجة التى تصدرها المحال التجارية فى كل وقت من الليل والنهار. ومن هذا المدخل يناقش الكتاب قضايا أكثر شمولا عن أسلوب القاهرة فى الحديث وفى التعبير، والعلاقة بين اللغتين العامية والفصحى، وكيف تمكنت العامية المصرية - وبخاصة القاهرية - من أن تصبح اللغة العربية الدارجة الأكثر شيوعا وفهما فى مختلف البلدان العربية. ومرورا من نفس



« فى فصل بعنوان: « صوت القاهرة » يصف الكاتب ألوانا مما تصدره المدينة من أصوات بجميع الوسائل، بدءاً من صوت أم كلثوم الذى يتابعه الناس فى الأسواق الشعبية وفى سيارات الأجرة، إلى الأصوات المزعجة للمحال التجارية.. إلى ما يصدر فى القاهرة من مطبوعات صحفية ».





الزاوية، يصف الكتاب صناعة الإذاعة والسينما المصرية، ويثير أسئلة هامة عن كيفية استخدام الدولة، بالذات في مرحلة ما بعد الثورة، لوسائل الإعلام الرسمية من أجل تكوين هوية قومية جديدة، وفرض مظاهر التحضر الرسمية. وأخيرا ينتقل إلى تحليل لما يصدر في القاهرة من مطبوعات ومن وسائل صحافة، ومن كتب ومنشورات، ولكيفية تعبير المصريين عن آرائهم على وجه العموم، ويتناول من خلال ذلك التناقضات الثقافية التي صارت القاهرة تعرفها اليوم، والتي يرى في محاولة قتل الكاتب نجيب محفوظ رمزا لها وللتراجع في الدور الذي صارت القاهرة تلعبه اليوم في الحياة الثقافية العربية.

هذه بعض فصول الكتاب، والتي توضح أن الأسلوب الشامل الذي لا يعتمد مدخلا واحدا لوصف القاهرة هو ما يعطيه قيمة فريدة ويجعله بالفعل من أعمال أدب الرحلات بالمعنى الحقيقي والأكثر رقيا، أي بمعنى السعي إلى تقديم صورة عن المدينة بشكل متكامل وشخصي، ومن خلال ما يراه زائرها ويعرفه قاطنها اليوم، ودون أن يضطر الكاتب إلى تبرير ما يختار الكتابة عنه وما يرى إغفاله.



وبرغم تقديري لحرية الكاتب في اختيار ما يراه ملائما ومايرى تركه، إلا أن تقسيم الكتاب إلى فصول يتناول كل منها موضوعا منفصلا قد أغفل - في اعتقادي - جانبا هاما من تحليل ووصف قاهرة اليوم، وكان من الممكن أن يكون إضافة قيمة للكتاب وللمعرفة السائدة عن العاصمة المصرية. هذا الفصل الناقص هو عن اقتصاد القاهرة المعاصر. والمقصود بذلك ليس تقديم بحث إحصائي جاف، وإنما رسم صورة عن اقتصاديات مدينة القاهرة بالمعنى الواسع، أي متضمنا تحليلا للمهن والحرف التي يمارسها أهلها ونسبة ذلك إلى الدخل القومي، وتوزيع الدخل في المدينة، وحجم الاستثمار والسلع والبضائع التي تدخل القاهرة مقارنة بما يخرج منها، وصعود صناعات وخدمات معينة على حساب غيرها، وظروف العمل بها، وحجم الخدمات التي تحظى بها العاصمة المصرية ونصيبها من ميزانية الدولة في الخدمات الأساسية والبنية التحتية، وتوقعات المستقبل لتطور المدينة من الناحية الاقتصادية. هذه الصورة الاقتصادية الشاملة كان يمكن أن تضيف إلى الكتاب جانبا هاما من فهم وتحليل مدينة القاهرة، وهو جانب لا شك أن الكاتب كان قادرا على تناوله باقتدار، نظرا لأنه يمس بعض جوانبه بالفعل وإن كان بشكل عارض، وكان من الممكن أن يتناولها على نحو مستقل يضيف بعدا هاما وناقصا عن فهم قاهرة اليوم.



ومع ذلك، فإن الكتاب لا يخلو من أوجه للنقد لا يستهان بها، بل يسهل تصور سبب لمثل هذا النقد في كل موضع من الكتاب وفي كل موضوع يتطرق إليه، ليس بسبب أخطاء أو آراء معينة بل بسبب ذات المنهج الذي يعطي الكتاب قيمته الفريدة، إذ إن الاختيارات الشخصية التي يقوم بها الكاتب أيضا يمكن أن تكون مما يستدعي نقده.

فالباحث التاريخي في مصر الفرعونية مثلا قد يجد في تناوله للتاريخ القديم تبسيطا لا يقبله ويعتبره تعديا على البحث الأكاديمي الرصين. والمتخصص في التاريخ الإسلامي قد يجد لديه «شطحات» غير مبررة وانحيازا مبالغا فيه للعصر المملوكي وللرقي الفني والمعماري فيه على حساب كافة العصور الأخرى، وخبير العمارة قد لا يعجبه تناوله الوصفي لما بقي في القاهرة من معمار يعود إلى مختلف العصور، أو يرى فيه اختصارا لتفاصيل فنية كثيرة وهامة. أما الكاتب والمحلل السياسي فقد يضيق ذرعا بنقده لبعض الرموز الوطنية، خاصة حكام مصر في العصر الحديث، والأرجح أن الكاتب لم يعط دخائل السياسة المصرية المعاصرة حقها من التعليق، وبالأخص فيما يتعلق بما كان النظام الناصري يسعى أصلا لتحقيقه ومدى نجاحه في ذلك.

ومن جهة أخرى، فقد يرى بعض المتحمسين أن في الكتاب بعض المقاطع التي يغلب عليها الوصف «الاستشراقي» للمجتمع الإسلامي التقليدي (مثل وصف الموالد الشعبية وبالذات مولد الحسين في الصفحات من ٦٠ إلى ٦٦ والعادات الغريبة التي يمارسها أهل القاهرة وزوارها أثناء تلك المناسبات). وقد يعتقد آخرون أنه بالغ في الرومانسية عند تصوير الأشخاص والمشاعر (مثل أصالة الفقير «ابن البلد» من جهة والسلوك «الغربي» لسيدة المجتمع الثرية الذي يشبه ما نراه في المسلسلات التليفزيونية) على نحو ما يجدون فيه ابتعادا عن الواقع الذي يعرفه كل منهم في عالمه الخاص.

وقد لا يعجب الإسلاميين دفاعه عن طه حسين ونصر حامد أبوزيد، كما قد لا يستريح الحكوميون لإشاراته وتصريحاته عن معاناة القاهرة من فساد الذمة وانحطاط الذوق، والناصريون لوصف ما فعلته الثورة بالمدينة وسكانها، والملكيون لنقده للعصر السابق على تلك الثورة. باختصار، فإن ماكس رودنبك لم يتجنب المسائل الحساسة ولم يتردد في إبداء آراء قد تبدو للمتخصص أو للمؤمن بفكر محدد غير مقبولة، وبالتالي فقد أعطى لكل من يقرأ كتابه سببا لكي ينقده.

ولكن مثلما أن أوجه النقد المذكورة، وغيرها مما يمكن للقارئ المتخصص أن يتوقف عنده، قد تكون حقيقية ومبررة من وجهات نظر ضيقة، فإن الحقيقة تبقى أن ما قدمه ماكس رودنبك في كتابه لم يزعم أنه تاريخ عن القاهرة، ولا أنه دراسة معمارية عنها، ولا أنه بحث اجتماعي أوسياسي، أوحتى كتاب رحلات بسيط، وإنما رؤية خاصة وشخصية عن مدينة عريقة ومعقدة ومليئة بالتناقضات والأفكار والتجارب. بمعنى آخر فإن ما قدمه الكاتب لنا هو لوحة رسمها فنان لا حاجة به لتبرير ما الذي يرسمه والألوان التي استخدمها والتفاصيل التي أراد إبرازها أو فضل أن يتجاهلها، بل هي لوحة متكاملة وغير موضوعية على الإطلاق، ومن لا تعجبه فليس عليه إلا أن يعرض عنها، أما من يرى جمالها ويقدره فلن تعوزه الأسباب لكي يسعى لاقتنائها والتمتع بها في كل فرصة.



ولا يملك القارئ في نهاية الكتاب إلا أن يعجب بهذا الخواجة (المصطلح المصري للأجنبي الزائر أوالمقيم) الذي لم يتورع عن الخوض في كل تفاصيل تجربة الحياة القاهرية، بل ويكاد يرى من خلال عرضه للمدينة تدرجا في مشاعره الخاصة وفي درجة انصهاره بالمدينة وبأهلها. فبينما يكتفي في الفصول الأولى من الكتاب بالوصف المجرد وغير المكترث، إلا أن انشغاله بالقضايا اليومية وبمشاكل الحياة في القاهرة يتزايد مع كل فصل حتى يصل إلى ذروته في فصل بعنوان «الصراع والانصهار» حيث يتناول الحياة السياسية والثقافية في مصر في العقود الأربعة الأخيرة. فإذا بالمشاهد «الخواجة» غير المكترث يكشف عن وجهه الحقيقي، فتتراجع رؤيته السلبية ليحل محلها خطاب سياسي وتحليلي مباشر فيه غضب وانفعال وتطلع ورغبة في تغيير الأوضاع بدلا من مجرد رصدها، فندرك عندئذ أن «الخواجة» قد صار «ابن البلد» الذي يرتبط مصيره بها والذي يصعب عليه أن يقف مكتوف الأيدي أوصامتا حينما يرى فيها ما يزعجه.

ولعل ما سبق يكون قد أوضح صعوبة تصنيف الكتاب، وخروجه عن القالب المعتاد لكتب الرحلات أوالسياسة أوالفن أوالتاريخ. ويزيد من صعوبة هذا الأمر أن الكتاب يتميز بأسلوب أدبي جميل وسهل في آن واحد، يجعل قراءته في متناول حتى السائح الفضولي الذي يرغب في بذل بعض الجهد الإضافي للتعرف على المكان الذي يزوره. والكتاب كذلك يتميز بأنه يحمل من شخصية الكاتب ومن تجاربه ما يجعله يشبه في مقاطع معينة السيرة الذاتية له من خلال معايشته للمدينة ولأهلها، الأمر الذي يزيد من سهولة قراءته ومن قابليته للوصول إلى القارئ غير المتخصص.

ولأن الكاتب «الخواجة» في الأصل قد صار «ابن البلد» فإنه يعود في نهاية الكتاب إلى ذات السؤال الذي بدأ به. ما الذي يجعل القاهرة بالرغم من مشاكلها ومن صعوبة المعيشة فيها، محبوبة في نفوس كل من يرتادونها ويقطنون بها فتجدهم جميعا يتحدثون عنها بشغف وارتباط بالغين؟ ماكس رودنبك لا يقدم لنا إجابة واحدة، وإنما اقتراحات عديدة. فأحد ساكني المقابر يقول له بفخر شديد أن القاهرة أعظم مدن العالم، وقاهري آخر يذكره بأنها «أم الدنيا» وكأن هذه حقيقة لا تقبل الجدال وليست بحاجة إلى الشرح. أما الكاتب نفسه فيبحث عن الإجابة في تاريخ القاهرة وفي مسلك أهلها وفي التنوع الذي تحتويه والذي يجعلها بحق مدينة متعددة الجوانب والعوالم. لا يشعر فيها أحد بالغربة مهما اختلفت ظروفه عن ظروف الأغلبية، وتتعايش فيها التيارات المتناقضة والأجناس المختلفة والأمزجة المتنافرة، كل يدور في عالمه الخاص ولا يزعج أحد منها الآخر. ويجد القارئ نفسه عند الانتهاء من القراءة، وقد عرف القاهرة أكثر ووقع تحت سطوة الإعجاب بها أكثر دون أن يكون قد توصل لإجابة محددة تزيل عجبه منها. ■



« في الفصل الذي يتناول فيه الحياة السياسية والثقافية في مصر في العقود الأربعة الأخيرة.. يكشف المشاهد « الخواجة » غير المكترث عن وجهه الحقيقي ويحل محل رؤيته السلبية خطاب سياسي مباشر فيه غضب ورغبة في تغيير الأوضاع.. فندرك عندئذ أن « الخواجة » صار « ابن البلد » الذي يرتبط مصيره بها ».







خريطة الانتخابات الإسرائيلية القادمة

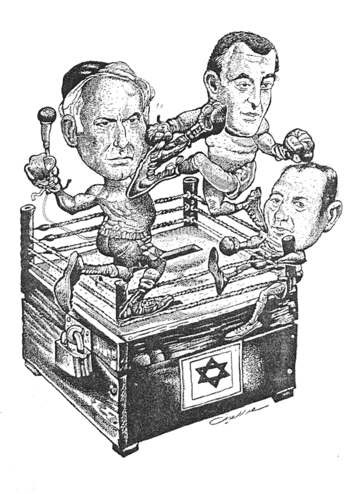
مروان بشارة

تجرى بعد أسابيع واحدة من أهم الانتخابات لاختيار كنيست جديدة ورئيس جديد للوزراء فى إسرائيل. ولا مبالغة كبيرة إذا وصفها محللون إسرائيليون وأجانب بأنها ربما تكون الانتخابات الأهم فى تاريخ الدولة اليهودية. فالمطروح على الساحة السياسية الإسرائيلية رهانات بعضها يتعلق بهوية إسرائيل، وبعضها يتعلق بمساحة إسرائيل، وبعضها يتعلق بالموقع الإقليمى لهذه الدولة. والحديث يطول عن هذه الرهانات، وكثير من الرهانات المطروحة فى هذه المرحلة تجاوز إسرائيل ففرض نفسه، أو يجب أن يفرض نفسه، على قائمة اهتماماتنا الجديدة. فاختيار الهوية مثلاً، إن كان دينيًا متطرفًا، أو صهيونية علمانية، أو صهيونية دينية، أو دولة على طريق العولمة.. أى على طريق اللادولة، اختيارات تتناقض جذريًا أو تتلاقى مرحليًا أو تتنافر عدائيًا مع اختيارات هوية نعتقد أنها - أو يجب أن تكون - مطروحة على الساحة العربية وإن بغير انتخابات ولا مناقشات.

من ناحية أخرى، كلنا أمام ظاهرة حديثة - قديمة فى المجتمع السياسى الإسرائيلى. ففى إسرائيل رجل - واسمه بنيامين نتانياهو - يريد أن يتوج ملكًا على إسرائيل، يريد أن يحقق فى سنوات قليلة هى سنوات حكمه التى فاتت وسنوات حكمه التى ستأتى ما لم يحققه أنصاف ملوك مثل بن جوريون، وموشيه ديان، وإرهابيون مثل مناحيم بيجين وإسحاق شامير، وأدعياء نبوة مثل شيمون بيريز وإسحق رابين.. أشخاص ارتدوا ثيابًا وتقمصوا شخصيات توراتية وحاولوا بناء مملكة إسرائيل الجديدة. وبعد مائة عام نستطيع أن نقول أنهم لم يفلحوا فيما عزموا عليه.. وأننا لم نفلح فيما عزمنا عليه ولكن لم نحزم أمرنا فيه.. والطريق مازالت طويلة.. وستكون أطول إن فاز نتانياهو.

ولما كان الموضوع برمته يحتاج لمعالجة وتحليل من متخصص من داخل إسرائيل يكون مطلعًا على تفاصيل التطورات السياسية، طلبت «الكتب، وجهات نظر» من مروان بشارة رسم خريطة للساحة السياسية الإسرائيلية عشية الانتخابات. وقضى مروان فى القاهرة - بناء على هذا الطلب - أسبوعًا يناقش ويحلل حتى انتهى من كتابة المقال المنشور هنا. ومروان بشارة فلسطينى ولد لوالدين من العرب الفلسطينيين وعاش فى الناصرة، أى فى أرض احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨، ولذلك فهو مواطن إسرائيلى. ويعتبر من الباحثين المهمين فى علوم السياسة.

المحرر



توّج انتصار بنيامين نتانياهو فى انتخابات ١٩٩٦ الإسرائيلية، وعمّق لديه حكمة مفادها أنه يمكنه الكذب على كل الناس كل الوقت، وأن حبل الكذب طويل جداً فى دولة قوية شعبها عصبى وقلق، ومستعد للتمسك بأية أوهام تخفف عنه عناء الحرب بدون دفع فاتورة السلام. ونجح نتانياهو فى قلب جميع حسابات المؤسسة الإسرائيلية والأمريكية من خلال الفوز على مرشح الولايات المتحدة وأوروبا والعالم العربى شمعون بيريز.

وإذ جاء انتصاره صدمة لجميع المعنيين بالعملية السلمية والشراكة الإسرائيلية فإن فوزه لم يكن مفاجأة إسرائيلية. فقد تقمّص نتانياهو آنذاك شخصية الشرطى بين الشرقيين، والعلمانى بين العلمانيين، واللاهوتى بين المتدينين، والراديكالى بين العسكريين، وشخصية المتفهم لضرورة المفاوضات وشخصية الرفضى والعنيف بين العنصريين والمستوطنين والأصوليين. ولكن فى الأساس، اعتمد نتانياهو على تحالف شيطانى بين المتدينين المسيسين والمتطرفين من ناحية والعلمانيين القوميين اللاهوتيين من الناحية الثانية. وكان أن خرجت جماهير المتدينين بغالبيتها الساحقة لتصوت لنتانياهو إلى جانب غالبية أبناء الشرائح الدنيا والوسطية وغالبية الشرقيين والعسكريين والمستوطنين والتقليديين، كل هؤلاء الذين لم يروا فى بازار اقتصاد السلام ما يفيدهم ولم يقيّموا عالياً خصخصة أرض إسرائيل فى إطار عملية السلام.

برز نتانياهو بنبرته العالية وبنفسية الإسرائيلى «الوقحة» الحوتسبا وبلهجة ولغة إنجليزية متماسكة ورصينة أمام الغرب، وبلكنة إسرائيلية محلية متعجرفة أمام الإسرائيليين. واستغل نتانياهو العبوات الناسفة فى شارع يافا وتظاهرات المتدينين فى شارع بار إلان فى مدينة القدس عشية الانتخابات ليكشف عورات «السلام» ونقاط ضعف بيريز ويقدم نفسه قائداً قوياً وفولاذياً لشعب قلق.



لقد وصل نتانياهو لرئاسة الوزراء من عالم ديبلوماسى وسياسى حافل بالغوغائية. وكان هبوطه فى نيويورك رئيساً لبعثة إسرائيل لدى الأمم المتحدة بعد تعريجة قصيرة فى واشنطن، هبوطاً ماهراً وبتوقيت مثالى وهو خريج سلاح المظليين النخبوى فى الجيش الإسرائيلى. فقد تزامن وصوله مع اشتداد توتر الحرب الباردة فى الثمانينيات، فدخل فى شراكة استراتيجية مع أكثر حكومة أمريكية متطرفة فى هذا القرن كان يرأسها رونالد ريجان - ملك الديماجوجية والشعبوية والتمثيل الإعلامى. فأعلنوها حربا شعواء على ما أطلقوا عليه توتاليريات العالم الثالث والأنظمة الشيوعية والإرهاب الدولى متمثل بحركات التحرر فى العالم.

وفى الحقبة اللاحقة ما بعد الحرب الباردة وحرب الخليج الثانية، تصدر بنيامين نتانياهو نائب وزير الخارجية المستضعف (ديفيد ليفى) فى غياب وزيره، تصدر إدارة الوفد الإسرائيلى إعلامياً وسياسياً فى محادثات مدريد وغطى على صلافة وتخلف رئيس الوزراء اسحق شامير فى التعامل مع وسائل الإعلام الدولية.

وحاول نتانياهو منذ ذلك الحين خفض سقف التوقعات الفلسطينية والعربية بخصوص أى تنازلات إسرائيلية واستهدف نتانياهو بصورة خاصة منظمة التحرير الغائبة من مفاوضات مدريد ليصب هجوماته على القيادة الفلسطينية. وهو الذى اشتهر باقتباس تصريحات قيادات فلسطينية من صحف كويتية حول تدمير إسرائيل أو رميها فى البحر بدون أن يعرف أحد من أين جاء بتلك الاقتباسات.

كان هو ذلك الأداء المتطرف البارع الذى أعجب اليمين الإسرائيلى والذى دعم نتانياهو وريثاً لزعامة حزب الليكود بعد خسارة اسحق شامير انتخابات ١٩٩٢ لصالح إسحق رابين. واستغل نتانياهو العلاقات الحميمة التى بناها مع الجالية اليهودية المتمكنة فى نيويورك لجمع الأموال واستعمالها فى معركته الداخلية ضد «أمراء» الحزب وقياداته التاريخية ليربح الصراع على زعامة الحزب ويبدأ حملة جديدة شعبوية لتطهير الحزب من أقطابه الكبيرة بعد تحجيم قياداته التقليدية وليكون الزعيم الأقوى بدون منافس. وما لبث أن ربح نتانياهو الانتخابات الفاصلة سنة ١٩٩٦ ليتربع على تحالف اليمين وجهاز الحزب.. والدولة.

ولفترة عامين ونصف العام قام نتانياهو بتفريغ العملية السلمية من مضامينها - وخاصة الأرض مقابل السلام - بديلا عن معادلة السلام مقابل الأمن أو بالعكس. وكذلك فقد قام بتحجيم دور جميع المؤسسات والتركيبات التى بناها حزب العمل فى السنين الأربع السابقة والتى اعتمد عليها رابين للوصول إلى اتفاق أوسلو وعلى رأسها الجيش والبرلمان والخارجية. ووجد نتانياهو نفسه بعد عامين وجهاً لوجه فى مواجهة واشنطن

وحلفاء إسرائيل الغربيين، وكذلك فى مواجهة شركاء إسرائيل العرب فى العملية السلمية من ناحية، وفى مواجهة شبح التطرف والراديكالية فى معسكره، فقرر التراجع عن الاتفاق الذى وقع عليه فى «واى بلانتيشن» والقبول بانتخابات مبكرة قبل أن تتدهور المواجهة السياسية والبرلمانية على خلفية الأزمة الاقتصادية بصورة تضعف من قيادته وقدرته على المناورة مع مرور الوقت.

اضطر رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتانياهو أن يعلن فى بداية السنة عن انتخابات مبكرة - ١٧ مايو - فى ظل جمود «العملية السلمية» الناتج عن تراجع إسرائيل عن تنفيذ الاتفاقات الموقعة فى «واى بلانتيشن» وبسبب تعاظم المعارضة البرلمانية لحكومته من داخل الائتلاف اليمينى الأصولى، وفى غياب «شبكة أمان» المعارضة والتى نفذ تاريخها بعد اتفاق «واى».

وتزامن إعلان الانتخابات مع قرب انتهاء المرحلة الانتقالية لاتفاقات أوسلو وما يمكن أن يتمخض عنها من استحقاقات سياسية وخاصة إعلان الفلسطينيين عن دولتهم المستقلة فى الأراضى المحتلة سنة ٦٧. وهدد حلفاء نتانياهو بأن أى انسحاب أو أى تنفيذ للاتفاقات يجب أن يكون مشروطاً بتنفيذ السلطة الوطنية الفلسطينية جميع التزاماتها وبتراجعها عن الإعلان عن دولة من طرف واحد.

وافتتح نتانياهو حملته الانتخابية بهجوم مباشر على «شريكه» فى العملية السلمية رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات. وانتقد مرشح اليمين - رئيس الوزراء - بشدة عدم التزام السلطة تحطيم «البنية التحتية للإرهاب» وسحب كل الأسلحة غير المرخصة من الفلسطينيين. ولم يأبه نتانياهو بالتأكيدات الأمريكية التى اعتبرت أن الفلسطينيين ينفذون التزاماتهم، معتبراً أنه يخوض الانتخابات الإسرائيلية لرئاسة الوزراء ضد ياسر عرفات وليس إيهود باراك - مرشح حزب العمل - والذى وصفه بأنه ضعيف وسيفرط بأمن إسرائيل وبالقدس «عاصمة موحدة وأبدية لدولة إسرائيل». ولم يتوان نتانياهو للحظة عن تجميد جميع «الانسحابات» المتفق عليها، بل وأخذ يعلن عن توسيع المستوطنات وعن تخصيص دعم إضافى جديد للاستيطان اليهودى على أراضى الضفة الغربية المحتلة. وعملياً أخذ نتانياهو يتراجع عن القليل مما قاله أو وقع عليه فى «واى بلانتيشن»، وحتى بدا وكأنه يهاجم الاتفاق الذى وقع عليه، وتقوقع من جديد فى خندق اليمين المحافظ محذراً من أن المؤامرة على إسرائيل من قبل الجيران والحلفاء تسير على قدم وساق.

وأعلن نتانياهو عن نفسه «قائداً قوياً لشعب قوى» فى مواجهة الأخطار المحيقة بإسرائيل (؟) وأمام التحديات التى تفرضها المفاوضات».



باراك : إنه الاقتصاد يا غبى !

على هذه الخلفية اختار زعيم المعارضة والجنرال السابق إيهود باراك أن يبدأ حملته الانتخابية بمواجهة نتانياهو فى جبهة مغايرة - ألا وهى الاقتصاد. واعتبر باراك أن سياسة نتانياهو قد أدت إلى إضعاف إسرائيل وإلى انعزالها عن المنطقة وعن أصدقائها وكذلك، أو بالنتيجة، إلى إضعاف الاقتصاد الإسرائيلى الذى يواجه ركوداً اقتصادياً للسنة الثالثة على التوالى. فبينما كانت نسبة النمو ٧,١ فى المائة سنة ١٩٩٦ فقد انخفضت سنة ١٩٩٨ إلى ١,٦ بالمائة. وكذلك فقد تراجع الشيكل الإسرائيلى من ٣,٤ مقابل الدولار إلى ٤,٤ فى نهاية السنة

وجد نتانياهو نفسه بعد عامين وجها لوجه فى مواجهة واشنطن وحلفاء إسرائيل الغربيين، وكذلك فى مواجهة شركاء إسرائيل العرب فى العملية السلمية، وفى مواجهة شبح التطرف والراديكالية فى معسكره، فقرر التراجع عن الاتفاق الذى وقع عليه فى «واى بلانتيشن» والقبول بانتخابات مبكرة.

اختار باراك أن يبدأ حملته الانتخابية بمواجهة نتانياهو فى جبهة مغايرة.. ألا وهى الاقتصاد.. على أساس أن سياسة نتانياهو أدت إلى إضعاف الاقتصاد الإسرائيلى.. كانت نسبة النمو ٧,١ بالمائة سنة ١٩٩٦ فانخفضت سنة ١٩٩٨ إلى ١,٦ بالمائة.

أهم ما يميز موردخاى هو تلك الرسالة الغريبة التى وصلته من زعيم العالم الغربى الرئيس كلينتون، والتى تضمنت إشادة بدور وزير الدفاع وموقفه الثابت فى خدمة عملية السلام.. وهو ما اعتبره مساعدو نتانياهو إهانة لرئيس الوزراء.

الماضية ما أدى إلى تراجع فى الناتج المحلى بالدولار عن السنوات الماضية. وكانت نتيجة ذلك ازديادا فى البطالة والتى وصلت فعلاً إلى أكثر من ١٠ فى المائة وفى المدن المتوسطة ومدن التطوير إلى أعلى من ذلك بكثير، أو ٢٣٠ ألف عاطل عن العمل.

واستغل باراك تدهور الوضع الاقتصادى فى السنتين الماضيتين بعد أن كان قد ازدهر بطريقة فظيعة فى الثلاث سنوات التى سبقتها، استغله للهجوم على نتانياهو واتهمه بأنه يفرط بالدولة وبأمنها واستقرارها بسبب بضعة آلاف من المستوطنين وقلة من أعضاء البرلمان - الكنيست - الذين يهددون بفك الائتلاف الحكومى.

وعمل باراك بنصيحة مستشاره الجديد - ستانلى جرينبرج - وهو من مستشارى الرئيس كلينتون فى حملاته الانتخابية الماضية الذين فرضوا الشعار الانتخابى سنة ١٩٩٤ إنه «الاقتصاد يا غبى»، فى وجه سياسة إدارة جورج بوش العسكرية - بعد الحرب الباردة - وفى العراق وفى الناتو. وأخذ باراك يشدد كذلك على تراجع الخدمات الاجتماعية والصحية وعلى تقليص ميزانيات التطوير والتنمية فى المناطق الفقيرة من إسرائيل، وكذلك ميزانيات التعليم لصالح الاستيطان والمعاهد الدينية التابعة لشركاء نتانياهو فى الائتلاف الحكومى.

واعتبر رئيس الأركان السابق أنه لابد من تجنيد طلاب المعاهد الدينية التابعة لحزبى أجودات يسرائيل وديجيل هتوراة الأصوليين فى صفوف الجيش لكى يخدموا دولتهم بدلاً عن صرف الدولة ميزانيات كبيرة لدعم دراستهم فى المعاهد.

واعتبر باراك أن سياسة نتانياهو التى أدت إلى تعطيل العملية السلمية قد أدت بالتالى إلى وقف الاستثمارات الدولية بل حتى هروب جزء منها، وهى الوجه الآخر لذات السياسة التى تهدر الميزانيات الحكومية على توسيع المستوطنات وتعمق الاندماج الجغرافى بين الفلسطينيين والإسرائيليين، مما «يهدد» الطبيعة اليهودية و«الديموقراطية» لدولة إسرائيل.

وبناءً على ذلك رفع باراك شعاره الانتخابى «نحن هنا وهم هناك» مؤكداً على أهمية «الفصل» بين الشعبين ولكن بدون ذكر أو حتى التمهيد لفكرة استقلال الشعب الآخر، أى الفصل بين الشعبين بدون سيادة للشعب الآخر على أرضه. بل إنه ذهب ليزعم ويحذر من أن سياسة نتانياهو ستؤدى إلى الدولة الفلسطينية.

وحاول باراك أن يقنع اليهود الشرقيين الذين يعانون أكثر من الاشكناز (الغربيين) من الضائقة الاقتصادية، من خلال إدخال ممثلين عن قائمة «جيشر» الشرقية العلمانية والتى تدعى تمثيل الطبقات المتوسطة والفقيرة بين الشرقيين إلى قائمة «إسرائيل واحدة» التى شكلها باراك نيابة عن حزب العمل. ولكنه فشل بسبب كراهية غالبية الشرقيين للميول «العنصرية» والمترفعة لقيادة حزب العمل الاشكنازية. وكان باراك قد حاول أن يعتذر قبل حوالى السنة، عن معاملة الدولة للشرقيين فى السنوات الأولى للدولة حين كان حزبه حاكماً ولكنه فشل فى أن يحرك قلوب الشرقيين. وزاد الطين بلة أن أحد رفاق باراك فى الحزب وفى الجيش سابقاً - أورى أور - قد انتقد وهاجم الشرقيين «وعقليتهم» فى مقابلة صحفية منذ بضعة أشهر مما أثار حفيظة الشرقيين على حزب العمل. وتوجت أزمة الثقة هذه حادثة ممثل اليهود الأثيوبيين فى حزبه والذى ادعى أن قيادة حزب العمل قد زورت نتائج الانتخابات الحزبية الأولية بين أكثر من ١٠٠ ألف عضو من حزب العمل لصالح المرشحة الروسية وعلى حساب مقعده. واختار باراك الساعة الثامنة مساء ليعلن نتائج الانتخابات أمام عدسات التلفزيون فى وقت الذروة فثار

عضو الكنيست سيلو مصالة ممثل الأثيوبيين أمام عدسات التلفزيون واتهم قيادة الحزب بالعنصرية وهو يصرخ فى وجه باراك أنه سيكون عليه أن يعتذر مرة أخرى لليهود الإسفراد، مثلما فعل قبل سنتين.

وقام باراك بالتفاوض مع حركة «ميماد» الأصولية «المعتدلة» لضمها إلى قائمة «إسرائيل واحدة» بممثل واحد عنها، ولكن ذلك لم يهدئ من إسقاط المتدينين والأصوليين لحزب العمل وقيادته العلمانية، بل ازدادت عدوانية هؤلاء المتدينين وأحزابهم الأصولية تجاه المؤسسة العلمانية فى الدولة - بما فى ذلك مؤسسة القضاء ومحكمة العدل العليا - والتى ترى تلك الأحزاب أنها من ضمن التقاليد والثقافة التى زرعها ويدعمها حزب العمل العلمانى. ورفضت الأحزاب الدينية التى قامت بأكبر تظاهرة قبل بضعة أشهر احتجاجاً على سياسة ودور المؤسسات العلمانية والقضاء وتدخلها فى شئون الدين، والمجالس الدينية التى يهيمن عليها الأصوليون الأورثوذكس، رفضت السماح لباراك أن يلقى كلمة أمام الـ ٢٥٠ ألف متظاهر.

وتقدر الاستطلاعات أن مرشح حزب العمل سيحصل هذه المرة على أقل مما حصل عليه بين الاصوليين ومؤيدى الأحزاب الدينية شاس والمفدال وأجودات يسرائيل وديجيل هتوراة. وكان بيريز قد حصل على أقل من ١٣ بالمائة من أصوات الأصوليين سنة ١٩٩٦ مقابل أكثر من ٨٧ بالمائة لصالح نتانياهو. وتعطى الاستطلاعات باراك ٤ بالمائة من أصوات حزب شاس بينما كان بيريز قد حصل سنة ١٩٩٦ على حوالى ١٥ بالمائة من أصوات هذا الحزب الشرقى الاصولى.

مسألة الأرض واحتلال الضفة خلقت ما هو مشترك بين القوميين المتطرفين والدينيين الأصوليين.. وهذا هو الحلف الذى يعتمد الأرض قيمته السياسية ومرجعيته الأيديولوجية الأهم والذى يرى فى الفلسطينيين غرباء وفى العرب أعداء.



مورد خاى: مرشحا عن حزب الوسط

على قاعدة هذا الاستقطاب السياسى والاجتماعى بين مؤيدى نتانياهو وباراك وفى ظل ضعف شعبية الأخير فى قطاعات واسعة من الناخبين الشرقيين والتقليديين والمتدينين والذين يشكلون غالبية الإسرائيليين، قام الحزب الجديد «الوسط» - والذى أسسته مجموعة من رجال الأعمال وعدد من قياديى الليكود والعمل سابقاً - بترشيح وزير الدفاع السابق إسحق موردخاى لرئاسة الوزراء - وهى أول مرة يترشح فيها يهودى شرقى لملء هذا المنصب فى إسرائيل. وموردخاى ذو أصول كردية - وهو رجل تقليدى وشرقى (٥٤ سنة) فى طباعه وأسلوبه، متزوج من صبية اشكنازية تصغره بالسن كثيراً (٢٧ سنة). وكان أول ما فعله موردخاى فور ترشيحه أن ذهب إلى حائط المبكى ليقرأ نصوصاً من التوراة ومن ثم توجه إلى الزعيم الروحى لحركة شاس - عوفاديا يوسف - فقبل لحيته وحصل على بركته.

وبعد ذلك أخذ موردخاى ينتقد بشدة - ولكن ببرودة أعصاب - رئيس الوزراء متهماً إياه بالخداع شارحاً موقفه الذى دعاه إلى ترك حزب الليكود والتخلى عن منصبه، وزيراً للدفاع. وجاء رد فعل نتانياهو الذى فقد أعصابه متوتراً وضعيفاً بالرغم من لهجته القاسية ومن استعماله الكلمات والأساليب غير اللائقة لإقالة وزير الدفاع على شاشات التلفزيون.

وبالفعل فقد جاء دخول موردخاى إلى الحلبة الانتخابية ليمتص الكثير الكثير من الاستقطاب الدينى والاجتماعى وليفرض نفسه بديلاً عن نتانياهو أمام هؤلاء الشرقيين والمتدينين والتقليديين الذين يرفضون باراك بديلاً عن نتانياهو، كل ذلك بالطبع إضافة إلى تأييد قطاعات واسعة من رجال الأعمال ومن مؤسسة الجيش لحزب« الوسط».

وكان رئيس الأركان السابق أمنون ليبكين شاحاك الاشكنازى قاد هذا الحزب لفترة قصيرة أثناء نشوئه فى الأسابيع الماضية، ولكنه اعتبر بالاتفاق مع قيادة الحزب واستناداً إلى استطلاعات الرأى، بأن موردخاى صاحب شعبية أوسع منه، وهو القادر على الانتصار على نتانياهو فى الجولة الثانية.

ولذلك فقد عرض الحزب على موردخاى قيادته فى الانتخابات القادمة لرئاسة الحكومة معتمدين على قدرته فى جذب أوساط واسعة من الوسط السياسى الإسرائيلى ومن الشرائح الاجتماعية والطبقية التى طالما رفضت التصويت لحزب العمل وبالرغم من أن برنامجه الاقتصادى أكثر عدالة تجاههم من حزب الليكود الذى يمثل السياسة الريجانية والتاتشرية فى الاقتصاد.

واختار موردخاى أن يقدم خطوطاً عريضة فقط لبرنامجه السياسى والذى يستهدف تلك القطاعات: دفاع قوى و«اقتصاد مع روح»، وبذلك يكون قد تكلم إلى قلوب قطاع هام من اليمين المتحفظ فى القضايا الأمنية والى قطاع الطبقات المتوسطة التى تعانى من الأزمة الاقتصادية بشقيها: البطالة وتراجع الخدمات الاجتماعية. كذلك فقد أكد موردخاى فى أكثر من مناسبة على أهمية الاستمرار فى العملية السلمية وتنفيذ ما تبقى من اتفاقات وخاصة اتفاق «واى بلانتيشن».

ومن المعروف أن العملية السلمية ما زالت تحظى بدعم غالبية الإسرائيليين. وكان موردخاى قد اعتبر قبل خروجه من الليكود أن نتانياهو قد خدعه وخدع واشنطن حين وقع على الاتفاق ولم ينفذه بسبب ضغوطات كتلة اليمين الراديكالية «القوة ١٧» والتى تشكلت من ١٧ عضواً برلمانياً يمينياً يرفض اتفاق «واى» أو مبدأ الانسحاب من أى شبر من الضفة الغربية وتسليمها للسلطة الفلسطينية. واعتبر موردخاى أن نتانياهو سهل الابتزاز وهو بذلك لا يمثل بعد اليوم مصلحة كل الإسرائيليين بل حفنة صغيرة منهم.

وكانت «قوة ١٧» هى التى هددت بنزع الثقة عن الحكومة والإعلان عن انتخابات مبكرة. وبرز منها قياديون من حزب تسوميت الذى يقوده الجنرال رفائيل إيتان وكذلك أعضاء فى الحزب الوطنى الدينى - المفدال - إضافة إلى أعضاء من داخل الليكود وعضو الكنيست المتطرف ميخائيل كلانير الذى ترك حزبه المعتدل «جيشر» على هذه الخلفية. وكانت تلك المناورات هى التى أجبرت نتانياهو أن يدعم التصويت من أجل الكنيست والدعوة لانتخابات جديدة بدون أن يلجأ بصورة جدية وصادقة إلى ائتلاف حكومى أوسع يمكنه أن يواجه «قوة ١٧» اليمينية.

على خلفية هذا المشهد السياسى، نادى موردخاى إلى انتخاب رئيس وزراء لا يكون عرضة لضغوطات وابتزاز كتلة يمينى اليمين ويمينى المتدينين، وأنه على خلاف نتانياهو لن يسمح لتلك الأقلية من الشعب الإسرائيلى أن تتحكم بمصير الدولة.

وتصدر موردخاى إعلانات الحملة الانتخابية لحزب «الوسط» تحت شعار «سنضع الدولة فى الوسط» وصورته ملازمة لصورة رئيس الأركان السابق آمنون شاحاك الاشكنازى إضافة إلى رئيس بلدية تل أبيب السابق رونى ميلو ووزير الليكود سابقاً دان ميريدور وهما من رموز النخبة الإسرائيلية اليمينية والقريبة من كبار رجال الأعمال ومدراء الشركات فى تل أبيب - العاصمة الاقتصادية والثقافية لإسرائيل العلمانية.

وتباهى موردخاى بتركيبة الحزب التى جمعت بين شرقيين وغربيين وأعضاء من الليكود ومن حزب العمل سابقاً (من أمثال أورى سافير مدير عام وزارة خارجية بيريز) وكذلك جنرالات ورجال أعمال. وكذلك فقد احتوت من العلمانيين والتقليديين الكثيرين. ولكن وجود الأصولى بعلمانيته رونى ميلو على قمة الحزب قد أبعد المتدينين من الشرقيين والغربيين باعتبار أن دعمهم لموردخاى مشروط بإبعاد أو تحجيم رونى ميلو.



الولايات المتحدة والجيش:

يبقى أن أهم ما يميز موردخاى هو تلك الرسالة الغريبة التى وصلته من زعيم العالم الغربى - الرئيس الأمريكى بيل كلينتون - والتى تضمنت إشادة بدور وزير الدفاع وموقفه الثابت فى خدمة العملية السلمية بدون أن تتطرق من قريب أو بعيد إلى رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو. وفى حين اعتبر مساعدو نتانياهو أن أسلوب الرسالة مهين لرئيس الوزراء، رأى موردخاى فيها دعما مباشرا له. وكان أن ترك موردخاى الليكود بعد تلك الرسالة بأيام لينتقل إلى مكانه المضمون على زعامة حزب الوسط. وفى الحال انفتحت أبواب الولايات المتحدة أمام ممثلى حزب الوسط الذين ذهبوا على الفور لجمع الأموال من الحليف الأمريكى ومن مستثمرى الجالية الأمريكية هناك.

لم تكن صدفة أن تدخل الولايات المتحدة على خط الانتخابات الإسرائيلية وهى التى حاولت من خلال منع الضمانات المالية لقروض العشرة مليارات دولار التى طلبتها حكومة شامير سنة ١٩٩١ لتأمين وتمويل هجرة مئات الآلاف من اليهود الروس. وتؤكد واشنطن فى أكثر من مناسبة وبطريقة غير مباشرة عن عدم رضاها عن سياسة نتانياهو التى ضربت عرض الحائط بالاتفاقات التى رعتها إدارة كلينتون.

ولم تكن واشنطن وحدها غير راضية عن ذبذبة نتانياهو وخداعه بل إن مؤسسة الجيش الإسرائيلى ذاتها قد ارتأت المواجهة المباشرة مع نتانياهو من خلال صناديق الاقتراع. ولم تكن صدفة أن يصطف إلى جانب باراك الجنرال ماتان فيلنائى المتقاعد مؤخراً والذى انتخب الرابع فى «قائمة إسرائيل واحدة» إضافة إلى تمترس رئيس الأركان السابق شاحاك ووزير الدفاع موردخاى جنباً إلى جنب فى مواجهة نتانياهو. وهذا الأخير لم يجد جنرالاً واحداً عليه القيمة يقبل أن ينضم إلى قائمته الانتخابية. والأسباب وراء ذلك كثيرة.

أهمها، أن نتانياهو حاول منذ وصوله الحكم سنة ١٩٩٦ أن «يطهر» الجيش من الموالين لحزب العمل والمؤسسة القديمة إضافة إلى هؤلاء الذين رأوا فى رابين بطلاً وجندياً من الطراز الأول، وكذلك فقد حاول نتانياهو - وهو الذى أتى من خارج المؤسسة الحاكمة - أن يحجم دور الجيش وهو أهم مؤسسة دولة فى إسرائيل لكى يتسنى له أن يتحكم بالقرار السياسى والأمنى من مكتبه وهو المنتخب مباشرة من الشعب ولأول مرة فى تاريخ إسرائيل.

وبدأ نتانياهو يؤسس فى مكتبه «مجلس الأمن القومى» على الطريقة الأمريكية فى إطار محاولاته لسحب صلاحيات سياسية واستراتيجية مهمة من مؤسسة الجيش لزجها داخل «مؤسسة» رئاسة الوزراء. وكذلك فقد بحث نتانياهو عن جميع السبل التى تعطيه القرار الاقتصادى المالى فى جميع القضايا العسكرية والتى هى فى العادة بيد المؤسسة العسكرية - والتى تبلغ أكثر من ٣ مليارات دولار سنوياً، ولها إسقاطات هائلة على القطاع الخاص والعام وفيها من التأثير الكبير على القرار السياسى والاقتصادى فى الدولة.

وأخيراً فقد تجاهل نتانياهو المؤسسة العسكرية فى قضايا حساسة كثيرة أولها كان قراره فتح النفق فى القدس فى سبتمبر ٩٦ بدون استشارة الجيش أو حتى إعطائه الفرصة اللازمة لتحضير نفسه مما أدى إلى مواجهات عنيفة وسقوط الكثيرين من مرتدى الزى العسكرى الإسرائيلى. وعلى مدى السنتين الماضيتين رفض نتانياهو بصورة تلقائية نصائح الجيش والمؤسسة العسكرية فى قضايا الأمن فى الضفة الغربية وعلى مستوى التعامل مع السلطة الوطنية الفلسطينية حتى أنه رفض أكثر من مرة مسودة اتفاقات أمنية توصل اليها ممثلو المؤسسة العسكرية مع الفلسطينيين مما أدى إلى إحراج جنرالات إسرائيل الذين يتباهون بمبدئيتهم وبأفضليتهم فى الدفاع عن أمن إسرائيل واستقرارها. فى كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى نفور الجيش من نتانياهو ووقوف جنرالاته جنباً إلى جنب فى صف المعارضة. هذا وكان

شاحاك قد ذاق المهانة مباشرة من نتانياهو فى جلسات الحكومة فى حين أن موردخاى عانى من تجاهل نتانياهو له وتحجيمه لدوره كوزير للدفاع.



إعادة رسم الخارطة الحزبية:

ما سبق، ليس إلا وصفا عاما للحالة الترشيحية لرئاسة الوزراء وما يحيط بها من توجهات عامة وموازين قوى داخلية فى المجتمع الإسرائيلى. وهذه لا تكتمل بدون الأخذ بالحسبان عنصرين أساسيين يتقاطعان مع مسألة الترشيح لرئاسة الوزراء ويؤثران فيها إلى حد كبير وهما، أولاً: الأحزاب الصغيرة: مواقفها واتجاهاتها. وثانياً: الإعلام واستطلاعات الرأى وتأثير الأداء الفردى والشخصى وبناء الصورة الظاهرية لما يمثله كل من المرشحين الثلاثة الأوائل فى الانتخابات الإسرائيلية.

ولكن قبل الغوص فى تفاصيل هاتين الظاهرتين الجديدتين على الساحة الانتخابية لابد من بعض الملاحظات على الحزبين الكبيرين الليكود والمعراخ، وأهمية دخول حزب الوسط إلى المعركة الانتخابية.

لقد فقد هذان الحزبان - وخاصة حزب العمل - من الثقل والهيمنة اللذين فرضاهما خلال العقود الخمسة الأولى على المجتمع وخارطته السياسية والحزبية. وإذا كان حزب العمل قد هيمن فى الثلاثين سنة الأولى على الخارطة السياسية وعلى نظام الحكم فى إسرائيل وتلى هيمنة الليكود فى العقدين الماضيين. باستثناء فترة ١٩٩٢ - ١٩٩٦، فإن الانتخابات المباشرة لرئاسة الوزراء والتى طبقت لأول مرة فى سنة ١٩٩٦ وما سبقها من أمركة المجتمع الإسرائيلى فى السنوات الأخيرة وخاصة بعد الطفرة الاقتصادية التى شهدتها إسرائيل منذ أواسط الثمانينيات، كلها مجتمعة قد قللت من أهمية دور الحزب التقليدى فى الخارطة السياسية ووضعت ثقلها فى إنتاج أحزاب جديدة تمثل قطاعات مميزة ومنفصلة داخل المجتمع الإسرائيلى، إضافة إلى إعطاء الأولوية للسياسى أو الزعيم الفرد بشخصيته ونبرته وأسلوبه الذى تنقله وسائل الإعلام بشغف وتركيز مبالغ فيه على حساب برامج الأحزاب وأيديولوجياتها. فقلما ترى إسرائيلياً عاديًا يعرف برنامج هذا الحزب أو ذاك أو يعرف أن يميز بينهما، بينما لكل إسرائيلى رأى مبلور حول هذا المرشح أو الزعيم أو ذاك. ونذكر على سبيل المثال أنه حين خرج بن جوريون أكبر وأهم زعيم فى الحقبة الأولى من تاريخ الدولة - عن حزب العمل - ليشكل حزبا جديدا باسم «رافى» لم ينجح هذا الحزب باستقطاب التأييد الكافى لأكثر من عشرة مقاعد برلمانية. وحينها انشق شمعون بيريز مع معلمه وزعيمه مؤسس الدولة بن جوريون وشهد بنفسه فشل الخروج عن إرادة الحزب الحاكم. أما فى بداية التسعينيات فشهدنا على سبيل المثال كيف خرج حاييم رامون أحد المنتمين إلى الصف الثانى فى حزب العمل عن حزبه ليخوض انتخابات اتحاد العمال الأهم والأكبر من مؤسسات الدولة المدنية ويربحها بفارق كبير عن مرشح حزب العمل والليكود بفضل حملته الانتخابية الرنانة وشعاراته الشعبوية والتى جذبت غالبية الأصوات والتى كانت تنتمى تقليدياً إلى أحد الحزبين الكبيرين.

وباختصار، تراجع دور الحزبين الكبيرين فى العقد الماضى، وبعد أن خف وزنهما وارتخى تنظيمهما فى ظل انفتاح المجتمع على فردية المواطن فى سوق السياسة الحرة. وأصبح الحزبان فى ظل الأمركة السوقية للعملية السياسية يسيران باتجاه النمط الأمريكى، الجمهورى مقابل الديموقراطى مع الفارق الكبير فى مرحلة تطور الحالتين. وبالمقابل شكلت المجموعات والحركات الاثنية والدينية والأصولية أحزابا قوية تثّمن عالياً إخلاص الأعضاء لبرنامج الحزب وقيادته.

وأصبحت تلك الأحزاب المتوسطة تشغل حوالى نصف عدد مقاعد الكنيست فى بداية التسعينيات وزادت أهميتها لتشكيل أية حكومة ذات أغلبية برلمانية. ومع تنفيذ قانون الانتخابات المباشرة لرئاسة الوزراء. انفتح الإسرائيليون سنة ١٩٩٦ ولأول مرة على تيارين: الأول: سياسى أيديولوجى قومى عام لرئاسة الوزراء، والثانى: اثنى، شخصى، دينى، وحتى حضارى لكتلة من الكتل البرلمانية.

وكما ذكرنا، فبسبب الانتخابات المباشرة اعتزل جزء كبير من الناخبين لأحزابه الكبيرة مكتفين بالتصويت لمرشحيها لرئاسة الوزراء. وارتفعت نسبة التصويت بين هؤلاء الذين لم يجدوا أصلاً فى الحزبين الكبيرين الحل، مما أدى فى نهاية انتخابات ١٩٩٦ إلى مضاعفة بعض أحزاب الوسط من مقاعدها البرلمانية. وانقسمت هذه الأحزاب فى بداية وأواسط التسعينيات بين تلك اليمينية المحافظة فى نزعتها وميولها والتى ارتأت إلى تقوية التحالف مع الليكود فى معسكر اليمين عامة، وتلك التى تركت الباب مفتوحاً أمام تحالف مع رئيس وزراء ليكودى أو من حزب العمل.

ولكن فوز نتانياهو فى الانتخابات الأخيرة بنسبة لا تصل إلى الواحد بالمائة أو ١٦ ألف صوت أكثر من الـ ٥٠ بالمائة المطلوبة، مكّنه من تشكيل تحالف مع كلا المعسكرين اليمينى المحافظ والذى يندرج فيه الحزب الوطنى الدينى وأجودات هتوراة وتسوميت وكذلك تلك الأحزاب الوسطية من أمثال يسرائيل بعلياد وشاس والطريق الثالث.

ولابد من الإشارة هنا، إلى أنه لو جرت الانتخابات البرلمانية بدون تلك المباشرة لرئاسة الوزراء كما كان الأمر فى السنوات الخمسين الماضية - لتمكن بيرس الذى حصل حزبه على مقاعد أكثر من الليكود فى البرلمان من تشكيل الحكومة ولكان استطاع أن يجذب اليه «يسرائيل بعلياد» و«حتى شاس» و«الطريق الثالث» بحكم أولوية تلك الأحزاب واهتمامها بقضايا عينية تفيد مؤيديها وقواعدها الحزبية أكثر من اهتمامها بالفارق الأيديولوجى بين بيريز ونتانياهو. نقول ذلك ونحن واعون لعملية التطرف الأيديولوجى والقومى الجارية بين مؤيدى تلك الأحزاب لصالح ائتلاف مع اليمين أكثر منه مع اليسار.

بل إن انتخاب نتانياهو رئيساً للوزراء قد سهّل على قيادات تلك الأحزاب الالتئام مع الليكود وداخل معسكر اليمين بقيادة نتانياهو. وعلى سبيل المثال صوت مؤيدو حزب يسرائيل بعلياه واليهود الروس عامة فى غالبيتهم لإسحق رابين سنة ١٩٩٢ بينما صوت ثلثاهما لنتانياهو سنة ١٩٩٦. وخلال السنة الماضية جرى تشكيل حزب جديد بين المهاجرين الروس، يقوده مدير مكتب نتانياهو سابقاً، الشعبوى والديماجوجى أفيجدور ليبرمان، باسم «إسرائيل بيتنا» والمتوقع أن ينهش هذا الحزب من أصوات المهاجرين الروس عامة وأن يقدمها لحليفه فى الليكود بنيامين نتانياهو.

لقد زاد هذا الأمر محاصرة الخلاف بين زعيم يسرائيل بعلياه ورئيس الوزراء وهو الذى شعر أن نتانياهو مهيمن وخادع. وها هو الآن يخونه بالتآمر مع مساعده السابق ليبرمان لتحطيم قاعدته بين المهاجرين الروس. وبالرغم من أن استطلاعات الرأى تقول بأن ليبرمان لن يأخذ من يسرائيل بعلياه بقدر ما سيأخذ من الأحزاب الأخرى ويضمنها الليكود، فإن ترك عضوى كنيست من القائمة ومفاوضاتهما الأحزاب الأخرى تهدد احتكار يسرائيل بعلياه لحصة الأسد من أصوات المهاجرين الروس وكان قد حصل فى الانتخابات الماضية على ٧ مقاعد.

وأما الحزب الوطنى الدينى المفدال الذى ارتفع عدد مقاعده إلى ٩ مقاعد سنة ١٩٩٦، فإنه هو الآخر يواجه تحديا مهما فى الحفاظ على مكتسبه السابق. وهو حرّم الدخول فى ائتلاف حكومى مع حزب العمل وقرر أن يكون الحليف الاستراتيجى لليمين القوى المتطرف.

وبالرغم من أن النتائج الداخلية للحزب قد أخرجت أهم قادة المستوطنين والتطرف - حنان بورات - من قائمة العشرة الأولى وهو الذى دفع باتجاه انتخابات مبكرة من خلال منصبه كرئيس للجنة القانون فى الكنيست، بالرغم من ذلك فإن حزب المفدال مستمر فى طريقه الأصولى المتطرف بقيادة إسحق ليفى وزير التعليم وشاؤول يهلوم وزير المواصلات.

وهو الحال مع حزب شاس الذى وعدت قيادته القواعد سنة ١٩٩١ بأن الحزب لن يكون شريكاً فى حكومة يقودها حزب العمل ومن ثم عاد ودخل ائتلافا يقوده اسحق رابين مما أدى إلى امتعاض القواعد التى زاد تطرفها فى بداية التسعينيات وخاصة بوجود الحزب الليبرالى اليسارى ميرتس والذى فرض علمانيته على الائتلاف بصورة أدت إلى خروج شاس بعد فترة قصيرة من الحكومة. وأشارت استطلاعات الرأى إلى أن شاس الذى صوّت ٨٥ بالمائة من مؤيديه لصالح نتانياهو سنة ١٩٩٦، سيعطى هذه السنة ليس أكثر من ٤ بالمائة لمرشح العمل إيهود باراك. ولم يساعد قيادة الحزب سنة ١٩٩٦ أنها لم تتخذ موقفاً من رئاسة الوزراء أملاً فى أن يصوت جزء من مؤيديها لبيريز حتى شهدت انجرافا هائلا فى صفوف الحزب لصالح مرشح اليمين.



وعلى العموم حصل نتانياهو على الغالبية الساحقة من أصوات المتدينين والأصوليين. ولهذا التقارب والتداخل بين نتانياهو العلمانى المعروف بتجاوزاته لكل الأعراف الزوجية والدينية، والأحزاب الدينية الأصولية المتشددة، حكاية سياسية هامة تصب فى صلب تغيير وتطور المجتمع السياسى الإسرائيلى، وهى مفتاح هام لفهم سيطرة اليمين على زمام الحكم فى العقدين الماضيين. وهذه هى ذات الديباجة التى سيتقمصها نتانياهو مرة أخرى باستراتيجيته السياسية الأهم للفوز بالانتخابات. وإذا اتفقت الأحزاب الدينية فيما بينها أن نتانياهو هو الذى مثل تطلعتها القومية والايديولوجية سنة ١٩٩٦، فإن الخلافات فيما بينها ليست هامشية. بل إن التنافس بين كل من شاس والمفدال اللذين يشكلان حوالى سدس أصوات الإسرائيليين وثلث معسكر اليمين فى حكومة نتانياهو له تأثير كبير على تصرفات كل واحد من هذين الحزبين. وسيكون لتخوف قيادة شاس من انجرار المتدينين الشرقيين إلى حزب المفدال تأثير كبير على قرار هذا الحزب إما التعمق أكثر فى اليمين أو التمركز أكثر فأكثر فى الوسط.

ولكن على العموم، وكما قلنا فإن مسألة الأرض واحتلال الضفة قد خلقت ما هو مشترك بين القوميين المتطرفين والمتدينين الأصوليين. وبدأ هذا التزاوج فى نهاية السبعينيات على صورة توأمة المسيانية الدينية التى تدعو إلى عمل المستحيل من أجل التحضير لمجيء «المسيح المنتظر» بما فى ذلك الاستيطان فى «أرض إسرائيل الكاملة»، والمسيانية القومية المتطرفة، التى ترى فى عودة شعب إسرائيل واستيطانه وبناء دولته فى كل ربوع فلسطين أو أرض إسرائيل الكاملة مهمته الأساسية المقدسة. وعلى هذه الخلفية - خلفية قدسية الأراضى وأولوية استيطانها أخذ الأصوليون اليهود يتسيسون ويتطرفون أكثر فأكثر وأخذ القوميون المتطرفون والأصوليون العسكريون - من أمثال أحزاب الجنرالات تسوميت وموليدت - يستعملون المصطلحات اللاهوتية وهى التى استغلها أشد استغلال مناحيم بيجن وبذلك أخذ هؤلاء العلمانيون يتقبلون اللاهوت ويبررون للأصوليين مواقفهم فى قضايا الدين والدولة والانخراط فى الجيش. وهكذا فقد التأم مع حلف الليكود والمفدال فى سنوات الثمانينيات والتسعينيات أحزاب دينية - شاس وأجودات يسرائيل وديجيل هتوراة من ناحية، وتسوميت وموليديت والطريق الثالث من الناحية الثانية.

> غالبية العرب
> أو ٨٨ بالمائة منهم
> أيدوا فى استطلاعات
> الرأى تشكيل قائمة
> عربية موحدة.
> ولكن بسبب
> الاستقطاب بين
> الشيوعيين والإسلاميين
> يبدو أن ذلك
> سيكون متعذرا.

هذا هو الحلف الذى يعتمد الأرض قيمته السياسية ومرجعيته الأيديولوجية الأهم والذى يرى فى الفلسطينيين غرباء وفى العرب أعداء. وفى الغرب متآمرين على الشعب اليهودى مثلما كان الأمر «على مدار التاريخ». وهذه هى الأرضية التى مهدت للمتدينين من الأحزاب الدينية اللاصهيونية أصلاً - أن تسيس وتتدخل فى مؤسسات الدولة وفى أجهزة الحكم عن طريق اليمين الحاكم والذى أمّن لهم معاهد دينية فى مدنهم ومعابد فى مواقعهم الدينية المحتلة.

فى هذا الحقل الخصب بالتطرف والتقوقع والانغلاق والأصولية والمحافظة سيزرع نتانياهو مرة أخرى أفضل بذراته ليحصد منها يوم الانتخابات انتصاراً مشابهاً لذلك الذى حصده سنة ١٩٩٦. وهنا سيحاول نتانياهو أن يعوض عن خسارات ليست بقليلة بين صفوف الليكود الأولى - مثل خسارة دان ميريدور ورونى ميلو واسحق موردخاى إلى حزب الوسط. إضافة إلى خسارة ديفيد ليفى لحزب العمل. وكذلك لربما خسارة أناتولى شيرانسكى وأفيجدور كهلانى.

وبالإضافة إلى هذه التكتلات والتحالفات على يمين الخارطة السياسية، ينتظر اليمين تشكيل قائمة يمينية متطرفة تضم هؤلاء المعارضين لعملية السلام بقيادة بينى بيجين ابن زعيم اليمينى التقليدى مناحيم بيجين. وإذ إن بينى بيجين رشح نفسه لرئاسة الوزراء، فإن هذه المناورة فى هدفها الأساسى هو التفاوض مع نتانياهو على الخطوط الحمر التى يود اليمين رسمها لحكومته القادمة حتى لا يتسنى لها أن تخطئ مرة أخرى كما أخطأت(؟) فى واى بلانتيشن وخاصة فى مفاوضات الحل النهائى حول قضايا الاستيطان والقدس واللاجئين.. إلخ.

وعملياً، إذا دخل بينى بيجين فعلاً الدورة الأولى وخسرها، فإن جميع أصواته ستذهب بدون شك لبنيامين نتانياهو. وهذا الأخير لن يواجه مشكلة فى المراوغة والكذب على بينى بيجين كما سبق وفعل مع غيره بل وسيتحالف كذلك مع القائمة اليمينية التى يحاول تشكيلها بيجين.

من اليسار ليس هناك شكوك حول تصويت غالبية مؤيدى حزب ميرتس لإيهود باراك ولربما لإسحق موردخاى. ولكن هنالك شعوراً فى أوساط السياسة بأن ميرتس ستخسر من تأييدها وستفقد من مقاعدها هذه السنة لصالح حزب الوسط والأحزاب العربية.

وكانت الانتخابات الداخلية لميرتس قبل أسابيع قد أخرجت المقعد العربى من قائمة الأسماء المطروحة والتى من المتوقع أن تدخل البرلمان.





رفع باراك شعاره الانتخابى «نحن هنا وهم هناك» مؤكداً على أهمية الفصل بين الشعبين. ولكن بدون ذكر أو حتى التمهيد لفكرة استقلال الشعب الآخر، أى بدون سيادة الشعب الآخر على أرضه.

الصوت العربى:

وهنا نصل إلى قضية حساسة ولها أبعاد هامة، ألا وهى مسألة الصوت العربى. فى سنة ١٩٩٢ أدخل العرب إلى الكنيست ٩ نواب من كتلتين أساسيتين ونائبين عربيين عن الأحزاب الصهيونية. وكانت الكتلة الأولى قد تشكلت بالتحالف بين التجمع الوطنى الديموقراطى بقيادة عزمى بشارة والجبهة الوطنية للسلام والمساواة بقيادة الحزب الشيوعى وحصلت على ٥ مقاعد، والكتلة الثانية القائمة العربية الموحدة تشكلت بتحالف بين القائمة الإسلامية والحزب الديموقراطى العربى بقيادة عبد الوهاب دراوشة وحصلت على أربعة مقاعد.

وانتهت هذه الأحزاب فى الأسابيع الماضية من ترتيب بيتها الداخلى استعداداً للانتخابات، فانتخب عزمى بشارة على قيادة التجمع الوطنى وجاء وراءه الدكتور جمال زحالقة، وكذلك فى الجبهة الديموقراطية احتل أربعة شيوعيين المواقع الأربعة الأولى، أولهم محمد بركة وثانيهم عصام مخول، وجاءت الثالثة يهودية - تمار جوجانسكى، بالرغم من أن الصوت اليهودى لهذه القائمة ضئيل جداً. وتبين بسرعة أن قيادة هذين الحزبين قد تشكلت من قيادة الحركة الطلابية من سنوات السبعينيات. وكذلك فقد انتخب الحزب الديموقراطى العربى - طلب الصانع - على رأس القائمة بعد اعتزال عبد الوهاب دراوشة عمل الكنيست. وبدأت المفاوضات حال ترتيب الوضع الداخلى بين الأحزاب العربية على إيجاد أفضل وأضمن الصيغ لإيصال الصوت العربى للكنيست.

وبالرغم من أن الخارطة السياسية انقسمت على ثلاث قوائم الأولى قومية والثانية شيوعية والثالثة إسلامية، إلا أن غالبية العرب أو ٨٨ بالمائة منهم قد أبدوا فى استطلاعات الرأى التى أجريت أخيراً تشكيل قائمة عربية موحدة. ولكن وبسبب الاستقطاب بين الشيوعيين والإسلاميين فإنه يبدو أن هذا سيكون متعذراً.

من الناحية المقابلة فإن لتوحيد الصوت العربى لانتخابات رئيس الوزراء أهمية كبرى فى الانتخابات القادمة. وخاصة لأن هناك ثلاثة مرشحين رئيسيين كما ذكرنا. وفى حين صوت ٩٤ بالمائة من العرب فى الانتخابات السابقة لشمعون بيريز، فشل هذا المرشح بسبب حصوله على أقل من ٤٥ بالمائة من الصوت اليهودى مقابل ٥٥ بالمائة لنتانياهو.

فى هذه الانتخابات سيكون للصوت العربى تأثير من حيث الكم والكيف كذلك إذا توحدت غالبية الأصوات العربية وراء مرشح للرئاسة. ففى سباق المرشحين الثلاثة سيشكل الصوت العربى حوالى ثلث مخزون أصوات كل واحد من المرشحين لأن العرب يمثلون حوالى ١٤ بالمائة من أصحاب «الاقتراع» وبالتالى ثلث أصوات باراك أو موردخاى. ولكن هذين المرشحين لم يعطيا الانتباه والاهتمام الكافى بالأصوات العربية. باراك لأنه يعتبر الصوت العربى مضموناً وموردخاى لأنه لا ينوى التشديد كثيراً على هذه القاعدة وخاصة فى هذه الفترة المبكرة من الحملة الانتخابية.

وهنا تبرز فكرة ترشيح عربى لرئاسة الوزراء كتكتيك انتخابى هام إضافة إلى كونه استراتيجية هامة لتوحيد الصف العربى. وأعطت استطلاعات الرأى بين العرب الدكتور عزمى بشارة أولوية بين كافة المرشحين لمثل هذه المهمة. وقد أعلن عزمى بشارة بالفعل عن ترشيحه لنفسه رسميا لرئاسة الوزارة.

وكانت غالبية العرب قد أبدت استعدادها للتصويت لصالح بشارة لرئاسة الحكومة. ويمكن لبشارة الانسحاب حتى قبل الجولة الأولى لضم مؤيديه لأحد مرشحى المعارضة ضمن اتفاق على مبادئ التأييد بما فى ذلك قضايا المساواة فى الدولة وحقوق الفلسطينيين فى السيادة فى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وحتى يومنا هذا لم يقرر العرب بعد إذا ما كانوا سيؤيدون باراك أو موردخاى، وسيكون لمثل هذا القرار الموحد أهمية قصوى فى إنجاح باراك أو موردخاى فى الجولة الأولى وبالتالى إنجاحه فى الجولة الثانية. وإذ إن هنالك تقليداً يدعم مرشح حزب العمل فى الانتخابات كما شهدنا فى السنوات الماضية، إلا أن فكرة التصويت لموردخاى قد بدأت تأخذ دفعة هامة فى الأسابيع الماضية وخاصة بعد الكشف عن استطلاعات الرأى القائلة بأن موردخاى هو القادر على الفوز على نتانياهو فى الجولة الثانية.



استطلاعات الرأى ومرشحو رئاسة الوزراء:

هنا نأتى إلى استطلاعات الرأى والتى زادت أهميتها بصورة كبيرة فى السنوات الأخيرة. وهى كما ذكرنا العامل الثالث المهم فى حساب الرهانات على مرشحى رئاسة الحكومة إضافة إلى العامل الفردى وتركيبة الأحزاب الصغيرة والمتوسطة وموقعها على الخارطة الحزبية فى البلاد.

تجرى إسرائيل بمؤسساتها الإعلامية والدعائية استطلاعات للرأى كل أسبوع إن لم يكن كل يوم. وأكثر ما يؤثر فى هذه الاستطلاعات إجراءات وتصريحات ومظهر المرشحين عشية كل أزمة وما بعد كل مواجهة داخلية أو خارجية. إن كان ذلك بموضوع العنف الداخلى أو موضوع الدين والدولة أو مواجهة حزب الله فى جنوب لبنان...الخ وإذ إن الخارطة السياسية فى غالبيتها قد حسمت أمرها من خلال الميول الأيديولوجية والحزبية والولائية من حيث موقفها من المرشحين الثلاثة، فإن هؤلاء غير الحاسمين من أمرهم هم الذين سيرجحون كفة أحد المرشحين على الآخر كما شهدنا فى انتخابات ١٩٩٦، حيث بقيت الاستطلاعات تشير إلى تقدم بيريز على نتانياهو بنسبة ٥-١٠ فى المائة فى الأصوات إلى أن وصلت يوم الانتخابات فاظهرت ٥١ فى المائة لمصلحة بيريز على نتانياهو، وهى التى تعترف بإمكان ٣ فى المائة خطأ فى جميع الاستطلاعات. وكان مزاج الناس سيئاً بسبب مجزرة «قانا» والعبوات الناسفة فى المدن الإسرائيلية فقرر هؤلاء المتأرجحون التصويت لمصلحة نتانياهو رجل المعارضة القوى على حساب رجل الدولة بيريز - «الضعيف»!.

الاستطلاعات مثلها مثل المنطق السياسى تقول إن موردخاى هو القادر فى الجولة الثانية أن يفوز على نتانياهو، ولذلك يرفع حزب الوسط شعار الفوز فوق كل شعار ويطالبون حزب العمل والناخبين التقليديين بدعم موردخاى.. فالهدف الإطاحة بنتانياهو - يبرر مثل هذه الوسيلة. ويذهب حزب الوسط أبعد من ذلك ليطلب من إيهود باراك أن يسمح للاستطلاعات أن تحسم أمر المنافسة بينهما لكى يتوحدا سوياً منذ الجولة الأولى ضد بنيامين نتانياهو.

وحجة المنطق لا تقل أهمية فى رأى حزب الوسط الذى يدعى أنه فى حالة ربح باراك الجولة الأولى فإنه يربح بالضرورة الأصوات التى ربحها موردخاى من الشرقيين والتقليديين ومن هؤلاء الوسطيين الذين تركوا العمل لمصلحة الليكود فى السنوات الأخيرة، وستذهب هذه الأصوات لمصلحة نتانياهو. وأما إذا ربح موردخاى الجولة الأولى فإنه سيحافظ على تلك الأصوات التى أوصلته إلى الجولة الثانية إضافة إلى كل صوت ذهب لمصلحة باراك فى الجولة الأولى مما سيضمن له النجاح ضد نتانياهو.

ولكن الاستطلاعات وحجة المنطق لم تقنع قيادة حزب العمل والذى يرى فى قائمته «اسرائيل واحدة» سر الفوز على نتانياهو وخاصة إذا انضم اليها شخصياً موردخاى وتنظيمياً حزب الوسط. وتعتبر أوساط العمل أنه بغض النظر عن الاستطلاعات، فحزب العمل يمتلك قوة كبيرة من التنظيم الحزبى والجهاز الانتخابى والفروع المنظمة فى جميع أرجاء البلاد إضافة إلى أكثر من مائة ألف مسجل فى الحزب. وهذه بمجملها يفتقر لها حزب الوسط حديث العهد. وهو ما يعنى أن حزب العمل هو القادر على جذب الأصوات يوم الانتخابات إلى صناديق الاقتراع إن كان ذلك فى الجولة الأولى ضد موردخاى ونتانياهو، أو فى الجولة الثالثة فى الأول من حزيران (يونيو) والتى من المتوقع ان تشهد نسبة تصويت أقل من ١٧ آيار (مايو) حيث التصويت لرئاسة الوزراء يتم فى الوقت نفسه مع الانتخابات البرلمانية. وهذا الأمر سيعطى أهمية قصوى للجهاز الحزبى القادر على تنظيم المقترعين يوم التصويت ومراقبتهم.

والحال هو أن وجهتى النظر صحيحتان، وهو ما يعنى فى نهاية المطاف ضرورة التنسيق والتعاون، لا بل والائتلاف وتقسيم العمل بين الحزبين لسحق نتانياهو من الجولة الأولى. وتقول استطلاعات الرأى وتؤكد على ما تقوله التجربة بأن نتانياهو إذا ما صعد إلى الجولة الثانية فهو قادر من خلال التلفزيون والشعبوية المفرطة والأكاذيب والوعود

والاتهامات والتخويف، قادر على سحق باراك فى الأول من حـــزيران. هذا وبالرغم من أن نتانياهو - تلميذ باراك أصلاً، من ذات الطينة الحداثوية أو ما بعد الحداثوية التى تعتمد الشكل والحساب على المضامين والفكر. هذا وكان مستشارا باراك - جيمس كارڤيل وجرينبرج - قد نصحا باراك بعدم منازلة نتانياهو وجهاً لوجه على شاشة التلفزيون لأن نتانياهو سيخرج رابحاً بلا شك.



انتخابات مفصلية:

تشكل الانتخابات المباشرة لرئاسة الوزراء هذه السنة مفصلاً هاماً فى الحياة السياسية الإسرائيلية وفيما يخص عملية السلام. وإذ إن الوسط السياسى الإسرائيلى ما زال منفتحاً - ولو قليلاً ومتأخراً - لتشكيل حكومة بقيادة باراك أو موردخاى - فإن فوز نتانياهو للمرة الثانية سيعيد خلط الأوراق فى الساحة السياسية والحزبية الإسرائيلية بصورة درامية، وسيعطى لليمين الإسرائيلى فرصة العمر لإعادة تشكيل مؤسسات الدولة والمجتمع على صورته وسيضع حداً لتنفيذ فعلى للعملية السلمية أو لأى اتفاق سلام يشمل الانسحاب. وسيعجل انتخاب نتانياهو من ضم الضفة الغربية على أرض الواقع الإسرائيلى من خلال أخطبوط الاستيطان الذى سيقسم الضفة نهائياً إلى بوندستانات ويمنع أبداً سيادة فلسطينية واحدة على الأراضى المحتلة.

وكذلك سيعيد انتخاب نتانياهو خلط الأوراق السياسية بين الفلسطينيين وفى أكثر من قطر عربى استعداداً لمواجهة من نوع آخر مع النظام الإسرائيلى والذى سيقترب أكثر فأكثر من الفاشية.

بل إن التنافس بين نتانياهو وبين بيجن من ناحية وباراك وموردخاى من الناحية المقابلة سيعيد شبح المواجهة بين مناحيم بيجن وإسحق رابين عشية حرب لبنان وشبح حكومة الوحدة الوطنية عشية الانتفاضة، بمعنى أنه سيضع المنطقة إما أمام حرب جديدة، أو أمام تشكيل حكومة وحدة وطنية قادرة على مواجهة التحديات القادمة من دون أى اعتبار للسلام.



وهل من دور للعرب؟!

هذا هو السؤال الذى طرحه علىّ أكثر من صديق وأكثر من مسئول فى أكثر من عاصمة عربية وغربية. وأفترض أن هذا هو السؤال الذى يدور فى عقول المسئولين الفلسطينيين: ما الذى يجب عمله للإطاحة بنتانياهو؟ ولا أستغرب لو كنا قمنا باستطلاع رأى عام ورسمى دولى لاكتشفنا أن الغالبية الساحقة إن لم نقل كل العالم يقف ضد نتانياهو. ولكن شعور هؤلاء أن نتانياهو يمكن أن يربح الانتخابات القادمة ويقوض العملية السلمية التى طالما استثمر فيها الكثيرون ممن تهمهم المنطقة.

بالنسبة للأمريكان، فإن العملية السلمية التى بدأت فى مدريد واندفعت فى أوسلو أصبحت نوعاً من النظام الإقليمى الجديد - «باكس أميركانا» ما بعد الحرب الباردة وحرب الخليج الثانية. وأصبح هذا النظام هو المكان الذى تتم فيه تسوية الخلافات أو تقنين المصالح برعاية أمريكية مباشرة - أمنية - واقتصادية ودبلوماسية. وياسر عرفات فى هذا الإطار يعتبر عاملاً إيجابياً ضمن «الباكس اميركانا» الجديدة. وأما نتانياهو فهو ما زال «الولد العاق».

وبينما استعملت واشنطن ضمانات القروض عشية انتخابات ١٩٩٢، فإنها بحسب المصادر الإسرائيلية بدأت تستغل حاجة إسرائيل لمساعدة الـ ١,٢ بليون دولار، والتى خصصت لها فى «واى بلانتيشن» ثمناً لإعادة الانسحاب، وأخذت إدارة كلينتون تؤجل تمرير هذه المساعدة فى الكونجرس ولحكومة نتانياهو.

وبالنسبة للأوروبيين، فإن استثمار السوق الأوروبية المشتركة فى العملية العسكرية وفى اقتصاديات السلام، يمكن أن يشهد ردّة إلى الوراء وخسارات كبيرة، وهؤلاء أيضاً حريصون على تغيير نتانياهو، وهم الذين يعتبرون أن الضغط على القيادة الفلسطينية لتأجيل إعلان الدولة والحفاظ على الأمن سيسهل عملية التغيير هذه.

وكذلك الأمر بالنسبة للعرب الذين التقيتهم. نعم لتأجيل الإعلان ونعم للأمن ولا للعبوات الناسفة والتى «أتت» بنتانياهو سنة ١٩٩٦. ولكن ماذا بالنسبة لعمليات حزب الله ومواجهة اللبنانيين فى الجنوب؟ هنا بدا إحراج حكومة نتانياهو واضحاً للجميع. وكشف حزب الله أنه قادر على تحجيم عنجهية نتانياهو والذى أخذ يستبق تصريحات باراك حول الانسحاب ويزايد عليها.

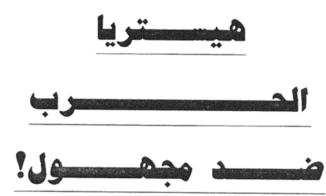
والسؤال مرة أخرى. ماذا يمكن للعرب أن يفعلوه؟ والجواب لا شىء، إن كان الحديث على هذه الفترة القصيرة حتى يوم الانتخابات. فملعونون العرب إذا فعلوا وملعونون إذا لم يفعلوا...

فإذا قاموا بأى خطوة سياسية أو عسكرية لإضعاف نتانياهو، سيدعى هذا بأن العرب قد برهنوا مرة أخرى أنهم ليسوا موضع ثقة وأنهم غير معنيين بالسلام وأنهم عنيفون يريدون تحطيم دولة إسرائيل أو «التدخل فى شئونها الداخلية». وإذا لم يقوموا بأى شىء وتركوا نتانياهو يوسع الاستيطان ويحاصر القدس ويقاوم إعادة الانتشار - ولم نقل الانسحاب فإن نتانياهو سيؤكد للإسرائيليين أنه بفضل حكمه وحكمته استتب الأمن وحصل الإسرائيليون على الأرض والسلام معاً خلال سنتين ونصف السنة من إدارته. وعلى الناحيتين سيطالب نتانياهو الإسرائيليين بدعمه لمواجهة استحقاقات السلام... والمواجهة القادمة.

وعلى العموم فإن استحواذ الانتخابات الإسرائيلية على المزاج السياسى والنخبوى العربى قد وصل إلى درجات جديدة من الإذلال. استراتيجية العرب تتمحور عملياً حول من سيكون رئيس الوزراء الإسرائيلى القادم وليس كيفية التعامل مع أى رئيس وزراء بغض النظر عن هويته. وخاصة أن المرشحين الأربعة يتفقون فيما بينهم على المبادئ العامة لا لعودة اللاجئين، لا للقدس عاصمة للدولة الفلسطينية، لا للدولة الفلسطينية ذات السيادة، لا لتفكيك المستوطنات أو الانسحاب منها.

ولو اختلف هؤلاء المرشحون على بعض التفاصيل فى المرحلة الانتقالية حول بعض النسب المئوية هنا وهناك من إعادة الانتشار، فإن مسألة الانسحاب الفعلى ما زالت غير واضحة عند أى من المرشحين. ولذلك فإن انتخاب باراك أو موردخاى ربما يخفف من عملية الإحراج التى واجهها شركاء اسرائيل فى العملية السلمية، ولكنه لن يعوض عن ضرورة الوصول إلى استراتيجية عربية وحشد جميع الطاقات وراءها بالضبط كما أن هنالك استراتيجية قومية أو خطوطاً عريضة قومية إسرائيلية وخطوطاً حمراء فى التفاوض يلتزم بها كل المرشحين وجميع الجنرالات الساسة. ■

انتهى زمن أسلحة الضعفاء.. الخوف الآن من التدمير البيولوجي



هيستريا الحرب ضد مجهول!

ريتشارد بيتس

أصبحت الأسلحة البيولوجية والكيماوية هي الأمل الوحيد لما يسمى بالدول الشريرة أو للإرهابيين الذين يريدون أن يتحدوا القوة الأمريكية وربما تكون الأسلحة البيولوجية الآن مصدراً أشد للقلق، تليها الأسلحة النووية في المقام الثاني، ثم الأسلحة الكيميائية في المقام الثالث بفارق كبير

في أثناء الحرب الباردة كانت أسلحة الدمار الشامل هي محور السياسة الخارجية. وكان شبح الأسلحة النووية يبدو في خلفية أي قضية كبرى في علاقات التنافس والتحالف بين الشرق والغرب. وكان في الوسع أن تُربط أعلى الأولويات في السياسة الأمريكية بطريقة أو أخرى بخطر نشوب حرب عالمية ثالثة، والخوف من حدوث إصابات بالملايين في الأراضي الأمريكية.

ولكن منذ انتهاء الحرب الباردة ظهرت موضوعات أخرى لتحل محل المشاغل الإستراتيجية في جدول أعمال السياسة الخارجية، بل إن ذلك الجدول لم يعد يحتل مكانا رئيسيا على شاشة رادار الرأي العام. وفيما عدا المحترفين المعنيين بسياسة الدفاع، لم يعد هناك أمريكيون كثيرون يجافيهم النوم بسبب أسلحة الدمار الشامل. وبعد كل شيء، فما هو مصدر الارتياح الذي يشعر به الشخص العادي نتيجة لانتهاء الحرب الباردة؟ هو شعوره بأن خطر نشوب حرب نووية قد انتهى.

ومع ذلك فإن أسلحة الدمار الشامل تعتبر اليوم مصدرا لأشياء أخرى تدعو إلى القلق أكثر مما كان عليه الحال أيام الحرب الباردة. من هذه الأشياء أن الأسلحة النووية لم تعد هي مصدر الخطر الوحيد، فقد برزت إلى المقدمة الأسلحة الكيميائية والبيولوجية. ومن هذه الأشياء أن خطر الإبادة الكاملة أصبح أقل، ولكن خطر الدمار الشامل أصبح أكبر، ونظرا لأن الحرب الباردة قد انتهت، وأصبحت المخزونات النووية الأمريكية والروسية أقل مما كانت، تضاءلت احتمالات الضرب المدمر المتبادل بآلاف الأسلحة. ولكن خطر استخدام عدد أقل من أسلحة الدمار الشامل آخذ في التزايد. وكثير من الإستراتيجيات والآراء الشائعة للتعامل مع أخطار أسلحة الدمار الشامل لم تعد سارية الآن، كما كانت في الوقت الذي اعتبرت فيه موسكو العدو الرئيسي. ولكن التفكير الجديد لم يتبلور بعد بصورة واضحة بالقدر الذي كانت عليه مفاهيم الحرب الباردة ونظرية الردع النووي.



المخاطر الجديدة لم تغب عن بصر الدوائر العسكرية. وأصبحت «مقاومة الانتشار» صناعة منزلية منتشرة في البنتاجون ودوائر المخابرات، وهناك مبادرات عديدة مهمة يجرى تنفيذها الآن للتعامل مع هذا الخطر. غير أن بعضا من أهم تداعيات العصر الحديث لم تسجل بعد على جدول الأعمال العام. وهذا بدوره يحد من ميل السياسيين للتقدم ببرامج ملائمة. بل إن المؤسسة العسكرية وجهت اهتمامها أساسا نحو التصدي لأخطار أسلحة الدمار الشامل التي تتعرض لها قوات الولايات المتحدة العاملة في الخارج وليس إلى الخطر الأقرب لحدوث تدمير شامل داخل الولايات المتحدة يؤدي إلى مصرع أعداد كبيرة من المدنيين.

والنقاط الأساسية التي ينبغي الانتباه لها بشأن العالم الجديد للتدمير الشامل هي ما يلي:

أولا: أن الدور الذي تقوم به هذه الأسلحة في المنازعات الدولية آخذ في التغير. فهي لم تعد تمثل الحدود التكنولوجية للحرب، وهي بصورة مطّردة ستكون أسلحة الضعفاء من الدول أو الجماعات التي تقوّم من الناحية العسكرية باعتبارها قوى من الدرجة الثانية في أحسن تقدير. كما أن أهمية أنواعها المختلفة قد تغيرت. وربما تكون الأسلحة البيولوجية الآن مصدرًا أشد للقلق، تليها الأسلحة النووية في المقام الثاني، ثم الأسلحة الكيميائية في المقام الثالث بفارق كبير.

ثانيا: أن ركيزتي سياسة الأمن في فترة الحرب الباردة - الردع وضبط التسلح - لم تعودا الآن كما كانتا في الماضي. فبعض الأخطار الجديدة قد لا تكون قابلة للردع، كما أن دور الحد من التسلح في التعامل مع أسلحة الدمار الشامل أصبح هامشيا. وفي حالات قليلة، قد يكون لاستمرار التمسك بالردع والحد من التسلح آثار جانبية تلغي المنافع.

ثالثا: أن بعض التدابير التي يرجح أن تكون قادرة على مواجهة الأخطار بوسائل جديدة لن تلقى ترحيبا حاراً. فالإجراء الذي يجب أن تكون له الآن الأولوية العليا هو إجراء طال تجاهله أو مقاومته أو السخرية منه: وهو برنامج جوي للدفاع المدني للحد من تأثير أسلحة الدمار الشامل إذا أطلقت داخل الولايات المتحدة. كما أن بعض أكثر التدابير فاعلية لمنع الهجمات داخل الولايات المتحدة ربما تتعارض أيضا مع الحريات المدنية التقليدية.

وأخطر الاستنتاجات بالنسبة للسياسة الخارجية هو أن تقليل احتمالات الهجوم داخل الولايات المتحدة ربما يتطلب الانسحاب من المشاركة في بعض النزاعات الخارجية. ومن المفارقات أن التحركات الأمريكية لضمان الاستقرار الدولي هي المصدر الأول للمخاطر التي تتعرض لها.

وقد كان ذلك صحيحا إلى حد ما أثناء الحرب الباردة، عندما كان الخطر الأساسي من تعرض الأراضي الأمريكية للأسلحة النووية، ينبع من الارتباطات الإستراتيجية في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط لردع الهجوم على حلفاء الولايات المتحدة. ولكن ذلك الارتباط كان يفترض في ذلك الحين وجود علاقة مباشرة بين الاستقرار الإقليمي واستمرار وجود الولايات المتحدة. ولم تعد هذه العلاقة واضحة بنفس القدر اليوم، حيث لم تعد هناك دولة عظمى تهدد العالم أو أيديولوجيا غير وطنية يتطلب الأمر احتواءها. والنزاعات القائمة هي مجموعة من الاضطرابات الخطيرة ولكنها اضطرابات محلية فقط. واليوم فإن الولايات المتحدة، باعتبارها البلد الوحيد الذي يقوم بدور رجل الشرطة في مناطق خارج حدودها، تجعل من نفسها هدفا للدول أو الجماعات التي تحول قوة الولايات المتحدة دون تحقيق تطلعاتها.

عندما ولدت الأسلحة النووية كانت تمثل أكثر التطبيقات العسكرية تقدما للعلم والتكنولوجيا والهندسة. ولم تكن تأمل في الحصول عليها غير الدول الكبرى. أما الآن فقد مضى على وجود الأسلحة النووية أكثر من نصف قرن، وعلى وجود الأسلحة الكيميائية والبيولوجية مدة أطول. وهي لا تتقدم في العمر فحسب، بل أصبحت هذه الأسلحة ومن الناحية الإستراتيجية التي تهم أمن الولايات المتحدة، أسلحة بدائية. وبعد أن كانت أرقى الأسلحة العسكرية للأقوياء أصبحت هي الأمل الوحيد لما يسمى بالدول الشريرة، أو للإرهابيين الذين يريدون أن يتحدوا القوة الأمريكية. لماذا؟ لأن الولايات المتحدة حققت تفوقا هائلا في القوة العسكرية التقليدية، وهو أمر لم تكن تأمل أن تحققه في مواجهة الاتحاد السوفييتي.

وقد كشفت حرب الخليج في ١٩٩١ عن التفوق الأمريكي بدرجة أذهلت الكثيرين في الخارج. وعلى الرغم من أن الميزانية العسكرية الأمريكية انخفضت، فإن الفجوة بينها وبين الدول الأخرى لم تتضاءل. ومازال الإنفاق العسكري يزيد بأكثر من ثلاثة أضعاف مثيله في أية دولة يمكن أن تكون معادية، وهو يزيد على الميزانية العسكرية لكل من روسيا

والصين وإيران والعراق وكوريا الشمالية وكوبا مجتمعة.

ومن المهم أيضا أنه ليس هناك دليل على أن مستوى الحرفية العسكرية فى تلك الدول «يزيد بمعدل يجعلها قادرة على المنافسة، حتى إذا أنفقت مبالغ أكبر كثيرا على قواتها. واستمرارا لما يراه البعض ثورة فى الشئون العسكرية مازالت القوات الأمريكية تحقق استخداما لا مثيل له لأحدث الأسلحة، ولأنظمة الرصد وجمع المعلومات، والمرونة التنظيمية والعقائدية فى إدارة هذه المبتكرات المعقدة وإدخالها فى «أنظمة الأنظمة» التى أصبحت مفتاح الفاعلية العسكرية الحديثة. وأصبحت للعقول قوتها بشكل غير مسبوق فى التاريخ العسكرى. وإذا تمكنت دولة معادية من اللحاق بالولايات المتحدة فى سباق التسلح، فليس من المتوقع أن يلحق تنظيمها وثقافتها العسكرية بسباق الكفاءة فى الإدارة واستيعاب التكنولوجيا ومهارات القيادة القتالية.



وإذا كان من المتعذر على الدول المعادية أن تواجه الولايات المتحدة فى ميدان القتال التقليدى، فإن ذلك القتال أصعب بالنسبة للجماعات الأصغر حجما مثل الإرهابيين. وإذا كانت الولايات المتحدة حسنة الحظ، فإن شتى الجماعات التى تؤمن بالعنف والتى لديها مظالم تشكو منها من الحكومة الأمريكية والمجتمع الأمريكى، سوف تستمر فى وضع خطط تستخدم فيها المتفجرات التقليدية. ولم تظهر حتى الآن جماعات إرهابية تسعى إلى إحداث تدمير شامل حقيقى. ولم يؤد إلقاء القنابل أو أخذ الرهائن بوجه عام إلى تهديد أكثر من مئات قليلة من الأرواح. ودعونا نأمل أن تكون هذه القدرة المحدودة راجعة إلى سبب قوى، وليس إلى مجرد عدم امتلاك القدرة، وألا تغدو الاستثناءات القليلة أكثر انتشارا.

وليس هناك ما يدعو للاعتماد على هذا النوع من ضبط النفس. فقد حاول بعض تلك الجماعات بالفعل أن يستخدم أسلحة الدمار الشامل، إلا أن المحاولة أخفقت. فقد أطلقت جماعة «أوم شينرى كيو» اليابانية غاز السارين المدمر للأعصاب فى طوكيو فى سنة ١٩٩٥ لكنه لم يقتل غير عدد قليل من الأشخاص، ويعتقد بعض الباحثين أن أولئك الذين هاجموا مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى عام ١٩٩٣ لوثوا قنبلتهم بالسيانيد الذى احترق فى الانفجار، (هذا لم يتأكد، ولكن وجدت كمية كبيرة من السيانيد فى حوزة المتهمين). وبمرور الوقت لن تكون مثل هذه الجماعات بهذا القدر من عدم الكفاءة. وإذا قرر الإرهابيون أن يذهلوا صانعى السياسة الأمريكيين بإحداث ضرر بالغ فإن أسلحة الدمار الشامل ستصبح أكثر جاذبية فى نفس الوقت الذى تصبح فيه أقرب إلى المتناول.

وأخيرا، فإن التفوق العسكرى الذى لا نزاع فيه قد حوّل انتباه المؤسسة العسكرية الأمريكية بعيدا عن أسلحة الدمار الشامل. فأثناء الحرب الباردة كانت الأسلحة النووية هى العماد الرئيسى للقدرات الحربية الأمريكية. وكانت هى الكلمة الأخيرة فى المناقشات الدفاعية، وبرامج المشتريات، ومفاوضات الحد من الأسلحة؛ لأن الولايات المتحدة كانت تواجه دولة عظمى منافسة، دولة لم يكن التفوق عليها فى الحرب التقليدية أمرًا مؤكدا. أما الآن فليس هناك من يهتم بصاروخ MX أو بقاذفة القنابل B-1 وليس هناك من يهتم حقا بمعاهدة خفض الأسلحة الإستراتيجية. وبطريقة كانت تدعو إلى السخرية أثناء الحرب الباردة هناك الآن من يبرر إنتاج طائرات B-2 التى تتكلف الواحدة منها مليارين من الدولارات باعتبارها من أسلحة الحرب التقليدية، ولا يكاد يوجد فى البنتاجون الآن من لا يزال يهتم بالكيفية التى تستطيع بها الولايات المتحدة أن تستخدم أسلحة الدمار الشامل لأغراضها الإستراتيجية.

أما ما يهتم به المخططون العسكريون فهو كيفية إبقاء الأطراف المعادية بعيدا عن استخدام أسلحة الدمار الشامل باعتبارها وسيلة «غير منتظمة» لمواجهة القوة الأمريكية التقليدية، وكيفية حماية القوات البرية والبحرية الأمريكية فى الخارج من الهجوم عليها بأسلحة الدمار الشامل. وهذا الاهتمام له ما يبرره بغير شك، ولكنه ينطوى على خطر ابتعاد الاهتمام عن الخطر الرئيسى. فليس الخطر الرئيسى هو أن يقوم الأعداء بإلقاء بعض الأسلحة النووية أو الكيميائية على القوات المسلحة الأمريكية أو على السفن الأمريكية، بالرغم من خطورة ذلك. وإنما الخطر الحقيقى هو أن يحاولوا معاقبة الولايات المتحدة بإحداث الكارثة داخل المدن الأمريكية.



حتى العقد الماضى، كانت القضية هى الأسلحة النووية، وينتهى الأمر عند ذلك. وكانت الأسلحة الكيميائية تلقى قدرا من الاهتمام من جانب الخبراء، ولكنها لم تكن على قائمة الأولويات لدى رؤساء الجمهورية أو رؤساء الوزارات.

ونسيت الأسلحة البيولوجية تقريبا بعد أن حظرتها اتفاقية الأسلحة البيولوجية التى أبرمت فى سنة ١٩٧٢. وحظيت الأسلحة الكيميائية والبيولوجية بقدر أكبر من الاهتمام خلال التسعينيات. غير أن الثالوث الذى يُجمع تحت مظلة التدمير الشامل يثير قضايا مختلفة. وأهم ما يلفت النظر أن الأسلحة البيولوجية حظيت باهتمام أقل من السلاحين الآخرين بالرغم من أنها ربما تمثل أكبر الخطر.

وقد لقيت الأسلحة الكيميائية قدراً أكبر من الاهتمام خلال العقد الماضى، ولاسيما بعد أن استخدمها العراق ضد القوات الإيرانية فى حرب ٨٠-١٩٨٨ بين العراق وإيران وضد المدنيين الأكراد فى عام ١٩٨٨. والأسلحة الكيميائية متوافرة بدرجة أكبر من الأسلحة النووية، والتكنولوجيا اللازمة لإنتاجها أشد بساطة. وهناك عدد كبير من الدول التى تنفذ برامج للأسلحة الكيميائية غير أن هذه الأسلحة ليست فى الواقع من نفس طبقة أسلحة الدمار الشامل الأخرى، بمعنى القدرة على إحداث عدد كبير من الإصابات بين المدنيين بضربة واحدة. ولإحداث عشرات آلاف الوفيات مثل تلك التى احدثتها مثلا عمليات القصف الإستراتيجى الكبرى فى الحرب العالمية الثانية، يكون من الصعب للغاية من ناحية التعبئة وتنفيذ العمليات استخدام الأسلحة الكيميائية بالكميات اللازمة فى مناطق واسعة.

ومع ذلك فقد وجه اهتمام كبير وبذل جهد كثير من أجل إزالة الأسلحة الكيميائية. وقد يكون ذلك أمرا مفيدا، ولكن آثاره الجانبية قد لا تكون كلها حميدة. من ذلك مثلا أن حظر الأسلحة الكيميائية يعنى أن يصبح للأسلحة النووية أهمية فى الردع تزيد عما كان عليه الحال من قبل. وذلك لأن إبرام معاهدة لا يمكن أن يمنع بشكل مؤكد الدول المعادية من صنع الأسلحة الكيميائية، فى حين أن الولايات المتحدة تعهدت بعدم الرد بالمثل.

وفى الماضى كانت الولايات المتحدة تتبع سياسة ألا تكون البادئة باستخدام الأسلحة الكيميائية، ولكنها احتفظت بالحق فى الرد بها إذا قام العدو باستخدامها أولا. ومعاهدة الأسلحة الكيميائية لسنة ١٩٩٣، والتى دخلت

حيز التنفيذ في أبريل الماضي، تشترط أن تدمر الولايات المتحدة المخزون لديها من هذه الأسلحة، وبذلك ينتهي هذا الخيار. وقد فعلت الولايات المتحدة نفس الشيء تجاه الأسلحة البيولوجية منذ أمد طويل، في فترة رئاسة نيكسون. وإزالة الأسلحة الكيميائية والبيولوجية الأمريكية يحول عمليا دون تطبيق سياسة ألا تكون البادئة باستخدام الأسلحة النووية، لأنها تصبح أسلحة الدمار الشامل الوحيدة المتاحة لها لترد بها.

فهل ستلجأ الولايات المتحدة إلى استخدام الأسلحة النووية ضد دولة أو جماعة قتلت عدة آلاف من الأمريكيين بمواد كيميائية قاتلة؟ من الصعب تصور الخروج على التحريم الذي نشأ بعد نجازاكي في حالة كهذه. ولكن خطط الرد العسكري التقليدي لن تكون كافية دون الانتقاص من قوة التهديد بالردع الأمريكي. وقد يخلق ذلك سابقة من جانب الولايات المتحدة تؤدي إلى استخدام البعض لأسلحة الدمار الشامل ضد أمريكا دون أن يتعرض مقابل ذلك لتدمير مماثل. ولن يؤدي الحد من نطاق بدائل الردع المتاحة للإستراتيجية الأمريكية بالضرورة إلى فشل الردع، لكنه بالقطع لن يزيد من قوته.



والميزة المفترضة لاتفاقية الأسلحة الكيميائية أنها تجعل من الأصعب حيازة تلك الأسلحة وأنها ستصبح غير مشروعة ولا مقبولة، كما كانت الأسلحة البيولوجية طوال ربع قرن. فإذا كانت لها هذه الميزة، ماذا سيكون تأثير الحظر على خيارات الدول أو الجماعات التي تحتاج إلى نوع من أسلحة الدمار الشامل على أي حال، سواء لأغراض الردع أو العدوان أو الانتقام؟ على الأقل سيؤدي الحظر إلى إنقاص الحوافز على عدم حيازة الأسلحة البيولوجية، لأنها لن تكون أقل بعدا عن الشرعية، أو أصعب في الحصول عليها أو إخفائها، أو أكثر ضررا من الأسلحة الكيميائية. فإذا كان إنقاص الخطر الكيميائي بنسبة كبيرة سيؤدي إلى زيادة ولو ضئيلة في الخطر البيولوجي، فإن المبادلة ستكون خاسرة.

وهناك حقيقة بسيطة تدعو الأمريكيين إلى القلق بشأن الأسلحة البيولوجية أكثر من قلقهم بشأن الأسلحة النووية أو الكيميائية، وهي أن الأسلحة البيولوجية، على خلاف النوعين الآخرين، تجمع بين القدرة التدميرية القصوى وسهولة الحيازة. فالأسلحة النووية لها قدرة هائلة على القتل، ولكن الحصول عليها ليس سهلا. والأسلحة الكيميائية يسهل الحصول عليها، لكن ليست لديها تلك القدرة على القتل. أما العناصر البيولوجية فلديها كلتا الصفتين.

وقد أجرى «مكتب تقدير التكنولوجيا» في عام ١٩٩٣ دراسة خلصت إلى أن قيام طائرة واحدة بنقل ١٠٠ كيلوجرام من جراثيم الجمرة الخبيثة - وهي نوع من الجراثيم تتكاثر بسرعة داخل الجسم وتنتج سموما تؤدي إلى نزيف سريع - في ليلة صافية هادئة فوق واشنطن فإنها يمكن أن تقتل ما بين مليون وثلاثة ملايين شخص، أي ما يزيد ٣٠٠ مرة على الخسائر التي يمكن أن تحدثها الطائرة إذا حملت غاز السارين بكميات أكبر بعشرة أضعاف (١).

والأسلحة البيولوجية، شأن الأسلحة الكيميائية ولكن بخلاف الأسلحة النووية، يسهل صنعها نسبيا، وقد أدت التجديدات في التكنولوجيا الحيوية إلى تحاشي كثير من المشاكل القديمة في التعامل مع العناصر البيولوجية وحفظها، وقد أصبح بعض هذه العناصر متاحا لأغراض البحث العلمي. ولا يتوقع أن تكون الأسلحة الكيميائية هي المختارة من بين أسلحة الدمار الشامل لدى الجماعات الإرهابية من غير الدول: لأنها تحتاج إلى استثمارات ضخمة، وإلى بنية تحتية يسهل التعرف عليها، أو ضربها، وهي معرضة لتهديدات مؤكدة من جانب الولايات المتحدة. وسوف تجد الجماعة التي لها مطالب وتقرر أن تقتل أعدادا هائلة من الأمريكيين، أن الوصول إلى هدفها بالجمرة الخبيثة أيسر من الانفجار النووي.



هل ستلجأ الولايات المتحدة إلى استخدام الأسلحة النووية ضد دولة أو جماعة قتلت عدة آلاف من الأمريكيين بمواد كيميائية قاتلة؟



وفي داخل البنتاجون، زاد القلق من الأسلحة البيولوجية خلال السنوات القليلة الماضية، ولكن ليس هناك اهتمام جدي بهذه المشكلة خارج البنتاجون، وقد يكون ذلك شيئا طيبا إذا لم يكن هناك ما يمكن عمله في هذا المجال، إذ أن الحديث العلني في الموضوع ربما يكون مصدرا للأفكار التي يناقشها الأعداء. ولكنه يكون شيئا سيئا إذا حال دون اتخاذ خطوات - مثل الدفاع المدني - يمكن أن تقلل من أثر أي من الضربات النووية أو الكيميائية أو البيولوجية.

مازالت هناك أفكار عتيقة تسيطر على المناقشات المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل. ومازال الحديث يدور في المؤسسة العسكرية حول «الردع» تلك الكلمة الإستراتيجية التي كانت تستخدم لجميع الأغراض في الحرب الباردة. ولكن الردع لا يغطي الآن غير مخاطر أقل مما كانت الولايات المتحدة تواجهه أثناء الحرب الباردة.

فمنطق الردع يكون واضحا عندما تكون المسألة هي الحيلولة دون عدوان يتم بلا استفزاز ولا يتسم بالغموض، وعندما يدرك المعتدي أنه المعتدي وليس مدافعا عن النفس. ولكن الردع لا يكون مدعاة للاعتماد عليه عندما يرى كل من طرفي النزاع أن الآخر هو المعتدي.

وهذا القول كثيرا ما يكون صحيحا عندما تتدخل الولايات المتحدة في منازعات العالم الثالث المختلطة. وفي هذه الحالة قد يرى الجانب الذي ترغب الولايات المتحدة في ردعه أنه هو الراغب في ردعها. ومثل هذه المواقف صالحة تماما للخطأ في الحساب.

وبالنسبة للبلد الذي كان في العادة موضوع الردع الأمريكي - أي روسيا - فإن العبء الإستراتيجي قد انقلب رأسا على عقب، لأنه استنادا إلى افتراض التفوق العسكري للسوفييت في المجال التقليدي، كانت الإستراتيجية الأمريكية تعتمد على ذلك الخطر للتصعيد - لأن تكون هي الأولى في استخدام الأسلحة النووية أثناء الحرب - من أجل ردع أي هجوم من جانب الفرق المدرعة السوفييتية. أما الآن فقد تغيرت الأوضاع. فلم يعد هناك وجود لحلف وارسو، وليس لدى روسيا غير نصف القدرات العسكرية للاتحاد السوفييتي أو أقل، وقواتها التقليدية حاليا في حالة فوضى، في حين يتوسع حلف الأطلنطي في اتجاه الشرق. وموسكو هي التي لديها الآن دافع للتعويض عن الضعف في المجال التقليدي بزيادة الاعتماد على القدرات النووية. وقد تبنى الروس في أوائل الثمانينيات سياسة ألا يكونوا البادئين باستخدام الأسلحة النووية ولكنهم تخلوا عن تلك السياسة بعد ضعف قوتهم الذي أعقب نهاية الحرب الباردة.

إن روسيا الآن في حاجة إلى ما يطمئنها لا إلى ما يردعها. والخطر الرئيسي من أسلحة الدمار الشامل الروسية هو التسرب من مخزوناتها الهائلة إلى الجماعات المعادية لأمريكا في مناطق أخرى - ما يسمى مشكلة «الأسلحة النووية السائبة». وما دامت الولايات المتحدة لا تعتزم مهاجمة الروس، فإن زيادة اعتمادهم على القوة النووية لا يمثل مشكلة.

وبالمثل، فإن التفوق العسكري الأمريكي في المجال التقليدي يعطي الصين حافزا للنظر في زيادة الاعتماد على إستراتيجية ترمي إلى التصعيد. وقد كانت الصين تتبع منذ أمد طويل سياسة مؤداها ألا تكون هي الدولة البادئة، ولكنها اعتمدت هذه السياسة عندما كانت عقيدتها الإستراتيجية هي «الحرب الشعبية» التي تعتمد على التعبئة العامة والأسلحة ذات المستوى التكنولوجي المنخفض. وقد تعرضت تلك العقيدة لهزة شديدة نتيجة للأداء الأمريكي في حرب الخليج.

وهنا أيضا ربما تفترض الولايات المتحدة أنه لا توجد مشكلة ما دامت بكين لا تريد غير الردع، والولايات المتحدة لا تنوي أن تهاجم. ولكن ماذا يكون وضع هذه الافتراضات إزاء احتمال نشوب حرب حول تايوان؟ وهو نزاع لا يريده أحد ولكن لا يمكن استبعاده على ضوء التوترات المتزايدة. فإذا قررت الولايات المتحدة أن تردع بكين عن مهاجمة تايوان، قد يكون التراث القديم من الحرب الباردة صالحا. ولكن إذا استمرت واشنطن في ترك السياسة غامضة، فما هو السبيل إلى معرفة من الذي يردع الآخر؟ إن الغموض يؤدي إلى اضطراب الرؤية والخطأ في الحساب في وقت الأزمات.



إلا أن المشكلة الأساسية بشأن الردع، هي أنه مازال يعتمد على مجموعة النظريات التي استندت إليها سياسة الحرب الباردة التي سيطر عليها الاعتماد على التهديد بالضربة الثانية الانتقامية، لكن الانتقام يتطلب معرفة من الذي قام بالهجوم، والعنوان الذي يقيم فيه. وهذان الشرطان لا يمثلان مشكلة عندما يأتي الخطر من حكومة، ولكنهما يصبحان مشكلة إذا كان العدو مجهولاً. وهناك اليوم جماعات ربما ترغب في معاقبة الولايات المتحدة بدون الإعلان عن عملها - أي عملية للقتل الجماعي شبيهة بما حدث في عام ١٩٨٨ من إسقاط طائرة بان أمريكان ١٠٣ فوق لوكيربي باسكتلندا. يضاف إلى ذلك أن الخيارات التي تفضلها المؤسسة العسكرية تحولت تحولا جذريا، من الردع إلى المنع. وأغلبية من كان لهم دور في سياسة الأسلحة النووية أثناء الحرب الباردة، اعترضوا بشكل قاطع على تطوير خيارات الضربة الأولى. أما اليوم فليس هناك من يأخذ بذلك المنطق القديم، عندما يفكر في الدول «الشريرة» أو في الإرهابيين، ويأمل معظم المسئولين أن يتمكنوا من القيام بعمل حاسم ضد أية جماعة تملك أسلحة الدمار الشامل.

وابتداء من مفاوضات الحظر المحدود للتجارب في الستينيات، وعبر محادثات تقييد الأسلحة الإستراتيجية ومحادثات خفضها، ومفاوضات الأسلحة النووية متوسطة المدى في السبعينيات والثمانينيات، كانت معاهدات الحد من التسلح جوهرية في إدارة مخاطر أسلحة الدمار الشامل. وقد دارت مناقشات حامية حول ما إذا كانت بعض الاتفاقات المحددة مع موسكو هي في مصلحة الولايات المتحدة أم لا، لأن الجميع كانوا يعتقدون أن النتائج التي ستتوصل إليها لها أهميتها. أما اليوم فليس هناك اتفاق في الرأي على أن المعاهدات التي تنظم التسلح لها أهمية كبيرة.

كما أن شريكة الولايات المتحدة في الحد من التسلح أيام الحرب الباردة، وهي روسيا، قد نزعت بإرادتها الكثير من أسلحتها. ولكن على الرغم من العبارات المعتادة، فإن الولايات المتحدة لم تمنح أولوية متقدمة لإقناع موسكو بأن تتجرد من المزيد من أسلحتها النووية، وقد اختارت إدارة كلينتون أن تشجع توسيع حلف شمال الأطلنطي، مما يدفع الروس في الاتجاه المضاد.



على الرغم من كل جوانب النقص المستجدة سيظل الردع من الجوانب المهمة في

الإستراتيجية. غير أنه لا حاجة بالولايات المتحدة لأن تفعل شيئاً كثيراً للحفاظ على قدرتها على الردع بالنظر إلى ما لديها من آلاف الأسلحة النووية، وتفوقها في المجال العسكري التقليدى. ولكن حيثما تكون القدرات غير متطورة بشكل ظاهر يضيق المجال لتدابير التصدى إذا فشل الردع.

ومازال المتحمسون لتطوير القدرة الدفاعية، ومعظمهم ممن كانوا يؤيدون مبادرة الدفاع الإستراتيجى فى سنوات ريجان، متمسكين بأقل أشكال تلك القدرة ملاءمة: أى الدفاعات الإيجابية المعتمدة على التكنولوجيا الرفيعة من أجل التصدى للصواريخ الباليستية. ومازال الاهتمام ضئيلا بالموضوع الذى يجب أن يحظى فى الوقت الحالى بالأولوية الأولى: وهى الاستعداد للدفاع المدنى لمواجهة استخدام أسلحة التدمير الشامل داخل الولايات المتحدة. والدفاع الإيجابى ضد الصواريخ يتطلب استثمارات باهظة ربما تنجح أو لا تنجح خلال سنوات طويلة، ولكنه لا يحقق شيئا ضد الخطر الذى تواجهه بالفعل. فتدابير الدفاع المدنى رخيصة للغاية، ويمكن أن تكون فى مواجهة هجوم محلى أكثر فاعلية منها فى مواجهة هجوم سوفيتي واسع المدى.

وكان النقاش فى فترة الحرب الباردة بشأن الدفاع ضد الصواريخ يدور حول ما إذا كان هذا الدفاع ممكنا من الناحية التكنولوجية. أو ما إذا كان يبرر تكاليفه. أو ما إذا كان سيثير السوفييت ويؤدى إلى إشعال سباق محموم بين الأسلحة الدفاعية والهجومية. ولسنا بحاجة للعودة إلى المعارك التى دارت حول مبادرة الدفاع الإستراتيجى لنرى أن أهميتها بالنسبة لمخاطر أسلحة الدمار الشامل الحالية أهمية ضئيلة. فلن يكون فى وسع إيران أو العراق أو كوريا الشمالية أن تطلق قذائف عابرة للقارات إلا بعد سنوات. كما أنه إذا كانت هذه البلدان تتمتع بالذكاء الإستراتيجى لن ترغب فى ذلك. وبالنسبة للعدد المحدود من الرؤوس النووية التى يحتمل أن تملكها هذه الدول، وخاصة بالنسبة لما تملكه من الأسلحة البيولوجية، فإن الوسائل الأخرى لنقلها متاحة بدرجة أكبر. ومن بدائل الصواريخ عابرة القارات، استخدام الطائرات، والصواريخ التى تطلق من السفن، والوسائل غير التقليدية مثل التهريب، التى برعت فيها أجهزة مخابرات تلك الدول. ولاشك فى أن المتآمرين من غير الدول، مثل أولئك الذين فجروا قنبلة مركز التجارة العالمية، سوف يختارون الوسائل السرية بالضرورة.



ونظام الدفاع المضاد للصواريخ عابرة القارات، سواء أكان يتكلف أقل أم أكثر من مبلغ الستين مليار دولار، التى قدرها مؤخراً مكتب الميزانية التابع للكونجرس ، لن تكون هناك حاجة إليه إلا من أجل خيار واحد محدود، ولن يكون صالحا لمواجهة هذه الأساليب البديلة فى الهجوم. بل إنه إذا كان المصدر الأكبر للقلق بشأن أسلحة الدمار الشامل فى الوقت الحالى يرجع إلى الخوف من استخدامها من جانب الدول الشريرة أو الجماعات الإرهابية، فالاحتمال الأكبر أنه فى وقت ما، فى مكان ما من هذا البلد، سوف تنطلق بعض تلك الأسلحة، على الرغم من بذل أفضل الجهود لمنعها. فإذا حدث ذلك، يجب أن يكون لدى الولايات المتحدة كل التدابير اللازمة للحد من نتائج استخدامها.

وفى المراحل الأخيرة من الحرب الباردة، كان من الصعب إثارة اهتمام الجمهور بالدفاع المدنى ضد هجوم سوفيتي شامل، يمكن أن يؤدى إلى تفجير الآلاف من الأسلحة النووية، ذات العيار الثقيل فى المراكز المأهولة بالسكان



الميزانية العسكرية الأمريكية تزيد على الميزانية العسكرية لكل من روسيا والصين وايران والعراق وكوريا الشمالية وكوبا مجتمعة

فى الولايات المتحدة. وكان من رأى الكثيرين أن عدد الأشخاص الذين يمكن إنقاذهم، سيكون أقل بكثير من عدد الملايين الذين سيكونون فى عداد المفقودين. غير أنه من الأيسر أن نرى جدوى الدفاع المدنى فى سياق عمليات هجوم محدودة، ربما تكون بأسلحة قليلة وذات قوة منخفضة. وهناك العديد من التدابير البسيطة التى يمكن أن تزيد الوقاية من الأسلحة البيولوجية أو النووية أو الكيميائية، أو التغلب على أضرارها. ومن أمثلة ذلك تخزين أو توزيع الأقنعة الواقية، وتوفير المعدات والتدريب على إزالة التلوث، والبرامج واسعة النطاق للتطعيم والعلاج السريع بالمضادات الحيوية، وتوسيع وتعميق التخطيط لتدابير التصرف فى حالة الطوارئ، وتوعية الجمهور بشأن سرعة اللجوء إلى المخابئ، والتحرك السريع للحد من التعرض الفردى للأخطار.

وهذه البرامج لن تجعل فى الوسع استيعاب الهجوم بأسلحة الدمار الشامل، إلا أن عدم كفاية التدابير ليس مبررا لعدم اتخاذ الإجراءات التى يمكن أن تقلل من الوفيات والإصابات، حتى إذا كان الفرق فى الخسائر ضئيلا. وستكون هناك أهمية كبيرة لتدابير الدفاع المدنى، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أنها رخيصة للغاية بالمقارنة بالبرامج العسكرية العادية أو أنظمة الدفاع بالصواريخ.

إن إحدى المشاكل هى مشكلة القصور الذاتى الفكرى، إذ إن الحرب الباردة جعلت رجال الإستراتيجية معتادين على التفكير فى عدو لديه آلاف من أسلحة الدمار الشامل وليس فى أعداء لديهم عدد ضئيل منها. وعلى امتداد عدة عقود، أثارت مسألة الدفاع الإستراتيجى أيضا حوارا، بين من لا يرون بديلا عن الاعتماد على الردع، ومن يأملون فى إقامة غطاء كوكبى فوق الولايات المتحدة، قادر على أن يحل محل الردع. وليس بين هذه الأفكار العتيقة البالية ما يتصدى للأخطار الأقرب لأسلحة الدمار الشامل فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

والمعارضة فى برامج الدفاع المدنى فى فترة الحرب الباردة هى السبب النفسى الآن فى تجنبها. فقد دأب معارضو هذه البرامج على القول بأن الدفاع المدنى وهم خطر، لأنه لن يفعل شيئا يذكر للحد من فظائع الهجوم الذى يمكن أن يقضى على مئات المدن، وقد يؤدى إلى شعور كاذب بالأمن، و يمكن أن يكون مزعزعا للاستقرار وحافزا للهجوم فى وقت الأزمة. وسواء كانت تلك الحجج سليمة فى ذلك الحين أو لم تكن، فهى ليست سليمة الآن. ولكن كان هناك فى ذلك الوقت والآن أيضا سبب قوى لعدم الرغبة فى تطبيق إجراءات الدفاع المدنى، وهو أنها تؤدى إلى انزعاج الجمهور، لأنها تذكره بأن تعرضه للدمار الشامل ليس حلما مزعجاً، وليس شيئا «تستطيع الخطط الإستراتيجية للردع، أو المنع، أو اصطياد الصواريخ، أن تحول دونه بشكل مؤكد.

إن فى وسع الدفاع المدنى أن يحد من الأضرار، ولكنه لا يستطيع أن ينزل بها إلى الحد الأدنى، وقد يتمكن بعض الأعداء من تطوير وسائل بيولوجية لا تتأثر باللقاحات والمضادات الحيوية المتاحة الآن. (غير أنه يمكن التغلب على أصحاب القدرات التقنية الهامشية عن طريق إغلاق الطريق أمام الخيارات الأسهل). ولكن أيهما أسوأ: نواقص الدفاع المدنى، أم تحمل مسئولية عدم المحاولة؟ ففى اللحظة التى تُستخدم فيها أسلحة الدمار الشامل فى مكان ما، بطريقة ينتج عنها عشرات الآلاف من الضحايا، ستكون هناك انفجارات هستيرية من كل نوع وسيكون من بينها بالتأكيد السؤال: «لماذا لم تهيئنا الحكومة لهذا الاحتمال؟».

وعندما يؤخذ خطر استخدام الإرهاب لأسلحة الدمار الشامل مأخذ الجد، سيزداد الاهتمام بتدابير الدفاع الوقائية ـ وأكثرها وضوحا هو تكثيف جمع المعلومات عن طريق المخابرات. وعندما يشمل ذلك تحديد فئات معينة داخل الولايات المتحدة يمكن أن تكون مجالات محتملة لتوالد الإرهابيين (مثل مؤيدى المناضلين الفلسطينيين، أو من يعملون على إنشاء ميلشيات محلية، أو المتطرفين الذين لهم ارتباطات بإيران والعراق وليبيا)، سوف تثور الخلافات حول الحدود الدستورية لانتهاك الخصوصية، أو حول أعمال الاعتقال والتفتيش. ومادام خطر أسلحة الدمار الشامل مجرد احتمال لا أكثر لن يكون من السهل تسوية هذه الخلافات. وهى لم تبرز حتى الآن لأن انفاذ القانون فى الولايات المتحدة كان حسن الحظ بقدر غير معقول فى القبض على الإرهابيين.

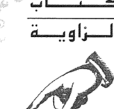
فالمجموعة التى اعتقلت فى عام ١٩٩٣ لتخطيطها لتفجير قنبلة فى نفق لنكولن تصادف أن كانت تضم فى عضويتها أحد المبلغين فى عام ١٩٩٥ وألقى القبض على «تيموثى ماكفى» لأنه كان يقود سيارته دون ترخيص. وعلى الذين يخشون الإضرار بالحريات المدنية، بسبب التوسع الحكومى فى تدابير البحث والتنقيب، أن يفكروا فيما يمكن أن يحدث إذا لم يتوافر هذا الحظ الحسن مرة واحدة وأصبح من المتعذر معرفة مرتكبى الحوادث. ولنفترض أن جماعة إرهابية سرية متطرفة شنت هجوما بالوسائل البيولوجية ترتب عليه قتل مائة الف شخص، وأعلنت أنها ستكرر هذا الهجوم مرة أخرى إذا لم يتم الاستجابة لمطالبها (قد لا تكون احتمالات هذا السيناريو كبيرة. ولكن لم يعد فى الوسع القول بأنه لا يتجاوز حدود حكايات الخيال العلمى). ومن الصعب أن نستبعد فى تلك الحالة أن يلجأ النظام القانونى الذى يسوده الفزع إلى اتباع خطى الماضى ومعاملة الأمريكيين العرب كما عامل الأمريكيون اليابانيين الذين سيقوا بعد بيرل هاربور إلى معسكرات الاعتقال. وربما يكون توسيع نطاق المراقبة الداخلية للحد من احتمالات مواجهة هذه الخيارات هو أهون الشرين.

ليس هناك بين البرامج الرامية إلى الحد من قدرات الأعداء برنامج يستطيع أن يقضى تماما على المخاطر. ومن تلك المخاطر أنه يمكن ـ فى ظل سيولة السياسات فى عالم ما بعد الحرب الباردة ـ أن تتعثر الولايات المتحدة فى أزمة غير متوقعة مع روسيا أو الصين. وليست هناك قواعد مستقرة للعبة تحول دون تصاعد نزاع بشأن دول البلطيق أو تايوان، شبيهة بالقواعد التى كانت قائمة فى المنافسة بين الدولتين العظميين بعد أزمة الصواريخ الكوبية. والخطر الثانى هو أن تعمل إحدى الجماعات الغاضبة التى تلقى باللوم على الولايات المتحدة فى مشاكلها على فرض إرادتها على الأمريكيين، أو مجرد الانتقام منهم وذلك بإبادتهم حيث يعيشون.

وإذا كانت الخطوات التى يمكن اتخاذها بشأن القدرات محدودة، فهل يمكن عمل شىء للتصدى للنوايا ـ أى لدوافع أية دولة أو مجموعة أجنبية ترغب فى توجيه ضربة للولايات المتحدة؟ ليست هناك إجابة عن هذا السؤال تتعارض مع النشاط الإستراتيجى الأساسى وتوجه السياسة الخارجية الأمريكية إلى القيام بدور دولى خلال نصف القرن الماضى. وذلك لأن أفضل وسيلة لمنع الشعوب من الاعتقاد بأن الولايات المتحدة مسئولة عن مشاكل تلك الشعوب هى تجنب المشاركة فى منازعاتها.

ومنذ اتفاق ميونيخ وبيرل هاربر، كان هناك توافق فى الرأى على أنه إذا لم يدفع الأمريكيون بخطوط دفاعهم إلى الأمام ويواجهوا المتاعب الخارجية فى مراحلها المبكرة، فإن تلك المتاعب ستأتى إليهم داخل حدودهم. ولكن لأن الولايات المتحدة هى الآن الدولة العظمى الوحيدة، ولأن أسلحة الدمار الشامل أصبحت متاحة بدرجة أكبر، فإن





من شعر إبراهيم ناجى

شـــكـــوك

يا رامى السهم يدرى أين موضعه
منى ويعلم ما داريت من ألم
رميتَ فى ساحة موسومة بدم
منقوشة بندوب الحب والندم
لا يخدعنَّك منها وهى صامتة
صمت القبور فراغ الموت والعدم
فكم شفاء جراحات إذا انطبقت
جرح الإباء عليها غير ملتئم
فيم انتقامك من قلب عصفتَ به
لم يبق من موضع فيه لمنتقم
وفيم لذعة سخط من جوى برم
ترمى بجمرته فى جوف مضطرم!



أغنيـــــة
أنـــتِ

أنتِ إن تؤمنى بحبى كفانى
لا غرامى ولا جمالك فانى
أجدب الهجرُ خاطرى وخيالى
وأجف النوى دمى ولسانى
فتعالىْ روّى الظما فى عيونى
وا جنونى لقطرة من حنانِ
طال واللّه فى تنائيك ذلى
ووقوفى على ديار الهوانِ
أى روح أحسه أى سر
فى جناحيك كلما ظللانى
أى روح أحسه أى سحر
سكبت فىَّ هاته العينان
لكأن الرميم ما تبعثان
وكأن النشور ما تسكبان
وكأنى محلق فى سماء
ومطل منها على الأكوان
مستعز بما منحت قوىٌّ
أجمع الكون كله فى عنان



الخطر الرئيسى من أسلحة الدمار الشامل الروسية هو التسرب من مخزوناتها الهائلة إلى الجماعات المعادية لأمريكا فى مناطق أخرى

التدخل الأمريكى فى مناطق المنازعات لم يعد وسيلة لإبعاد تلك المخاطر بقدر ما هو وسيلة لتحريكها.

فهل سيؤدى تدخل الولايات المتحدة فى الأوضاع غير المستقرة المحيطة بالاتحاد السوفيتى السابق إلى تجنب النزاع مع موسكو أم يكون دافعا إليه؟ وهل سيؤدى توسيع حلف الأطلنطى وانتقاله إلى أبواب روسيا إلى ردع الضغط الروسى على أوكرانيا ودول البلطيق أم سيكون باعثا عليه؟

فى حالة روسيا والصين، الاحتمال قليل لأن تشرع إحداهما فى غزو أوروبا أو آسيا، ولكن يحتمل أن تعملا على عودة مجالات السيادة ومناطق الأمن القديمة عن طريق إعادة ضم تايوان أو الدول الجديدة التى خرجت من الاتحاد السوفيتى السابق. وليس معنى ذلك أن توسيع حلف الأطلنطى أو تأييد استقلال تايوان سيؤدى إلى نشوب حرب نووية، وإنما يعنى أنه مهما تفعل السياسة الأمريكية لن يكون مجديا مادامت هناك حوافز لهذين البلدين للاعتماد على أسلحة الدمار الشامل بسبب الاحتكاك السياسى بينهما وبين واشنطن.

والخطر الأساسى الثانى هو سخط الدول أو الجماعات الدينية والثقافية الأصغر حجما التى ترى أن الولايات المتحدة هى قوة الشر التى تقف فى طريق تطلعاتها المشروعة.

ولم يكن واردًا أن يعمد المتطرفون فى الشرق الأوسط إلى رسم خطط مثل تدمير مركز التجارة العالمى لولا أنه استقر فى الأذهان منذ أمد طويل أن الولايات المتحدة هى السند الأول لاسرائيل ولشاه إيران وللأنظمة العربية المحافظة، وأنها مصدر الهجوم الثقافى على الإسلام. وقد أدى الانتصار فى الحرب الباردة إلى تضخيم المشكلة، وأصبح ارتباط الهيمنة العسكرية والثقافية للولايات المتحدة - وهما الخطران الأساسيان اللذان يواجهان المتطرفين الذين يريدون تغيير الأوضاع القائمة - ارتباطا مباشرا بما ينسب إلى الولايات المتحدة من المسئولية عن الإبقاء على النظام العالمى. ولما كانت الولايات المتحدة تلعب دور الشرطى الدولى فإن ذلك يزيد من رغبة الفئات الساخطة فى توجيه ضربة مضادة إليها.



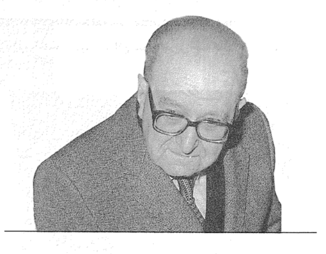
هل تعتبر هذه دعوة إلى العزلة؟ كلا. فقد فات الأوان لتهدئة السخط فى الدول الخارجية عن طريق التراجع، حتى لو كان ذلك مقبولا - فالجماعات والحكومات التى تشعر بالاغتراب لن تكف عن إلقاء اللوم فى مشاكلها على واشنطن. بالإضافة إلى أن للسياسة الخارجية أهدافا تتجاوز تهدئة الحوافز الرامية إلى الإضرار بالولايات المتحدة. وليس من المنطقى التوقف عن السعى لتحقيق أهداف أخرى من أجل تقليل خطر غير مؤكد يتعلق باحتمال غير مؤكد. فالأمن ليس شيئا واحدا، والبقاء على قيد الحياة ليس إلا جزءا من الأمن.

لكنه لم يعد من الحكمة افتراض أن المصالح الأمنية المهمة يكمل بعضها بعضا كما كانت الحال فى وقت الحرب الباردة. والمصلحة الجوهرية - وهى حماية الوطن الأمريكى من الهجوم - كثيرا ما تتعارض الآن مع النظرة الأكثر اتساعا إلى الأمن ومع الاهتمامات التى تشجع على تعزيز القيم السياسية الأمريكية، والاعتماد الاقتصادى المتبادل، وفرض القيم الاجتماعية الغريبة، وضمان الاستقرار فى مناطق تتجاوز أوروبا الغربية والأمريكتين.

ولا ينبغى للولايات المتحدة أن تتخلى عن كل مصالحها السياسية الأرحب، ولكن عليها أن تتحرك بحذر فى بعض المناطق - وفى مقدمتها الشرق الأوسط - حيث تتصادم المصالح الأرحب مع المطلب الجوهرى، وهو منع الدمار الشامل داخل الحدود الأمريكية. ■

Foreign Affairs, Vol. 77 No.1

ترجمة : أسعد حليم



روچيه جارودى
شاهد القرن العشرين*

كامل زهيرى

في ١٧ من يوليو عام ١٩٩٨ بلغ روچيه جارودى الخامسة والثمانين. وفى هذه المناسبة أصدر جارودى كتابه السابع والخمسين. وعنوانه «أمريكا طليعة الانحطاط. كيف نعدّ للقرن الواحد والعشرين» ثقافة موسوعية ورؤية ثاقبة، تعكس حياة عميقة عريضة، مليئة بالفكر والمصاعب، والعمل والمعارك، جعلت من روچيه جارودى بحق شاهدا على عصره، بل وشاهدا على القرن العشرين.

فقد ولد روچيه جارودى قبل عام من الحرب العالمية الأولى فى مارسيليا عام ١٩١٣. وكان أبوه المحاسب قد أصيب فى الحرب الأولى وعاد معوّقا. واستحق روچيه الصغير مجانية التعليم لهذا السبب، رغم استحقاقه لها لنبوغه المدرسى المبكر. وقد حارب جارودى بدوره فى الحرب العالمية الثانية وهو فى السادسة والعشرين. ولكنه نقل من الجبهة الأوروپية إلى شمال أفريقيا لآرائه السياسية. واعتقل ٣٢ شهرا، ولم يفرج عنه إلا بعد نزول القوات الأمريكية فى شمال أفريقيا. وعمل جارودى فى الجزائر مديرا لتحرير مجلة «ليبرتيه» أو الحرية، ومذيعا فى «راديو فرنسا»، ولكن السلطات الفرنسية أبعدته عن الجزائر، بعد احتجاج غاضب من روبرت مورفى ممثل أمريكا فى الجزائر حينذاك، لأن جارودى هاجم فى مجلته «ليبرتيه» أمريكا لتباطئها فى فتح الجبهة الثانية فى أوروپا. وانتقل من الجزائر إلى تونس.

وقد روى لنا جارودى مرتين أطرافا من حياته أيام الشباب. الأولى فى رواية من تاليفه، اختار لها بالقصد عنوان «آنتى»، أحد أبطال الأساطير الإغريقية. ثم عاد إلى اعترافاته مباشرة فى مقدمة كتاب سياسى أصدرد عام ١٩٦٨، وذلك العام شهد فى پاريس أحداث الطلاب وإضراب العمال وسخط المثقفين واستقالة ديجول، وغزو السوڤييت لبراغ، وتصاعد أزمته مع قيادة الحزب الشيوعى الفرنسى، وقد انتهت إلى فصله فى فبراير عام ١٩٧٠.



ولكننى أمام تلك السيرة المليئة بالأحداث والمسيرة الغنية بالمواقف توقفت أولا ــ وكثيرا ــ عند لحظة لها دلالة عند اعتقاله فى صدر الشباب. خلال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١. وكان جارودى فى الثامنة والعشرين. وقد رواها لنا فى كتاب ثالث: «حوار الحضارات»، وفى مقدمة طبعته العربية قائلا:

«كان أول احتكاك فى حياتى الشخصية مع الإسلام احتكاكا برجال أعتبر نفسى مدينا لهم بحياتى. ففى الرابع من مارس عام ١٩٤٠، كنا نحو خمسمائة مناضل من المعتقلين والمسجونين. لأننا كنا نقاوم الهتلرية. ونقلنا جميعا إلى «جلفة» جنوبى الجزائر. وكانت الحراسة علينا فى المعتقل مشددة. إذ تحيطه الرشاشات والأسلاك الشائكة. وفى ذلك اليوم، وبالرغم من أوامر قومندان المعسكر، وهو فرنسى، نظمنا مظاهرة ـ داخل أسوار المعتقل ـ على شرف رفاقنا من قدامى المتطوعين فى الفرقة الدولية الإسپانية (ضد فرانكو). وأثار عصياننا حفيظة قائد المعسكر. فاشتعل غضبا. وأنذرنا بأنه سيأمر بإطلاق النار علينا مالم نعد إلى خيامنا فورا. وأنذرنا ثلاثا. ولكننا مضينا فى عصياننا. فأصدر القومندان أمره إلى الجنود حاملى الرشاشات بإطلاق النيران. وكانوا جنودا من جنوبى الجزائر. ورفض الجنود أن يضغطوا على الزناد! وهددهم القومندان الغاضب بكرباجه. ولكنهم أصروا على رفض أوامره!!».

ويقول جارودى عن تلك اللحظة التى لم يتوقعها: «وما أجدنى حيا إلى الآن إلا بفضل هؤلاء المحاربين المسلمين». «فقد أوضح لنا أحدهم سبب رفضهم إطاعة أوامر القومندان. بقوله: ليس من شرف المحارب أن يطلق الرجل المسلح ناره على أعزل».

وأحسب أن تجربة تعرض جارودى للموت وهو فى الثامنة والعشرين هزت أعماقه هزا. وهى تكاد تشبه تجربة الروائى الروسى فيودور دوستويفيسكى عندما صدر عليه حكم بالإعدام. وقبل التنفيذ بدقائق، وصل قرار بالعفو من القيصر.

وقد تكشف رؤية الموت المحقق للإنسان أسرار الحياة فى لحظة.

فلقد روى روچيه جارودى هذه التجربة العنيفة التى هزته، فى مقدمة كتابه «حوار الحضارات» قائلا:

«وبدءًا من هذه التجربة، أخذت منذ إطلاق سراحى فى الجزائر، ثم فى تونس أدرس الإسلام. ثم نشرت عام ١٩٤٥ فى الجزائر رسالة أولى، كان عنوانها: «إسهام الحضارة العربية التاريخى فى الحضارة العالمية» ـ مطبوعات ليبرتيه.

وقد أعقبت تجربة التعرض للموت ثم النجاة: تجربة أخرى أو حادث آخر كان له أيضا مغزى عند جارودى. حين انتقل من الجزائر إلى تونس. وهناك قدمه عميد الزيتونة فضل بن عاشور لجمهور غفير، وكان يترجم محاضرته من الفرنسية إلى العربية. وانتهت محاضرته عن الحضارة العربية بطرده وإبعاده عن تونس، بأمر «هاست» المقيم العام الفرنسى الذى اتهمه بالدعاية المعادية لفرنسا!

وكان جارودى قد استند فى محاضرته عن «فضل الحضارة العربية» إلى حوار وضعه الروائى الفرنسى أناتول فرانس فى كتابه «الحياة المزهرة». ويقول أناتول فرانس فى حوار خيالى فى ذلك الكتاب:

«سأل السيد دوبوا» مدام فورپير عن أشأم يوم فى تاريخ فرنسا. وكانت لا تعرف. فقال لها دوبوا: إنه يوم معركة «پواتييه» فقد تراجع العلم والفن والحضارة العربية عام ٧٣٢، أمام الهمجية الفرنجية.

وعقب تلك المحاضرة، أصدر المقيم العام الفرنسى قرار الإبعاد. فقد كان ممنوعا فى عهد الحماية الفرنسية على تونس ذكر الحضارة العربية أو دورها فى تاريخ الحضارات الإنسانية.

ولقد ظلت مفاجأة المعتقل فى الجزائر، وحادث الإبعاد عن تونس، وقصة معركة پواتييه، لاتبارح روچيه جارودى.

فكيف له ــ كما يقول بعد ذلك فى عدة كتب ــ وقد نال أعلى الدرجات الجامعية وهى الأجرجاسيون فى الفلسفة، ولم يحدثه أحد عن حضارة «أخرى» استمرت فى التاريخ، وكان لها فضل نقل الفكر الإغريقى إلى أوروپا عن طريق إسپانيا وصقلية!

ولماذا تُدرَّس الفلسفة فى كبرى وأعرق الجامعات الأوروپية بينما الغرب يتركز على ذاته، ويفترض ثم يفرض أن ما خلا الحضارة الأوروپية لا شىء، والحضارة الأوروپية كل شىء. بل هى حضارة الإنسانية كلها؟!

ولسوف نشهد مرارا عند جارودى بعد ذلك فى عديد من كتبه، ذلك الوقوف والمقارنة بين معركة پواتييه فى غرب أوروپا ومعركة ماراتون بين الإغريق والفرس قبل الميلاد، مع الفارق الكبير فى المكان والزمان.



وقد نشر روچيه جارودى حتى الآن تسعة كتب عن «حوار الحضارات» لإيمانه بأن الحضارات الأخرى غير الأوروپية، فيها من الكنوز الفكرية والقيم الدينية والاكتشافات العلمية والآثار الفنية، ما يحتاج إلى الدرس والفهم والحوار. وليس الدرس متحفيا من أجل المتاحف، أو من فضول الاستشراق والبحث عن الغرائب والطرائف، أو لمجرد الولع ببحث تاريخى موسوعى يستقصى الأسرار والدقائق كما تفعل الموسوعات. ولكنه بحث غايته ــ كما يجب أن تكون غاية البحث ــ أن يكتشف الإنسان فى كل حضارة إنسانية عبر التاريخ إنسانية الحضارة. أى البحث عن «الروح» و«الغايات».

وبين كتبه التسعة التى تعرض فيها للثقافات والحضارات، كانت الباكورة عن الحضارة العربية الإسلامية عام ١٩٤٦، ثم كتابه عن «الصين» عام ١٩٦٧، ثم «حوار الحضارات» عام ١٩٧٧، و«لكى يصبح الإنسان إنسانا» و«وعود الإسلام» عام ١٩٧٨، ثم «الإسلام يقطن فى مستقبلنا» عام ١٩٧٩، و«فلسطين والرسالات المقدسة» عام ١٩٨٦، ثم «المسجد مرآة الإسلام» ١٩٨٧.

وجارودى يتحدث عما أسماه «الفرص الضائعة» أمام الغرب. «فلقد افترى الاستعمار الإنجليزى والإسپانى والفرنسى، فيما قام به فى أرض الإسلام خلال أكثر من قرن، افتراء منهجيا لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية».

ويقول فى «حوار الحضارات ص ٩٧:

إن ما يطلقون عليه اسم «غزو إسپانيا» لم يكن غزوا عسكريا. فلقد كان عدد سكان إسپانيا فى ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة. ولم يزد عدد الفرسان العرب فى الأرض الإسپانية على سبعين ألفا. وإنما لعب التفوق الحضارى دورا حاسما.

وعندما رحل الراهب الفرنسى جربير للدراسة فى جامعة قرطبة، عاد منها وقد بلغ من العلم مبلغا.

«إننا ندين للعلم العربى بكليات الطب الفرنسية الأساسية، وقد كانت مونبلييه فى طليعتها. وظلت كتب الطب العربية مثل كتب «الرازى» الشهيرة تنشر وتدرس حتى القرن السادس عشر فى فرنسا، وحتى منتصف القرن التاسع عشر فى إنجلترا.

وقد عرفوا الجبر بأكثر مما نعترف لهم به. والشاعر عمر الخيام الذى عاش حوالى سنة ١١٠٠، توصل إلى حل معادلات الدرجة الثالثة، باستخدام نفس الطريقة التى سيستخدمها «ديكارت» بعد خمسة قرون. وبذلك وضع أسس الهندسة التحليلية. وظل كتاب الجبر الكبير الذى ألفه عمر الخيام وترجم إلى الفرنسية مرجعا معتمدا حتى عام ١٨٥٧».



وجارودى يتوقف فى كتبه مرات عديدة عند دور ابن خلدون والرازى وابن سينا وابن الهيثم وابن النفيس وأحمد بن ماجد والإدريسى وغيرهم. ويقول: فى «حوار الحضارات»:

«بينما كان الغرب لا يعرف فى علم التاريخ غير التأريخ، وتسجيل الأحداث، جمع ابن خلدون بين الملاحظة الشخصية لرجل السياسة والتأمل النظرى، فتحدث عن تأثير المناخ والجغرافيا والظواهر الاقتصادية فى حياة الشعوب. وتميز ابن خلدون بالمنهج السببى فى التاريخ، وسبق مونتسكيو وميكيافيللى، ثم تميز بروحه التى تبحث وراء الظواهر عن الأسباب».

ويقول فى «وعود الإسلام»:

بلغ الطب الإسلامى ذروته منذ القرن الثامن، بينما كانت الكنيسة المسيحية قد جمّدت منظور الطب. ففى مجمع لطران عام ١٢١٥ قرر البابا أونيست الثالث «أن يحرّم على كل طبيب علاج أى مريض مالم يعترف أولا، لأن المرض فى الأصل هو نتيجة ارتكاب الخطيئة».

ولذلك لم تكن كلية الطب فى جامعة

باريس تملك أى مؤلف فى الطب يلخص علومه من العصور القديمة حتى عام ٩٢٥ مثل كتاب الرازى (٨٦٥-٩٢٥)، الذى ظل العمل العلمى المعتمد خلال عشرة قرون، وطبعت منه أربعون طبعة ما بين عامى ١٤٩٨ و١٨٦٦. وظل ذلك مرجعًا نحو ألف عام حتى كلود برنار. وقد ترجم فاراجو كتاب الرازى إلى اللاتينية عام ١٢٧٩».

ويقول: فى «حوار الحضارات»:

«وعندما كانت أوروبا غير قادرة فى مستهل القرن التاسع على معرفة القراءة، افتتح الخليفة المأمون فى بغداد بمساعدة جيش من الكتاب والمترجمين مكتبة ضخمة هى «دار الحكمة»، وكان يحفظ فيها جميع آثار الحضارات القديمة. وكان للحاكم - أحد الخلفاء الأمويين - مكتبة فى قرطبة تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد، بينما لم تضم مكتبة شارل الخامس ملك فرنسا الملقب بالحكيم - والحكيم يعنى العالم - إلا ألف كتاب بعد أربعة قرون.

بيد أن العرب لم يقتصروا على إحياء الثقافة القديمة، وإنما أسهموا إسهام إبداع ضخم فى الثقافة العالمية.

ومن شأن اكتشافاتهم الكبرى أنها ترتبط بطبيعة نظامهم الاقتصادى ذاته. فقد سعوا وهم يقيمون إمبراطورية تجارية إلى تنمية التقنيات والعلوم التى قفزت قفزة كبرى إلى الأمام بتأثيرهم. وحملهم جوب البحار واجتياز الصحارى على أن يجيدوا معرفة الجغرافيا الفلكية. وقد بنوا المراصد الأولى فى العالم، فى سمرقند، ودمشق، وبغداد، والقاهرة وقرطبة.. وفى القرن الثانى عشر، تنطلق خرائط الإدريسى من أن الأرض كروية.

.. ولقد أذهلت ريادة ماركو بولو الغرب. والثابت أن مؤلفا عربيا تحدث سنة ٨٣١، أى قبل ماركو بولو بـ ٤٢٥ سنة عن رحلة إلى الصين وصل خلالها إلى سدود كانتون، بل بلغ فيها بلا ريب إلى كوريا واليابان.

وقد وضع مسلم - أحمد بن ماجد - كتابا عن الملاحة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين».



ويتحدث جارودى أيضا عن ابن سينا المولود فى بخارى عام ٩٨٠، وكتابه فى الطب الذى ترجمه جيرار دى كريمون إلى اللاتينية. وقد ظل ذلك الكتاب حتى عصر النهضة هو موسوعة الطب «لصفاء فكره فى تصنيف الأمراض والدراسة المنهجية».

وكذلك الفلكى المهندس عالم البصريات، ابن الهيثم، المولود فى البصرة عام ٩٦٥، والمتوفى فى مصر عام ١٠٣٩، فلم يتردد روجر بيكون الذى تعلم فى الجامعات الإسلامية فى إسبانيا فى نقل الجزء الخامس من مؤلفه على أنه «ريادة فى المنهج التجريبى والعلم الحديث».

ويقول جارودى فى كتابه «الإسلام يقطن فى مستقبلنا» (الطبعة المزودة بالصور) ص ٨٧:

«هذه أول أسطورة للمركزية الأوروبية، ولابد من تبديدها. فلقد أثرت الحضارة العربية الإسلامية خلال ألف عام فى الماضى، وأعدت للمستقبل. وكان ذلك عبر إسبانيا وصقلية».

وتأثير الحضارة العربية الإسلامية تحقق بترجمات اللاتينية للأعمال الإبداعية الإسلامية الأصيلة فى طليطلة، وقام بترجمتها المطران ريمون (١١٢٦-١١٥١) بدعوة من الفونس السادس، كما قام بها ملك صقلية الذى ترجم فى عهده كتاب الحيوان لابن سينا، وتعليقات ابن رشد على أرسطو ليصل بها إلى جامعات الغرب.

كانت هذه الأعمال القادمة من إسبانيا وصقلية تحولا، ولذلك يرفض أن يعتبر أوروبا مركز كل التاريخ، قائلا إن التطور الإنسانى كلٌ، ويرفض أن يعتبر الفترة من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر كانت مجرد «ثقب أسود» بل كانت ذروة، لأن النهضة الأوروبية لم ترث مباشرة تعليم الحضارة الإغريقية، والمسيحية ليست امتدادا للعبقرية الهلينية، ولم يكن سان توماس خليفة أرسطو، وجاليليو لم يطور العلوم فى القرن ١٧ التى توقفت بعد موت أرشميدس فى القرن الثالث قبل الميلاد.

وأتذكر الآن عام ١٩٦٦ حين زار القاهرة أندريه كاريل رئيس تحرير «الأومانيتيه» جريدة الحزب الشيوعى الفرنسى، العدد الأسبوعى، مع أتيين فاجو رئيس تحرير العدد اليومى، وكان اللقاء فى دار الهلال فى مكتب أحمد بهاء الدين، حين قلت لكاريل:

- إن القراء فى مصر والبلاد العربية يتابعون بشغف مايكتبه روجيه جارودى.

وقد لمحت أن السعادة لم تبد على وجه أندريه كاريل، فقلت مستأنفا: إن روجيه جارودى من الذين كتبوا عن فضل الحضارة العربية، وهو الذى كشف لى ابن خلدون فى عام ١٩٥٠.

ولكن كاريل لم يتكلم ورمقنى بنظرة انتظار، فقلت: إن ابن خلدون له قيمة عظيمة عندنا، ولنا. وأذكر أن دكتوراه مفكرنا الكبير الدكتور طه حسين كانت فى باريس عن ابن خلدون. وأذكر أيضا أن جورج دانى عميد كلية الآداب بجامعة السوربون عام ١٩٥٠ كانت رسالته عن ابن خلدون أيضا.

فقال فاجو:

- وما كتاب جارودى هذا؟

قلت:

- لقد طبعته «دار النشر الاجتماعية» عام ١٩٦٤، وهى دار نشركم فى باريس.

فقال أندريه كاريل:

إن جارودى مفكر كبير بلا شك. ولكن زملاءه يعيبون عليه فى اللجنة المركزية هذه الاهتمامات التى تأخذ عليه كل قلبه وعقله ووقته.

وبقيت صامتا.. أنظر.

فقال أندريه كاريل:

إن زملاءه.. (وضغط كاريل على كلمة زملائه).. إن زملاءه يعيبون عليه أنه أصبح هذه الأيام يهتم بتطورات الكنيسة اهتماما لا يفهمون له سببا.

ولقد دخل جارودى على أعضاء اللجنة المركزية ذات يوم، وهو يلهث، ويتصبب عرقا من الفرح.

وقال لهم:

- عندى نبأ خطير سوف يهز عالم الفكر وحياة المفكرين!

فالتفت إليه زملاؤه الأعضاء وتربصت به الأنظار انتظارا أو استنكارا.

وقال جارودى:

- لقد أعلن الفاتيكان اليوم قرار العفو عن العالم جاليليو.

(وهو الذى أصدرت الكنيسة حرمانه عام ١٦٣٣ بسبب اكتشافاته العلمية لتأييده فكرة كوبرنيكوس حول دوران الأرض).

وحدجه الحاضرون بالنظرات. وقال أحد الأعضاء فى رنة ساخرة ما معناه:

« ما هو بدرى»!

وحين حكى أندريه كاريل هذه القصة ضحك أيضا، وضحك معه أتيين فاجو رئيس التحرير العجوز.

ولكننى لم أشارك فى الضحك، لأننى كنت أترجم فى مجلة الهلال - عام ١٩٦٦ - فصلين من كتاب «واقعية بلا ضفاف» عن بيكاسو وفرانز كافكا، وهو الكتاب الذى وصفه الشاعر أراجون فى مقدمته بأنه حدث ثقافى خطير، لأنه ينتقد الواقعية الاشتراكية من منظور المفكر الستالينى زوانوف.

ونحن أمام كاتب موسوعى وأستاذ فلسفة وقارئ محترف، لأنه قرأ كل أعمال ماركس كما يقول فى عامين ولخصها على كروت. وعاش عاما فى الاتحاد السوفيتى مراسلا للأومانيتيه، وتجول فى آسيا الوسطى وأرمينيا وأوكرانيا ودول البلطيق.

وحصل على الدكتوراه من باريس فى ٢٥ من يونيو عام ١٩٥٣ عن «النظرية المادية فى المعرفة». وكان أول فرنسى يحصل - (٥ يوليو ١٩٥٤) - من معهد الفلسفة فى أكاديمية العلوم على درجة الدكتوراه عن «الحرية».

وطاف حول العالم عدة مرات. لأنه تجول عام ١٩٤٩ فى ١٤ دولة فى أمريكا اللاتينية، من المكسيك إلى بيرو، ومن البرازيل إلى كوبا. وكان بصحبة الشاعر بول إيلوار، وصادق الشاعر بابلو نيرودا، والرسام دييجو دى ريفيرا.

وهو كاتب موسوعى المزاج. ففى عام ١٩٤٦، وهو نائب عن مدينة تارن بالقرب من مارسيليا، مسقط رأسه، كان ينظم إضراب عمال الزجاج، ولكنه يضع مشروع موسوعة للنهضة الفرنسية بمناسبة مرور مائتى عام على موسوعة ديدروه، ويدعو للمشاركة فيها أراجون وإيلوار وبيكاسو وجوليو كورى ولوى جوفيه وكوربوازييه وهنرى ماتيس.

وقد أمضى عامين - وهو فى بداية انتخابه نائبا - يجوب دائرته الانتخابية على دراجته البخارية، ينتقل بين عمال المناجم والفلاحين، وليصبح مدرسا للفلسفة، ونائبا - فى نفس الموقع - فى التدريس والبرلمان الذى احتله چان جوريس قبل حرب عام ١٩١٤. وكثيرا ما كان يتذكر هذا الشعار الذى كتبه جوريس الذى اهتم أيضا بالتاريخ القديم والحديث قائلا:

علينا أن نبحث فى الماضى عن الجذوة المتقدة، وألا نكتفى من الماضى بالرماد.

وهكذا ظل جارودى خصما عنيفا للاستعلاء وإنكار الآخر، وظل من عشاق الحوار، والتواضع النبيل للتعلم من تجارب الآخرين.

ولقد ترك دراجته البخارية التى كان يركبها فى شبابه ليدور حول العالم عدة مرات.

ويقول جارودى فى «حوار الحضارات»:

- «إن تجربتى بالحياة هى التى قادتنى إلى هذا اليقين، وأوجبت علىّ الإدلاء بشهادتى.

إنها شهادة على تجربة كونية تشمل الكرة الأرضية بأسرها. شهادة غبطة بالثراء الإنسانى الذى حملته إلىّ ثقافات لا غربية، وأناس من آسيا، ومن الأصقاع الإسلامية، ومن إفريقيا، ومن أمريكا اللاتينية.

إنها شهادة تتناول ما بحثت عنه، وما أعتقد أننى اكتشفته فى كل ثقافة من هذه الثقافات. لدى كل إنسان من هؤلاء الناس. شهادة بالطابع الإلهى.

لقد حلقت فوق ذرى العالم كلها. من كليمنجارو إلى همالايا. ومن سلاسل كورديلير فى الأند إلى براكين جاوة وجبال فوجياما المقدسة أو إلى جبل إكونج فى بالى.

واغتسلت فى مياه بحور العالم كلها. من المياه الثقيلة فى البحر الميت، إلى البحيرات الساحلية فى بحار الجنوب. ومن الكاريبى إلى المحيط الهندى. وفى النيل وبحيرة بيكال، وفى الأمازون، وفى يامونا المتدفق نحو الجانج وباتجاه بناريس.

وقد اجتزت الأبواب جميعا. من باب الهند فى بومباى إلى باب الشرق فى ميسورى.

واستطعت الوقوف للتأمل فى جميع المرتفعات التى ترك الإنسان فيها طابع آثاره. من «أبادانا» برسيبوليس التى شيدها دارا وكسرى، وأحرقها الإسكندر، إلى مدن مايا ومعابدها، إلى بالنك أو إلى حشائش إيتزا الطافية فى خضم الغابات المكسيكية، وإلى جواتيمالا، ومن أطلال نينوى وبابل وكتزيفون إلى أبواب بغداد، وأهرام الجيزة فى مصر، وأهرام توتينو كان فى المكسيك، وزيكارت «أور» حيث ولدت الحضارة الأولى، إلى مصب دجلة والفرات، ومرصد أولنج بك حفيد تيمور لنك، إلى سمرقند فى آسيا الوسطى، ومعابد نارا فى اليابان، وشبنا فى جزيرة الفانتا بالقرب من بومباى، وقباب المساجد التى تحاكى عقد اللؤلؤ - من الأطلسى إلى الهند - ما صغر منها كأنه اللآلئ فى تلمسان، وما عظم منها كما فى السليمانية، أو الجامع الأزرق فى إسطنبول، والمسجد الجامع فى أصفهان، وهو يلخص الفن الإسلامى الفارسى. إلى تلك المساجد التى يثابر المسلمون على تأمل عقيدتهم فى رحابها مثل «الزيتونة» فى تونس، و«الأزهر» فى القاهرة، أو تلك التى كانت نداء حب مثل «تاج محل» فى الهند، أو التى بناها تيمور لنك فى سمرقند لـ «بيبى خانون»، المرأة الصينية التى حظيت بإعجابه.

وقد استطعت مناقشة دلالة «قناع» إفريقى مع الشيوخ التسعة لقبائل «جورو» فى ساحل العاج، أحد المعاقل الزنجية، كما ناقشت عظمة الثقافة الهندو - أمريكية مع أحد رؤساء «إيركوا».. وناقشت «الزكاة» مع علماء الأزهر فى القاهرة.

إن التحليق فوق الذرى، والاستحمام فى مياه البحار والأنهار، واجتياز الأبواب كلها، والتأمل فى كل القمم التى أبدعها الإنسان، كل ذلك إنما يرمز أيضا إلى ما رفدنا به، عندما نحسن الإصغاء بتواضع، لأولئك البشر الذين يحيون اليوم. وما ينبئونا به عن أشواقهم الإنسانية، والمشروعات التى يحلمون بها عن المستقبل».



وبعد..

لقد بلغ روجيه جارودى الخامسة والثمانين. وها هو كتابه السابع والخمسون.

وفى كتابه الجديد يتهم الصهيونية وأساطيرها وعدوانها، ويتهم أمريكا لأنها «طليعة الانحطاط». ويبين فى اتهامه الحيثيات والأسباب، لنظام عالمى جديد يوشك أن يكون عالما جديدا بلا نظام. وهو كتاب شاهد على العصر، بل شاهد على القرن العشرين، ينظر مؤلفه إلى الماضى ليكتشف الجذوة، ولا يكتفى من الماضى بالرماد. وينظر إلى المستقبل فى أمل دائما. ولهذا اختار جارودى عنوانًا إضافيا لكتابه الجديد: أمريكا طليعة الانحطاط. وهذا العنوان:

- كيف نعُد للقرن الواحد والعشرين.

وهو ما يعالجه فى الفصل الأخير. ■

* دراسة جديدة كتبها كامل الزهيرى عن جارودى بمناسبة صدور كتاب «أمريكا طليعة الانحطاط. كيف نعدو للقرن الواحد والعشرين» التى صدرت طبعته الفرنسية أواخر عام ٩٨، وستصدر طبعته العربية مايو ١٩٩٩..



أفـــراح الأنجــال .. صــورة للـتـرف

شهد التاريخ المصرى القريب من مظاهر العظمة والفخفخة فى إقامة الحفلات فى الأعياد والأفراح والمواسم، صورًا قلّما عرفت فى الشرق العربى فى عهود سارت بذكرها الركبان، وكانت أكثر تجلياتها وضوحا فى عهد الخديو إسماعيل، الذى شهدت سنوات حكمه عددا من الاحتفالات الأسطورية ليس فقط فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس، ولكن فى كثير من المناسبات الأخرى التى عكست أبهة الملك: فى الأعياد الدينية والقومية، وفى حفلات الزواج والعرس التى أقيمت لأبناء الخديو وبناته.

وفى كتاب قديم طبع بدار الكتب المصرية عام ١٩٢٣ لواضعه إلياس أيوبى، وصف مفصل غير مسبوق للحفلات التى شهدتها مصر فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ـ١٨٧٩). استند كاتبه فيه إلى مصادر عديدة أجنبية وعربية وشهود عيان، ولكنها تقدم سجلا وافيا دقيقا لصورة هذا العصر والحياة الاجتماعية التى شغلت طبقة الحكام والأعيان والشيوخ وكبار الموظفين فيه.. وهذه مشاهد من الكتاب

«**المحــــــرر**»

فى عهد إسماعيل



رأت مصر على ممرّ القرون من مظاهر العظمة ومجاليها، وأبهة الملك وجلاله، وفخفخة الرسميات وجمالها، ما لا تحسد معه قطرًا فى الوجود على ما أحرزه من ذلك؛ ولكنه لم تتوال تحت قبة سمائها الصافية، وعلى ضفاف نيلها السعيد، سلسلة أعوام أخذت

مصر فى عهد الخديو إسماعيل من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

إلياس أيوبى

القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٢.

نصيبها الأوفر من الجلال والمهابة، والبهجة والأبهة، والجمال والفخامة، واللذات، مثل أعوام ملك (إسماعيل) الستة عشر. فقد كانت حلما فى مخيلة التاريخ لم يتحقق إلا مرّة واحدة فى دائرة عصوره! لا تكلمنى عن جلال حفلات الفراعنة الأقدمين: ولا عن أبهة الاحتفال البطليموسى المهيب بالمجىء برفات الإسكندر الأكبر من بابل إلى مقرّه الأبدى فى الإسكندرية: لا تذكر لى «الحياة التى لا يقتدى بها» التى قضاها أنطونيوس وكليوباترا، ما بين كانوب وفارو، قبل أن يميد البحر والأرض بهما: لا تحدثنى بأيام أحمد بن طولون وخمارويه وموكبهما السنى، وابتهاجات قران قطر الندى بالخليفة العباسى، المالك على ضفاف الدجلة فى بغداد: لا تخبرنى بزهو الأعياد والرسميات فى أيام الفاطميين التى لن تنسى، وبجلال جلوس أولئك الخلفاء البذاخين، وفخامة مواكبهم فى الأعياد والمواسم: لا تطنطن لى بفخفخة رجوع البندقدارى وقلاوون وفرج والناصر وبرقوق والمؤيد وبرسباى وقايتباى إلى عاصمتهم المصرية، عقب انتصاراتهم فى الشرق، وشقهم شوارعها بالقبة والطير: ولا تذكر لى دخول بونابرت القاهرة على رأس جيشه الفائز من تحت قبة باب الفتوح، بين عزف الموسيقات، ودق الطبول، فإن هذا جميعه على ما فيه من سنا وسطوع، وأخذ بمجامع القلوب، ينكسف تماما أمام الأشعة المنبعثة إلى صفحات الأساطير عن أبهة الأيام وجلالها وأعيادها فى عهد «إسماعيل».

وأنا بعد ما تقدّم لنا ذكره عن الأعياد التى أقيمت احتفالا بقدوم السلطان عبد العزيز، واللورد باچيت أمير الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض، والإمبراطورة أوچونى

إمبراطورة الفرنساويين، والإمبراطور فرنتز يوسف إمبراطور النمسا والمجر، والبرنس فردريك ولي عهد الدولة البروسية، وزمرة العواهل والأمراء الذين حضروا حفلات فتح «ترعة السويس»: وقد أنفق فيها وحدها ما أنفقته أسرة برمتها من الأسر السابقة في أعياد مئات من السنين بعد ما سبق لنا وصفه من مظاهر الضيافة التي بذلت في تلك الأعياد للألوف من الوافدين، تباعا، أياما بل أسابيع متوالية، وامتازت بأطعمتها اللذيذة ومشروباتها الفاخرة ونزهها النيلية الجميلة، والضيافة التي كانت تبذل بسخاء لا يعرف حدا، وتفنن لا يعبر عنه وصف لكل عالم وأديب، ورجل سياسة أو مال، كان يقدم زائرا على العاهل المصري البهي المكارم: بعد ما شرحناه من إقامة الأعياد والمراقص الشتائية، الآخذة بهجتها بمجامع الألباب، في كل سنة من سني ذلك العهد العديم المثيل: وما بيناه من استقدام المليك الحاتمي الكف طوائف الممثلين والممثلات، وعلى رأسها نوابغ الفن وملوكه وملكاته، منذ أنشئت المسارح الفخمة للتمثيل في عاصمتي بلاده: بعد ما ذكرناه من إقامة حفلات السباق في مصر والإسكندرية على نظام لم تعهده القرون السالفة مطلقا، وأزرى بحفلات لعب القبق، في أيام السلاطين المماليك: وما ذكرناه عن مظهر إسماعيل الخلاب في معرض باريس سنة ١٨٦٧، وفي زياراته المتعددة للعواصم الأوروبية لاسيما في سنة ١٨٦٩: وفي الحفلات التي أقامها في قصره بميركون على البوسفور للسلطان عبد العزيز وكبراء دولة بني عثمان، لا نرانا في احتياج إلى التوسع في هذا الباب، ولكنا لإيفاء الموضوع حقه، نقول إن أبهة الملك وجلاله تمثلا في أيام إسماعيل علاوة على ما ذكرناه من مظاهرهما:

(أولا) في الأعياد والرسميات. (ثانيا) في الأفراح والأعراس. (ثالثا) في القصور والسرايات وما اشتملت عليه.



أما الأعياد - وهي الإسلامية الكبرى، والقومية العامة، كعيد وفاء النيل، وتذكار يوم الجلوس السنوي. فإنك كنت ترى فيها العاصمة قائمة قاعدة: تجتاز شوارعها المواكب الفخمة والعربات الفاخرة، والرايات والأشاير، والطبول والزمور وجماعات أصحاب الرتب والنياشين بملابسهم الذهبية الساطعة ونياشينهم المتلألئة، وأوسمتهم الفاخرة، يغدون على سراي عابدين زرافات، ووحدانا: وكنت تسمع الموسيقات تصدح بأنغامها الشجية في كل حي من الأحياء، وتدوي المدافع دويا متعاقبا، وتجري الاستعراضات الجميلة: إما في ساحة عابدين الفسيحة، وإما بالعباسية مكان المولد النبوي الممتاز من بين تلك الأعياد بإحياء الليالي السابقة لحلوله، إحياء بديعا: فتنتشر في الفضاء الواسع السرادقات الفخمة المزدانة بأفخر الرياش، لاسيما سرادق الخديو وسرادقات رجال حكومته: وتتلى الصلوات وتقام الأذكار في الخيام والصواوين، وتعم الفيوضات الخديوية المعوزين والفقراء. فتمد لهم الأسمطة ليلا، فيأكلون ما طاب ولذ: وتشعل السواريخ والألعاب النارية على أبدع الأشكال وأتم الأنواع.

وأما عيد الجلوس، فإنه كان يمتاز بمرور عشرة آلاف درويش، بأشايرهم وراياتهم، أمام شرفة القصر بعابدين بضجة وعجة عجيبتين، تستمران ساعتين: وباستعراض فخم يقام بالعباسية، وتؤمه جماهير العالمين من كل فج عميق.

ناهيك بما كان يقام في تلك الأعياد من الولائم، وما ينحر من النحائر، وما يوزع من الصدقات، وينعم به من النعم، ويجاد به من العطايا، فما من مستخدم في القصور مهما كان حقيرا إلا وتخرج له الهدايا الثمينة المتنوعة: للكبراء، تمنح القصور والأطيان، والجواري الحسان، والجواهر الثمينة، والجياد المطهمة. وللمتوسطين تهدى صرر النقود، أو السيوف المرصعة، والآنية الفاخرة، والرياش الوثير. وللأصاغر تعطى الجوائز من الخواتم والساعات، والملابس والحلويات. فكنت ترى الأقوام، على اختلاف مراكزهم الاجتماعية، ينتظرون حلول الأعياد بمطامع مفتوحة وأعين مرفوعة، مركزها ولي النعم وآل بيته. فتجود أيدي إسماعيل وأزواجه وبناته بما يشبع تلك المطامع ويقر تلك العيون (١).



بعد أن ماجت بجموعهم الراقصة القاعة الفسيحة، حيث كنت ترى الأنوار المختلفة الألوان المنبعثة عن حلي عقيلات المدعوين تقترن بسطوع أكتافهن ونحورهن العارية.. بينما الشيوخ المسلمون من علماء وأعيان وموظفين اللابسون قفازات بيضاء والملتحفون بوقارهم، ينظرون إلى قصفهن بأعين تستغرب أن يقبل على الرقص الكهول



وأما الرسميات، وأهمها استقبال القناصل عند تعيينهم، فإن أخص ما كان يستوقف الأنظار فيها العربات الخديوية الخاصة تجرها أجاويد الجياد، تارة ستة، وطورا ثمانية، وكلها من لون واحد، وتحف بها كوكبات الفرسان بسيوف مشهرة: فتذهب بمعتمدي الدول إلى حيث يستقبلهم العاهل المصري وهو في وسط حلقة من وزرائه وأخصائه، يأخذ سنا ملابسهم بالأبصار، وتبهر جواهر النياشين المتلألئة على صدورهم الأنظار: فبعد أن تتبادل الخطب المعتادة، وتتصافح الأيدي كان يصدر الأمر الكريم بالإنعام على الوافد بسيف من السيوف المرصعة الثمينة، وحصان من أجاويد خيل الإسطبلات الخديوية العامرة.

وأما الأفراح والأعراس، فلا أوقع في تقريبها إلى دائرة المخيلة من وصف الأعياد التي أقيمت احتفالا بزواج الأمراء الثلاثة: توفيق وحسين وحسن، أبناء إسماعيل، من الأميرات أمينة هانم بنت إلهامي باشا بن (عباس الأول)، والأميرة عين الحياة هانم بنت الأمير أحمد باشا بن (إبراهيم الأول)، والأميرة خديجة هانم بنت الأمير محمد علي الصغير بن (محمد علي) الباشا العظيم: وزواج أختهم الأميرة فاطمة هانم بالأمير طوسون بن (محمد سعيد) - تلك الأعياد، وقد أقيمت ابتداء من ١٥ يناير سنة ١٨٧٣، دامت أربعين يوما كاملة باعتبار عشرة أيام لكل فرح منها: ولايزال ذكرها إلى يومنا هذا يبهر تصور الذين رأوها وعاشوا أيامها اللامنسية.

فإن شوارع العاصمة المهمة، وعلى الأخص ما كان منها مؤديا إلى القصر العالي مقر والدة إسماعيل، وإلى سراي الجزيرة، مقر حفلات إسماعيل المفضل، وسراي القبة مقر ولي العهد، زينت بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان على مسافات بضعة آلاف من الكيلومترات: ووضع في نهايتها أقواس نصر مختلفة الأنوار، جعلوا في أعاليها طرقات رصعت بالشموع.

فسطعت ملايين الأضواء، تتلألأ في الليل كأنها نجوم سطعت فجأة فقلبت الظلام نهارا، أو جعلت المتفرجين يتصورون مدة ستة أسابيع متوالية، أنهم ينتقلون في الليل من منطقة مدار الشمال إلى منطقة أحد القطبين صيفا، حيث لا تغيب الشمس عن الآفاق أشهرا متعددة.

وأقيمت في أهم الميادين، هنا جوقات موسيقية - وأهمها التي اتخذت موقفها في الطرقة بعالي قوس النصر تجاه القصر العالي - وهناك تخوت آلاتية - وأهمها تخت عبده الحامولي، بلبل الأفراح ورب الطرب الشرقي على العموم. فأخذت تلك تصدح وتعزف: وأخذت هذه تشنف الأسماع بألحان بديعة وأصوات رخيمة تجعل سامعيها يتخيلون أنهم انتقلوا إلى جنة الخلد البهية: وأنهم يسمعون ترانيم الملائكة المختارين حول عرش الرحمن.

ونصبت في كل جانب المسارح المرتجلة، ليمثل عليها غواة الفن وجوقات كراكوز، فيحضر من شاء تمثيلها مجانا ويعود إلى منزله مرتاحا مبتهجا. ومدت الحبال في الساحات العمومية، لاسيما جهة القصر العالي، ليلعب عليها «البهلوانيون» ألعابهم المدهشة المحيرة الألباب: فشبكت بصواري عالية جدا، ملفوفة عليها أقمشة ملونة تعلوها مراء فاخرة، وتتخللها مناور ساطعة.

ورتبت السواريخ بتفنن غريب، في تلك الجهة عينها: وأخذوا يشعلون كل ليلة جانبا منها: فتدوي طلقاتها في آفاق العاصمة كلها: وتتناثر نجومها وأهلتها في جميع الأحياء ست ساعات متوالية، ناشرة فيها أنباء الأفراح القائمة، وداعية الأهالي على اختلاف طبقاتهم إلى الاشتراك فيها.



ففي اليوم الخامس عشر من شهر يناير، على ما نظن، بدأ خروج الهدايا المهداة من سمو الأميرة والدة إسماعيل وزوجاته الفخيمات إلى العرائس من القصر العالي، وشوارهن. وكان شوار الأميرة أمينة هانم زوجة ولي العهد أول ما خرج من ذلك النوع، فسير به إلى قصر القبة، تخفره صفوف الفرسان، بزي عربي بديع، وآلاي بيادة بأسره، بملابس بيضاء ناصعة كالثلج، تتقدمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين. وكانت الهدايا موضوعة في أسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب، على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش فاخر، يمسك بأطرافه أربعة عساكر في كل عربة، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية، والسيوف مشهرة في أيديهم.

وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية، وقلائد ماس ساطعة، من النوع المعروف عامة باسم «البرلنتي»: ومناطق من الذهب الخالص، وأقمشة مطرزة باللؤلؤ العديم المثيل، وزمرد في حجم البيض، وملابس بيضاء مطرز عليها رقم الأميرة باللآلئ والحجارة الكريمة، وآنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكمية عظيمة. وثمن ذلك جميعه يفوق الحصر والعد. وكان بين الهدايا المقدمة من إسماعيل لأكبر أبنائه سرير من الفضة الصب الخالصة: شبيه بالذي أهداه إلى الإمبراطورة أوجوني أثناء إقامتها بمصر، محلى بماء الذهب الإبريز، وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز. فاجتاز الموكب المهيب شوارع العاصمة، بين سياج حي من العساكر الشاكي السلاح، وتقدم يتهادى في سيره، مختالا كأنه طرب بذاته، شاعر بقيمته.

ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم، والهدايا المهداة إليهن، عن شوار أمينة هانم. وما أهدي إليها مما تقدم وصفه.

وفي اليوم السادس عشر، أحيي في العباسية السباق الأوحد الذي سبق لنا الكلام عنه في غير هذا المكان، وكان معظم (جوكيه) من السود اللابسين لباسا من الحرير الأحمر، ومد فيه، على نفقة الخديو الخاصة، مقصف للمدعوين فاقت أصناف مأكولاته ومشروباته، في التنوع واللذة، كل ما ظهر من نوعها على المقاصف الخديوية إلى ذلك الحين.



وفي اليوم السابع عشر، أقيم مرقص فخم في سراي الجزيرة، دعي إليه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف ذات من الأجانب وأعيان البلاد ووجوهها. فنورت الطريق كلها من عابدين إلى منفذ كوبري قصر النيل في الجزيرة بفوانيس من الورق الزاهر الألوان، ونشر عدد عديد من هذه الفوانيس عينها في جميع طرقات البستان الجميل المحيط بتلك السراي البديعة، وبين أغصان أشجاره، وعلى الأخص في البهو الواسع الممتد طول دورها الأرضي. فكان منظر تلك الأنوار لاسيما بسبب تنسيقها وترتيبها من ألطف ما تقر له العيون وتنشرح الصدور.

وامتاز ذلك المرقص بأنهم هيأوا فيه وليمة عظيمة للمدعوين بدلا من المقاصف العادية، فبعد أن ماجت بجموعهم الراقصة، القاعة الفسيحة، حيث كنت ترى الأنوار المختلفة الألوان المنبعثة عن حلي عقيلات المدعوين تقترن بسطوع أكتافهن ونحورهن العارية، ويمتزج وقار الإسطمبوليات والملابس السوداء بأبهة ملابس كبار الموظفين الرسمية، الساطعة الأوسمة المتحلية بها صدورهم على قصبها وذهبها الوهاجين، وبجلال ملابس الضباط العسكرية، اللامع ذهبها حول وجوه أصحابها، الملفوحة من الشمس في فيافي السودان

ومجاهله، أو فى مفاوز اليمن، أو فى وهاد جزيرة كريت وبين مضايق جبالها، بعد أن ماجت بجموعهم الراقصة القاعة الفسيحة، بينما الشيوخ المسلمون من علماء وأعيان وموظفين، اللابسون قفازات بيضاء والملتحفون بوقارهم، ينظرون إلى قصفهم بأعين تستغرب أن يقبل على الرقص الكهول، وتهزأ بهم هزءا ساكتا، بعد أن ماجت بجموعهم الراقصة القاعة الفسيحة، وقد حركت الحركة شهياتهم إلى الأكل، جلسوا حول الموائد الفاخرة الممدودة، حيث أقبل يخدمهم نيف وأربعمائة غلام (جارسون) ورئيس طهاة (ميترودوتيل).

وفى التاسع عشر منه، بدأت أعياد القصر العالى . فنصبت حول الساحة الممتدة أمامه الصواوين والسرادقات وعليها أسماء أصحابها وبيان الغرض المعدّ كل منها لأجله، وفرشت بالطنافس العجمية الفاخرة: وأقبل أرباب اليازرجة يقيمون ألعابهم اللطيفة فى وسط تلك الساحة الواسعة: ومن ضمنهم بهلوان كان يصعد على حبله بخروف ويجزره فوقه، ثم تفرّق لحومه على الفقراء. ورتب مقصفان للعموم: أحدهما على النمط الغربى، وما فتئ مزدحما بقاصديه، الراغبين على الأخص فى أنبذته العتيقة الجيدة: والآخر على النمط الشرقى، وما فتئ هادئا بالمقبلين عليه. وأقيمت صواوين خاصة للقناصل، وغيرها للتجار وأخرى للعلماء: وسرادق لمحافظ العاصمة، علاوة على الصواوين التى أقامها الأعيان على نفقتهم لأنفسهم، ليتمتعوا بمشاهدة الأعياد.

على أن الرقص والغناء لم يكونا قاصرين على الخارج، بل ما كان منهما فى داخل القصر وفى سرّ دور الحريم كان أهم وأشهى منظرا، هناك كنت تسمع (ألمظ) التى كانت إذا غنت أخذت بمجامع القلوب واستولت على الأسماع برنين صوتها الرخيم، وتوقيع أناشيدها الفتانة. هناك كنت تنظر مشاهير البهلوانية من الإنجليز يأتون من صنوف الألعاب ما يخلب العقول ويدهش الألباب: وأساتذة الكار من أهل اليازرجة والسيماء يأتون من الملاعيب ما يحير الأبالسة أنفسهم: وذلك لبهجة ساكنات تلك الدور وانشراح عيونهن وأفئدتهن.



وفى ظهر الثالث والعشرين من يناير، خرجت العروس الأميرة أمينة هانم، بصحبة سمو الوالدة باشا من سراى الحلمية، وتوجهت باحتفال عظيم إلى قصر سمو ولى العهد بالقبة، يتقدمها ويحف بها موكب مهيب مؤلف من ثلاثة آلايات من الخيالة: (الأول) آلاى ذوى الرماح، وراياتهم المرفرفة من رماحهم خضراء وحمراء، ورؤوسهم مغطاة بخوذات الدراجون: و(الثانى) آلاى ذوى الدروع، ودروعهم تسطع عليها الشمس فيتلألأ كل منها كأنه قرصها المنعكس، ويتدلى من خوذاتهم شاش جميل أصفر وأبيض يلعب الهواء به حول وجوههم السمراء الهيجائية: و(الثالث) آلاى ذوى الزرد، وسلاحهم كسلاح الغز أيام الصليبيين، وخوذاتهم الصغيرة يتدلى منها قناع على وجوههم من الأمام، وأكتافهم من الوراء، وهم فى كسوتهم الفولاذية جامدون، كأنهم قدّوا من جلمد أو من حديد، قطعة واحدة كفرسان شاهين شاه وصلاح الدين والظاهر بيبرس. وسارت وراءهم العربات، وأهمها عربات التشريفة يجرها الستة والثمانية من الخيول ذات اللون الواحد: أبيض كالنور، أو أشهب كالذهب، أو أسود كالليل: ويقودها حوذيون بملابس حمراء تخطها شرائب القصب والفضة، بجوارب حريرية تصعد لغاية ركبهم، وبجدائل شعور مستعارة مرشوشة بالبودرة على رؤوسهم، كأنهم غلمان أحد اللويسات، الرابع عشر أو الخامس عشر أو السادس عشر، ملوك فرنسا، أعيدوا إلى الوجود: ويسير بجانبها مشيا على الأقدام خدم باللباس عينه، أيديهم على عضاضات أبوابها: وعلى رؤوس الجميع، من حوذيين وخدم، برانيط واسعة من ذوات القرون! وسار وراء العربات: الأغوات، بلباس فرنجي وبنطلونات ملونة فرايحية، يمتطون صهوات خيول قلما يدركون كيف يحكمونها، وكانت العين ترى فى وسطهم شيخا جليلا وقورا مهيبا: وتسمع الأذن همسا. إنه أمين بك آخر المماليك، وصاحب الوثبة المشهورة. على أنه إنما كان رئيس إدارة بيت دولة الوالدة.



فما من مستخدم فى القصور مهما كان حقيرا إلا وتخرج له الهدايا الثمينة.. للكبراء تمنح القصور والأطيان، والجوارى الحسان، والجواهر الثمينة، والجياد المطهمة. وللمتوسطين تهدى صرر النقود أو السيوف المرصعة.. وللأصاغر تعطى الجوائز من الخواتم والساعات والملابس والحلويات

وعلى هذا النمط عينه، وبالأبهة والجلال ذاتيهما، خرجت عروسا الأميرين حسين وحسن إلى قصرى زوجيهما: وأما الأميرة فاطمة هانم فقد كانت زفتها أبهى وأجمل. وقد وصف إدون دى ليون كيفية الاحتفال بفرحها فى داخل القصر العالى عينه، كما نقلته إليه عقيلته، فقال:

اجتازت المدعوات بستانا فسيحا منارا، كأنهم أرادوا أن يبقوا فيه نور النهار بملايين المصابيح المتعددة الألوان، وسرن فوق طرقة رخامية تحف بجانبيها الأشجار والمغروسات الغريبة. فبلغن مدخل سراى الوالدة، حيث كان الأغاوات فى انتظارهن، يوصلوهن إلى قاعة واسعة ذات رياش فاخر. فوجدن هناك جوارى الحريم، ونصفهن مرتديات لباس رجال من أفخر الملابس الشرقية، وواقفات بصفة حجاب: وبعضهن لابسات لبسا بسيطا، بطرابيش حمراء على رؤوسهن، وشاهرات فى أيديهن سيوفا لامعة: وبعضهن لابسات لبسا عسكريا ساطعا، وواقفات وقفة عسكرية، بمظهر عسكرى حربى لا بأس به، كأنهن وصيفات الملكة زبيدة زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد. فأدخلن الضيفات إلى حجرة كانت «العوالم» ترقص فيها بالساجات! بينما كانت موسيقى نسائية تعزف ألحانا شجية. تلك الحجرة كانت تفتح على حجر أخرى، يتناول النظر أطرافها، وفيها جوار عديدات يرقصن رقصا غريبا بعصى وسيوف ودرقات فى أيديهن.

ثم اجتازت الضيفات عدة بلوكات أو صالات، قدّمت لهن فيها جميع أنواع الشربات، والمشروبات والحلوى المصنوعة على الطريقتين الغربية والشرقية، معروضة على موائد جمعت كل ما لذ وطاب، وترأست أميرات الأسرة المالكة المائدة الخصيصة بزوجات الخديو وقرينات القناصل، وغيرهن من قرينات كبار النزالة: فبينما هنّ يأكلن ويشربن، جعلت الموسيقى تصدح صدحا مفرحا.



ولما انتظم العقد بجميع المدعوات، دخلت الراقصات والمغنيات وأطربنهن مدة، ثم قدّمت إليهن الهدايا الفاخرة، من لدن الأميرات وأزواج الباشوات أصحاب المقامات الرفيعة فى الحكومة المصرية. فتغنين بمديح الهاديات، بعد استئذان دولة (الوالدة): والهاديات شكرنهنّ - وهى عادة «الشوبش» المعروفة بيننا حتى يومنا هذا.

بعد ذلك استجليت العروس: فأمسك كل من أغاوات السيدات المدعوّات شمعدانا فيه شموع مختلفة الألوان، واصطفوا من أول السلالم حتى القاعة العظمى، حيث كان عقد المدعوات منتظما. وفرش على الأرض منسوج من ذهب لتخطر العروس عليه. وانصرفت الراقصات ليعدن بمعيتها. وما هى إلا برهة قصيرة حتى تجلت الأميرة فاطمة هانم تستند على ذراع الأميرة أمها. فى وسط جمهور أميرات البيت الخديوى الكريم. فتقدّمت بخطوات بطيئة، وبوقفة بعد كل خطوة، كأنها تقول للناظرات: ها أنا فأعجبوا بى! واجتازت، وعيناها مطرقتان، صفى الأغوات على النسيج الحريرى، بين أغانى المغنيات: والراقصات يتقدّمنها.

فحالما وقعت أعين المدعوّات عليها نهضن. وبينما هى تتقدم كآلهة من آلهات الأزمنة الماضية نحوهن، بمعيتها وجواريها، صعدت كواعب كالبدور على كراسى وراءهن، وأخذت تنثر عليهن خيريات ذهبية، ضربت لتلك المناسبة، فتعلق برؤوسهن وملابسهن. فامتلأت القاعة على سعتها بالأميرات والسيدات والجوارى والراقصات والمغنيات: وتألقت كلها بالديباج الساطع والذهب الوهاج: وبثت فى كل مكان منها زهور البرتقال والورود؛ ونثرت فوق الملابس اللماعة البراقة.

وكانوا قد أقاموا فى صدر تلك القاعة، فوق منصة مرتفعة ثلاثة عروش مكسوة بالحرير الأبيض. فجلست دولة (الوالدة) على عرش اليمين: والأميرة أم العروس على عرش الشمال: وجلست العروس وعلى رأسها تاج من الماس ثمنه أربعون ألف جنيه، على عرش الوسط. وكان لباسها من الحرير الأبيض الفرنساوى الأغلى ثمنا، كله مرصع بأنفس أنواع اللؤلؤ والماس، وله ذيل طوله خمسة عشر مترا، رفعته الجوارى وراءها وهن راكعات. فتقدمت المدعوات وهنأنها. وبعد أن جلست معهن برهة، عادت إلى حجرها، واستمر الفرح حتى مطلع الفجر[٢].

ومما يحسن ذكره بمناسبة تزويج الأمير حسن من الأميرة خديجة أن (إسماعيل) - وقد أعجب بملامح الذكاء المرتسمة على محياها - لما أدخلها المدرسة التى أنشأها لأميرات البيت العلوى خصيصا، وعدها بتزويجها من أحد أولاده، إذا هى أظهرت اجتهادا فى تعلمها. ثم مضى على ذلك زمن. وعنّ (لإسماعيل) يوما أن يزور تلك المدرسة، ويتفقد حال الطالبات فيها. فلما وصل إلى الأميرة خديجة سألها: «إلى أين بلغت من تعلم القرآن، يابنيتى؟» فأجابت من فورها: إلى «واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد»!.

فسر الخديو بجوابها جدا، وقال: «أجل:أجل». ثم برّ لها بوعده.

ومن أفضل ما يحسن ذكره بمناسبة أفراح الأنجال أن طه باشا الشمسى ناظر الخاصة الخديوية فى ذلك الحين - وهو حمو حضرة صاحب المعالى أحمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية الآن - كلف عدة محال تجارية بتقديم مناقصات لتوريد كل ما يلزم من فرش وبياضات ودنتلات ورياش لجهاز كل من الأميرات العرائس.

فلما قدمت، وقع اختيار طه باشا على مناقصة محل پاسكال الفرنساوى - ويعرفه كل من زار مصر القاهرة حتى سنة ١٨٩٢ - لأنها، على جودة البضاعة المقدمة نماذج منها، كانت على رخص فى الأثمان يرغب فيه.

ولكن لما عرض ما وقع اختياره عليه على (إسماعيل) سأله الخديو: «ألم يتقدم فى هذه المناقصة محل مصرى وطنى مطلقا؟» فأجاب طه باشا: «نعم يا مولاى: فقد تقدم، ضمن آخرين، محل مدكور. ولكن الأثمان التى عرضها مبالغ فيها ولاتوافق، لأنها تزيد خمسة وعشرين فى المائة على الأثمان التى يطلبها محل پاسكال». فقال إسماعيل: «أرنى مناقصته والنماذج المرفقة بها». فقدمها طه باشا له. فوجد (إسماعيل) أن الأثمان المكتوبة على تلك النماذج تزيد، حقيقة، خمسة وعشرين فى المائة على مايطلبه محل پاسكال. ولكنه وجد أن نوع البضاعة واحد عند الاثنين. فضرب بمناقصة محل پاسكال عرض الحائط، وقال لطه باشا: «خذ كل ما نحن فى حاجة إليه من محل مدكور، وادفع له خمسة وعشرين فى المائة فوق ما يطلب!» فبدا فى عينى طه باشا استغراب، بالرغم من أن فمه نطق بعبارات الامتثال. فقال إسماعيل له: «يا طه باشا، إذا كانت المحال التجارية المصرية لا تنتفع ولا تستفيد من أفراح أولادى، فمن أفراح من تريد أن تستفيد وتنتفع؟».

فاغتنمها محل مدكور، وهى طائرة، وزاد على أثمان كل ما قدّمه ما أمكنته زيادته. فكان ذلك من أسباب الثروة التى أحرزها[٣]. ■

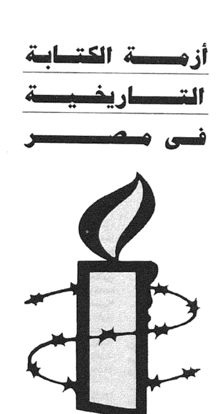
الهوامش

(١) انظر «حياة البلاط بمصر» لبتلر ص ٢٣٠.

(٢) انظر «مصر الخديوى» لادون دى ليون من ص ٢٣٢ إلى ٢٣٦.

(٣) روى لى هذه اللطيفة ثقة، حضر عصر الأفراح الخديوية.

أزمــــة الكتــابة التــاريخيــة فى مصــر



تضخم فى الإنتاج وضآلة فى المعرفة

رءوف عباس

■■ تعانى المكتبة العربية فقراً شديداً فى المؤلفات الرصينة الخاصة بمناهج البحث فى العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة، ومنهج البحث فى التاريخ خاصة. فالمتاح من المؤلفات العربية ليس سوى إعادة صياغة - لا تخلو من خلل أحياناً - لبعض الكتب الدراسية فى أصول المنهج التى نشرت باللغة الإنجليزية قبل منتصف القرن، أو ترجمات غير دقيقة (أحياناً) لبعض المؤلفات الكلاسيكية فى هذا المجال، نشر معظمها قبل الخمسينيات من هذا القرن. وتخلو المكتبة العربية تماماً - فيما نعلم - من الكتب المؤلفة أو حتى المترجمة التى تعالج تطور علم التاريخ والاتجاهات الجديدة فى الكتابة التاريخية، والمدارس المختلفة فى تفسير التاريخ، اللهم إلا بعض المقالات القليلة التى تنشر هنا وهناك، ولا تحظى إلا باهتمام نفر قليل من المعنيين بالدراسات التاريخية.

وقد أدركت بعض المجلات الثقافية العربية حقيقة الأزمة المنهجية التى تعانى منها الكتابة التاريخية فى الوطن العربى، فخصصت مجلة «الفكر العربى» التى كان يصدرها معهد الإنماء العربى ببيروت، العددين ٢٧-٢٨ (عام ١٩٧٨) لمعالجة الكتابة التاريخية والمنهج، وخصصت مجلة «فكر» التى كانت تصدر عن دار فكر للدراسات والنشر بالقاهرة، العددين ٦ (يونيو ١٩٨٥) و ١١ (يناير ١٩٨٨) لمعالجة هذه القضية بمشاركة بعض المؤرخين المتميزين، ونظمت لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة ندوة بالاشتراك مع قسم التاريخ بآداب القاهرة حول «تحديث الدراسات التاريخية» (أبريل ١٩٩٤)، كما نظم مركز سيداج CEDEJ [1] الفرنسى بالقاهرة ندوة حول «حصاد المدرسة التاريخية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة» (نوفمبر ١٩٩٥). وفى كل تلك الكتابات والندوات، كانت أزمة المنهج تحتل بؤرة الاهتمام والتوصيف والنقد والتحليل، ثم ينفض السامر دون أن يترتب على ذلك أى تغيير نوعى فى واقع الحال.



والحق أننا نواجه أزمة متفاقمة فى المنهج، تعانى منها الدراسات التاريخية فى الوطن العربى عامة، ومصر خاصة، تتجلى فى معظم ما تخرجه المطابع من كتب، وما تجيزه الجامعات من أطروحات للماجستير والدكتوراه، يكشف معظمها عن قصور شديد فى التدريب والإعداد المنهجى للباحثين، وتميل غالبيتها إلى «القص التاريخى»، ويغلب عليها أسلوب السرد الممل. ومن عجب أن تطالعنا الصحف بأخبار مناقشة أطروحات جامعية فى التاريخ قاربت الألف صفحة، أو تجاوزتها قليلاً، بشىء من الإشادة والتقدير، وكأن صاحب الأطروحة قد فتح فتحاً مبيناً فى مجال التخصص. ولا يدرك، إلا القليل من أهل الاختصاص، مغزى هذا التورم السرطانى للأطروحات الذى ينم عن فساد المنهج، أو حتى غيابه التام. وإذا بحثنا عما توصل إليه صاحب الأطروحة (أو الكتاب) من نتائج بعد هذه الدراسة المكتظة بالمعلومات، عدنا بخفى حنين، فغالباً ما يقوم الباحث بتقديم ملخص هزيل لأطروحته (أو كتابه) فى خاتمة الدراسة، لعجزه عن تحليل المادة ونقدها واستخلاص النتائج منها، لغياب الأدوات المنهجية التى كان عليه أن يتزود بها قبل أن يشرع فى إعداد بحثه.

ويرجع ذلك إلى قصور ملموس فى إعداد طلاب الدراسات العليا بالجامعات العربية، يعود إلى ضعف التدريب المنهجى، وإسقاط دراسة مدارس الفكر التاريخى، وفلسفة التاريخ من برامج الدراسة بأقسام التاريخ، إذ يقتصر تدريب الطلاب على كيفية جمع المادة، وترتيبها، وصياغتها، والتعرف على المصادر الأساسية فى سياق نظرى محض. وتكون المحصلة النهائية لأزمة المنهج تضخماً فى الإنتاج، وضآلة للتراكم المعرفى الذى يدفع عجلة البحث التاريخى قدماً إلى الأمام، ويساعد على تطوير الكتابة التاريخية.

لذلك كان كل جهد يبذل لإلقاء الضوء على القضايا المنهجية فى البحث التاريخى، بالغ القيمة، عظيم النفع، طالما كان يرشدنا إلى ما حققته الكتابة التاريخية من تقدم منهجى فى نصف القرن الأخير، ويطرح على بساط البحث أموراً يعد الحديث فيها - عند معظم المؤرخين العرب المعاصرين - أدخل فى باب المحظور منه فى باب المباح، لعل ذلك يحفزنا على مراجعة مواقفنا المنهجية المعيبة، فنحاول أن نطور الكتابة التاريخية عندنا استفادة بما تحقق فى هذا المجال على الصعيد العالمى.



من هنا تأتى أهمية كتاب اريك هوبسباوم Eric Hobsbawm الذى صدر عام ١٩٩٧ بعنوان «فى التاريخ On History» الذى نناقشه فى هذا المقال، فهو يعالج الكثير من قضايا الكتابة التاريخية والمنهج فى الغرب التى يغيب بعضها عن إدراكنا، ويسقط من اعتبارنا. ويزيد من أهمية الكتاب أن المؤلف من أبرز من عرفهم الغرب من المشتغلين بدراسة تاريخه الحديث والمعاصر، ومن أطول المؤرخين المعاصرين قامة علمية، وأكثرهم اهتماماً بأصول الكتابة التاريخية، ومناهج البحث فى التاريخ على مدى ما يزيد على نصف القرن من العطاء العلمى المتميز، الذى تناول التحولات الكبرى فى تاريخ الغرب منذ القرن الثامن عشر حتى تسعينيات القرن العشرين. وتتمثل فى اريك هوبسباوم الثقافة الغربية بمختلف مكوناتها، فقد ولد فى بريطانيا عام ١٩١٧ لأسرة يهودية من أصول بولندية (الأب) - نمساوية (الأم)، وتلقى تعليمه العام فى انجلترا، وتلقى تعليمه الجامعى فيها وفى النمسا وألمانيا، وشغل كرسى الأستاذية بجامعة لندن، وجامعة نيويورك بأمريكا. ويعد من أبرز المؤرخين الذين يرون أن «المجتمع» هو موضوع دراسة التاريخ، ومن الذين يرون أن الماضى البعيد لا يمثل حدود مجال دراسة المؤرخ - على نحو ما يرى الكثير من المؤرخين - بل يرى أن واجب المؤرخ أن يدرس الماضى القريب الذى عاصره وكان شاهد عيان له، بل له أن يستشرف المستقبل من خلال خبرته الواسعة بتاريخ المجتمع.

والكتاب الذى نعرض له، هو آخر ما نشر لهذا المؤرخ المرموق، ويضم ٢١ فصلاً، كان بعضها أوراقاً تقدم بها المؤلف لبعض المؤتمرات، وبعضها الآخر مقالات نشرها فى بعض الدوريات، هذا إلى جانب بعض نصوص المحاضرات التى دعى لإلقائها فى بعض الجامعات الأوربية والأمريكية. ويربط بين تلك المجموعة التى أنتجها هوبسباوم فى العقدين الأخيرين - معالجة موضوع واحد هو الكتابة التاريخية ومنهجيتها من مختلف جوانبها. فالكتاب على هذا النحو يضع بين أيدينا خلاصة خبرة لها وزنها وقيمتها، قد تفيدنا فى إقالة منهج البحث فى التاريخ عندنا من عثرته، وتساعدنا على التفكير فى تطوير الكتابة التاريخية.

On History

(فى التاريخ)

Eric Hobsbawm

New York: The New Press, 1997.

وبينما لا يزال طلاب التاريخ بالجامعات العربية يتعلمون من أساتذتهم أن هناك حدوداً زمنية صارمة يجب ألا يتجاوزها المؤرخ عند معالجته لموضوع ما، وتتردد أقسام التاريخ كثيراً قبل تسجيل موضوعات لأطروحات الماجستير والدكتوراه يتجاوز حدها الزمني ربع القرن، ويشيع القول بنظام لتقسيم العمل بين الباحثين في التاريخ وزملائهم في حقل العلوم السياسية، فإذا تجاوز باحث التاريخ الحد الزمني المفترض الوقوف عنده، عُد متطفلاً على مجال بحث العلوم السياسية، وهي أفكار يتعامل معها الأكاديميون العرب تعاملهم مع المسلمات البدهية، نجد هوبسباوم يستهل كتابه «في التاريخ» بموضوعين يكمل أحدهما الآخر، أحدهما بعنوان «التاريخ والمجتمع المعاصر»، والآخر بعنوان «التاريخ والمستقبل». ويذهب المؤلف فيهما إلى أن ثمة إساءة لاستخدام التاريخ في المجتمع المعاصر، تعود إلى التشويه المتصل للتاريخ في مراحل التعليم العام، حيث تستهدف برامج تدريس التاريخ تكوين المواطن المعتز بقوميته، فيتم التركيز على الأمجاد التاريخية وحدها، ولا يتم تقديم تطور المجتمع في إطار يجعل الطالب قادراً على فهم أسس بنيته المعاصرة، لذلك يندر أن يستوعب الناس دروس التاريخ التي تساعدهم على البحث عن حلول للمشكلات الراهنة. ومن ثم يتجهون إلى الأرقام الصماء التي تتعامل معها الحواسب الآلية، بينما يستطيع المؤرخ بما له من خبرة بتطور المجتمع، ورؤية لآليات ذلك التطور من منظور تاريخي، أن يتعرف على القسمات المشتركة بين الماضي والحاضر، ويميز بين أوجه الاختلاف، وبذلك يساهم في حل المشكلات الراهنة.

بل يزيد هوبسباوم على ذلك القول بأن المؤرخ يملك القدرة على التنبؤ بما قد تكون عليه الحال بالنسبة للمجتمع في المستقبل، مستفيداً في ذلك من دراسته للماضي، وإدراكه لآليات ودوافع التغيير التي لا تملك الحواسب الآلية إدراكها، لأنها لا تتناول أدلة مادية ملموسة، ولكنها تقوم على عملية عقلية تلعب قدرات المؤرخ واستعداده الشخصي الدور الأكبر فيها. وهنا يستخدم المؤرخ عند استشرافه المستقبل منهجين يتصلان ببعضهما البعض: التنبؤ بالاتجاهات العامة من خلال صياغة «النموذج»، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية أو نتائجها عن طريق تحليل الواقع الراهن واستشراف مساره المستقبلي. ويرى المؤلف أن التنبؤ بالاتجاهات الاجتماعية، أيسر من التنبؤ بالأحداث لأنه يرتكز على معطيات العلوم الاجتماعية الأخرى التي يحسن المؤرخ توظيفها.

وعلى ضوء ذلك، لم يعد بوسع المؤرخ أن يتجاهل ما يدور حوله حتى يطويه الزمن ويتقادم به العهد، بعد ما أصبح «الماضي» قريباً، نتيجة سرعة إيقاع الأحداث في القرن العشرين، حتى أصبح الأمس القريب «ماضياً» يمكن إخضاعه للدراسة التاريخية استفادة بمعطيات العلوم الاجتماعية، وعلى ضوء ما يتوافر من المصادر المتاحة. فإذا كانت الوثائق لا تزال محبوسة، فهناك فيض زاخر من المصادر التي وفرها تطور أساليب الاتصال والإعلام، كالبيانات والتقارير الرسمية المعلنة، والكتب الملونة (البيضاء - الصفراء - الزرقاء.. الخ) التي تصدرها الحكومات لتحديد مواقف الفرقاء إزاء مختلف القضايا والأزمات. وهناك خارج الأرشيفات الرسمية مصادر تتعلق بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية لا يدخل معظمها في نطاق السرية، مثل: تقارير الهيئات الدولية، وتقارير البنوك وأسواق الأوراق المالية، وما يصدر عن المنظمات والجمعيات الأهلية، والمضابط الخاصة بالمجالس النيابية، وغيرها من المصادر التي تجعل دراسة الماضي القريب ممكنة وميسورة، ولكنها تحتاج إلى باحث معد إعداداً مناسباً يؤهله للتعامل مع أدوات منهجية غير تقليدية.



ورغم أن الاهتمام بدراسة التاريخ المعاصر بدأ عند نهاية العشرينيات في الغرب، ظلت الجامعة المصرية منذ إنشائها تتمسك بالمدرسة التاريخية الألمانية، والمدرسة المثالية والمدرسة الوضعية، تمزج بينها بوعي أحياناً، وبدون وعي في أغلب الأحيان، ثم بدأ بعض المؤرخين المصريين والعرب في استخدام المنهج المادي الماركسي في منتصف الستينيات بدرجات متفاوتة من الفهم والتوفيق، وإلى هؤلاء يعزى الفضل في التمرد على التقليد الذي كان راسخاً - عندئذ - في الجامعات العربية، الذي كان يتمسك بحاجز الخمسين عاماً كحد زمني لا يجب تخطيه لدراسة التاريخ وكأنه سور الصين العظيم، فتجاوزوا هذا الحاجز حتى



«ثمة إساءة لاستخدام التاريخ في المجتمع المعاصر، تعود إلى التشويه المتصل للتاريخ في مراحل التعليم العام»



وصلت به بعض الدراسات إلى عقد واحد من الزمان، وهكذا عالجوا التاريخ المعاصر، ووجهوا تلاميذهم نحو دراسته، وأبدت مجالس الأقسام والكليات قدراً من التسامح مع هذه «البدعة» الجديدة، فقبلت تسجيل بعض الأطروحات في التاريخ المعاصر في الستينيات بعد ما يقرب من نحو أربعة عقود على بداية التاريخ المعاصر في الغرب.

ولكن أحداً من المؤرخين العرب لم يجرؤ بعد على ارتياد مجال التاريخ الاستطلاعي Para-history الذي يستشرف آفاق المستقبل من خلال قراءة متعمقة لواقع المجتمع في الماضي والحاضر، على نحو ما فعل بول كنيدي، الذي نشر عام ١٩٨٨ كتابه الذي أثار - عندئذ - جدلاً كبيراً بين الباحثين، وحمل عنوان: «قيام وسقوط القوى الكبرى: التغير الاقتصادي والصراع العسكري من ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠»، والذي تنبأ فيه بتفسخ كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية. ويعود النفور من اقتحام هذا المجال من مجالات الدراسات التاريخية إلى الميل العام عند الأكاديميين والمثقفين العرب لتجنب الجديد، فلا يأخذون به إلا بعد ما يصبح قديماً، ولعل لذلك ما يفسره في الثقافة العربية التقليدية، ولكننا نرجعه إلى القصور الشديد في تكوين المؤرخ العربي، ومحدودية ثقافته، بمعنى عدم متابعته لما يجرى في حقل تخصصه على الساحة العالمية (إلا نفر قليل لا يمثلون نقيضاً بارزاً لهذه الظاهرة السلبية)، هذا إلى جانب ضعف تكوينه المنهجي، ومن ثم قلة حيلته، وعجزه عن ارتياد مجال التاريخ الاستطلاعي.

ويعود ذلك في المحل الأول إلى عدم اهتمام أقسام التاريخ في الجامعات العربية بالعلوم الاجتماعية التي لا غنى للباحث في التاريخ عنها، ويمتد هذا القصور إلى إعداد الباحثين في مرحلة الدراسات العليا، بينما حققت الدراسات التاريخية تقدماً كبيراً في الغرب على مدى نصف القرن الأخير عن طريق المزج بين منهج البحث في التاريخ، ومناهج البحث في العلوم الاجتماعية الأخرى: كالاجتماع، والاقتصاد، والانثروبولوجيا الاجتماعية، والتحليل النفسي، واللغويات البنيوية.. وغيرها. ويدعو هوبسباوم إلى تأكيد هذا المزج وتنميته، ولكنه يبدي تحفظه على من يقومون بتقطيع أوصال التاريخ، ويعمدون إلى صبه في قوالب العلوم الاجتماعية الأخرى، من خلال عزله عن الاقتصاد أو الاجتماع، أو التاريخ النفسي، لأن التاريخ هو تاريخ المجتمع بكل مكوناته. بل يدعو المؤلف إلى رؤية الأحداث



«هل آن الأوان لمراجعة المفهوم السلبي للموضوعية، والإدانة غير المنطقية للانحياز لنظرية سياسية أو اجتماعية معينة...»



التاريخية من خلال ما اتصل بها من مفاهيم العلوم الاجتماعية المعاصرة. ويعني بذلك دراسة تحولات المجتمع الإنساني، والطريقة التي يتم بها التفاعل بين مكونات الحياة الإنسانية، وقياس التباين بين التجارب التاريخية المختلفة وبعضها البعض.

لقد مهد التطور المنهجي في العلوم الاجتماعية، السبيل لظهور «التاريخ الاجتماعي» منذ مطلع الخمسينيات من هذا القرن، وقطع شوطاً ملحوظاً على يد «مدرسة الحوليات»(٢) الفرنسية، وحقق ازدهاراً في السنوات الأخيرة نتيجة تطور النظرية الاقتصادية والعلوم الاجتماعية الأخرى. غير أن هوبسباوم يعرب عن خشيته من تحول «التاريخ الاجتماعي» إلى مجرد قاعدة لعلم الاجتماع أو خلفية يستند إليها، كما تحول «التاريخ الاقتصادي» إلى قاعدة للنظرية الاقتصادية، لأن هذه التخصصات في الدراسات التاريخية لا تقدم لنا نماذج مفيدة، أو أطراً تحليلية بعيدة المدى لدراسة التحولات الاجتماعية الاقتصادية. ويطرح هوبسباوم دراسة «تاريخ المجتمع» بديلاً للتاريخ الاجتماعي، فيتسع بذلك حقل الدراسة فيه، وتتعدد مجالاته لتشمل السكان، وعلاقات القرابة، والدراسات الحضرية من منظور تاريخي، والطبقات والجماعات الاجتماعية، والضمير الجمعي بمفهوم أنثروبولوجي، وتحول المجتمعات في إطار الحداثة، والحركات الاجتماعية، وظاهرة الاحتجاج الاجتماعي. ويرى المؤلف أن مثل هذه الدراسة تتطلب اتباع أسلوب العمل الجماعي في إطار فريق البحث، واستخدام التقنيات الحديثة، وحل مشكلة المفاهيم التي لم تتم مواجهتها من قبل على يد المؤرخين، والتعامل مع الطبقة باعتبارها نظاماً للعلاقات الأفقية والرأسية، وليست قطاعاً منعزلاً عن الناس. على أن يتجنب الباحثون عزل الظاهرة موضوع الدراسة عن سياقها المجتمعي. وهي منهجية جديدة يدعو إليها هوبسباوم، ويرى أن البحث التاريخي يجب أن يتجه إليها.

ولا شك أن تلك الآراء التي تستهدف تطوير دراسة التاريخ الاجتماعي ليصبح تاريخاً للمجتمع تفيد المشتغلين بالدراسات التاريخية في الوطن العربي، وخاصة المهتمين منهم بدراسة التاريخ الاجتماعي. فقد بدأنا العمل في هذا المجال منذ نحو ثلاثة عقود من الزمان دون أسس منهجية واضحة، وإنما ترك الأمر للاجتهاد الفردي لكل باحث على حدة. فاتجه معظم من عملوا في هذا المجال إلى دراسة الطبقات الاجتماعية، مع عدم إغفال بنية المجتمع ككل. بينما اتجه البعض الآخر إلى عزل الطبقة موضوع الدراسة عن سياقها الاجتماعي. وغالباً ما يميل من يستخدمون التفسير المادي للتاريخ منهجاً لهم، إلى مراعاة السياق الاجتماعي، بينما يقدم غيرهم دراسة وصفية لطبقة ما، دون اعتبار لشبكة العلاقات التي تربطها بغيرها من طبقات المجتمع، أو تحديد لدور البنية الأساسية في تكوين الطبقة، وحركتها الجدلية مع غيرها من طبقات المجتمع. ونظرة إلى العديد من الأطروحات التي أجازتها الجامعات المصرية والعربية في العقدين الأخيرين في موضوعات مثل: «العامة» أو «التجار» أو «العلماء» أو «الفلاحين» أو «الحرفيين» في العصر الإسلامي، والعصر العثماني، تكفي لاكتشاف الإفلاس المنهجي، وغياب المعرفة بالعلوم الاجتماعية ذات الصلة بموضوع الدراسة، فضلاً عن مناهجها وأدواتها البحثية.



ويطيب للمشتغلين بالبحث التاريخي في الوطن العربي، الحديث عن «الموضوعية» التي يجب أن تكون موضع رعاية كل من يكتب التاريخ. ويلقن الأساتذة تلاميذهم في الجامعات العربية - بلا استثناء تقريباً - ضرورة التزام الباحث الموضوعية باتباع «الحياد» التام عند تعامله مع المادة التاريخية، فلا ينحاز لوجهة نظر على حساب أخرى. وغالباً ما يضرب المثل بالقضاء، فالقاضي عليه أن يلتزم جانب الحياد التام حتى يقيم العدل بين المتخاصمين، وهي مقولة لا تصمد أمام النقد، فالقاضي يستمع لأطراف الخصومة وشهادة الشهود وما يقدمه كل طرف من أدلة تسند وجهة نظره وتؤيد دعواه، ولكن عليه - في نهاية المطاف - أن يصدر حكماً لصالح طرف ضد الطرف الآخر، فهو هنا «ينحاز» لوجهة النظر التي يرى أن الحق معها. وقد ترى دائرة قضائية أعلى غير ما رآه هذا القاضي، فتقضي بما تراه حقاً وعدلاً. ولا يمكن أن يوصم أي من الحكمين بالافتقار إلى الموضوعية، لأن الموضوعية قيمة نسبية.

وقضية الموضوعية ما زالت الشغل الشاغل للمؤرخين العرب عامة، والمصريين خاصة، حتى أن قسم التاريخ بآداب القاهرة والمركز القومي للدراسات الاجتماعية والجنائية قاما بتنظيم ندوة عام ١٩٨٧، بالاشتراك مع المعهد الهولندي للدراسات العربية بالقاهرة، ساهم فيها معظم المؤرخين المصريين المشتغلين بالتاريخ الحديث

بالجامعات وخارجها، حملت عنوان: «الالتزام والموضوعية فى كتابة تاريخ مصر المعاصر ١٩١٩-١٩٥٢»، احتدم فيها الجدل بين من أقاموا للموضوعية بمفهومها السلبى، معبداً اشتغلوا بسدانته، ومن رأوا أن الموضوعية نسبية، يلعب تكوين المؤرخ دوراً كبيراً فى التعامل معها، ويؤثر استعداده الذهنى وثقافته وانتماؤه الاجتماعى والسياسى فى تقديرها.

ويقدم لنا هوبسباوم رأيه فى هذه القضية فى فصل بعنوان «التحيز»، رأى فيه أنه لا غضاضة فى انحياز المؤرخ لنظرية سياسية أو اجتماعية معينة، يوظفها فى تقويمه للظاهرة التى يتصدى لها بالدراسة. وذهب إلى أن ذلك النوع من الانحياز قد يكون دافعاً لإمعان النظر بعمق داخل الظاهرة موضوع الدراسة. ويرى أن التحيز لفكرة أو نظرية قد يستدعى أفكاراً أخرى، ويطرح قضايا جديدة. ويُعد هذا النوع من التحيز آلية لا غنى عنها لهذا النوع من العلوم الإنسانية، لا تستطيع العلوم الاجتماعية أن تتطور بدونها.

وتعد الموضوعية بمفهومها السلبى من رواسب التأثر بالمدرسة التاريخية الألمانية التى تدرب الرواد الأوائل من أساتذة التاريخ بالجامعة المصرية على منهجها عند دراستهم بجامعة ليفربول بانجلترا، التى اتجهت إليها كل بعثاتنا الحكومية فى التاريخ فى العشرينيات والثلاثينيات. وكان للمدرسة التاريخية الألمانية - على ما يبدو - معقل نفوذ فى قسم التاريخ بجامعة ليفربول، رغم أفول نجمها فى أوربا قبل الحرب العالمية الأولى، لعجزها عن تجاوز الإطار الوصفى للحدث دون تقديم تفسير له قد يخرق حياد الباحث ويؤثر على «موضوعيته». وعندما عاد أولئك الرواد من بعثاتهم، لقنوا تلاميذهم نفس الأفكار. وغلب تأثير هذه المدرسة على معظم الأطروحات التى قدمت للجامعة منذ مطلع الأربعينيات، وتم عن طريقها تكوين الجيل الثانى من الأساتذة المصريين، والجيل الأول من الأساتذة العرب الذين درسوا بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن).

ولعل ذلك يفسر ترجمة عبد الحميد العبادى - أحد أولئك الرواد - لكتاب هارنشو الكلاسيكى «علم التاريخ»، واستخدم الكتاب كأساس لتدريس منهج البحث التاريخى حتى منتصف الخمسينيات. وكان من أوائل الكتب التى ألفت فى المنهج كتاب حسن عثمان «منهج البحث التاريخى» الذى لم يخرج عن إطار هارنشو، وما زال كتابه يطبع ويستخدم حتى اليوم، بل تأثر به الكثير ممن كتبوا فى المنهج على طريقته، فى مصر وسورية والعراق واليمن، ولا يستثنى من ذلك إلا كتابات المؤرخين المغاربة الذين جاءوا إلى الميدان متأخرين عن زملائهم المشارقة، ولكنهم تأثروا بالمدارس المنهجية الأحدث وخاصة «مدرسة الحوليات» الفرنسية.

ترى، هل آن الأوان لمراجعة المفهوم السلبى للموضوعية، والإدانة غير المنطقية للانحياز لنظرية سياسية أو اجتماعية معينة؟ إن الموضوعية بمفهومها السلبى المبنى على الحياد التام تعنى اللاموقف، وتلغى حق المؤرخ فى التعبير عن فكره ورؤيته الخاصة، وهى الآلية التى حققت التقدم فى البحث التاريخى على المستوى العالمى، على نحو ما نجده عند هوبسباوم.

ولا يعنى استخدام المؤرخ للنظريات السياسية والاجتماعية عند تحليله للظواهر التاريخية، البعد عن الموضوعية، طالما تجنب التورط فى قولبة التاريخ، أى القيام بصب مادته التاريخية فى قالب نظرى معين، بقدر كبير من التعسف، وصولاً إلى تأكيد مقولات النظرية التى يتبناها، بل نقصد بذلك أن يستفيد المؤرخ من نظريات العلوم الاجتماعية المختلفة فى فهم الظواهر التى يقوم بدراستها وتحليلها. وليس معنى ذلك أن يتحول المؤرخ إلى كاهن فى معبد نظرية بعينها، وإلا جاءت نظرية أحادية معيبة، وجاء مجال رؤيته محدوداً، مما يؤثر على قيمة ما يتوصل إليه من نتائج تأثيراً سلبياً.



وينقلنا ذلك إلى ما كتبه هوبسباوم عن الماركسية وما قدمته للدراسات التاريخية، وله فى هذا الصدد مقالان طويلان، أولهما: يحمل عنوان «بماذا يدين المؤرخون لكارل ماركس»، ذهب فيه إلى أن الماركسية لعبت دوراً أساسياً فى تحديث الكتابة التاريخية من حيث الأدوات المنهجية. فالتفسير المادى للتاريخ جعل العامل الاقتصادى أساسياً وليس فرعياً، وقدم نموذج الأساس والبنية الأساسية الذى شاع استخدامه عند تناول تاريخ الفكر، وأبرز دور المصالح الاقتصادية فى توجيه الصراع الطبقى. كما ترك التفسير المادى أثراً بالغاً على معالجة بعض الموضوعات



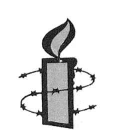
«نظرة إلى العديد من الأطروحات التى أجازتها الجامعات المصرية والعربية فى موضوعات مثل: «العامة» أو «التجار» أو «العلماء» أو «الفلاحين» أو «الحرفيين» فى العصر الإسلامى، تكفى لاكتشاف الإفلاس المنهجى...»

النابعة من الاهتمامات الماركسية مثل: التطور الرأسمالى، والتصنيع، وتاريخ الفلاحين والعمال، والحركات الاجتماعية، إضافة إلى القوانين التاريخية، وفكرة الحتمية التاريخية. ورأى هوبسباوم أن بعض ما قدمته الماركسية كان له تأثيره الكبير على الكتابة التاريخية حتى عند المؤرخين غير الماركسيين، من حيث التأكيد على العوامل الاقتصادية والاجتماعية ودورها فى تحريك عجلة التاريخ التى شاع استخدامها بين المؤرخين على اختلاف مشاربهم منذ الحرب العالمية الثانية، كما شاع استخدام نموذج الأساس والبنية الأساسية، وتعاقب التكوينات الاجتماعية الاقتصادية، وفكرة المجتمعات الشرقية رغم ما فيها من افتراضات خاطئة.

وفوق ذلك كله، يعتبر هوبسباوم أن مساهمة ماركس الأساسية فى علم التاريخ تتمثل فى نقد الوضعية، والميل إلى إدماج العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية معاً، مما يعنى الاعتراف بالعلوم كنظم للعلاقات بين البشر وبعضهم البعض، وبينهم وبين البيئة التى يعيشون فيها. وقد تجاوزت الماركسية النظرية الوظيفية للمجتمع، فهى تساعد على شرح الكيفية التى تتغير بها المجتمعات، وتساعد على كشف حقائق التطور الاجتماعى. وسواء كان المؤرخون ماركسيين أو كانوا غير ذلك، فقد تجاوزت كتاباتهم ماركس بسبب التقدم الراهن فى العلوم الاجتماعية. ولكن قيمة المادية التاريخية - كما عبر عنها ماركس - كبيرة، تعكس ما للماركسية من أثر فى الكتابة التاريخية.

وفى المقال الثانى، الذى حمل عنوان «ماركس والتاريخ»، وضع هوبسباوم يده على أثر الماركسية فى الكتابة التاريخية، مؤكداً أن لماركس تأثيراً كبيراً فى البلاد غير الاشتراكية، يفوق أثره فى البلاد التى تلتزم بالأيديولوجية الماركسية. ورأى المؤلف أن التاريخ الماركسى اليوم أصبح تعدديا وليس أحاديا، فالتفسير الأحادى للتاريخ أصبح جزءاً من تراث الماركسية، ولكن لم يعد مقبولاً عند جمهرة المؤرخين. وأن التاريخ الماركسى اليوم لا يقف بمعزل عن الفكر التاريخى والبحث فى التاريخ، ولم يعد المؤرخون الماركسيون ينكرون جهد غيرهم من المؤرخين طالما كانت أعمالهم جيدة، كما أن الماركسية حولت مسار الكتابة التاريخية، حتى أصبح من الصعب أن نقف على حقيقة انتماء المؤرخ إلى الماركسية من قراءتنا لعمله، بعدما شاع استخدام الأدوات المنهجية للماركسية فى الكتابة التاريخية المعاصرة.

غير أن الكتابات التاريخية الأولى التى



«الرواية الشفهية لا تحظى باعتراف الأوساط الأكاديمية العربية. فما زال غالبية المشتغلين بالكتابة التاريخية فى عالمنا العربى يجترون مقولة رانكه من الزمان: «لا تاريخ بغير وثائق....»

استخدمت التفسير المادى للتاريخ جاءت على يد غير المتخصصين فى التاريخ، ولم يتم تداولها إلا بعد منتصف الخمسينيات وما شهدته من أحداث حاسمة منذ قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. وبرزت فى هذا المجال كتابات شهدى عطية الشافعى، وإبراهيم عامر (١٩٥٧)، وفوزى جرجس (١٩٥٨). إضافة إلى ترجمات راشد البراوى فى أوائل الخمسينيات وبعض كتاباته التى تناولت التفسير المادى للتاريخ. ويلاحظ على هذه الكتابات قلة الإلمام بالتطور التاريخى فى مصر، وتطبيق المنهج الماركسى تطبيقاً تعسفيا لم يراع فيه اختلاف ظروف المجتمع المصرى عن النموذج الذى عالجه ماركس، واعتبار الصراع الطبقى محور الحركة التاريخية فى مصر، فاستخدام الماركسية هنا كان سياسيا بالدرجة الأولى عقائدى الطابع، ملتزماً بالنص الماركسى، لا يدخل فى اعتباره المراجعات التى تعرضت لها الماركسية على يد من عُرفوا بالماركسيين الجدد، ومن بينها مراجعة المؤرخ الإنجليزى مورس دوب لفكرة الصراع الطبقى فى مرحلة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية، التى أثارت جدلاً كبيراً بين الماركسيين فى الخمسينيات.

وجاءت المحاولة الأولى لاستخدام التفسير المادى فى الدراسات التاريخية الجامعية على يد محمد أنيس، الذى كان لدراسته التى حملت عنوان «مصر من الإقطاع إلى الرأسمالية ١٧٩٨-١٨٨٢» أبلغ الأثر فى توجيه اهتمام جيل الباحثين فى الستينيات إلى التفسير المادى للتاريخ، رغم ما وجه لتلك الدراسة من نقد، أبرزه وقوعها فيما وقع فيه الكتاب الشيوعيون فى الخمسينيات من تطبيق فكرة الصراع الطبقى تطبيقاً تعسفيا، والقول بوجود الإقطاع فى القرن التاسع عشر، واعتبار ثورة عرابى ثورة بورجوازية موجهة ضد الإقطاع.

ولكن الدراسة خلبت لب جيل الستينيات (ومن بينهم صاحب هذا القلم)، وكانت بالنسبة لهم فتحاً جديداً فى الدراسات التاريخية، فاختاروا أطروحتهم للماجستير والدكتوراه فى موضوعات تتصل بتاريخ القوى الاجتماعية. ولكن ذلك الجيل من الباحثين فى التاريخ لم يتم إعدادهم المنهجى فى رحاب الجامعة، وإنما كونوا أفكارهم بجهودهم الخاصة، ومن خلال حلقات دراسية نظموها بأنفسهم (أحياناً) لدراسة الماركسية والتفسير المادى للتاريخ، وطبقوا ما تحصّل لديهم على كتابة التاريخ. وكان من الطبيعى أن يشوب القصور استخدامهم للمنهج الماركسى نتيجة عدم التدريب على التعامل مع أدواته، غير أن إدراكهم لدور البنية الأساسية فى صياغة حركة المجتمع بكل أبعادها يبدو واضحاً فى كتاباتهم. وقد وجه هؤلاء تلاميذهم فى السبعينيات إلى أهمية التفسير المادى للتاريخ، وقيمة المساهمة الماركسية فى علم التاريخ. ولكن التأثر بالماركسية فى الكتابة التاريخية مازال محدوداً ليس فى مصر وحدها، بل فى الوطن العربى. ولا نستطيع الزعم أن المؤرخين العرب استفادوا من الماركسية على نحو ما فعل مؤرخو الغرب قياساً بما رأيناه عند هوبسباوم، مما يفسر بعض جوانب أزمة المنهج التى تعانى منها الكتابة التاريخية فى بلادنا.

ولا ريب أن تحول التوجهات السياسية منذ السبعينيات، وما أصاب المؤسسات الأكاديمية من تدهور فى مستوى الأداء فى العقدين الأخيرين الذى انعكس على الدراسات العليا عامة انعكاساً سلبيا، والعودة إلى النفور من الفكر الماركسى ونبذ أصحابه، والجرى وراء أفكار أخرى تمت صياغتها فى الغرب دون محاولة فهمها أو اختبارها أو النظر فى إمكانية مواءمتها للواقع المصرى (كالحداثة، وما بعد الحداثة)، كل ذلك كانت له آثاره على الحيلولة دون الاستفادة بالأدوات المنهجية للماركسية فى الكتابة التاريخية عندنا، وبذلك تم تكريس التخلف المنهجى عندنا.

ويعطينا هوبسباوم نموذجاً متواضعاً لما يثير اهتمام المؤرخين فى الغرب من إشكاليات تتصل بالكتابة التاريخية، فى مقال يعبر عن القلق الناجم عن عودة «القص التاريخى» فى بعض الكتابات التاريخية فى الغرب. فقد كتب لورانس ستون وهو مؤرخ بارز - مقالاً نشر فى مجلة «Past and Present» (وهى من المجلات العلمية المهمة) ينتقد عودة «القص التاريخى» الذى يتخذ من السرد أسلوبياً له، بعد أن كاد يختفى تماماً منذ العشرينيات. وأرجع ستون ذلك إلى نفور بعض المؤرخين من أن يشغلوا أنفسهم بتفسير الظواهر التاريخية، وعزوف البعض الآخر عن الأخذ بفكرة الحتمية الاقتصادية. ورد هوبسباوم على زميله ستون بمقال آخر نشر على صفحات المجلة نفسها (فبراير ١٩٨٠) وأعاد نشره فى الكتاب الذى بين أيدينا «فى التاريخ».

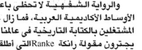
استعرض هوبسباوم فى مقاله ما حققه علم التاريخ من تطور كبير بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، وأطلق على الاتجاه الذى انتقده ستون فى مقاله اسم «المؤرخون المحافظون الجدد»، واعتبر هذا الاتجاه بمثابة رد الفعل للتاريخ الثقافى

اليـــســـاري، وأوضح أن الميل إلى «القص التاريخي» يبدو واضحـاً في الدراسات التي تعالج ظاهرة واحدة، أو حالة واحدة في سياق زمني محـدود، وبذلك يعجـز أصحـاب هذا الاتجاه عن إدراك التـغير التـاريخي لضيق مجال الرؤية أمامهم. وذهب هوبسباوم إلى أن وجـود نفـر من المؤرخـين يمـيل إلى «القص التـاريخـي» لا يعني أن ثـمة ردة منهـجـيـة تـعـرض البحث التاريخي جميعه للخطر، طالما كانت الظاهرة محدودة من ناحية، ولا تخرج عن إطار المجتمع كموضوع للدراسة من ناحية أخرى، ومادامت تتبع الأسس المنهجية المتعارف عليها حتى لو أغفلت الفرضيات النظرية التي يستخدمها غيرها. فالقص التاريخي عند هؤلاء - كما يتضح من كلام هوبسباوم - ليس رصـا للمادة إلى جوار بعضها البعض دون إدراك لسياقها الزمني، ولكنه مجرد أسلوب للمعالجة في إطار الأسس المنهجية المتعارف عليها، لذلك لم يشارك زميله القلق الذي اعتراه عند ملاحظته هذه الظاهرة.

ترى، ماذا يكون موقف هوبسباوم إذا عرف أن «القص التاريخي» وأسلوب السرد الممل - والمخل أحيانا - هو النمط الشائع في الكتابة التاريخية عند العرب المعاصرين؟ هل كان باستطاعته أن يقابل الظاهرة بمثل هذا الاستخفاف، وخاصة أن معظم هذه الكتابات لا تعالج التاريخ باعتباره تاريخ مجتمع، وإنما يغلب عليها إعلاء دور الفرد في تحريك عجلة التاريخ؟ لا أشك لحظة أن هوبسباوم لن يكون أقل قلقاً إزاء هذه الظاهرة من زميله ستون، وأنه لن يغفر لنا تخلفنا المنهجي، وهو الذي يشيد بفضل ابن خلدون على علم التاريخ ومناهج البحث فيه، في أكثر من موضع في هذا الكتاب، ويعتبره صاحب أقدم صياغة لمنهج منطقي متماسك. إن أزمة المنهج في الكتابة التاريخية عندنا ليست عَرَضاً كذلك الذي أقلق لورانس ستون، يمثل استثناءً لقاعدة عريضة، ولكنها عندنا مرض مزمن يصيب الكتابة التاريخية العربية بالشلل، ويجعلها عاجزة عن اللحاق بما حققه علم التاريخ من إنجاز متميز عند غيرنا، مما يتطلب مراجعة شاملة من جانبنا لكل ما اتصل بإعداد الباحث في التاريخ، بصورة تكفل تحريك ما أصاب الكتابة التاريخية من ركود.



وبينما نحن مازلنا نفكر في إقالة المنهج من عثرته، تتفتح عند غيرنا آفاق منهجية جديدة، يعرض لها هوبسباوم في كتابه عند معالجته للتاريخ الشفاهي، وهي قضية منهجية تشغل بال من يدرسون تاريخ البسطاء من عامة الناس، وتاريخ الثقافة الشعبية بمختلف مكوناتها، وتاريخ العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية، والفنون الشعبية والفولكلور، وغير ذلك من مجالات لا تتوافر عنها مادة أرشيفية، أو شواهد مادية معينة. وهنا يلجأ الباحث إلى جمع مادته من أفواه المصادر الحية المعاصرة. ويرى هوبسباوم أن «الرواية الشفهية» ما زالت تحتاج إلى اشتغال الفكر التاريخي بها، كما تحتاج إلى باحث من طراز خاص، على دراية بعلم النفس،



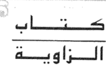
وبطبيعة الموضوع الذي يتصدى لدراسته، تتوافر لديه القدرة على التصور وتكوين رؤيته الخاصة.

والرواية الشفهية لا تحظى باعتراف الأوساط الأكاديمية العربية، فما زال غالبية المشتغلين بالكتابة التاريخية في عالمنا العربي يجترون مقولة رانكة Ranke التي أطلقها قبل قرن من الزمان: «لا تاريخ بغير وثائق»، فهم ينفرون من المصادر الشفهية، ولا يقبلون استخدامها، وينظرون بتحفظ شديد إلى البحوث المعدودة التي استخدمت الرواية الشفهية بين مصادرها. وثمة استثناءات نادرة، سمح فيها بعض الأساتذة لأحد تلاميذهم باستخدام الرواية الشفهية. ولعل صاحب هذا القلم كان أول من استخدم هذا المصدر في الوطن العربي عند إعداده أطروحة الماجستير عن «الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ ـ ١٩٥٢»، ونجح في توظيفها توظيفاً منهجيا لسد الثغرات التي عجزت المصادر الأخرى عن سدها. وجاءت دراسة رفعت السعيد للحركة الشيوعية معتمدة اعتماداً يكاد يكون تاما على الروايات الشفهية. ولكن ذلك لا يعني أن «الرواية الشفهية» قد حظيت بالاعتراف بها على المستوى الأكاديمي كمصدر من مصادر الكتابة التاريخية.

وقدم لنا هوبسباوم بعض المحاذير التي يجب أن ندخلها في الاعتبار عند التفاعل مع «الرواية الشفهية»، وخاصة عند تحليل تلك الروايات، لأنها لا تخضع للاختبار إلا في حدود ضيقة. وغالباً ما يتصور الباحث نماذج معينة ربما أضفت قدراً من الغموض على ما ينشد التوصل إليه. ويستلفت هوبسباوم النظر إلى أن هدف هذا النوع من الدراسة شرح الماضي وربطه بالحاضر وليس استكشاف الماضي ذاته. ويرى أن «التاريخ الشفاهي» يحتاج إلى تخصص يجمع بين منهجيات التاريخ وغيره من العلوم الاجتماعية، وإلى إعداد الباحثين في هذا المجال إعداداً خاصا.

ويقودنا ذلك إلى آخر القضايا المنهجية التي عالجها هوبسباوم في كتابه، وهي قضية التاريخ المعاصر، وهو نص محاضرة ألقاها في جامعة لندن عام ١٩٩٣ بعنوان «الحاضر تاريخاً»، وكان شاهد عيان لها، مناقشة ممتعة، عرض فيها لتجربته الذاتية في كتابة تاريخ القرن العشرين، وبيّن كيف أن رؤيته للتاريخ القريب كانت نتاجاً لمراقبته للأحداث التي عاصرها من منظور تاريخي، وما توافر لديه من استعداد خاص لاستشراف المستقبل، أو - بعبارة أخرى - طرح التوقعات لما قد تتخذه حركة الأحداث من اتجاهات على ضوء خبرته بالموضوع وثقافته وتكوينه العلمي.

إن قراءة كتاب هوبسباوم «في التاريخ» تضع بين أيدينا خلاصة تجربة مؤرخ مرموق متابع ومشارك بجهده في التطور المنهجي الذي حققه علم التاريخ في النصف الثاني من القرن العشرين على وجه الخصوص. والقضايا المنهجية التي يطرحها المؤلف في كتابه تدفعنا إلى إمعان النظر في حال الكتابة التاريخية عندنا، وتحفزنا إلى ضرورة مراجعة ظاهرة القصور المنهجي التي تعاني منها الكتابة التاريخية العربية، لعلنا نستفيد مما تحقق على الصعيد العالمي في هذا المجال. ■





من شعر إبراهيم ناجي

تحليل قبلة

ولما التقينا بعد نأي وغربة
شجيين فاضا من أسًى وحنينِ
تسائلني عيناك عن سالف الهوى
بقلبي وتستقضي قديم ديونِ
فقمت وقد ضجَّ الهوى في جوانحي
وأنَّ من الكتمان أيَّ أنينِ
يبث فمي سرَّ الهوى لمقبَّلٍ
أجود له بالروح غير ضنينِ
إذا كنت في شك سلي القبلة التي
أذاعت من الأسرار كل دفينِ
مناجاة أشواق وتجديد موثق
وتبديد أوهامٍ. وفض ظنونِ
وشكوى جوى قاسٍ وسقم مبرح
وتسهيد أجفانٍ وصبر سنين!



الإهداء

أنتَ وحيُ العبقريةْ وجلالُ الأبديهْ
أنت لحنُ الخلد والرحمة في أرض شقيهْ
أنت سرٌّ تعبتْ فيه العقول البشريهْ
إن تكن أشجتك أشعاري وأناتي الشجيهْ
فتقبَّلْ طاقةً بالدم والدمع نديهْ
وارضَ عنها وإذا لم ترضَ فاغفر لي الهديه

* * *

يا حبيبي! نضب العمر وقرّبنا الضحيهْ!
إن يكن قد شقي الماضي فما أهنا البقيهْ
في خيالات غوالٍ وأمانٍ ذهبيهْ
يطلع الصبح عليها مثلما تمضي العشيهْ
أنت صهباء السماوات، وروحٌ قدسيهْ
بتَّ تسقيني فتنسينيَ أوجاعي العصيهْ
فسلامًا كل حين وغرامًا وتحيهْ!

«أنا لا أعرف الحقيقة المجردة، ولكنني أركع متواضعًا أمام جهلي، وفي هذا فخري وأجري».

جبران خليل جبران

تشيكوف هل كان داعية لآراء هدامة؟

ايلين كيلى



الهدم المنسوب إلى تشيكوف نابع من مقدرته الفذة على التعامل مع الحياة العادية بحيث يتمكن من اختراق المرئي المألوف ليكتشف أشياء أخرى مهمة كامنة تحت السطح، ثم يعرض رؤيته للخبرة اليومية بما يتناقض مع افتراضاتنا التقليدية ويتعارض مع معتقداتنا المستقرة عن أنفسنا وعن العالم.

وهو يعترض على تصنيفه شخصيا، بناءً على إبداعه الفني، إذا ما كان متفائلاً أو متشائماً، لأن دوره في هذا السياق أن يسجل ما قاله أو فكر فيه هذا الشخص أو ذاك، وفي ظل أية ظروف.

وأما هدفه فذو شقين: أن ينجح في تصوير الحياة بإخلاص وأمانة، وأن يُبيِّن مدى انحراف هذه الحياة عن الصورة المرجوة..

[١]

إنه واحد «من أكثر الكتاب أصحاب النزعات الهدامة عمقاً على مدى التاريخ». قليلون حتى من بين أشد المعجبين بتشيكوف يمكن أن يتعرفوا عليه من هذا الوصف الذى قدمه سيمون كارلنسكي في مقدمته لمجموعة مختارة من رسائله. فعلى خلاف الروايات التى كتبها دستويفسكي، والتى تكشف الجانب الشيطاني الكامن في النفس البشرية، تصف مسرحيات تشيكوف وقصصه رجالاً ونساء عاديين، يقضون حياة بلا أحداث مثيرة، وغالباً ما تكون حياة مملة رتيبة. وبينما كان تولستوى يدعو إلى الفوضوية ويرعد ضد الكنيسة والدولة الروسية، كان تشيكوف يعمل بهدوء طبيباً في الريف ومزارعاً على نطاق ضيق، إلى أن ضعفت صحته واضطر إلى قضاء فصول الشتاء في مدينة يالطا.

كانت حياته تبدو لكثير من معاصريه مبتعدة بشكل زائد عن القضايا العظمى في ذلك العصر، ولكن هذا الافتقار إلى التميز بالتحديد هو ما جعل لكتاباته طابعاً هداماً، ونظرته الساخرة إلى القواعد السائدة لسلامة التصرف تبدو الآن وكأنها اختراق غريب للغيب، فقد عمل على تقويض الكثير من افتراضات المجتمعات الحديثة بشأن طبيعة التقدم، والحرية، والأخلاقيات الشخصية. وهو لم يضع (على عكس تولستوى)، مكان الأساطير التى يقضى عليها أساطير أخرى من صنعه.

وكان المجتمع في عصره يتطلع إلى الكتّاب للاضطلاع بدور القيادة الأيديولوجية والأخلاقية في المعركة ضد الحكم الأوتوقراطي. وكان النقاد الراديكاليون، والذين كانت سلطتهم في مجال الأدب أقوى من سلطة الرقابة الرسمية، يمجدون كتّاباً من الدرجة الثانية من أمثال زلا توفراتسكي وجليب أوسبنسكي الذين كانوا يعرضون الصراع بين الرجعية والتنوير من خلال نماذج ثابتة فجة: فالقساوسة والتجار وضباط الجيش يُقدَّمون دائماً في صورة الأوغاد، ويقدم الفلاحون والشبان المثاليون الراديكاليون في صورة الأبطال ذوى القلوب النقية. وعندما بدأت أفكار تشيكوف تتحول إلى موضوع للجدل في الدوائر التقدمية، قدم نفسه في رسالة مشهورة وجهها إلى المحرر الأدبى لمجلة كانت قد بدأت تنشر أعماله قال فيها:

> «أنا لست ليبراليا ولا محافظا ولا من دعاة التدرج، ولست راهباً أو من أنصار اللامبالاة. وإنما أريد أن أكون فناناً حراً ولا شيء غير ذلك. إن النفاق، وثقل الدم، والتسلط، لا توجد فقط في بيوت التجار ومراكز الشرطة، فإني أراها في مجالات العلم والأدب، وبين جيل الشباب. ولذا فإني لا أقدم صورة خاصة لرجال الشرطة أو الجزارين أو العلماء أو الكتاب أو الشبان. وأنا أنظر إلى البطاقات والتسميات على أنها أفكار مسبقة. وقدس الأقداس لدىّ هو جسد الإنسان، والصحة والذكاء والموهبة والإلهام والحب... والتحرر من العنف والكذب، أيا كان شكل هذين الأخيرين».



وقد نبعت كراهية تشيكوف للعنف والنفاق من تعرضه مبكراً لكل منهما بشكل قاس ومتطرف. وقد كتب مرة يقول (بمناسبة تمجيد تولستوى للفلاحين الروس): «إن دم الفلاحين يجرى في عروقي، ولكني لست الشخص الذى يمجد فضائل الفلاحين». وقد ولد تشيكوف في سنة ١٨٦٠، وهى السنة التى سبقت إلغاء نظام القنانة في روسيا. وكان جداه من الجانبين من عبيد الأرض. وكان أبوه، بافيل، قد شغل مركزاً ضعيفاً بين طبقة التجار عندما امتلك محلاً لبيع الخضر في مدينة تاجنروج Taganrog في جنوب روسيا. وكان الأب طاغية في المنزل يكثر من الحديث عن الأخلاق، ويمثل بإخلاص تقاليد الورع والنزعة الأبوية التى كانت سائدة لدى أصوله الفلاحية. وكان أنطون هو الابن الثالث بين ستة أبناء. وقد كتب فيما بعد يقول إن الطفولة كانت بالنسبة له وبالنسبة لأخويه الأكبر منه سنا «معاناة خالصة». فقد كان أبوهم يضربهم في كل يوم، كما كان يضربهم رئيس الجوقة في الكنيسة حيث كان يطلب منهم الترتيل ساعات متواصلة وهم يركعون فوق أرض حجرية مثلجة.

وعندما كان أنطون تلميذاً في السادسة عشرة من عمره تركته أسرته ليرعى شئون نفسه في تاجنروج عندما أفلس أبوه واضطر إلى نقل معظم أفراد الأسرة إلى موسكو للبحث عن عمل. وكان الأبناء البؤساء الحائرون من أسرة تشيكوف نموذجاً متكرراً بين عدد كبير من الصغار الموهوبين الذين تاهوا في مسالك الحياة عندما تهاوت المؤسسات والقيم في روسيا القيصرية. وقد تمكن بعضهم (مثل أخوى أنطون المستهترين الأكبر منه سنا) من الحصول على تعليم عال لكنهم ظلوا تائهين بلا مبادئ، وعثر غيرهم على كنيسة جديدة وعقيدة جديدة في الحركة الراديكالية.

أما أنطون فقد اتخذ سبيلاً منفرداً. فخلال ثلاث سنوات قضاها وحده في تاجنروج، واصل دراسته بينا كان يقوم بالتدريس للطلبة الآخرين. وأنجز ما أنفق تولستوى حياته عبثاً في السعي إليه: إذ أعاد اكتشاف نفسه كشخص متكامل معنويا، وبمنأى عن التشويهات التى فرضها الاستبداد الذى كان سائداً في الحياة الروسية. وأصبح أنطون عمليا هو رأس عائلته، إذ كان بقاؤها يعتمد على النقود التى يرسلها إليها مما يكسبه. وكان في غضون ذلك يثقف نفسه بالقراءة النهمة في مكتبة تاجنروج العامة.

ويمكن أن نستنتج ما اكتسبه خلال تلك الإقامة، المنفردة من النصيحة التى أسداها بعد سنوات لشقيقه الأكبر الجانح نيكولاى: «يجب أن تتغلب على ذلك الجانب منك الذى تربى على الصدقات والجَلد بأغصان البتولا بجانب قبو النبيذ»، وأنه يجب أن ينمى لديه احترام شخصيات الآخرين، وأن يبتعد عن كل شكل من أشكال القسوة والغرور. «وعليك أن تعمل من أجل ذلك بلا توقف، نهاراً وليلاً. ويجب ألا تكف

1 - Anton Chekhov's Life and Thought: Selected Letters and Commentary

(حياة وفكر أنطون تشيكوف: تعليق على خطابات مختارة)

translated from the Russian by Michael Henry Heim with Simon Karlinsky. Introduction and commentary by Simon Karlinsky.

Northwestern University Press, 494 pp.

2 - Chekhov's Plays: An Opening into Eternity

(مسرحيات تشيكوف: مدخل للخلود)

Richard Gilman

Yale University Press. 261 pp.

3 - Anton Chekhov: A Life

(أنطون تشيكوف: حياة)

Donald Rayfield

Harper Collins. 674 pp.

عن القراءة، والتعمق فى الدراسة، وممارسة الإرادة. فلكل ساعة قيمتها الثمينة». وكان ما أنجزه أنطون فى هذا الصدد هو الذى مكنه عندما بلغ الثلاثين من عمره أن يرسل احتجاجاً إلى رئيس تحرير المجلة التى وصفته بأنه كاتب «بلا مبدأ» ليرد عليه بقوله: «لم يحدث قط أن تزلفت يوماً أو كذبت أو أهنت أحداً» ومهما يكن فى عملى الفنى من عيوب «فإنى لم أكتب سطراً واحداً أشعر بالخجل منه اليوم».



وقد بدأ عمل تشيكوف الأدبى كوسيلة يقيم بها أود أسرته، عندما حصل على منحة من مجلس مدينته سمحت له بدراسة الطب فى جامعة موسكو. وقد بدأ بتقديم إسكتشات هزلية للمجلات الأسبوعية، حققت نجاحاً أتاح له أن يُقسِّم وقته بعد التخرج فى سنة ١٨٨٤ بين «الطب زوجتى الشرعية، والأدب عشيقتى».

وتميزت قصصه القصيرة بأصالة شكلها وتنوع موضوعاتها، والقدرة على تصوير الطبيعة الروسية والعالم الداخلى للنساء والقساوسة والفلاحين والتجار والأثرياء والحيوانات. وقبل أن يبلغ الثلاثين بات معدوداً من كبار الكتاب. وفى سنة ١٨٨٧ وضعته مسرحيته «إيفانوف» بين المؤلفين المسرحيين. وبعد أن تيسرت أحواله المالية أخيراً استطاع أن يشترى لأسرته مسكنها المستقر الأول، ومزرعة صغيرة بالقرب من موسكو، حيث اكتسب مكانة خاصة فى الدوائر الفنية. وكان يستمتع بالجو الاجتماعى وصحبة النساء الجميلات. وقد ظلت كثيرات من النساء اللاتى أقام معهن علاقات قبل زواجه فى سن الأربعين، من أصدقائه المخلصين. وكذلك كان الرجال يجدون شخصيته جذابة تصعب مقاومتها. وقد وصفه المصور قسطنطين كوروفين بأنه «وسيم للغاية» وأن عينيه طيبتان «ولديه ابتسامة خجول خاصة أن مظهره كله يبعث لدى الآخرين شعوراً خاصا بالاطمئنان».

وكان مصدر هذا الاطمئنان مشاعره الإنسانية البسيطة، التى جعلته شديد الحساسية للنفاق السياسى والتعميمات الفارغة. كتب يقول: «لقد اكتسبت إيمانى بالتقدم عندما كنت لا أزال طفلاً. لم يكن بوسعى إلا أن أومن بذلك، لأن الفارق بين الفترة التى كانوا يضربوننى فيها والفترة التى كفوا فيها عن ضربى كان فارقاً هائلاً». كان يعجب بالمثالية الأخلاقية لكثير من الراديكاليين الروس لكنه كان يرى فى نشاطاتهم ما يذكره ببيئة طفولته: «إنى أنفر جسديا من سوء المعاملة أيا كان الشخص الذى يتعرض لها». وكان يتهم المثقفين والمشغولين برؤاهم الطوباوية الشخصية بأنهم يتجاهلون ما حققته مؤسسات «الزمستفه» (Zemstva) من إنجازات - وهى مؤسسات الحكم المحلى التى نشأت نتيجة «للإصلاحات الكبرى» التى طُبقت فى الستينيات من القرن الماضى - وما ترتب عليها من تهذيب المجتمع الروسى. وقد أشار إلى ما تحقق من تقدم فى مجال الجراحة فى روسيا خلال السنوات العشرين السابقة، وقال إنه لو خُيِّر بين «المثل العليا لتلك السنوات (والتى تم التعبير عنها فى صور طوباوية راديكالية مثل الصورة التى وردت فى رواية «ما الذى يجب عمله؟» التى ألفها نيكولاى تشرنيفسكى) وبين أفقر مستشفى أقامته مجالس الزمستفه لاخترت الأخير دون ذرة تردد».

وكان سجله الخاص بالعمل الإنسانى حافلاً. وكتابه عن مستعمرة الاعتقال المقامة فى جزيرة سخالين السيبيرية (الذى اعتمد على مسح طبى إحصائى للأحوال هناك) قد نبَّه الجمهور إلى فظائع نظام العقاب الروسى.

وأعقبت الجهود التى بذلها لتخفيف حدة المجاعة فى منطقته فى عامى ١٨٩١ - ١٨٩٢ نوبة من النشاط المهلك من الانتقال، غالباً على القدمين، فى أنحاء الريف قارس البرد بوصفه مفتشاً طبيا بغير أجر مكلفاً بمكافحة وباء الكوليرا. وقد عالج آلاف الفلاحين فى عيادة أنشأها فى مزرعته، وساعد فى بناء المدارس، وتبرع بالمكتبات، وجمع الأموال والتأييد لعشرات من الأغراض الأخرى، من بينها محاولة لإنقاذ مجلة مفلسة للجراحة، وشراء جياد لتوزع على الفلاحين لنقل الحبوب. وهذه المشاركة المباشرة فى الأعمال اليومية الملموسة جعلته يهزأ بجميع الوصفات التى تقدم لإنقاذ كوكب الأرض: وفى إحدى زياراته لمدينة نيس ذكر أن من مميزاتها أنه لا يوجد بها «الماركسيون بوجوههم التى تعلوها سمات الشعور بالأهمية». وقد كتب يقول إنه لا يؤمن بالأنتلجنسيا فى مجموعها، وإنه يضع أمله فى الأفراد، سواء كانوا من المثقفين أو من الفلاحين، المنتشرين فى كل أنحاء روسيا، والذين من خلال جهودهم الدائبة تنتشر المعرفة والوعى الاجتماعى ببطء، ويتحقق التقدم بخطى ثابتة: «هؤلاء هم الذين يهمون حقا».

وقد ساعدت نضالات تشيكوف المبكرة وممارسته الطبية فى الإيحاء بفكرة مسيطرة فى فنه: وهى المعركة بين الأمانى البشرية والظروف المعاكسة. وكان قد شاهد وعانى القوة الضاغطة للوراثة والبيئة (وصف أباد ذات مرة بأنه «رجل ذو كفاءة متوسطة غير قادر على النهوض إلى أعلى من موضعه»). ولكن حياته الخاصة قدمت نموذجاً مخالفاً. فتجربته فى تاجنروج علمته أن أهم المعارك المعنوية تكسب أو تخسر لا فى مواضع التوتر الدرامى الشديد بل من خلال سلسلة متعاقبة من الخيارات التى لا تكون إحداها متميزة أو بارزة. ومن هنا تظهر خصائص البطل التشيكوفى - ومنها نستطيع أن نفهم نصيحة تشيكوف إلى ناشر كتبه وصديقه ألكسى سوفورين الذى كان يكتب مسرحية ذات طابع ميلودرامى تقليدى. كتب له يقول:

ليس لك أن تنتهى مع العدميين.
فالنهاية عاصفة وصوتها مرتفع.
مسرحيتك فى حاجة إلى نهاية هادئة.
شاعرية، مؤثرة. وإذا انتهت بطلتها
إلى إدراك أن الأشخاص المحيطين بها
كسالى وأشرار ولا جدوى منهم وأن
عليها أن تدع الحياة تمر، ألن يكون
ذلك أكثر من العدمية مدعاة للخوف؟».

[٢]

كانت غرابة المعتاد، ودراما اللادرامى، هى موضوع المسرحيات التى أحدث بها تشيكوف ثورة فى المسرح الروسى فى العقد الأخير من حياته. وكانت أولى مسرحياته الكبيرة «إيفانوف»، التى احتفظت بعناصر من الميلودراما التقليدية، قد استُقبلت استقبالاً حسناً، أما مسرحية «النورس» (التى استخدم فيها تكنيكه الخاص بصورة كاملة، وتخلى فيها عن العقدة التقليدية) فقد تعرضت لفشل شديد فى ليلة الافتتاح فى شهر أكتوبر ١٨٩٦، ولكنها قوبلت بالاهتمام عند إنتاجها ثانى مرة فى موسكو فى سنة ١٨٩٨، وكذلك قوبلت مسرحياته التالية «الخال فانيا» و «الشقيقات الثلاث» ثم فى يناير ١٩٠٤ «بستان الكرز». والواقع أن «عدم حدوث شىء» فى مسرحيات تشيكوف أصبح منذ ذلك الوقت طابعها المميز. ولكن المناقشات النقدية التى دارت حولها كانت تميل إلى اللجوء إلى إكلاشيهات غامضة مثل الحديث عن قدرة تشيكوف على خلق «الجو» أو «الحالة النفسية». وكثيراً ما فسرت على أنها تعبير حزين عن «روسيا الآفلة» حيث يتأمل ممثلو الطبقة المقبلة على الموت حياتهم الضائعة.

وقد تولى مهمة الإطاحة بتلك الإكلاشيهات، ريتشارد جيلمان فى دراسته البديعة، وهى الدراسة التى تُدين بكثير لتأثير مقالة فرانسيس فرجوسون عن «بستان الكرز» التى وصفها بأنها قصيدة مسرحية عن معاناة التغيير. وقد استعار جيلمان ملاحظة أبداها هنرى جيمس عن هيدا جابلر فى تناوله لمسرحيات تشيكوف «تلك الأشياء التى يفترض أنها ليست درامية: فهى لا تصور حدثاً بل حالة»، والانفعال فيها ينبع من المأزق الذى نواجهه جميعاً بوصفنا كائنات صائرة إلى الموت وخاضعة لتقلبات الزمن والصدفة. وتجلت قدرة تشيكوف على صنع الدرامى من اللادرامى بصورة خاصة فى الشقيقات الثلاث، حيث يؤدى مرور الزمن (الذى وردت الإشارة إليه أكثر من عشر مرات فى الدقائق الخمس الأولى من المسرحية) بلا هوادة إلى تآكل أمل الشقيقات فى تحقيق ذواتهن فى المستقبل عن طريق العودة إلى المدينة التى يربطن هويتهن بها فى ظل ماض يبدو مثاليا: «أين ذهب ذلك كله؟ أين؟ أين؟ إننا لن نصل إلى موسكو أبداً. أبداً أستطيع أن أرى ذلك الآن». وانهيار إيرينا الباكى قرب نهاية الفصل الثالث يعبر عما يصفه جيلمان بأنه «تجسيد الحرمان باعتباره حالتنا». ولكن كل مسرحياته الرئيسية تتعلق بالخسائر التى تحدث نتيجة مرور الزمن. فى ثلاث منها هناك بيت مهدد أو فقد (كما فى «بستان الكرز») وضاع معه أسلوب مفضل فى الحياة وآمال الحب والإبداع لا تتحقق أو تتحقق بصورة تختلف عما كان متوقعاً.

والموضوع المشترك بين المسرحيات هو زوال الأوهام. فالحب والعمل والمستقبل تعرض كلها فى صورة مجردة مثالية تحاول الشخصيات من خلالها، دون نجاح، إنقاذ وضعها الحالى أو تحسينه أو الفرار منه. فست شخصيات فى «النورس» تمارس شوقاً رومانسيا إلى «الآخر» كأداة للخلاص. وشخصيات توزنباخ وفيرشنين فى «الشقيقات الثلاثة»، وتروفيموف فى «بستان الكرز» يتطلعون إلى عصر ذهبى مقبل ينصلح فيه العالم بواسطة العمل. وبالنسبة لإيرينا فى «الشقيقات الثلاث» يعتبر العمل («كم سيكون رائعاً أن يصحو المرء عند الفجر ويجتاز الطرق، أو أن يكون راعياً للأغنام، أو معلماً فى مدرسة ...») جزءاً من حزمة عاطفية تجمع بينه وبين الحب والمستقبل: «لقد ظللت أنتظر أن نرحل إلى موسكو. قد كنت أعرف أنى سألتقى بحبى الحقيقى هناك».

وكما يقول جيلمان، إن الكثير من شخصيات تشيكوف ترغب فى أن تصبح شخصاً آخر، أو أن تنتقل إلى مكان آخر، ولكن المسرحيات تُلزمها بالعودة إلى المكان الذى توجد به الآن، والشخصية التى هى عليها الآن. ولكن ليس هناك إيحاء بالقدرية («الشقيقات الثلاث» و «بستان الكرز» لكل منهما عنوان فرعى: «كوميديا») وبدلاً من التقدم النمطى التقليدى نحو حل عقدة المسرحية نجد ما يسميه جيلمان «مجالاً دراميا»: نطاقاً من ردود الفعل لخسارة وقعت. ونحن لا نرى الشخصيات إلا عندما تكون قد عادت إلى أماكنها السابقة، وليس ثمة ما يحول بينها وبين الاستجابة لأوضاعها المباشرة فى حوار يستجيب للإيقاعات المألوفة فى حياتنا - منقطع، مرتجل، يتأرجح بين الذكريات والتوقعات، وتتناثر فيه الفجوات وانفجار الهزلى فى وسط الجاد.

فى «بستان الكرز»، نجد أن رجل الأعمال لوباخين (الذى كثيراً ما يفسر خطأ على أنه أداة القوى الاجتماعية التى لا ترحم) يتحدث عن «هذه الحياة التعسة والمختلطة»: إنها سمة الحياة العارضة والتى لا يمكن التنبؤ بها (والتى يذكرنا بها باستمرار بوقوع أحداث غير ذات أهمية مثل انقطاع حبل) والتى تفسد آمال الشخصيات وخططها. وبعضها (مثل قسطنطين فى «النورس») يدمره إدراكه للحقيقة المخالفة لما كان لديه من أوهام، وشخصيات أخرى (نينا فى النورس، والشقيقات، سونيا ابنة أخت فانيا) تنضج روحيا بقبولها للقيود وبالإمكانات الضيقة لوضعها. ويخفف من جلدها وقدرتها على التحمل (وهى ميزة خاصة بمسرح تشيكوف كما يقول جيلمان) الفكاهة، والتعاطف، والأمل فى بعض الحالات. فالزمن عندما يغلق بعض الخيارات يفتح خيارات أخرى: القبول بفقد البستان يعنى وجود إمكانات جديدة أمام رانيفسكايا وابنتها آنيا.



وعرض جيلمان للعلاقة بين أفكار تشيكوف وتكنيكه الدرامى يجب أن يقرأه المنتجون والنقاد الذين يصرون على تفسير المسرحيات على أنها دراسة فى الفشل واليأس (فقد وصفت النيويورك أوبزرفر مثلاً الإنتاج الأخير فى مسرح لندن ألميدا لمسرحية إيفانوف بأنه عرض «لأفكار قضى تشيكوف بقية حياته يكتب عنها - ملل المثقفين، والاكتئاب الروسى، وموت نظام الطبقات، والقسوة التى لا سبيل إلى التسامح إزاءها»).

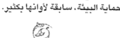
ونحن نعرف أن تشيكوف لم يكن سعيداً بإخراج ستانسلافسكى «لبستان الكرز». ويقال إنه قال لمخرج آخر: «باستثناء جزءين أو ثلاثة، ليس فى المسرحية بهذه الصورة شىء منى. فأنا أصف الحياة، الحياة الرمادية العادية، ولا أصف هذا التشكى والتباكى الممل. وهم يجعلون منى إما طفلاً كثير البكاء أو مجرد شخص يدعو إلى الضجر». وقد شكا ستانسلافسكى فيما بعد من أنه أثناء إجراء البروفات استعداداً لحفلة الافتتاح «كانت البراعم لم تكد تبدأ تتفتح عندما حضر المؤلف ولخبط لنا كل شىء». وتنبع قدرة تشيكوف على الهدم من رؤيته لـ «الحياة العادية». فهو يذكر لنا عن المعتاد أشياء جديدة، ويقدم للخبرة اليومية رؤية تتناقض مع الافتراضات التقليدية، وتتعارض مع المعتقدات المستقرة عن أنفسنا وعن العالم.

[٣]

وحتى نستوعب الرؤية الكامنة فى مسرحيات تشيكوف وقصصه بشكل أوفى نحتاج للعودة إلى حياته ورسائله. فقد اتجه كاتبو سيرته إلى التركيز على القديس واستبعدوا المفكر. ويسعى كتاب «حياة» الجديد الذى كتبه دونالد رايفيلد إلى تقديم صورة لتشيكوف أكمل من أية صورة سابقة. ولكن بحثه فى الأرشيفات الروسية أنتج مجموعة تفصيلية مرهفة من الحقائق عن حياة تشيكوف ولكنها لا تشكل رؤية لعقله وأعماله. فهنا نجد الرجل البديع الذى وصفه ارنست سيمونز ورونالد هينجلى وهنرى ترويات ودانيال جيليز وكثيرون غيرهم: الابن والأخ الذى يضحى بنفسه، والطبيب والمواطن ذو الاهتمامات العامة، والصديق والزوج المحب، والذى تصادف أيضاً أن يكون كاتباً عبقريا، ولكن عالمه الداخلى يظل مراوغاً. ويبدو أن رايفيلد قد اعتذر مقدماً عن محاولة الدخول إلى ذلك العالم. فهو يقول إنه بينما نستطيع أن نعيد بناء فلسفة من حياة تولستوى ودستويفسكى وكتاباتهما «من الصعوبة بمكان أن نحدد ماذا كان تشيكوف يقصد فى الحالات القليلة التى أبدى فيها حكماً قاطعاً أو شرحاً وافياً».

إن المرء ليتذكر رد تشيكوف عندما اتهم بكتابة قصة تفتقر إلى «الأيديولوجيا» حين قال: «ألا تتضمن القصة اعتراضاً على الكذب من بدايتها إلى نهايتها؟ أليست تلك

أيديولوجيا؟». وحتى نفهم أهمية اختلاف تشيكوف مع أولئك الذين انتقدوه، كما فعل تولستوى، لأنه «لم يكشف بعد عن وجهة نظر محددة» يحتاج المرء لأن يعرف شيئاً عن الحياة الفكرية فى عصره (وهو موضوع لم يتطرق إليه كتاب رايفيلد بأى شكل). ومازال أفضل مصدر متفرد لأفكار تشيكوف، هو تلك المختارات من رسائله والتى ترجمها مايكل هنرى هايم وقدمها وعلق عليها سيمون كارلنسكى. وقد نشرت هذه الرسائل لأول مرة فى ١٩٧٣، ولحسن الحظ أنه أعيدت طباعتها فى كتاب غلاف ورقى. وهى تقدم صورة شاملة لآراء تشيكوف فى الأدب والعلم والمجتمع. وجعلتها تعليقات كارلنسكى صورة فكرية واضحة لمفكر ضخم كانت آراؤه بشأن مجموعة من القضايا، من الاهتمامات الجنسية للمرأة إلى حماية البيئة، سابقة لأوانها بكثير.



وقد أوضح كارلنسكى أن من المفاتيح المهمة لتفكير تشيكوف، تلك السيرة الذاتية الموجزة التى كتبها لنشرة جامعية، وفيها يذكر أن دراسته للطب وتعرفه على الوسائل التطبيقية للعلوم الطبيعية كان لهما تأثير جوهرى على إنتاجه الأدبى. ومن الغريب أن هذا الكشف لم يكن جديراً بالمناقشة إلا لدى عدد قليل من المعلقين (رايفيلد لا يشير إليه). ومع ذلك فإن الأهمية التى يعلقها تشيكوف على خلفيته العلمية تبدو واضحة فى رسائله.

فهو يتمسك بأنه على الكاتب (فى إطار الأداء الفنى) أن يكون مخلصاً للواقع التطبيعى فى العالم وللسلوك البشرى، وأن يقدم آراء شخصياته «بموضوعية تامة». وهو كان يحترم تولستوى ولكنه ينفر من قصته التعليمية «سوناتا كرويتزر» التى تناولت الجانب الجنسى فى الإنسان وكشفت عن أن الكاتب العظيم «رجل جاهل، لم يهتم فى أى وقت فى حياته الطويلة بأن يقرأ كتابين أو ثلاثة من الكتب التى كتبها الإخصائيون». وقد ذكر أن الكتّاب الذين لديهم معرفة سطحية بالمنهج العلمى معرضون للاقتناع بوهم أن الجنس البشرى يوشك أن يحل خفايا الوجود الرئيسية. ولكنه تعلم من دراسته أنه لا يجوز أن يتكلم بثقة عن «الموضوعات التى لا يستطيع العلم أن يحيط بها». وعندما وُجِّه الانتقاد لإحدى قصصه لأنها لم تتخذ موقفاً واضحاً من مسألة التشاؤم، أجاب بأنه «ليس من مهمة الكاتب أن يحل مسائل مثل الله، والتشاؤم. إلخ. وأن كل ما عليه هو أن يسجل ما قاله أو فكر فيه هذا الشخص أو ذاك، وفى ظل أية ظروف، عن الله أو التشاؤم».

ولم يكن ذلك يعنى اتخاذ موقف النسبية الأخلاقية. فقد كان لتشيكوف هدف مزدوج: «تصوير الحياة بإخلاص وأمانة، وأن يبين بصورة عابرة مدى انحراف هذه الحياة عن الصورة المرجوة». لكنه قال إن أحداً لا يستطيع أن يحدد تلك الصورة المرجوة: «إننا جميعاً نعرف ما هو العمل غير الشريف، ولكن ما هو الشرف؟ ـ نحن لا نعرف». وقد كتب يقول إنه سيهتدى بتلك المفاهيم للخير التى صمدت لاختبار الزمن: تحرير الفرد من القمع، والأفكار المسبقة، والجهل، والخضوع لسطوة المشاعر.

وأدى هذا النهج العملى إلى جعله متشككاً إزاء كل الآراء الثابتة بشأن التاريخ والأدب. وكانت هناك نظرية من هذا القبيل عن نهضة الرواية الروسية تستبعد تأثير جوجول. وقد اعترض عليها تشيكوف بقوله: «أنا لا أفهم ذلك. فلو أننا اتخذنا موقف التطور الطبيعى فإننا لا نستطيع أن نستبعد ليس جوجول وحده بل لا نستبعد نباح كلب، وأن نضعه خارج التيار، لأن كل شىء فى الطبيعة يؤثر فى الأشياء الأخرى، وحتى إذا كنت قد عطست منذ لحظة فذلك لا يمضى دون أن يؤثر على الطبيعة المحيطة بى».

ونحن الآن نعرف ما يسمى «أثر الفراشة» حيث يقال إن رفرفة جناح فى غابات الأمازون المطيرة يمكن أن تحدث عاصفة فى كاليفورنيا. ولكن نظرة تشيكوف إلى الأهمية التراكمية للتفاصيل الجزئية البسيطة، كان من الناحية الفلسفية سابقاً لعصره بكثير. وكانت الحرب التقليدية بين العلم والفن، اعتماداً على ما يزعمه بناة المنظومات المتنافسون بشأن تنظيم كل شىء فى نمط واحد، تبدو له أمراً غير معقول:

«إن التشريح والفنون الجميلة على حد سواء، كل منهما ينحدر من أصل نبيل، إذ إن لهما أهدافاً متماثلة وعدواً واحداً ـ هو الشيطان ـ وليس هناك أى سبب يدعوهما إلى التقاتل فإذا عرف رجل نظرية نظام الدورة الدموية فإنه يصبح غنياً. وإذا تعلم تاريخ الدين وحفظ إلى جانب ذلك أغنية «إنى أتذكر لحظة رائعة» لأصبح أكثر غنى وليس أكثر فقراً. فنحن نتعامل مع عمليات إضافة مستمرة. ولهذا السبب لم يحدث قط أن تقاتل العباقرة فيما بينهم. وجوته الشاعر كان يتعايش بشكل رائع مع جوته المعنى بالعلوم الطبيعية».

وقد كتب مرة يقول إن للعلم والحدْس الفنى نفس الغرض ونفس الطبيعة. «وربما بمرور الزمن، وبتحسين الأدوات، سوف يندمجان وتتألف منهما قوة هائلة ونافعة، قوة لا نستطيع الآن حتى أن نتخيلها».

وكان تشيكوف قارئاً مدققاً لداروين، ولم يجد صعوبة فى قبول ما لا يزال الكثيرون يجدون صعوبة فى استساغته بشأن الثورة الداروينية: القول بأن أحداثاً منفردة غير ملحوظة من النوع الذى يهتم به الفنان تلعب دوراً مهما كالدور الذى تلعبه القوانين العامة فى تطور الحياة، وأنه ليس للنوع البشرى مصير خاص يعفيه من تقلبات تلك العملية. وقد وجد أوجها للتشابه بين المجاعة والكوليرا التى كانت تهدد منطقته فى بداية التسعينيات من القرن الماضى وبين وباء الأنفلونزا الذى كان منتشراً وقتذاك بين الخيول فى وسط روسيا: «من الواضح أن الطبيعة تبذل كل ما فى وسعها للتخلص من الكائنات الضعيفة والكائنات التى لا تستفيد منها». وكان تشيكوف ينظر إلى ما تتسم به الحياة من سرعة الزوال وانعدام القدرة على التنبؤ دون استياء. كتب يقول لسوفورين إن الطبيعة «تعطى الشخص رصانة. والمرء يحتاج إلى رصانة فى هذا العالم. وأصحاب الرصانة وحدهم هم القادرون على رؤية الأشياء بوضوح، وأن يكونوا منصفين، وينصرفوا إلى العمل».

وليس هناك ما يدعو للاكتئاب فى هذا القبول للأمور كما هى. فنفس الخطاب يحتوى على وصف بديع ودقيق للربيع فى حديقة أوكرانية تزدهر بحياة جديدة متعددة الأشكال «حيث لكل ساعة من ساعات النهار والليل خصوصيتها. بين الثامنة والتاسعة مساء، على سبيل المثال، تمتلئ الحديقة بما يمكن أن يوصف حرفيا بأنه زئير الفراشات». وكان تشيكوف يعتقد أن الشوق الرومانسى إلى عالم مبنى على نموذج المثل الدينية أو العقلية للكمال قد أعمى النوع البشرى عن جمال العالم الفعلى الذى يعيش فيه وإمكاناته الثرية.

وقال «إن تاريخ الاكتشافات الروسية فى الشرق الأقصى، وهو التاريخ الذى قرأه استعداداً لرحلته إلى سخالين يكفى ليجعلك راغباً فى تأليه الإنسان، ولكننا لا نهتم بذلك، فنحن لا نعرف حتى من كان الأشخاص الذين قاموا بتلك الاكتشافات، وكل ما نفعله هو أن نجلس بين جدراننا الأربعة ونشكو من الصورة التى خلق بها الله الناس».

ومن الأفكار الأساسية فى «الخال فانيا» ما يرد على لسان الدكتور أستروف من تنديد حماسى بالتدمير العشوائى للطبيعة الروسية: «إن الغابات تصير أقل فأقل، والأنهار تجف. والحيوانات البرية تنقرض، ومع كل يوم يمر يصبح كوكب الأرض أشد فقراً وأكثر قبحاً». وجمال العالم الطبيعى هو موضوع أحد أعمال تشيكوف المتسمة بالتجديد، وهى القصة الطويلة المسماة «البرارى» عن رحلة فى جنوب روسيا يقوم بها صبى فى التاسعة من العمر، تتداخل فيها رؤيته بمظاهر السهول الروسية المتغيرة أبداً فى الصيف مع رؤى مؤلف الرواية.

وبعد أن يصف تشيكوف نباتات البرارى وحيواناتها بدقة نادراً ما نجح المترجمون فى نقلها، تتناول القصة الروائع التى يمكن أن يكشف عنها عالم الأشياء اليومية للمراقب اليقظ. فالفتى فانيا بعينه المتأملة يستطيع أن يرى الثعالب تلعب فى أوجارها، والأرانب تغسل أقدامها: «إلى جانب العالم الذى يراه كل إنسان» كان لدى فانيا «عالم آخر خاص به، لا يستطيع أن يصل إليه شخص آخر، ربما يكون عالماً رائع الجمال. وعندما كان يتطلع حوله يملؤه الشعور بالبهجة كان من الصعب على المرء ألا يحسده».

كتب تشيكوف يقول: «ربما تؤدى البرارى إلى فتح أعين المعاصرين وتريهم مجالات الروعة والغنى والجمال التى لم يكشف عنها بعد، وعن المجال الذى مازال مفتوحاً أمام الفنان الروسى». وراء هذه الرغبة المتواضعة تكمن غواية عميقة: تمثل تحدياً للافتراضات الجمالية والأخلاقية الكامنة وراء الطموح التقليدى إلى الجمال والخير باعتبارهما شكلاً من الكمال الذى لا يتغير، والمثل التى تتخطى التاريخ والزمن.

وتمسُّك تشيكوف بالقيمة الجوهرية للحياة العابرة يذكرنا بشكل مدهش بالنص المعنون «من الشاطئ الآخر» الذى كتبه ألكسندر هيرزن فى سنة ١٨٥٠ وهاجم فيه كل التهويمات الدينية والعلمانية التى لا ترى فى الحاضر غير معبر فى الطريق إلى هدف مقبل. وفى ذلك العصر الذى كان قد بدأ يتطلع إلى العلم ليقدم تفسيرات شاملة للعالم والسلوك البشرى، ولضمان التقدم الحتمى أشار هيرزن إلى بطء التغيير وصعوبة التنبؤ به، وإلى دور المصادفة والوراثة والفسيولوجيا فى إحباط محاولاتنا لفرض اتجاه عقلانى على التاريخ. ففى التاريخ، كما فى الطبيعة «كل شىء مرتجل وليس ثمة شىء ثابت».

وقد حث هيرزن على أن نطوع رؤيتنا الأخلاقية لتدفق الحياة، عن طريق زيادة استجابتنا للواقع الراهن. وقد قادت ملاحظة تشيكوف للعالم الطبيعى إلى استنتاجات مماثلة جعلته معارضاً لمثال تولستوى فى الكمال الأخلاقى، الذى كان يتطلب تضحية كل الارتباطات والرغبات التى تحول دون سعى البشرية إلى الخير بتعريفه الضيق. كتب تشيكوف إلى سوفورين يقول «وا أسفاه! إنى لن أصبح تولستويا أبداً! فأنا أحب فى المرأة الجمال قبل كل شىء، وأحب فى تاريخ البشرية الثقافة التى تتمثل فى السجاجيد والعربات ذات اليايات وعمق التفكير». ولكنه لم يكن من المغرمين بعلم الجمال: وقد اتهم أحياناً بأنه يتبع نزعة طبيعية فجة فى كتاباته. وقد رد على ذلك بقوله «إن أكوام السبخ تقوم بدور محترم للغاية فى الطبيعة».

وكانت هذه النظرة الشاملة إلى اهتمامات الفن تتعارض مع المقدسات السائدة فى عصره. وقد اعترف بذلك ساخراً عندما قال إنه من بين جميع الكتّاب الروس المعاصرين «إنى أقلهم جدية وأكثرهم رعونة. فقد أحببت ملهمتى، ولكنى لم أولها الاحترام اللازم، وخنتها، وكثيراً ما أخذتها إلى عوالم لا تناسبها». لقد كان حب الاستطلاع لديه بلا حدود. وهو فى مراسلاته مع أسرته يسأل باهتمام عن صحة نمس عصبى كان قد أحضره معه من جولاته فى الشرق الأقصى. ويقول كارلنسكى إنه من الصعب أن نتصور أن يلاحظ دستويفسكى مجرد وجود كائن كهذا. كما أنه من الصعب أن نتصور أن يكتب دستويفسكى أو تولستوى العبارة التالية (فى رسالة يشكو فيها تشيكوف من الضغوط المالية التى تلزمه بألا يكف عن الكتابة): «مثلى الأعلى: أن أظل بلا عمل، وأن أحب فتاة سمينة الجسد». كتب فى إحدى مذكراته يقول إن البقاء بلا عمل «يعنى الاستماع عن غير قصد إلى ما يقال، ورؤية ما يجرى ولكن الشخص الذى يعمل يكون مشغولاً بعمله، لا يسمع إلا قليلاً ولا يرى إلا قليلاً».



وقد مارس حبه للكسل الإبداعى. وختم رحلته إلى سخالين بجولة بحرية هادئة فى المحيط الهندى، وأعقبها فى السنة التالية بجولة طويلة فى أوروبا الغربية. ورسائله من الخارج لا تتسم بذلك الشوق العنيف إلى الوطن المميز لكتابات معظم كتاب روسيا العظام. فقد تملكه الإعجاب أيضاً بسكان سيبيريا المحليين، كما أعجبه تأنق فتيان فيينا، وأسعدته عواصم أوروبا العظيمة بما فيها من فنون وعمارة، وبأناقة نسائها، وبالوفرة الظاهرة فى محلاتها. كانت رؤيته لفتاتين من هولندا فى روما جعلته يصور «مسكناً صغيراً أنيقاً ذا حواف بيضاء، وزبداً ممتازاً، وجبناً هولنديا فائقاً، ورنجة هولندية، وقسا محترماً، وناظر مدرسة وقوراً، وتدفعنى إلى الرغبة فى أن أتزوج فتاة هولندية صغيرة عذبة، وأن نتحول أنا وهى وبيتنا الصغير الأنيق إلى رسم على صينية». والراوى فى قصة «قصة بلا مؤلف» وهى من أعمق أعمال تشيكوف، يعرف أنه سيموت عما قريب بداء السل، وتتملكه الرغبة فى أن يعيش المدة الباقية له معيشة حافلة. «كنت على استعداد لأن آخذ فى حياتى القصيرة كل الإمكانات المتاحة للإنسان. كنت أريد أن أتكلم، وأقرأ، وأعمل فى مصنع كبير، وأقف فى نوبات الحراسة، وأحرث الأرض. كنت أتشوق إلى شارع نفسكى بروسبكت، وإلى الحقول، وإلى البحر، وإلى كل مكان يستطيع خيالى أن يمتد إليه».

ولم يكن ذلك هو الهروب الذى لجأت إليه بعض شخصيات تشيكوف الأخرى. فالراوى (وهو ثورى انقشعت عنه الأوهام، ويضفى عليه المؤلف كثيراً من آرائه الخاصة) ينجذب إلى «الحياة العادية اليومية». ويحلم بما يشعر به المرء عندما تكون له «زوجة، وغرفة للأطفال، وبيت صغير به ممرات فى الحديقة» أو أن يكون سيداً ريفيا، أو أستاذاً جامعيا، أو أحد ضباط البحرية المتقاعدين، أو سائحاً، أو مستكشفاً. وكان تشيكوف مغرماً بأشكال الحياة البعيدة تماماً عن خبرته الشخصية، وإن كان قد نجح فى الجمع بين عدد كبير من أشكال الوجود المتوازية خلال سنواته الأربع والأربعين ـ الكاتب، والطبيب، وصاحب النشاط الاجتماعى، والمزارع، والبستانى (الذى يلقى الإعجاب لمهارته فى تقليم الورود)، ثم

خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياته، زوج الممثلة «أولجا نيبر». ولئن كان عملها الفني في مسرح موسكو للفنون قد حكم عليهما بقضاء أوقات طويلة متباعدين، فإن مراسلاتهما لا تدع مجالاً للشك في عمق مشاعر كل منهما تجاه الآخر.



وعندما شخّص الأطباء في عام ١٨٩٧ مرض تشيكوف بأنه السل المتقدم، جاء تولستوي إلى فراشه في المستشفى ليناقش معه أمور الموت والخلود، ولكن تشيكوف ظل بعيداً عن الاهتمام بتلك الأمور البعيدة (كانت كل أعراض المرض موجودة لديه منذ ما يقرب من عشرة أعوام لكنه آثر تجاهلها). وهو لم يكف قط عن الأمل في الشفاء، وظل يمارس أنشطته المتعددة بقدر ما يستطيع: وفي الشهور الأخيرة لحياته كثيراً ما عبّر عن عزمه على التطوع كطبيب عسكري في قوات الشرق الأقصى الروسية. وتضمنت رسالته الأخيرة، التي كتبها من بادنڤيلر حيث مات في يوم ٢ يوليو ١٩٠٤، الرأي التالي: «لا توجد امرأة ألمانية واحدة أنيقة في ملابسها: إن افتقارهن إلى الذوق يدعو إلى الاكتئاب». وتصف زوجته لحظاته الأخيرة في مشهد يبدو وكأنه من مشاهد تشيكوف المسرحية الخالصة. فقد طلب من طبيبه إحضار شمبانيا لتهدئة تنفسه، وجلس تشيكوف في فراشه وقال للطبيب بالألمانية «إني أختنق».

«ثم رفع كوبه، والتفت إليّ، وابتسم ابتسامته الرائعة وقال: لقد مضى وقت طويل منذ أن شربت الشمبانيا. وشرب كأسه كاملة حتى الثمالة، ورقد بهدوء على جانبه الأيسر ولم يلبث أن صمت إلى الأبد. ولم يخرق الصمت غير فراشة ليلية ضخمة ظلت تصطدم بمصابيح الضوء بشكل مؤلم ثم انفلتت الفلينة من زجاجة الشمبانيا نصف الفارغة محدثة صوتاً عالياً».

وفي مقالة كتبها الفيلسوف الروسي ليو شستوف بعد موت تشيكوف مباشرة يقول إن تشيكوف في كل حياته الأدبية «لم يفعل غير شيء واحد، فهو بطريقة أو أخرى، دمر أحلام البشر». و«النورس» نموذج في هذا المجال، حيث نجد أنه «في كل شيء وفي كل مكان تسيطر الصدفة المستبدة، ويصدر عنها تحد جريء لكل الآراء الشاملة عن العالم».

ولكننا برؤية أطول أمداً نرى أن تشيكوف ليس متشائماً، وإنما هو بشير مبكر بمحاولات القرن العشرين للعثور على قواعد جديدة للقيم الأخلاقية. وكان مطلعاً على أفكار نيتشه. وبالرغم من أنه لم يعجب بتأكيد الذات لديه فقد قال مرة إنه يتمنى أن يلتقي به في قطار أو على ظهر سفينة، وأن يقضي الليل كله يتكلم معه. ويمكن النظر إلى فنه على أنه يقدم بديلاً محسوباً لصدمات نيتشه الكهربائية القائلة بأنه ليس ثمة حقائق خالدة بل ولا قيم خالدة: فنحن «تاريخيون من البداية إلى النهاية». وفي السنوات الأخيرة من حياة تشيكوف أصبح أدباء الطليعة الروس شغوفين برؤية نيتشه غير المنطقية لإرادة القوة باعتبارها الخالق الوحيد للقيم: لكن دراسة تشيكوف العلمية هَدَته إلى موقف أكثر تعقلاً لكنه ليس بأية حال موقفاً متشائماً بشأن طبيعة وحدود حرية الإنسان في عالم «كل شيء فيها نسبي وتقريبي». وهذا الجانب من عمله مازال في حاجة إلى مزيد من الاهتمام. وقصصه، أكثر من مسرحياته، تشهد بالقدرة على الجمع بين رؤية الفنان ونظرة العالم الدارويني، وما يعنيه وجود كائنات يشكلها الزمن والصدفة.

ووزن الزمن الماضي يضغط على شخصيات تشيكوف في صورة الوراثة والبيئة والذاكرة والعادة، مما يحول دون التحول الشخصي أو الاجتماعي الذي يطمحون إليه. وتاريخ أسرة تشيكوف نفسها منعكس في القصة الطويلة «ثلاث سنوات» Three Years حيث نجد التاجر الشاب لابتيف، المنحدر من أجيال من عبيد الأرض، يشعر بأنه مسحوق تحت عبء الماضي، وثروته لا تعوض عن عدم شعوره بأن له قيمة شخصية. وقد رد على صديق يعتقد بأن روسيا لن تلبث أن تمر بتحول يحرر روحها، بقوله: «سوف تمضي سنوات طويلة قبل أن يخرج العبيد من أرواحنا». والشخصيات الذين تتجاوز مواهبهم ورؤاهم ظروف بيئتهم يعانون مما يصفه تشيكوف (في رسالة إلى المخرج ماير هولد) بأنه «نوع من الوحدة التي لا تشعر بها غير الشخصيات السامية» والتي تتمثل في حالة من الانفعال المزمن.

إن العزلة والحب غير المتبادل الذي يصاب به كثير من شخصيات تشيكوف، هو في كثير من الأحيان نتيجة للاختلاف في سرعة ومسارات نموها الفكري والعاطفي. فحياة لابتيف يدخلها السم على مهل عندما يعرف أن زوجته لم تتزوجه إلا للهروب من الوحدة والفقر. وهي بعد أن تمضي السنوات تبدأ في الشعور نحوه بالحب، في الوقت الذي لم يعد فيه قادراً على الاستجابة لهذا الحب. والفتى الثوري الذي انقشعت عنه الغشاوة، والذي يقوم بدور الراوي في «قصة بلا مؤلف» يقع في حب امرأة لا تريد منه غير الشيء الذي لم يعد قادراً على منحه: «إيمان يعيد لحياتها معناها».

وكان عرض شكل الشخصية عن طريق الزمن أصعب على المسرح، وهو ما اكتشفه تشيكوف من خلال تصويره لشخصية ايفانوف الثري المتبرم بالعالم. وهو يذكر لسوفورين أن العلاقة بين ايفانوف البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً وجارته ساشا البالغة من العمر عشرين عاماً كان مقصوداً به بيان الصدام بين الحياة الواقعية والأوهام الرومانسية. وقد رأى النقاد في إيفانوف وغداً، ولم يلاحظوا أن خموده الذي تقطعه من حين لآخر نوبات من الحماسة، قد أصبح حالة مزمنة، وأن رغبة ساشا في إقامته على قدميه كانت مبنية على أفكار أدبية عن قدرة الحب على إنقاذ البشر. وقد كتب تشيكوف يقول:

«إنها لا تدرك أن الحب بالنسبة لإيفانوف هو مشكلة إضافية، طعنة أخرى في الظهر، فماذا يحدث؟ تهتم ساشا بأمره لمدة سنة كاملة، ولكنه بدلاً من أن يشفى يغرق أكثر فأكثر.

وبطبيعة الحال فإني لا أستخدم تعبيرات مثل التهييج والإرهاق إلخ.. في المسرحية، فقد كنت آمل أن يكون القارئ والمتفرج منتبهاً ولا يحتاج إلى لافتة مكتوب عليها: هذا خوخ وليس برقوقاً».

ويذكر أحد المعاصرين لتشيكوف أنه ذكر في إحدى المناسبات أن المسرح يجب أن يصور الأشياء كما تحدث بالفعل: «الأشخاص يتناولون عشاءهم، أي مجرد تناول العشاء، وفي الوقت نفسه تتشكل سعادتهم أو تدمر حياتهم».

ويبدو أن المصادفة أحياناً تغير مسار الحياة (كما في «بستان الكرز» حيث يسمع صوت من خارج المسرح يمنع لوباخين من التقدم لطلب يد فاريا) ولكن خضوع الشخصية للقدر في مثل تلك اللحظات يبدو في القصص معتمداً جزئياً على نظره. وقيم تشكلها الخيارات السابقة.

فالبطل الأساسي الذي أطلق اسمه على قصة «يونيخ» طبيب ريفي، انجذب إلى شابة يستطيع أن يناقش معها الأدب والفن. وهي تغادر المدينة من أجل الدراسة، بينما يغرق هو في الحياة الأنانية والجامدة في البيئة المحيطة به. وعندما تعود الفتاة بعد أربع سنوات يشعر بالقلق لأنها تذكره بما كان عليه من مثالية في السابق ويبدأ في تجنبها، إلى أن يأتي يوم يقرر فيه، وهو مار بمسكنها، أن يدخل ليراها «لمدة دقيقة، ولكنه يراجع نفسه ويحجم عن الدخول. ولم يحدث بعد ذلك أن زار عائلة توركين في أي وقت». وتنتهي القصة بعد مرور بضع سنوات نشهد فيها نتيجة خياراته المتعاقبة: حياة موحشة ومدمرة.

والقدرية التي تميز بعض شخصيات تشيكوف إنما هي ذريعة لتجنب المسئولية عن الحرية المعنوية: وهو يريد منا أن نرى أن الماضي لا يمنع بالضرورة إمكانية الاختيار الحقيقي، ولا هو يحدد مسبقاً إمكانات الحاضر. ونجد في القصص أن رؤية بعض الشخصيات تشوهها أشواق رومانسية، ولكن شخصيات أخرى مثل سائق العربة فانيا، يستطيعون أن يروا أعماقاً مختفية فيما تغلب عليه التفاهة الظاهرية. فلابتيف منقبض لرتابة شتاء موسكو الخالي من البهجة، في حين أن صديقه (الذي تزداد نظرته إلى الحاضر ثراء بتعلقه بتاريخ روسيا) مبتهج بالمباني الرمادية المغبرة التي يغسلها المطر.

وفي نهاية الفصل الرابع من «النورس» تتذكر نينا الطائر الذي أصيب بالرصاص والذي وضع تحت قدميها قبل بضع سنوات: «إني نورس! كلا، ذلك ليس صحيحاً لقد تغيرت. لقد أصبحت ممثلة حقيقية». وهي تتخلى عن الصورة الرومانسية للضحية وتنكر قدرة الماضي على أن يحدد المستقبل. وهناك مجموعة من الشخصيات في المسرحيات، من أكبر الشقيقات أولجا وهي في العشرينيات من عمرها، إلى «الدكتور دورن» في «النورس» وهو في الخامسة والخمسين، تشعر بأنها قد شاخت قبل الأوان، وتلك طريقة للتعبير عن شعورها بأن الظروف أوقعتها في شرك. نجد في القصص أن الرجال يعتريهم الهرم بشكل مرئي، أما النساء فيصبحن أقل جمالاً، نتيجة لخسارة عاطفية. لكن هناك شخصيات أخرى تستطيع، ولو لفترة قصيرة، أن تخدع الزمن عن طريق اتخاذ موقف متغير تبعاً للخبرة، فـ «العزيزة» التي ترملت مرتين وتقدم بها السن قبل الأوان، في القصة التي تحمل هذا الاسم، تسترد شبابها عندما تجد أنها قادرة على رعاية طفل فقد أمه.



وقد اعترض تشيكوف على ميل نقاده لوصف شخصياته بأنها شخصيات فاشلة: «إن تصنيف الناس بين ناجحين وفاشلين هو نظر إلى الطبيعة البشرية من زاوية ضيقة ومنحازة. فهل أنت ناجح أم لا؟ وهل أنا ناجح؟ وماذا عن نابليون؟ وأين هو المعيار؟ إنك يجب أن تكون إلهاً لتميز النجاح من الفشل دون أن تقع في خطأ». إن شخصياته تملك خاصية «غير مكتملة» وهي السمة التي اكتشفها ميخاييل باختين في أبطال دستويفسكي، فهم يعبرون عن حريتهم من خلال قدرتهم على الإدهاش: فكاتب صغير ومبتذل في وظيفة حكومية يجلس أمام البيانو ويعزف بعمق ونبل في المشاعر يثيران الدهشة - ثم يعود إلى شخصيته المعتادة. و«البطل المجهول» لتشيكوف يقول لمثقف متبرم بالحياة إن الوقت لا يكون متأخراً أبداً عن إعادة تشكيل المرء لحياته: «إن اللص المعلق على الصليب كان قادراً على استعادة بهجة الحياة والأمل الواثق الجسور، رغم أنه لم يكن أمامه غير ساعة واحدة يحياها». «إننا نمنح الحياة مرة واحدة، وعلى المرء أن يحياها بشجاعة، بوعي تام وجمال».

وهذا بالتأكيد «ما كان يقصده تشيكوف»! ■

ترجمة: أسعد حليم

«كانت هناك رقة بالغة في عينيه، بها لطف وحنان. وكان ضحكه، وهو بلا صوت تقريبا، يحتوي على شيء جذاب جدًا، لم أعرف أحدا مثل تشيكوف يستطيع أن يضحك بهذه «الروحانية».

مكسيم جوركي



التـــاريخ الخـــفى لســـتـــة قـــرون من المرض

إذا ظهر الـوبـاء ..
فتِّش عن الاستعمار!

محمد صادق صبور

الجنرال أمهرست قائد الجيش البريطانى فى أمريكا الشمالية أمر عام ١٧٦٣ بأن ترسل البطاطين وملاءات الأسرة المحملة بالجدرى إلى من تبقى من الهنود الحمر لتعجل بفنائهم.

■■ هذا كتاب عظيم ويحوى دراسة مستفيضة عن الأوبئة الكبرى التى أصابت الإنسانية: الطاعون والجذام والجدرى والزهرى والكوليرا والحمى الصفراء والملاريا خلال القرون الستة الماضية. ويحوى الكتاب أكثر من مجرد العرض التاريخى لتلك الأوبئة، فالمؤلف شلدون واتس - وهو مؤرخ اجتماعى وثقافى وأستاذ التاريخ الزائر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - يعرض آراءه وانطباعاته المبتكرة فى دراسة الأمراض العالمية، ويستعرض الارتباطات بين تحرك الأوبئة ومظاهر التسلط الاستعمارى فى الأمريكتين.

يفحص واتس العلاقة بين مهنة الطب قبل تحديثها والكوارث التى ألمت بالعالم من تلك الأوبئة، مثل وباء الطاعون الذى أصاب أوروبا الغربية والشرق الأوسط، والجذام الذى حل بالبلدان الغربية فى العصور الوسطى وفى بلدان المناطق الحارة فى القرن التاسع عشر، وانتشار الجدرى إلى العالم الجديد مع بداية عصر الكشوفات الجغرافية الكبرى، والزهرى والأمراض غير التناسلية مع ارتباط أوروبا بآسيا، والكوليرا فى الهند إبان الحكم البريطانى، والملاريا على شاطئ المحيط الأطلنطى فى عصور انتقال العبيد من أفريقيا إلى الأمريكتين. درس المؤلف باستفاضة العلاقة بين التغيرات البيئية العنيفة والمرض، وبين المرض والمجتمع.



يعرض الكتاب فى بابه الأول استجابة الإنسان للطاعون فى أوروبا الغربية والشرق الأوسط بين عامى ١٣٤٧ و١٨٤٤. فقد أبحرت على سفن لتجار البندقية من ميناء كافا على البحر الأسود فى صيف عام ١٣٤٧ جرذان وبراغيث تحمل ميكروب الطاعون، ومرت فى مضيق الدردنيل ثم أفرغت بضائعها فى موانى مسينا فى صقلية، وبيزا وجنوة على الشاطئ الغربى لإيطاليا ثم مرسيليا فى جنوب فرنسا، وأبحرت سفن أخرى لتجار البندقية من كافا إلى ثغور عند مصب نهر النيل فى مصر. وبعد بضعة شهور اجتاح وباء لم يسبق لإنسان تلك البلاد أن عرفه. قتل الرجال والنسوة والأطفال، وامتد إلى بقية شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وشواطئ المحيط الأطلنطى وسواحل بحر البلطيق، ثم امتد عبر الأنهار إلى داخل البلاد ثم عبر الحقول إلى جميع البشر فى أعماق أوروبا. تسبب وباء الطاعون الكاسح فى وفاة ما يتراوح من ثُمن إلى ثلثى البشر بين عامى ١٣٤٧ - ١٣٥١ (قتل فى المتوسط ثلاثة أعشار جميع الأوروبيين - أى حوالى ٢٤ مليونا). وتسبب هذا الوباء أيضا فى وفاة ربع سكان الشرق الأوسط، مصيبا أكثر ما يصيب النساء الحوامل والأطفال. وقد أصاب وباء الطاعون مدينة فلورنسا ثمانى مرات بين عامى ١٣٤٨ و١٤٢٧ وقتل جمعا هائلا من سكانها. وقد فرضت المناطق الثرية من إيطاليا (توسكانيا، ليجوريا، لومبارديا، فينيتيا) الحجر الصحى على المناطق الموبوءة وثبتت فاعليته فى احتواء الوباء، وظل هذا التقليد متبعًا حتى سنة ١٦٦٠ عندما فرض عليه القوم الحجر الصحى وبقية الإجراءات، وتسبب فى انحسار وباء الطاعون من أوروبا، وأكد هذا الإجراء ارتفاع شأن النبلاء بين أقوامهم وسلطتهم عليهم. أما فى الشرق الأوسط، فلم يتخذ أى إجراء فعال لمقاومة وباء الطاعون، حتى تولى

Epidemics and History: Disease, Power, and Imperalism
(الأوبئة والتاريخ: المرض و السلطة والإمبريالية)
by Sheldon Watts
New Haven: Yale University Press, 1998

الأمر محمد على عام ١٨٠٥ وكان عدد سكان مصر قد بلغ ثلاثة ملايين نسمة فحسب بعد أن كان عددهم يزيد على تسعة ملايين نسمة قبل أن يحل وباء الطاعون فى المنطقة عام ١٣٤٧.

ولعل أول ذكر فى التاريخ لكارثة الطاعون هو ذلك الوباء الذى حل بمدينة أثينا فى عام ٤٢٧ قبل الميلاد، ثم ذلك الوباء الذى عم العالم بين عامى ٥٤١ - ٧٧٥ فى العصور المسيحية الأولى، ثم الوباء العالمى الثالث بين عامى ١٣٤٧ - ١٨٤٤. وأخيرا بين عامى ١٨٩٠ - ١٩٤٥. فى هذا الزمن الأخير أتاح تقدم العلم الفرصة لكل من العالمين العظيمين روبرت كوخ الألمانى، ولويس باستير الفرنسى - أن يكشفا منفردين عن ميكروب الحمى الفحمية - الأنثراكس: هذا المرض الذى يصيب أصلا الماشية والخيل، ولكنه قد يصيب الإنسان. ثم أمكن لعالم يابانى يدعى شيبا سابورو، كان مساعدا لكوخ، وطالب سويسرى يدعى ألكسندر يرسين، كان مساعدا لباستير، أن يكشفا عن ميكروب الطاعون من وباء حل بمدينة هونج كونج عام ١٨٩٤ فى أنسجة جرذان وبشر توفوا بالطاعون: وبعد عامين تمكن الفرنسى سيموند من أن يكشف فى بومباى أن برغوث الجرذ هو الحلقة الناقصة الناقلة للميكروب بين الجرذان بعضها البعض، وبينها وبين الإنسان.

قبل أن يحل وباء الطاعون بأوروبا كان الاعتقاد لدى أهالى العصور الوسطى - المبنى على آراء الأقدمين من أمثال أبوقراط وجالينوس - أن الأمراض يتسبب فيها الطقس الردىء وتلوث الجو: لهذا نصح أصحاب الرأى السديد بتطبيق مبادئ الصحة العامة، فرفعت أكوام القمامة من الطرقات ورفعت بقايا الحيوانات من أمام حوانيت القصابين، وكذلك الدماء والسوائل وبقايا دبغ الجلود والمخلفات الآدمية من أمام أبواب البيوت: وإذا اشتدت وطأة مرض ما فى أى مجتمع طردت المومسات ومن تشوبهم شوائب أخلاقية من المدن.

وعندما حل الطاعون بمدن توسكانيا أضيف لهذه التعليمات كنس الشوارع وإزالة جثث الموتى من الطرقات ودفن الموتى بمجرد حدوث الوفاة، وطلب من رجال الدين إقامة الصلوات طلبا لمغفرة العزيز الجبار.

وفى فلورنسا هرب غالبية أعضاء البيوتات النبيلة الخمسمائة، وكان الشعار المرفوع يومئذ «اهرب بجلدك مسرعا إلى أبعد مكان ولا تعودن إلا آخر الناس».

أول مدن هاجمها الوباء كانت الموانئ، ثم امتد الوباء فى وديان الأنهار، خاصة نهر الراين، الشريان الطولى الرئيسى بأوروبا والذى تتركز عليه المدن التجارية. وبمقدم وباء الطاعون اشتدت بين الناس حمية التطهير العرقى واشتعلت ضد اليهود - الذين سبق وتعرضوا لمثل تلك الحملة عام ١٠٩٠ خلال الحرب الصليبية الأولى.

كان اليهود هم المتهمون لأنهم سبق وصلبوا السيد المسيح من قديم الزمان، فمُنعوا من زراعة الأراضى وحُرِّم عليهم العمل كفلاحين، ولذا سكنوا المدن وزاولوا التجارة وتسليف النقود وبيع الدواء. وكان أبناء اليهود - على خلاف أبناء المسيحيين - يقرأون ويكتبون، وعلى دراية باللغة العربية وبقية لغات الشرق الأوسط القديمة، ولذا سهل عليهم الاطلاع على العلوم والمعارف القديمة. كان كثير من الأطباء من اليهود وكان من السهل تمييزهم واضطهادهم عند اللزوم.

وفى الشرق الأوسط، عندما حل الطاعون الدملى عام ١٣٤٧ كان الجزء الغربى من البلاد الإسلامية تحت حكم المماليك، وكان مقر الحكم هو قلعة الجبل فى المقطم فى مدينة القاهرة. وكانت رقعة ممتلكات المماليك تمتد من أسوان جنوبا حتى فلسطين وسوريا شمالا. وكانت القاهرة قبل أن يحل وباء الطاعون أكثر مدن العالم سكانا، وكان يسكنها نصف مليون نسمة، مات منهم ٢٠٠ ألف بين أكتوبر ١٣٤٧ ويناير ١٣٤٩. حدث الشيء نفسه فى سوريا التى رحل فلاحوها ملتجئين إلى دلتا النيل.



وعندما أحس البدو بحلول وباء الطاعون فى الدلتا والصحارى انطلقوا بسرعة على إبلهم وابتعدوا كيلو مترات أخرى فى أعماق الصحارى، وهكذا وقوا أنفسهم من الإصابة بهذا الوباء، وظلوا على عددهم الذى يبلغ مئات الآلاف فحسب، بينما تناقص عدد سكان مصر من الفلاحين من ثمانية ملايين إلى ثلاثة ملايين بين عام ١٣٤٦ وعام ١٨٠٥ من تعاقب أوبئة الطاعون المتتالية.

ولم يحاول المماليك - الحكام فى مصر وسوريا - أن يبذلوا أى جهد للسيطرة على الطاعون أو محاصرته أو القضاء عليه - كما عمل نبلاء إيطاليا فى بلادهم. كان المماليك غرباء عن الشعب، جُلبوا أطفالا من قبائل من الترك أو القوقاز فى أواسط آسيا جنوبى روسيا وشمالى البحر الأسود، وكان كل همهم الثراء من البلاد التى حكموها جيلا بعد جيل.

أطاح الطاعون (الموت الأسود) بكثير من رجال الجيش الفرنسى الذين قدموا مع الحملة الفرنسية إلى مصر. بدأ الطاعون يجتاح الجيش بعد ستة أشهر من الغزو، وبدأت أولى حالاته فى دمياط، وأمر نابليون بتسميته «الحمى الوبائية»، وظلت كلمة الطاعون الدملى محظورة طوال تفشى الوباء، فقد كان بونابرت يرى أن أشد أخطار المرض هو الخوف من المرض والوهم منه. ورأى أن خير وسيلة لوقاية الجيش منه هو شغله وجعله يواصل مسيرته، وقد نجح نابليون نجاحا بالغا فى إقناع جنوده أن هذا المرض ليس الطاعون وإنما هو حمى مصحوبة بدمامل، وكان يمسك بفراش الجنود المصابين بالطاعون، وأدى هذا إلى خجل بعض الأطباء الذين كانوا قد هربوا من رعاية المرضى، فعادوا إلى مباشرة أعمالهم بعد مشاهدتهم لهذا الموقف.

لقد أنقذ نابليون جيشه من فناء محقق من وباء الطاعون، حين اتخذ إجراءات صارمة للوقاية ومراعاة أصول النظافة.

ورغم ذلك بلغت إصابة الطاعون أشد ما تكون إبان الحملة على الشام وخاصة فى أثناء حصار عكا. إذ تفشى المرض بشدة فى صفوف جيش نابليون، وأقيمت مستشفيات ميدانية عديدة لاستقبال حالات الطاعون خلال رحلات الذهاب والإياب للقوات الفرنسية فى فلسطين والشام.

وأصاب الطاعون كثيرا من المصريين: فقد هلك سكان عديد من قرى الصعيد عن بكرة أبيهم. وفى القاهرة كانت تسمع الأنات والصرخات من كل البيوت، ووصل الحال إلى جمع العديد من الجثث فى النعش نفسه. لم يرحم الطاعون طفلا ولا شابا ولا كهلا ولا شيخا عجوزا، ولم يفرق بين رجل وامرأة، بل حصد الجميع. توفى من الطاعون ٦٠٠٠ من جنود الحملة الفرنسية بخلاف ١٠٠,٠٠٠ من المصريين، غالبيتهم فى الوجه القبلى.

فى عام ١٨٠١ اجتاح الطاعون القاهرة، وبلغ عدد الضحايا فى القاهرة وحدها ٣٠,٠٠٠.

عندما تمكن محمد على من الاستقلال، أدرك وجوب تقديم خدمة صحية متميزة لأفراد شعبه، وكانت مصر أول دولة فى البحر المتوسط تنعم بخدمات صحية - امتدت إلى أعماق الريف - فقد كلف كلوت بك بإنشاء أول مدرسة للطب على النمط الحديث عام ١٨٢٧، وعندما هاجم الطاعون مصر بعد أربع سنين استعان كلوت بك بالطلاب لمقاومة الوباء وحصره، وقد اختفى الطاعون من مصر فى الفترة من ١٨٢٥ - ١٨٣٤ ولكنه عاد مرة أخرى فى أواخر عهد محمد على.

وقد بلغت وفيات الطاعون فى مصر بأكملها ٢٠٠,٠٠٠، وأصاب الطاعون ٣٠٠,٠٠٠ أسرة وبلغت الوفيات فى القاهرة ٨٠,٠٠٠ - أى ثلث مجموع سكانها.

وقد فرض محمد على الحجر الصحى على السفن التركية القادمة من إسطنبول وفرض الحجر الصحى على جميع البضائع القادمة من الشام إلى دمياط. وكرر محمد على الإجراءات نفسها المشددة عندما عاد وباء الطاعون لمصر عام ١٨٤١، وساعده الأهالى بكل عزم حتى قضى عليه ثانية وأحرقت حاجيات المرضى وملابسهم.

بعد هذا التاريخ صارت مصر خالية تقريبا من مرض الطاعون، إلى أن عاد من جديد عام ١٨٩٩ خلال الموجة العالمية التى بدأت عام ١٨٩٤، حيث ظهر المرض بالموانئ المصرية (الإسكندرية - السويس - بورسعيد) ومنها انتقل إلى داخل البلاد حيث استوطن بها حتى عام ١٩٤٧، خاصة فى مديريتى أسيوط والمنيا.

أما باقى المحافظات فلم تكن الإصابات بها شيئا يذكر رغم مرور النيل بالقاهرة لمسافة طويلة حيث ترسو السفن، وكان ملفتا للنظر مناعة مدينة القاهرة لوباء الطاعون، وقد يرجع ذلك إلى بناء المنازل بالقاهرة من الحجر وقلة عدد الجرذان ووجود حيوان «العرسة» التى لها ميل شديد للفئران.

وفى السنوات الحديثة، حدثت إصابات محدودة وخصوصا خلال الحرب العالمية الثانية، والحرب مع إسرائيل، وقد وردت إلينا من الخارج، بدأت الإصابات فى الغالب من السويس أو بورسعيد أو الإسكندرية، حيث ترسو السفن الآتية من جهات موبوءة من الشرق تحمل البضائع والركاب، وتحمل فى الوقت نفسه عددا من الجرذان المصابة.



كشف آرمور هانسن النرويجى عن البكتيريا المسببة لمرض الجذام عام ١٨٧٣، قبل أن يكشف روبرت كوخ من بروسيا عن الميكروب المسبب للدرن بتسع سنوات: والمعروف حاليا أن المرضين ناتجان عن ميكروبين يشابه أحدهما الآخر لدرجة كبيرة. وبالرغم من هذا فإن مرض هانسن لم يعرف له علاج شاف إلا حديثا جدا. كُشف عن عقار دابسون الفعال لعلاج الجذام فى الأربعينيات من القرن العشرين، ولكن ميكروبات المرض تكتسب حصانة ضد هذا العقار سريعا، وابتدعت طريقة العلاج الفعال فى الثمانينيات من القرن العشرين باستخدام عدة عقاقير سويا. هذه الطريقة هى الكفيلة بإيقاف الانحلال المطرد، وإذا تم استخدام العلاج مبكرا، فإن الشفاء يكون تاما.

الجذام نوعان: الجذام الدرنى والجذام الجذامى، وهذا الأخير يمر بمراحل ثلاث، يكون المرض شديد العدوى فى المرحلة الأولى عندما تكون مظاهر المرض بسيطة، وعديم العدوى فى المرحلة الثالثة عندما يسقط أنف المريض ويتبقى من يديه وقدميه بعد سقوط أصابعها ما يشبه المخالب العاجزة عن أداء أى وظيفة.

ربما يكون المرض قد وُجِد فى الهند منذ حوالى ٦٠٠ سنة ق. م. وانتقل مع قوات الإسكندر الأكبر العائدة إلى الشرق الأوسط حوالى سنة ٣٢٧ ق. م. ثم انتقل مع قوات يوليوس المشرق إلى أوروبا حوالى سنة ٥٠ ق. م. ولعل أول وصف إكلينيكى كامل لمرض الجذام هو الذى كتبه الطبيب السكندرى أريتايوس فى القرن الأول بعد الميلاد، ثم جاءت الأوصاف التفصيلية والدقيقة لهذا المرض فى كتابات الأطباء العرب بين القرنين السابع والحادى عشر الميلادى، فقد وصفوا أنواعا



«لولا المرض لكانت أفريقيا فى مقدمة الأمم المتحضرة. كلنا يعرف ماذا كانت عليه مصر وماذا أصبحت عليه أفريقيا الآن».
- سير باتريك ماتسون رائد الأمراض المتوطنة عام ١٩٠٧.

مختلفة، من بينها الجذام والبهاق والبرص، واعتبروها أمراضا على الإنسان أن يتجنب الإصابة بها (وليست عقابا إلهيا لخطايا ارتكبها الشخص أو رجسا من عمل الشيطان كما كان يقول رجال الدين وأطباء الغرب)، ولم تنتقل هذه الآراء المستنيرة من الأطباء إلى الغرب الذى ظل مقتنعا بالآراء الكهنوتية الجامدة.

بدأت المطاردة الكبرى للمجذومين سنة ١٠٩٠ واستمرت حتى سنة ١٣٦٣.

وفى الفترة ما بين عامى ١٠٩٠ـ١١٢٠ وكذلك بين عامى ١٢٤٠ـ١٢٦٠ تم افتتاح عدة آلاف من الدور لعزل المجذومين، منها ٤٣ دارا فى باريس وحدها و٢٢٠ دارا فى إنجلترا وإسكوتلندة فى القرن الثانى عشر، وبلغ تعداد الموصومين بالجذام فى إنجلترا ١٤ فى كل ألف نسمة.

قلائل فى الغرب هم الذين اعتبروا أن الجذام يسم صاحبه ويعتبر وصمة فى حقه، ثم ساد هذا الاتجاه المجتمع بأسره، بينما اعتبر العالم الإسلامى أنه مثل أى مرض آخر: وصم اليهود أنهم أكثر من يعانى من الجذام، ومنع الأطباء اليهود ـ وكانوا يبلغون ثلث عدد الأطباء ـ من معالجة غير اليهود.

يتفق معظم المؤرخين أن السيطرة على الجذام قد حدثت حوالى سنة ١٥٥٠، فقد اختفى المرض بصورة غريبة ـ رغم عدم فاعلية العزل التام لجميع المجذومين، فقد كان دخول ملاجئ الجذام اختياريا فى جنوب فرنسا. بلغت مطاردة المجذومين و (اليهود) أشدها فى السنوات من ١٣٢١ وحتى ١٣٦٣ ثم توقفت.

يوجب الفكر الغربى تجنب مرضى الجذام، بينما لا يعتبر المسلمون مرضى الجذام كارثة ينبغى تجنبها. وهناك حديث شريف أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شوهد وهو يمسك بيد مريض مجذوم ويخاطبه: تناول الطعام معى فأنا مؤمن بالله ولن يصيبنى المرض إلا إذا أراد الله.

كان الجدرى معروفا فى عهد قدماء المصريين، إذ لاحظ كل من روفر وفيرجسون وجود طفح يشابه تماما طفح الجدرى على جلد بعض المومياوات المصرية القديمة والتى يرجع تاريخها إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد (مومياء رمسيس الخامس على سبيل المثال).

ويُجمع علماء الوبائيات والمؤرخون على أن عدم وجود فيروس الجدرى فى العالم الجديد ـ قبل أن يكشف عنه كريستوفر كولمبوس ـ لم يتح لأهالى أمريكا الأصليين فرصة تكوين حصانة ضد هذا المرض: ولعل هذا هو السبب فى وفاة ٨٠ـ٩٠٪ من الأمريكيين الأصليين عندما ظهر المرض بينهم لأول مرة.

ولكن السؤال المطروح هو: لماذا لم يتمكن الباقون على قيد الحياة من أن يستعيدوا أعدادهم ثانية؟ المستوطنون البيض الأوائل عزموا أمرهم على أن يتسيدوا الأرض، وألا يسمحوا لأحد ـ حتى لو كان من أبناء البلد الأصليين ـ أن يبقى له أى ذكر فى أمريكا.

قاوم سكان البلاد الأصليون ما فعله بهم الأوروبيون ـ من حرب وقتال واستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم عنوة، ومن أمراض أدخلوها معهم لدى مقدمهم لتلك البلاد. وبعد أن أهلك الجدرى جُلَّ سكان أمريكا الوسطى، سارع الرجل الأبيض باستيراد العبيد عنوة من أفريقيا للعمل فى مناجم الذهب والفضة التى تم الكشف عنها، وكان هؤلاء الأفارقة قد اكتسبوا حصانة ضد مرض الجدرى لسبق إصابتهم فى طفولتهم بنوع أقل ضراوة فى بلادهم الأصلية.

بعد أن عبر كولومبوس المحيط الأطلنطى جيئة وذهابا عدة مرات فى أواخر القرن الخامس عشر اشتدت ضراوة الجدرى لدرجة كبيرة، وتحول إلى كارثة تهدد الجنس البشرى، وتحول من مرض بسيط يصيب الأوروبيين فى طفولتهم إلى مرض خطير ضار يهدد الأوروبيين فى عقر قارتهم، وصار فى القرن الثامن عشر السبيل الأول الذى يسيطر على تعداد سكان العالم بعد أن كان الطاعون يلعب هذا الدور فيما قبل.

وقد وصف الطبيب المسلم ـ الرازى عام ٩١٠ ميلادية ـ الجدرى وفرق بينه وبين الحصبة، ولكنه لم يُذكر فى كتب الطب الغربية حتى حلت الكارثة عند استفحال المرض فى أمريكا، وما وصفه المستوطنون الأوائل فى المكسيك عام ١٥٢١ وفى إمبراطورية الإنكا عام ١٥٢٧ كان واضحا أنه الجدرى بعينه، ولكن لم يتعرف عليه الأوروبيون.

كانت الخدمات الصحية متقدمة فى أمريكا قبل حلول الأوروبيين وكان عدد كبير منهم يتعدى الأربعين عاما، ولكن بعد نزول الأسبان إلى أمريكا الوسطى ومعهم خيلهم وخنازيرهم، حاملين معهم الأنفلونزا والتيفوس والحصبة وحمى الخنازير والجدرى، صار غالبية أهل أمريكا يموتون فى سن الطفولة أو فى ريعان الشباب.

ويقال إنه بعد نزول البحارة إلى الأرض سنوا سيوفهم وأشبعوا الأهالى ذبحا وتقتيلا، وبقروا البطون والنساء الحوامل وشجعوا كلابهم على نهش أجسادهم، ولم يأت عام ١٥٥٠ إلا وكان أهالى البلاد الأصليون قد هلكوا جميعا من وحشية الأوروبيين ومن الأوبئة التى جلبوها معهم من أوروبا.

تكرر هذا المشهد البشع فى بورتوريكو وفى كوبا. وبحلول عام ١٦٣٠ لم يتبق من الهنود الحمر فى أمريكا الجنوبية والوسطى سوى ٧٪ ممن كانوا هناك قبل عام ١٥٢٤.

وكذلك هلك من وباء الجدرى ٦.٥ مليون نسمة كانوا يقطنون على الشريط الساحلى، ثم تحرك الجدرى شمالا حتى تكساس قاتلا ٨٥٪ من السكان، وتولى المستوطنون البيض القضاء على البقية الباقية من سكان أمريكا الأصليين.

ويذكر المستوطنون البرازيليون الأوائل «أن سر الإله كان معنا بعد أن حصد الجدرى الأهالى حصدا وتركنا أحياء أصحاء، إن مشيئته أن نرث أرضهم وأن نحل محلهم».

كتب الرحالة جوناثان كارفر «الهنود الحمر يتمتعون بالإنسانية ـ لأصدقائهم ولأعدائهم على السواء ـ وهم مستعدون لبذل حياتهم للدفاع عمن التجأ إليهم وأصبح فى حماهم. إنهم يتمتعون بالشرف وجميع الفضائل الإنسانية».

قارن هذا الخلق بما فعله الجنرال سير جيفرى أمهرست، قائد الجيش البريطانى فى أمريكا الشمالية، عندما أمر عام ١٧٦٣ بأن ترسل البطاطين وملاءات الأسرة المحملة بالجدرى إلى من تبقى من الهنود الحمر لتعجل بفنائهم. أو بثور الجدرى التى أرسلت فى علب من القصدير من مونتريال قبيل وباء الجدرى الذى ساد البلاد فى عام ١٧٥٧.

بعد هذا الوباء الكاسح انفصمت عرى القبائل وتبعثر النظام الإدارى لها وصارت معتمدة على المنح التى يفيض بها عليها الرجل الأبيض.

اجتاح وباء كاسح للجدرى المناطق الغربية حتى المحيط الهادى بين عامى ١٨٣٧ و١٨٤٠ وقتل ما يربو على ٤٠ ألفا، واجتاح البلاد وباء آخر بعد عشرين سنة فى مناطق فيكتوريا وفانكوفر وامتد إلى ألاسكا وقتل ٦٠٪ من الأهالى الأمريكيين الأصليين (حوالى ٢٠ ألفا)، ولم تبذل السلطات الموجودة (للرجل الأبيض) أى محاولة جادة لحصر انتشار الوباء أو وقف امتداده. تم حصر البقية الباقية من الهنود الحمر فى مستوطنات خاصة، وهلك منهم الكثيرون بالجدرى والتيفوس بين عامى ١٨٩٠ـ١٩١٠.



بسبب تعاقب أوبئة الطاعون المتتالية تناقص عدد سكان مصر من ٨ ملايين إلى ٣ ملايين بين عامى ١٣٤٦ ـ ١٨٠٥. ومن بين نصف مليون كانوا يسكنون القاهرة مات ٢٠٠ ألف بين أكتوبر ١٣٤٧ وينـاير ١٣٤٩!

فى عام ١٧١٤ نشر إيمانويل تيمونى مقالا عن الإجراء المتبع فى إسطنبول للوقاية من الجدرى ـ وهو استخدام لقاح واق من المرض. وفى عام ١٧٢١ اعترفت اللادى مارى مونتاجيو ـ زوجة القنصل البريطانى فى إسطنبول ـ أنها قد طعمت ابنتها ضد الجدرى بالطريقة المتبعة فى تركيا، وسرعان ما استجابت الملكة كارولين لنداء لادى مونتاجيو وطعمت أطفال الأمراء، وفى الحال لاقى هذا التشجيع الملكى قبول الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية لهذه الطريقة للوقاية.

بعد ذلك طبق ملوك فرنسا والسويد وأسبانيا وبروسيا وأمراء الإمارات الإيطالية الطريقة نفسها على أبنائهم وعائلاتهم، وشجعوا خاصتهم على محاكاتهم. فى ذلك الوقت كان أطباء القرن الثامن عشر خريجو مدارس الطب والجامعات يقاومون بشدة هذا «الهراء» (ولكنهم بعد سنوات كانوا يطعَمون أطفالهم فى الخفاء). وفرض حكام السويد الأوتوقراطيون على الأهالى وجوب تطعيم أطفالهم (حيث كان الجدرى مسئولا عن وفاة خُمس سكان السويد) وخاصة الأطفال تحت سن تسع سنوات، وأعقب هذا انخفاض ملحوظ فى الوفيات من الجدرى.

فى عام ١٧٩٦ ـ لاحظ الطبيب إدوارد جينر ـ أن من سبق أن ظهرت على أصابعهم بثور جدرى البقر لا يموتون عندما يحل وباء الجدرى بقريتهم، وشرع فى تلقيح الأصحاء بهذا الطُعم، الذى أثبت فاعليته الشديدة فى وقاية البشر من هذا الوباء.

اكتسب جينر شهرة فائقة من هذا الكشف وحصل على ثروة طائلة. يعتبر كشف جينر هذا نقطة تحول حاسمة فى تاريخ الطب الغربى، والسبيل لتخلص أوروبا نهائيا من أحد أخطر أوبئتها.

وقد أمر نابليون بونابرت بتحصين رجال جيشه جميعا بلقاح جينر، وعندما سحقوا الجيش البروسى فى معركة بينا سنة ١٨٠٦ ـ الذين أهلك الجدرى أعدادا هائلة من جنودهم ـ فُرض التحصين فى مختلف أنحاء أوروبا.

تزايد عدد سكان أوروبا بين عامى ١٧٥٠ و١٨٠٠ من ١٤٠ مليونا إلى ١٨٠ مليونا، ولكنهم تزايدوا إلى ٣٩٠ مليونا بحلول عام ١٩٠٠ ـ والفضل الأكبر فى هذه الزيادة يعود إلى انعدام الوفاة من الجدرى تقريبا.

وفى مصر، يذكر كلوت بك أنه قبل التطعيم كان ٢٠ ألفا فى المليون من السكان يقضون نحبهم كل عام بسبب الجدرى. وفى عام ١٨١٩ صدر مرسوم بإسناد تنظيم عملية التطعيم الشامل إلى كتخدا بك، وفى عام ١٨٢١ أسند إلى الدكتور دوساب مهمة تحصين سكان الوجه القبلى والسودان، وفى عام ١٨٢٤ قام أطباء فرنسيون بتحصين سكان الريف، وكذا بتعليم حلاقى الصحة عملية التحصين، وفى عام ١٨٢٧ قام كلوت بك بحملة لتطعيم تلاميذ مدرسة أبى زعبل وأفراد الجيش والنساء والأطفال والتجار والصناع والموظفين، ثم أصدر أمرا بتطعيم جميع المواليد إجباريا.

باستكمال تطعيم أفراد الشعب ضد الجدرى فى عهد محمد على، تمكنت مصر من السيطرة على أوبئة الجدرى، وتمت حماية المصريين من هذا المرض القاتل قبل معظم بلاد العالم، وبالرجوع إلى إصابات ووفيات الجدرى من عام ١٨٨٦ تبين أن هذا الوباء الذى أودى بحياة أكثر من ٧٠٠٠ شخص حتى عام ١٩٠٠ ظهر فى مصر بشكل وبائى كل خمس سنوات تقريبا لوجود الجدرى بصفة مستديمة فى البدو الرحل فى مناطق الحدود والصحارى،

وإهمال حلاقي الصحة بالقرى، والتقصير في تطعيم جميع الأطفال، وعدم وجود قانون يحتم إعادة التطعيم بعد سن الطفولة.

وكانت أهم الأوبئة التي أصابت مصر في القرن العشرين وباء ١٩١٩ - ١٩٢٠، وباء ١٩٢٦ ووباء ١٩٣٢ - ١٩٣٥ وبلغ ذروته في عام ١٩٣٣ وكان أشد ما يكون في مدينة الإسكندرية، ثم موجة أوبئة أعوام ١٩٤٣ - ١٩٤٧ وأخيرا وباء ١٩٥٩ وهو آخر وباء للجدري يظهر في مصر قبل اختفاء هذا المرض تماما من العالم عام ١٩٧٨.



بداية من الأعوام التي تلت عام ١٤٩٠ انتشر في بلاد العالم مرض تناسلي سريع العدوى في موانىء أسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا، وتحرك شرقا حتى وصل إلى فيينا وشمالا وتخطى لايبزج (بألمانيا) وبيرجين (النرويج) وأبردين (بأسكتلندة). مرض لم يعرفه الأطباء من قبل، مرض جديد على العالم. هو الزهري التناسلي.

منذ بدء ظهور الزهري التناسلي في أوروبا منذ خمسمائة عام وهو يعتبر من الأمراض السرية - الذي يود المصاب به إخفاءه وعدم التصريح لأي أحد بأنه قد أصيب به.

انتقل مرض الزهري التناسلي مع البحارة العائدين من أمريكا الإسبانية بعد أن أصيبوا به هناك ونقلوه معهم إلى أوروبا، ثم إلى العالم القديم بأسره. تأكد وجود المرض في أمريكا عام ١٥٢٦، وعاد مع بحارة كريستوفر كولومبوس إلى أوروبا، وبحلول القرن الثامن عشر كان قد قضى على كثير من العائلات الكبرى في جنوب أوروبا.

هكذا صار الزهري التناسلي مرضا جديدا كلية وجديدا على أوروبا، ويتضح هذا من صفاته الجديدة. صارت له علامات جلدية واضحة وصار شديد العدوى ويؤدي في النهاية للموت.

وقد انتشر الزهري التناسلي بشدة بين ٣٠ ألفا من جنود الملك شارل الثامن المرتزقة الفرنسيين الذين رافقوه في غزوه ميلانو، ثم روما ثم نابولي، حيث استمتعوا بمعاشرة آلاف المومسات، وكانت رحلتهم مهرجانا جنسيا.

ثم انتشرت دائرة هذا المرض الفرنسي الجديد ووصل إلى باريس ولايبزج وأدنبرة.

ثم رحل مع البحارة والتجار وبعثات التبشير الدينية والبعثات الاستكشافية الأوروبية الكبرى إلى جميع أنحاء العالم، وصارت له مراكز ينتشر منها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ثم في الهند وسيلان وشبه جزيرة الملايو، وفي عام ١٥٠٤ في كانتون (بالصين)، حيث كان يعرف «بقرحة شجرة البرقوق».

وبمرور الزمن ازداد عدد من التقطوا المرض زيادة كبيرة، وازدادوا باطراد. نقل الأزواج العدوى من المومسات إلى زوجاتهن، ومع انتقال الشباب من الريف إلى المدن - بحثا عن العمل - زاد عدد المصابين بالزهري.

هكذا أهدت أمريكا مرض الزهري إلى أوروبا. كان السعي الدءوب وراء الذهب من عوامل الانتشار السريع لمرض الزهري. فقد اندفع الخلق إلى أمريكا زرافات وجماعات. وعند عودتهم في كل مرة إلى أوروبا ينقلون معهم مزيدا من ميكروبات الزهري التناسلي.

ونظرا لانتشار الزهري - بعد عودة جنود وبحارة الملك من العالم الجديد - إلى جميع أرجاء أوروبا عن طريق بيوت الدعارة الرسمية وحمامات البخار التي كان يستمتع فيها الأثرياء وذوو النفوذ بالاستحمام والمتعة الجنسية معا - صدرت الأوامر بين عامي ١٥٢٠ - ١٥٣٠ بإغلاق حمامات البخار العامة ودور الدعارة الرسمية - حفاظا على الصحة.

تزامن هذا مع دعوة مارتن لوثر في الأراضي الألمانية، والتي تبعتها دعوة جون كالفن في فرنسا وسويسرا بإصلاحات كنسية واجتاحت أوروبا موجة الإصلاح الديني.

استغل دعاة الإصلاح البروتستانت - المثقفون وخريجو الجامعات - التسيب الخلقي والإباحية الجنسية التي سادت أوروبا وما صاحبها من انتشار «المرض الفرنسي» - الزهري - في حملتهم هذه، والتي تدعو للعفة.

كانت مصر موبوءة بالأمراض التناسلية، وقد عرفها العرب والمصريون، وكانت تسمى بـ «مرض أيوب» ولم يتمكنوا من علاجها إلا بعزل المريض المصاب بالزهري عن أقاربه وأهله لمدة ستة أشهر. وقد كانوا يسمون الأمراض التناسلية أحيانا «مرض إفرنجي» ولم يميزوا بين السيلان والزهري والأمراض الجنسية الأخرى.

كانت البؤرة الحقيقية لتلك الأمراض هي النساء عادة، وقد أصيبت نسبة عالية من أفراد الحملة الفرنسية بالزهري والسيلان حتى لجأ القادة الفرنسيون إلى اتخاذ وسائل يغلب عليها العنف للحد من انتشارها.

كتب الجنرال ديجيا إلى بونابرت يشكو من البغايا وكيف أنهن نشرن وباء يتفشى في مساكن الفرنسيين ولابد من إبعادهن فورا حتى تطهر ثكنات الجيش الفرنسي من أمثالهن. وكان تعقيب بونابرت على الهامش في الخطاب نفسه «كلف أغا الإنكشارية بهذه المهمة حتى تنفذ بصرامة».

ويذكر ديجنت في كتابه (التاريخ الطبي لجيش الشرق) أن ٤٠٠ من المومسات اللاتي كن يمارسن البغاء مع الفرنسيين قطعت رءوسهن بالسيف وألقين في النيل بأمر الأغا، حتى يكن عبرة لغيرهن.

وقد حاول الفرنسيون علاج الحالات الشديدة بين أفراد قواتهم، ولكن معلوماتهم المحدودة وطبهم الغربي القاصر لم يمكنهم من السيطرة على انتشار هذه الأمراض التناسلية، حيث كان الجنود الفرنسيون متعطشين لممارسة الجنس - مع المومسات خاصة - لافتقادهم للحياة الأسرية.



وقد تتابعت الكشوف العلمية عن داء الزهري من ألمانيا، إذ كشف فرتز شودين وإيريك هوفمان عن الميكروب المسبب للمرض في عام ١٩٠٥، وتبعهما في العام التالي مباشرة «واسرمان» بابتداع طريقة عملية والكشف عن اختبار معملي يؤكد وجود المرض، وفي عام ١٩٠٩ كشف عالم ألماني ثالث «بول إيرليخ» عن عقار السلفرسان، أحد مركبات الزرنيخ لعلاج مرض الزهري بدون أن يكون له الأضرار السمية القاتلة التي كانت دأب الأطباء (والمشعوذون) أن يعالجوا بها هذا المرض منذ عام ١٤٩٣ بالزئبق.

بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى قررت الحكومات أن الطريقة المثلى لمنع انتشار الزهري هي تشجيع استخدام العازل الذكري المطاط لجميع الشباب. بدأت الحكومة البلجيكية بتطبيق هذا النداء، وبحلول عام ١٩٣٠ صارت أقل البلدان انتشارا لمرض الزهري. تبعتها الحكومة البريطانية، ثم باقي حكومات أوروبا.

أنشأت الحكومات مراكز للوقاية والعلاج من الأمراض التناسلية - وكان المتبع حقن المرضى تباعا بالسلفرسان، ولكن المرضى خيبوا ظن الحكومات ولم يكمل غالبيتهم الحقن الثماني المطلوب تعاطيها تباعا.

وبعد عام ١٩٣٥ فرض على الراغبين في الزواج إجراء اختبار واسرمان، ومن وجد اختباره إيجابيا - يفرض عليه التعقيم قسرا.

أما في غرب أوروبا فقد استمر ميكروب تريبونيما باليدوم (الزهري) يمرح في أجساد رعاياه حتى الأربعينيات عندما تم الكشف عن البنسلين ووجد أنه عقار قاتل للميكروب، وكذلك فرض استخدام الغطاء المطاطي الواقي لجنود القوات المسلحة. لم تحل الخمسينيات من القرن العشرين إلا وكان وباء الزهري قد تمت السيطرة عليه تماما؛ إلا أنه لم يختف كلية وبدأ يرفع رأسه القبيح بعد عام ١٩٥٨ ومازال يعيش معنا إلى الآن.



ظهر وباء الكوليرا بالهند في عام ١٨١٧ ثم وصل بريطانيا عام ١٨٣١. وفي القرن التاسع عشر فقدت بريطانيا ما يقرب من ١٣٠ ألف مواطن من جراء خمسة أوبئة، في هذا القرن نفسه، وفي الربع الأول من القرن التالي فقدت الهند ما يزيد على ٢٥ مليونا من أهلها من مرضى الكوليرا.

ومن الملاحظ أنه بينما كانت أوبئة الكوليرا في إنجلترا يقل من يموت منها باطراد، كان الاهتمام الأول للحكومة البريطانية هو التنمية الاقتصادية للهند وليس السيطرة على الأوبئة والأمراض التي تصيب الشعب الهندي.

التنمية كانت تعني شيئا واحدا، وهو سريان الثروة بلا انقطاع من الهند إلى إنجلترا، لذا استثمر الرأسماليون البريطانيون بكل عزم أموالهم في بناء مشروعات للري والسكك الحديدية ولتسهيلات الموانىء للشحن والتفريغ ولم تستثمر أي أموال في مشروعات للارتقاء بالصحة العامة في البلاد؛ بالرغم من أن الطبيب البريطاني جون سنو قد خرج بنظرية أن الكوليرا هي مرض ينتشر بشرب المياه الملوثة، فإن هذا الرأي لم يلق قبولا في بريطانيا نفسها، ولم تعره السلطات البريطانية المسئولة عن الخدمات الصحية في الهند أي اهتمام.

كانت مصر في القرن التاسع عشر خالية من وباء الكوليرا إلى يوليو عام ١٨٣١ حين اندلع الوباء في الأقصر، وانتشر في الإسكندرية في الشهر التالي، وفي أكتوبر اجتاح القاهرة وبلغ عدد الوفيات فيها ٥٥ ألفا (بمعدل ٢٥٠٠ يوميا).

وفي عام ١٨٣٤ حدث وباء أقل شدة وبلغت الوفيات ٣٠ ألفا في القاهرة و(٤٠٠ ألف في مصر كلها)، ثم تكرر الوباء في عام ١٨٣٧، وفي عام ١٨٤٠، وفي عام ١٨٤٨ اشتعل الوباء في طنطا ثم امتد إلى القاهرة، ثم أصاب الإسكندرية، وظهر ثانية في الإسكندرية عام ١٨٤٩.

في القرن التاسع عشر قام ميكروب الكوليرا بخمس جولات عالمية، وقام بجولة سادسة عام ١٩٠٢ في أوائل القرن العشرين.

وقد تم الكشف عن فيبريو الكوليرا في الإسكندرية بواسطة الميكروبيولوجي الألماني الأعظم روبرت كوخ عام ١٨٨٣. وفي عام ١٩٤١ اجتاح العالم الوباء العالمي السابع وأصاب مصر، ويبدو أنه وصل مصر عن طريق الجو. بدأ في قرية القرين بمحافظة الشرقية بين العمال المصريين المتصلين بالجيش البريطاني، وكان منهم جنود من الهند.

بدأ المرض يزحف من القرين.. زحف في أول الأمر من بلدة القرين على طريق المعاهدة متتبعا خط الأوتوبيس إلى أن وصل إلى القاهرة، فظهر أول ما ظهر في الزيتون. وقدر الله لمصر طبيبا عالميا في الأوبئة - الدكتور أحمد محمد كمال - فاستطاع مقاومة هذا الوباء والقضاء عليه في شهرين، ثم عادت الكوليرا فظهرت في أواخر الستينيات (١٩٦٩) من هذا القرن متسببة عن الميكروب الأضعف نسبيا - فيبريو الطور - ومازالت متوطنة معنا للآن، ويخاف المسئولون عن الصحة من تسميتها باسمها الصحيح، ويطلقون عليها أمراض الصيف.



كان الاهتمام الأول للحكومة البريطانية هو سريان الثروة من الهند إلى بريطانيا وليس السيطرة على الأمراض التي تصيب الشعب الهندي.

ومما يذكر أن الوباء العالمى السادس الذى اجتاح العالم من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٢٣ وشمل مصر، ثم وصل إلى البلقان، هو الذى تم الكشف فيه عن فيبريو الطور - بمدينة الطور بمصر أيضا.

لا تعرف أوروبا الكوليرا فى وقتنا الحاضر، رغم أن بريطانيا قد عانت من وباء الكوليرا لأول مرة عام ١٨٣١ - ١٨٣٢. كشف روبرت كوخ عن الميكروب المسبب للكوليرا فى الإسكندرية عام ١٨٨٣ وأتم بحوثه فى كلكتا عام ١٨٨٤، وبدأ الفهم العلمى الصحيح لهذا المرض الذى يفيد بأن مرض الكوليرا يتسبب عن ميكروب واوى الشكل، يتناوله المصاب عن طريق الفم بشرب المياه الملوثة بالفضلات الآدمية، وكذلك عن طريق تناول المحارات البحرية والحيوانات القشرية، أو الخضروات أو الفاكهة المغسولة بمياه ملوثة بفضلات آدمية، أو أى طعام حط عليه الذباب ولوثه بهذه الفضلات.

عن هذه الوسيلة انتقلت الكوليرا من أفغانستان شمالا إلى روسيا وغربا إلى بلاد فارس والعراق من الهند عام ١٨٢٠.

يعيش الميكروب أيضا فى أمعاء بعض الآدميين الذين لا يعانون من أى أعراض ولكنهم ينقلونه إلى الآخرين إذا تلوث شرابهم وطعامهم بفضلات هؤلاء البشر، وعن طريق حاملى الميكروب ظلت الكوليرا متوطنة فى كثير من المجتمعات. تحركت الكوليرا مع طرق مواصلات البشر - مدقات الأقدام أو طرق السيارات - وتتبعت طرق نقل مياه الشرب: الأنهار والترع والقنوات، ومواسير المياه، والمضخات العامة والبرك والآبار. كذلك يمكن انتقال فيبريو الكوليرا حاليا بالطائرات (كما حدث عام ١٩٩١ عندما انتقل الميكروب من بيرو إلى الولايات المتحدة الأمريكية على إحدى طائرات الخطوط الجوية الأرجنتينية).

وقد نقلت المرضعات الكوليرا من باريس إلى قراهن على بعد ٣٠ كيلو مترا من العاصمة خلال الأوبئة التى حدثت فى أعوام ١٨٣٢ و ١٨٤٨ و١٨٤٩. وبعد نصف قرن نقل اللاجئون الهاربون من الوباء الذى حدث فى بروفنس المرض إلى نابولى، كذلك ثبت أن جنود الغزو الفرنسى هم الذين نقلوا الوباء إلى الجزائر فى أوائل السنوات التى تلت عام ١٨٣٠، كذلك نقل الجنود الفرنسيون الذين شاركوا فى حرب القرم عام ١٨٥٣ - ١٨٩٤ الكوليرا إلى مرسيليا من شمال فرنسا، ثم نقلوها إلى البلدان الروسية المواجهة للبحر الأسود.

وهكذا أعادت غرب أوروبا الأوبئة القاتلة إلى روسيا التى صدرت الطاعون عام ١٣٤٧ على ظهر سفن جنوة التجارية التى نقلته بعد ذلك إلى أراضى المماليك.

لعل استعراض أظهر معالم تاريخ الكوليرا فى الهند يعلمنا بعض الدروس. فى عام ١٨١٧ عرف فى كلكتا، وأعلن القسيس الإنجليزى توماس مالتوس مقولته الشهيرة «ربما تكون العواقب مرغوبة ومحمودة وذات فائدة كبرى، لأنها سوف تكون الحل الإلهى لتزايد عدد السكان».

فى عام ١٨٢٧ ساد الهند كلها الوباء الثانى الشامل - وتقدم بعد ذلك ووصل أوروبا.

منذ بداياتهم الأولى فى الهند حرص الإنجليز على حكم الهند بالعنف والتخويف وإثارة الرعب وبالقسر، واستمرت هذه الإستراتيجية قائمة حتى رحيلهم. ولعل أكبر فشل للحكم البريطانى للهند هو عدم إمكانها تحقيق أى نجاح فى رفع مستوى الصحة العامة، مما كان له انعكاسات على التطور السياسى فى إنجلترا نفسها حتى ظهور وباء الكوليرا لأول مرة فى بريطانيا عام ١٨٣١ - ١٨٣٢.

ومع التزايد المستمر لعدد السكان فى بريطانيا، من ٥ ملايين فى عام ١٧٠٠ إلى ١٠ ملايين فى عام ١٨٠٠ إلى حوالى ٢٠ مليونا فى عام ١٨٥٠، أعلن توماس مالتوس - الشخص الرهيب فى الكنيسة الإنجليزية - فى عام ١٧٩٨، أن «الطبيعة بحكمها ستحل مشكلة التزايد السكانى بالمجاعات أو الحروب أو الطاعون»، ولم يدر أن الكوليرا هى الوباء القادم الذى سيتولى تحقيق ما يتمناه.

ومع ذلك حدث انخفاض فى سن الزواج (من سن ٢٦ سنة إلى سن ٢١ سنة للبنات)، وندرت وسائل منع الحمل، فزادت نسبة المواليد زيادة كبيرة، وزاد عدد الأفواه التى تطلب الطعام؛ وتزايد عدد سكان الطبقة العاملة فى بريطانيا وأصبح نصفهم أقل من عشرين سنة من العمر، وبلغ ثلاثة أرباعهم أقل من ثلاثين عاما. زاد من المشكلة هجرة كثيرين من المعدمين الكاثوليك من أيرلندة إلى إنجلترا.

تزايدت الغمة وأصبح التذمر بين طبقات الشعب المطحونة هائلا وصار العصيان على الأبواب. انضم كثير من شباب الطبقات الوسطى إلى الجمعيات الأهلية التى تنادى بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية.

فى ذلك الوقت علم أن وباء الكوليرا قد انفجر فى الهند، وامتد بسرعة إلى أملاك أسرة رومانوف - التى تحكم روسيا - وأسرة الهابسبورج - التى تحكم الإمبراطورية النمساوية المجرية؛ وحدث تذمر وعصيان وهياج بين الجماهير (الذين اعتقدوا أنها مؤامرة حاكها الأرستقراطيون لإنقاص عدد المواطنين الذين زادوا عن الحد). فى ذلك الوقت نشأت فى بريطانيا مدارس التشريح (أنشئت أولى مدارس التشريح عام ١٧٨٠ فى أدنبرة).

استلزمت دراسة التشريح طلب المزيد من جثث الموتى والتعاقد مع لصوص المقابر (وتطور الأمر إلى حد ارتكاب جرائم قتل لتوريد الجثث طازجة بمجرد الوفاة)، لرفض أبناء الطبقة العاملة تماما التصريح بإعطاء جثث موتاهم لأبناء الطبقة المتوسطة ليتعلموا عليها. ولذلك صدر قانون من البرلمان عام ١٨٣١ بالتصريح لمدارس التشريح بأخذ جثث الموتى الفقراء ممن ليس لهم أهل يطالبون بجثثهم، وأصاب الجماهير رعب شديد بعد صدور ذلك القانون.

حلت الكوليرا فى النهاية فى إنجلترا فى أكتوبر من عام ١٨٣١ ودخلت عن طريق ميناء سندرلاند فى مقاطعة ديرهام، ونظرا لتشوق الأطباء البريطانيين للحصول على جثث الموتى انقض العديد من أطباء أدنبرة ولندن على مدينة سندرلاند. وهاجت الجماهير وبدأوا عصيانا وهاجموا المستشفيات وأطلقوا نزلاءها من المرضى.

بدأ الهجوم فى مدينة مانشستر وبلغ عدد الثائرين فيها عدة آلاف، ونتج عن إطلاق عشرات من المصابين بالكوليرا إلى بيوتهم إلى اشتعال الوباء بشكل لم يسبق له مثيل فى بريطانيا. وصلت الكوليرا أولا إلى سندرلاند ثم إلى ميناءى نيوبيرن ونيوكاسل، ولما قرر الأطباء الآتون من أدنبرة، أن هذا المرض الوافد مرض معد قد يكون أتى من الهند على ظهر السفن، أصدر ملاك مناجم الفحم بيانا ينكرون فيه «هذه المزاعم المتسرعة الجاهلة والخاطئة»، ولا يحتاج لأى إجراءات إدارية، ولا أى تدخل يعوق حرية التجارة والنقل البحرى.

وهكذا تغلبت مصالح التجار الرأسماليين على الرأى العلمى الصحيح، بمعاونة طائفة من الأطباء المأجورين، ووافقت الحكومة على هذا الرأى.

مات من وباء الكوليرا هذا عامى ١٨٣١ - ١٨٣٢ ما يقرب من ٣٢ ألف فرد.

حدث الوباء الثانى للكوليرا فى بريطانيا عام ١٨٤٨ - ١٨٤٩ ومات منه ٦٢ ألف نسمة، أى ضعف عدد من ماتوا من الوباء الأول، ولما كانت بريطانيا ماتزال متمسكة بالفوارق الشديدة بين الطبقات، ولم تفلح أى محاولات فى تقريب الفوارق بين الطبقات، دفع يأس الجماهير من إصلاح حالهم إلى هجرة الآلاف الكثيرة منهم إلى أمريكا الشمالية.



ترحيل ملايين الأفارقة غصبا من بلادهم إلى أمريكا كان عاملا مهما فى نقص المناعة لديهم وسقوطهم صرعى للملاريا عندما هاجمتهم فى العالم الجديد.

عادت الكوليرا للمرة الثالثة إلى بريطانيا عام ١٨٥٣ - ١٨٥٤ ومات منها هذه المرة ٩٠ ألف فرد. عادت إلى نيوكاسل، بالقرب من المكان الذى بدأ فيه الوباء الأول. وضرب للمرة الرابعة فى عام ١٨٦٦ ولحق بجميع المقاطعات. قرر البرلمان هذه المرة السماح لجميع المدن بإدخال المياه الصالحة للشرب وإنشاء وظيفة مفتش الصحة، وجعل هذه القرارات إجبارية عام ١٨٧٢، وفرض على الملاك جميعا تطبيق هذه الإجراءات الصحية - ولو بمصادرة أموالهم وعملها على حسابهم.

عندما أتت الكوليرا لبريطانيا عام ١٨٦٦ - ١٨٦٧ مات منها ١٤ ألف فرد فقط، بعد البدء فى إدخال الإجراءات الصحية المطلوبة.

أدرك الإنجليز أهمية وضع نقاط مراقبة لتنفيذ الحجر الصحى على طول الطريق من الهند إلى بريطانيا، وبعد اجتماع الهيئة الدولية لمراقبة الكوليرا فى إسطنبول عام١٨٦٦، ووضع مصر لإجراءات حجر صحى شديدة على طول قناة السويس بعد افتتاحها عام ١٨٦٩ - كان على أى سفينة بريطانية أن تبقى فى عرض البحر إذا أصابت الكوليرا أحد بحارتها أو أحد ركابها، بالرغم من معارضة بعض الوزراء الإنجليز الشديدة لهذه الإجراءات بدعوى مخالفتها لحرية التجارة.

وبالرغم من سبق أوروبا إلى اعتناق الآراء العلمية المتحررة والتى دفعت لتقدم العلم دفعا شديدا إلا أن حكام الهند البريطانيين كانوا فى غاية الجمود ومنتهى التحجر، كان التقليد المتبع من الحكام الإنجليز هو جمع الرجال والنساء والأطفال، الفقراء الجوعى، من قراهم فى معسكرات عمل وتكليفهم بأداء الأعمال الشاقة. لم تكن تلك المعسكرات مزودة بالمياه الصالحة للشرب ولا بالوسائل الصحية المناسبة للتخلص السليم من الفضلات؛ وهكذا كانت تلك المعسكرات مرتعا خصبا لفيبريو الكوليرا.

استغلت بريطانيا الهند أبشع استغلال، وزرعت مساحات شاسعة من أراضى الهند بالأفيون لتبيعه للصين، وكانت البنوك البريطانية تعطى القروض وتستردها بفوائد باهظة، وكانت الأراضى تزرع - بعد شق الترع - بالقطن الذى يصدر إلى مانشستر. شقت الترع وقنوات الرى ومعها انتشرت الكوليرا فى البلاد انتشارا ليس له مدى.

كان الإنجليز يعلمون أطفال الهنود فى مدارسهم أشعار شكسبير أو ميلتون ولكنهم لم يعلموهم بتاتا مبادئ الصحة الشخصية - حتى تغيرت السياسة التعليمية وصارت مسئولية الهنود أنفسهم عام ١٩٢٠.

وقد ذكر جون هوبسون سنة ١٩٠٢ «أن الادعاء أننا قد أدخلنا المدنية للهند بمساعدتهم على اتباع نظمنا الصناعية والسياسية، واتباع أخلاقياتنا، هو محض هراء وتضليل ووهم قائم على تقدير خاطئ؛ يدعم هذا الضلال ويؤكده نزعتنا الاستعمارية التى تنسج تلك الخرافات لتغطية المكاسب التى يجنيها بعض أصحاب المصالح من الإمبراطورية»، يزيد من فظاعة تلك الكلمات الجارحة بقاء الكوليرا - ذلك المرض الرهيب - لمدة مائة وثلاثين عاما متوطنا فى الهند، وفتكه بخمسة وعشرين مليونا من الهنود.

بعد أن تولى الهنود أنفسهم مهمة الصحة فى الهند وبعد أن زودت البلاد بالمياه الصالحة للشرب انخفضت الإصابة بالكوليرا إلى حد بعيد. كانت الوفيات من الكوليرا فى الهند بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٢ (٣,٨ مليون نسمة)، وبين عامى ١٩٣٠ - ١٩٣٩ (١,٧ مليون

نسمة)، وبين عامى ١٩٥٠ـ١٩٥٤ (٣٨٠،١٠٠ نسمة)..

وبعد استخدام محلول معالجة الجفاف بعد الحرب العالمية الثانية انخفضت الوفيات من الكوليرا إلى أقل من ١٪ من المصابين.



«لولا المرض لكانت قارة أفريقيا فى مقدمة الدول المتحضرة فى العالم. كلنا يعرف ماذا كانت عليه مصر، وماذا أصبحت عليه قارة أفريقيا الآن، التى هدمتها الأمراض العجيبة والخطيرة». هذه المقولة قالها سير باتريك مانسون ـ رائد الأمراض المتوطنة فى العالم ـ عام ١٩٠٧.

وفدت الحمى الصفراء للعالم الجديد على ظهر السفن التى حملت العبيد الزنوج من أفريقيا، وأول تسجيل لظهورها فى باربادوس كان عام ١٦٤٧. كذلك حملت السفن القادمة من أفريقيا إلى أمريكا الملاريا الخبيثة، وقد سجل ظهورها فى الأقاليم البرتغالية والإسبانية منذ عام ١٦٥٠، وقد تصل نسبة الوفيات من الملاريا الخبيثة إلى ٢٥٪.

كشف ألفونس لافيران ـ من معهد باستير ـ عن العامل المسبب للملاريا ـ طفيل «البلازموديوم» ـ عام ١٨٨٠، وانتفى الرأى الذى جاء من إيطاليا أن الملاريا تنشأ من الأبخرة الفاسدة التى تتصاعد من البرك والمستنقعات: وتم الكشف عن العامل المسبب للحمى الصفراء وتم عزل الفيروس فى عام ١٩٢٨ فى غرب أفريقيا. وتأكد أن كلا المرضين ينقلان للإنسان إثر لدغه باصناف معينة من البعوض.

وأعلن فى مؤتمر القاهرة سنة ١٩٢٨ أن مجرد وجود البعوضة الناقلة للحمى الصفراء «إيدس اجيبتاى» ليس كافيا لانتقال المرض، فهى موجودة فى الصين ولا يصاب بها مئات الملايين من الصينيين، وموجودة أيضا فى البرازيل، ويقع صرعى للحمى الصفراء آلاف الصينيين الذين يهاجرون إليها.

كذلك عرف أن البعوض الناقل لطفيل الملاريا موجود من قديم الأزل فى أمريكا، ولكن لم تحدث إصابة بالملاريا إلا بعد انتقال البشر من أوروبا ومن أفريقيا بدءا برحلة كولومبوس عام ١٤٩٢.

ولعل ترحيل ملايين الأفارقة غصبا من بلادهم إلى أمريكا كان عاملا مهما فى نقص المناعة لديهم وسقوطهم صرعى للملاريا عندما هاجمتهم فى العالم الجديد.



والجدير بالذكر أنه منذ بدأت تجارة الرقيق حوالى سنة ١٥٠٠، وبلغت أشدها بين عامى ١٦٩٠ـ١٧٥٠، حتى منعها فى منتصف القرن التاسع عشر، تم شحن ما بين ١٢ـ٢٠ مليون أفريقى عبر المحيط الأطلنطى لأمريكا، توفى حوالى ٤٠٪ منهم من جراء الأوبئة، أو الجوع أو التعذيب الذى لاقوه فى أثناء رحلتهم شديدة البشاعة على ظهور سفن الرجل الأبيض.

يقدر تعداد من خسرهم غرب وأواسط أفريقيا من البشر ما بين ٢٤ إلى ٣٧ مليونا. وقد ظن الأفارقة أن الرجال البيض من المتوحشين، آكلى لحوم البشر، وأنهم يقصدون توريدهم إلى أمريكا لأكل لحمهم.

انتشرت الحمى الصفراء أولا فى باربادوس عام ١٦٤٧ (والتى بدأ الإنجليز فى استيطانها عام ١٧٢٧) وأعقبت مشروعات تطوير العالم الجديد؛ الإزالة المتسارعة والبشعة للغابات وزراعة الأراضى البكر التى نشأت بقصب السكر، وتقطين الزنوج الذين جلبوا من أفريقيا فى تلك الحقول ثم بيع السكر المنتج فى إنجلترا.

هلك من هذا الوباء الأول ـ الذى استمر حتى عام ١٦٥٠ـ ١٥٪ من السكان. ضربت الحمى الصفراء ثانية عام ١٦٩١ واستمرت لعدة سنوات وهلك منها «السادة، والخدم والعبيد»، وهرب بعضهم إلى كارولينا الجنوبية.

وقد توقفت هجرة البيض من بريطانيا بعد بدء الثورة الصناعية وتوافر الأعمال لفقراء الإنجليز فى بلادهم (هاجر من أوروبا ما يبلغ تعدادهم ٥٠ مليون نسمة بين ١٨٤٠ـ١٩١٤، ورحل غالبيتهم إلى أمريكا)، ولم تعد هناك حاجة إلى خطف الزنوج من أفريقيا وترحيلهم عنوة إلى العالم الجديد.

سمح ملاك مزارع القصب للزنوج بمعاشرة كل من يرغبون من النساء السود لمتعتهم مادامو ينتجون عددا كبيرا من الأطفال ويعملون عملا مرضيا للسادة أصحاب المزارع ولا يمرضون.

وبعد النجاح الباهر لإنتاج السكر من باربادوس انتقل إلى جزيرة جامايكا ثم إلى المستعمرة الفرنسية فى سان دومينيج (هايتى)، ثم إلى البرازيل وإلى جزيرة كوبا، وقام بالعمل فى هذه الأماكن عبيد من زنوج أفريقيا، بعد أن أفنت الأمراض (الجدرى) ووحشية المستوطنين الإسبان السكان الأصليين للبلاد. ثم حلت الملاريا الخبيثة والحمى الصفراء محل الجدرى كأداة لقتل السكان الجدد من البيض والسود.

استمر ورود الزنوج العبيد من أفريقيا إلى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية، واستمروا يزرعون حقول القطن المترامية الأطراف التى كانت تزود مصانع مانشستر وأولدهام باحتياجاتها من القطن.

اشترت الولايات المتحدة الأراضى الفرنسية الشاسعة فى لويزيانا من فرنسا عام ١٨٠٣ (لتستخدم فرنسا النقود فى دعم حملتها ضد هايتى)، وضمت الولايات المتحدة غربى فلوريدا من إسبانيا خلال الحرب الإنجليزية الأمريكية بين عامى ١٨١٢ـ١٨١٥ وأفرغتها من سكانها، وتم استزراع القطن بواسطة العبيد فى هذه الأجزاء التى اكتسبتها الولايات المتحدة.

زاد ملاك الأراضى البيض من سطوتهم وازداد قهرهم لعبيدهم من الزنوج، وبدأ الشماليون فى المناداة بتحرير العبيد من سطوة البيض، وتصاعدت أوبئة الحمى الصفراء حوالى سنة ١٨٥٠ وأصابت المدن الكبرى فى الجنوب: نيو أورليانز وممفيس وشارلستون، وكثيرا من المراكز المحلية التى كانت تزود ملاك الأراضى بالخدمات اللازمة؛ وأسبغت تلك الأوبئة سمعة سيئة على الولايات الجنوبية.

وقد ادعى الأطباء الجنوبيون أن الحمى الصفراء هى مرض الزنوج ـ المنحطين عرقيا عن البيض ـ وأنهم ناقلوه للجنس الأبيض (الحقيقة أن دفء أماكن سكنى الزنوج، من تزاحمهم وضيق المكان عليهم ودفء المكان بالنيران التى يوقدونها للتدفئة، كان يهيئ الظروف المثلى لتوالد بعوضة الإيدس الناقلة للحمى الصفراء).

ومع ذلك كانت نسبة الإصابة بالحمى الصفراء أقل كثيرا بين الزنوج عن البيض، وشدة إصابة البيض أشد ضراوة بكثير عن الزنوج (لأن أطفال الزنوج المصابين بلدغ البعوض الناقل للمرض من طفولتهم المبكرة يكتسبون قدرا كبيرا من الحصانة).

مع انتشار صناعة السكر فى جامايكا عام ١٨٣٨ استولت جزيرة كوبا على المسرح وصارت كبرى المناطق فى العالم المورّدة للسكر، بالرغم من حظر تجارة الرقيق استمرت كوبا فى جلبهم من أفريقيا حتى عام ١٨٨٦.

صار سكان العاصمة ـ كوبا ـ خليطا من الأفارقة والأوروبيين الجنوبيين من الإسبان والبرتغاليين وسكان جزر الكنارى، وازدهرت هافانا وصارت ثانية مدن الأمريكتين ـ بعد نيويورك ـ جذبا للناس من كل صوب وحدب.



الأوبئة نتيجة مباشرة للاستعمار الأوروبى.. ولولا مساعدته فى نشرها بتصرفاته الخاطئة وتقاعسه عن مقاومتها لما انتشرت هذا الانتشار. المستوطنون البرازيليون الأوائل كانوا مقتنعين بأن الله أراد أن يحصد الجدرى السكان الأصليين لأن مشيئته أن يختفوا ليرث المستوطنون أرضهم!



وقد حدث تمرد بين سكان كوبا عام ١٨٦٨، وثاروا على حكم مدريد، وصارت الجزيرة شبه مستقلة عن التاج الإسبانى عام ١٨٩٨ فى أواسط الأربعينيات من القرن التاسع عشر، مدت الولايات المتحدة نفوذها واستولت على الثلث الشمالى من المكسيك، ثم اتجهت لابتلاع جزيرة كوبا الخاضعة لإسبانيا عندما ضربت الحمى الصفراء نيواورليانز وممفيس وبقية مدن الجنوب عام ١٨٧٨، وعلم الجميع أن الوباء قد وفد من كوبا.



وبعد الوباء الذى اجتاح جنوب الولايات المتحدة عام ١٨٩٧ زحفت الولايات المتحدة على كوبا واحتلتها عام ١٨٩٨ واحتلت كذلك جزر الفلبين وبورتوريكو ـ المستعمرتين الإسبانيتين واللتين تنتجان السكر أيضا. وتأكد أن الأرباح التى تجنى من صناعة السكر سوف تسقط كلها فى يد الأمريكان.

وقد أجرى والترريد رئيس البعثة الطبية للبحرية الأمريكية تجاربه على الآدميين وأكد نظرية كارلوس فينلى، وبالفعل طهر الأمريكيون كوبا ثم برزخ بنما من البعوض (والحمى الصفراء والملاريا) ثم أكملوا حفر قناة بنما التى وصلت المحيط الهادى بالمحيط الأطلنطى بعد أن فشل المهندسون الفرنسيون فى إكمالها ودفعوا ثمنا باهظا لذلك بخسارتهم لخمسين ألف نسمة من المهندسين والعمال الذين سقطوا صرعى الحمى الصفراء والملاريا الخبيثة.

بدأت بريطانيا تتجه إلى توسيع رقعة مستعمراتها فى أفريقيا. بعد النجاح الذى أحرزته من احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ اتجهت جنوبا وتطلعت لاحتلال السودان، ثم اتجهت لجنوب أفريقيا واستولت على مناجم الماس الغنية فى كيمبرلى وعلى مناجم الذهب، واستغلت ثروات أنجولا فى غرب أفريقيا نظرا لصلاتها الطيبة مع النظام الحاكم فى البرتغال. ثم اتجهت لنيجيريا واستغلت منتجاتها من المواد الأولية: القطن، زيت النخيل وغيرها، مما تحتاجه الصناعة فى أوروبا.

صار لقطن غرب أفريقيا أهمية عظمى فى السنوات الأربع التى انقطع فيها ورود القطن من الولايات المتحدة فى أثناء حربها الأهلية بين عامى ١٨٦١ـ١٨٦٥. ثم اتجهت بريطانيا إلى ساحل الذهب (غانا حاليا) لاستغلال مناجمها الغنية بالذهب، وزودتها بالميكنة اللازمة وجلبت عشرات الآلاف من العمال الأفارقة للعمل فى تلك المناجم، ووضعت قوات بريطانية هائلة لحماية هذه المناجم.

غزا البريطانيون بعد ذلك بواسطة الرشاشات سريعة الطلقات والمدافع والبنادق الضخمة مزيدا من أراضى أفريقيا، فاحتلت بريطانيا بنين وأراضى الهوسا وأراضى المسلمين ذات الحضارة جنوب الصحراء الكبرى. وهزمت كذلك قوات المهدى فى السودان وحوض النيل الأزرق (بواسطة الجنرال كتشنر).

وهكذا صارت بلاد أفريقيا كلها نهبا للمستعمرين الأوروبيين ـ باستثناء ليبيريا ـ التى نقل إليها بعض العمال من الزنوج الأمريكيين بعد نهاية الحرب الأهلية الأمريكية ـ وصارت ليبيريا إلى الآن من توابع الولايات المتحدة.

وبعد السيطرة الكاملة على أفريقيا بدأت الحكومة البريطانية الانتباه إلى أمراض المناطق الحارة، وأقنع مانسون وزارة المستعمرات بإرسال بعثات لدراسة الملاريا وأنشئت أول مدرسة لطب المناطق الحارة فى ليفربول عام ١٨٩٩.

بعد نزول الأسبان إلى أمريكا الوسطى حاملين معهم الأنفلونزا والتيفوس والجدرى، صار غالبية الأهالى الأصليين يموتون فى سن الطفولة أو الشباب.

بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا أجبرت فرنسا وإنجلترا أهالى أفريقيا (وسائر المستعمرات) على التجنيد فى قواتها المسلحة. وهرب الكثيرون من المستعمرات الفرنسية وسلموا أنفسهم للإنجليز، وتسبب هذا فى زيادة الإصابة بالملاريا بعد تغيير السكان لأوطانهم الأصلية وإصابتهم بفصائل جديدة من الطفيليات لم تكن لديهم أى حصانة تجاهها.

كانت أعداد السكان تتزايد بسرعة فى أوروبا (بمعدلات تصل إلى ٥ ـ ٦٪ فى العام). ولكنها كانت ثابتة لا تتزايد فى أفريقيا، من جراء الأوبئة التى لم تتم السيطرة عليها. وقد جلب الفرنسيون اللبنانيين والسوريين لمعاونتهم فى التجارة فى غرب أفريقيا ـ إذ كانوا يعتبرون الأفارقة متخلفين عقليا.

عند انعقاد مؤتمر أمراض المناطق الحارة فى القاهرة عام ١٩٢٨ كانت الأحوال الصحية قد تحسنت لدرجة بالغة، فى أوروبا وفى أمريكا ولكنها بقيت متدهورة فى أفريقيا، وظلت الوفيات من الأوبئة مرتفعة فى البلدان التى لم يتم فيها استيطان الأوروبيين، فى حين انخفضت إلى المعدلات الأوروبية فى الجزائر وفى المناطق المرتفعة من كينيا وفى الروديستين وفى جنوب أفريقيا ـ الأماكن التى استوطنها الأوروبيون ـ وفى أواخر القرن العشرين فوجئنا بحدثين مهمين: فقد اكتسب عدد كبير من أصناف طفيل الملاريا حصانة ضد العقاقير ـ القديمة منها والحديثة، كما صار البعوض مقاوما للكيماويات المختلفة مما يهدد ثانية بانفجار الأزمة.



من بين عشرات الكتب التى يتم نشرها تباعا عن الأمراض المعدية ووقعها على المجتمع والسياسات الصحية للدول المختلفة ـ يثير كتاب شلدون واتس أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة كثيرا من التأملات والأفكار، ويرى المؤلف أن الأوبئة نتيجة مباشرة للاستعمار الأوروبى الذى لولا مساعدته فى نشر الأوبئة ـ بتصرفاته الخاطئة فى كثير من الأحيان، وتقاعسه عن مقاومتها فى الوقت المناسب ـ لما انتشرت هذا الانتشار.

وقد شهد النصف الأخير من القرن العشرين انتصارات هائلة للطب كعلم منضبط يتبع الأسلوب العلمى ويدين لتقدمه بالنهج العلمى. ولكن هذه السنوات شهدت أيضا انفصالا يزداد اتساعا بين الخدمات الصحية الفعالة المتاحة لقليل من البشر وغير المتاحة لغالبيتهم. إذ يسود الجهل كثيرا من المجتمعات؛ فيتمسك البعض بالخرافات ويؤمن آخرون (من الأطباء والمثقفين والساسة) أن زيادة أعمار البشر ترجع إلى طرق التشخيص والعلاج الفعالة. بينما الحقيقة أن ارتفاع مستوى المعيشة وتوفير المياه الصالحة للشرب وضمان الغذاء المتكامل الكافى والتحصين ضد الأمراض وغيرها من وسائل الصحة العامة ـ هى السبب الرئيسى فى طول مدة الحياة وارتفاعها إلى أن وصلت فى المتوسط إلى أواخر السبعينيات فى البلدان المتقدمة.

على الساسة ـ إذا أدركوا هذه الحقيقة ـ عدم التهاون فى توفير وسائل الوقاية من الأمراض بدلا من إنفاق مليارات الجنيهات على علاج القليل من الأمراض. ونصيحتى أنه بدلا من أن يتخصص النابهون من شبابنا فى عمليات زرع نخاع العظام أو جراحات القلب لابد أن يهتم الكثيرون منهم بالمشاكل الصحية الحقيقية التى يعانى منها الملايين فى الريف أو فى الأحياء الفقيرة فى الحضر.

وقد توصلت شركات الأدوية الكبرى إلى لقاحات ضد الحصبة وشلل الأطفال والتيتانوس والدفتيريا ، وغيرت من صورة هذه الأوبئة فى العالم، ولكنها لم تبذل بعد الجهد الكافى لإنتاج لقاحات فعالة للأوبئة الخطيرة التى تعانى منها الدول الفقيرة.

من مصائب الدهر أن حكام الدول النامية يسعون لشراء المزيد من الطائرات النفاثة أو الغواصات أو الألغام أو زيادة تسليح وإعداد القوات المقاومة للشغب، أو زيادة الإمكانات فى المعتقلات، أو تحديث وسائل التعذيب فى السجون.

صناع الأسلحة هم أشد من يكون سعادة من هذه السياسات فى العالم، والتى يبيعونها للدول النامية، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا.. هذه الأسلحة تستخدم فى الحروب المحلية الصغيرة، بينما تلك الأمم فى أشد الحاجة للرعاية الصحية الأساسية والتى تحتاج لاستكمالها إلى قدر ضئيل من تلك الأموال.

ومن دواعى السخرية أن الأمريكان ـ الذين يباهون بأن لديهم أعلى مستوى للطب فى العالم ـ فوجئوا عام ١٩٨١ بظهور مرض «الإيدز» (فقر المناعة المكتسبة) بينهم، ذلك المرض الذى لا برء منه ويؤدى إلى الوفاة حتما (تبعا لمعرفتنا الحالية) والذى لم يصنع له لقاح واق بعد.

مات من الإيدز فى السنوات العشر الأولى بعد التعرف عليه ـ ١,٥ مليون نسمة فى العالم كله، وسوف يبلغ عدد المصابين بالفيروس عام ٢٠٠٠ أربعين مليون نسمة. ظهر هذا الوباء ـ من سخرية القدر أيضا ـ بعد ثلاث سنوات من إعلان منظمة الصحة العالمية عن خلو العالم من مرض الجدرى.

ومن السخرية القدرية ـ للمرة الثالثة ـ أن مرض الإيدز كان أشد انتشارا ـ فى سنواته الأولى ـ فى قارتى أمريكا وأفريقيا (القارتان اللتان شهدتا حركة انتقال للسكان بالهجرة القسرية لملايين البشر من أفريقيا إلى أمريكا فى القرون الثلاثة السابقة).

ومن سخرية القدر أيضا أن مرض الدرن ـ قد صار ميكروبه الذى كشف عنه روبرت كوخ عام ١٨٨٢ ـ مقاوما لجميع مضادات الدرن وصار مستعصيا على العلاج وسيعاود فى المستقبل القريب ضراوته وخطورته البالغة على الإنسانية، وسيصيب بعنف فقراء العالم الجدد الذين يزداد عددهم فى أمريكا وبريطانيا وروسيا ـ بالإضافة إلى فقراء الدول النامية. ■

كتاب الزاوية

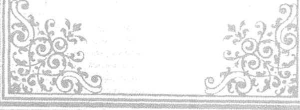
من شعر إبراهيم ناجى

النـاى المحتـرق

كم مرَّةً يا حبيبى ... والليل يغشى البرايا
أهيم وحدى وما فى الـ ... ـظلام شاك سوايا
أصيّر الدمع لحنًا ... وأجعل الشّعر نايا
وهل يلبّى حطام ... أشعلته بجوايا
النار توغل فيه ... والريح تذرو البقايا
ما أتعس الناى بين الـ ... ـمنى وبين المنايا
يشدو ويشدو حزينًا ... مرجّعًا شكوايا
مستعطفاً مَنْ طوينا ... على هواه الطوايا
حتى يلوح خيالٌ ... عرفته في صبايا
يدنو إلىّ وتدنو ... من ثغره شفتايا
إذا بحلمى تلاشى ... واستيقظت عينايا
ورحت أصغى وأصغى ... لَم أُلفِ إلاّ صدايا!

اذكـرى

اذكرى ذاك المساءَ ... كيف كنا سعداءَ
لم يدع عندى همًّا ... ومحا عنك الشقاءَ
ملأ الدنيا صفاءَ ... عندما شئت وشاءَ
أحسن الدهر إليْنا ... بعدما كانَ أساء
كلما أقبلت السحـ ... ـب فظلَّلن السماء
قاتمات غائمات ... يتهادينَ بطاءَ
لاح نجمٌ من بعيد ... فتجلى وأضاء
وتصدّى قمرٌ را ... ح على الأرض وجاء



رأى آخـــــر فـى هتـــــلر

جـــــوردون كـــــريج



عالم اليوم من صنع هتلر
ولولاه لما انقسمت ألمانيا
وما كانت إسرائيل
وما انتهى الاستعمار
وما كان هناك تحرر سريع لآسيا وأفريقيا
وما تراجعت أهمية أوروبا!

[١]

نحن نقترب الآن من نهاية القرن، وذلك حدث يثير دائماً نوعاً من الهياج بين سكان العالم الغربي، الذين يرون فيه محطة مهمة تقطع سير الزمن، ووقفة مناسبة لتقويم الماضى والتطلع إلى المستقبل، وهى فوق كل شيء فرصة لإعداد القوائم. وكان من علامات نهاية القرن أن أعلنت مجلة «تايم» فى شهر أغسطس (١٩٩٧) أنها تعتزم خلال الشهور المقبلة أن تحتفل بالأشخاص المائة فى عصرنا الذين كان لهم أكبر الأثر على العالم وعلى الطريقة التى سنعيش بها فى المستقبل، وهى ممارسة ستنتهى فى آخر عام ١٩٩٩ بتحديد «شخصية القرن». ودعا محررو المجلة قراءهم لتقديم ترشيحات، وقاموا هم بعرض قائمة مؤقتة من جانبهم شملت: تشرشل، وروزفلت، وستالين، ولينين، وهنرى فورد، بيل جايتس، جون لينون، ميك جاجر، والفيس، ولويس أرمسترونج، ومرجريت سانجرا، وروزا باركس، ومارلون براندو، وأينشتين، وبيكاسو، والأم تريزا، وجاكى روبنسون.

وأول ما يستلفت النظر فى هذه القائمة المختلطة أنها لم تتضمن الشخص المهيأ أكثر من غيره للوفاء بالمعايير المعلنة، ألا وهو أدولف هتلر. ففى هذا القرن الذى شهد الكثير من أعمال العنف، كان هتلر تجسيداً له منذ اليوم الذى أخرج فيه ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح وعصبة الأمم فى أكتوبر ١٩٣٣ إلى يوم وفاته بين أنقاض برلين بعد ذلك باثنى عشر عاماً. ولن يستطيع أحد أن يفهم أكبر حرب شهدها التاريخ إلا إذا فهم دور هتلر فى إشعالها، كما أنه كان مسئولاً عن جميع النتائج المفجعة التى نتجت عنها. وقد كتب سبستيان هافنر منذ عشرين عاماً مقالة بديعة يقول فيها:

> «إن عالم اليوم، شئنا أو أبينا، هو من صنع هتلر. فبدون هتلر لما حدث تقسيم ألمانيا وأوروبا، وبغير هتلر لما كانت هناك إسرائيل، وبغير هتلر لما كانت هناك نهاية للاستعمار، أو على الأقل لم تكن لتتم بهذه السرعة، ولما تحرر الأسيويون والعرب والأفارقة السود، ولما تراجعت أهمية أوروبا».

وينعكس ذلك كله فى الاهتمام غير العادى الذى لا يبديه المؤرخون وحدهم بل يبديه أيضاً المواطنون العاديون بحياة ذلك الرجل وأعماله. وعدد الكتب والمقالات والأفلام وبرامج التليفزيون التى خصصت له أكبر مما خصص لأى شخص آخر من الزعماء الوطنيين فى هذا القرن. والآن وبعد مرور خمسين عاماً على وفاته لا يبدو أن هذا الاهتمام أخذ يضعف، بل إن الكلمات التى كتبها المؤرخ الألمانى جيرارد شرايبر فى الثمانينيات: «إننا لم نفرغ بعد من هتلر» هى اليوم أصدق من الوقت الذى كتبت فيه.

[٢]

يقتبس جون لوكاتش عبارة شرايبر فى الصفحة الأولى من كتابه الجديد عن هتلر، وهى تصلح تماماً لأن تكون شعاراً له. وليس لوكاتش غريباً عن الفترة الهتلرية. فقد كتب فى سنة ١٩٧٦ دراسة فريدة من نوعها عن المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية، وأعقبها فى سنة ١٩٩١ بعرض درامى لما أسماه المبارزة بين هتلر وونستون تشرشل فى ربيع ١٩٤٠ غير أن موضوعه فى هذه المرة ليس عسكريا ولا عرضاً للسيرة بل هو بحث تاريخى. كما أن هذا الكتاب يعد تاريخاً لتطور معرفتنا بهتلر، كما يمكن استطلاعها من عمل كاتبى سيرته. وذلك يتضمن بحث جوانب فى سجل هتلر العملى لم يتم الاتفاق بشأنها بعد، وبمعنى أوسع لم يتم الاتفاق على ما يمكن أن يقال، بعد مرور خمسين عاماً على وفاته، عن مكانته فى تاريخ بلده وفى القرن العشرين.

كانت أول دراسة جادة عن هتلر هى تلك التى قام بها كونراد هايدن والتى نشرت فى زيورخ فى سنة ١٩٣٦. وكما يظهر من تاريخها، لم يكن بوسعها أن تذكر شيئاً عن الجانب الأكبر من دكتاتورية هتلر، لكنها ـ كما يوضح لوكاتش ـ حافلة بمعلومات تفصيلية دقيقة عن حياته المبكرة وصعوده إلى السلطة. وبالذات لأنها أعدت مبكراً فهى خالية من الاتجاه لاعتبار هتلر مختل العقل أو تجسيداً للشر، وهما الاتجاهان اللذان أضفيا لونهما على الكثير من الكتابات الشعبية التى كتبت عن هتلر فى السنوات التالية. كما كان هايدن ناقداً متشدداً للأساطير والحكايات التى أحاطت باسم هتلر. ويقول عنه لوكاتش: «إن فكرته الأساسية مازالت صادقة الآن كما كانت منذ أكثر من ستين عاماً: أن هتلر لم يلق تقديره الصحيح من جانب أعدائه، ولا من جانب حلفائه المؤقتين».

وبعد ذلك، مر أكثر من خمسة عشر عاماً قبل أن تظهر دراسة جدية أو سيرة موثقة لحياة هتلر، باستثناء الكتاب الصغير الذى أصدره هيو تريفور روبر بعنوان «أيام هتلر الأخيرة» *The Last Days of Hitler* فى سنة ١٩٤٧ والذى تناول موت الفوهرر فى قبو المستشارية. غير أن سنة ١٩٥٢ كانت نقطة تحول بارزة: حينما صدر كتاب آلان بولوك المهم عن سيرة هتلر باللغة الإنجليزية (وكان أول كتاب يستفيد بالوثائق الألمانية التى قدمت فى محاكمة نورمبرج)، وصدرت أول سيرة ألمانية جادة بقلم والتر جورلتز وهربرت كوينت، وكذلك ما حدث فى نفس الوقت من إنشاء معهد التاريخ المعاصر فى ميونخ بناء على مساعى هانز روتفلز وتيودور إيشنبيرج بقصد تنشيط البحث العلمى المتعلق بالماضى القريب، ونشر نتائج ذلك البحث فى المجلة التى يصدرها المعهد وعنوانها *Vierteljahrshefte für Zeitgeschichte* [المجلة الفصلية للتاريخ المعاصر] وبعد ذلك بدأت الكتب المتعلقة بهتلر تتكاثر.

ومناقشة لوكاتش لهذا العمل التاريخى دقيقة وانتقادية وأوفى مما يتصور المرء أنه ممكن فى حدود كتاب صغير كهذا. وقد تمكن من ذلك بسبب استخدامه للهوامش الطويلة التى تشغل أحياناً ثلث الصفحة أو أكثر، والتى يورد فيها اقتباسات من الكتب التى يناقشها ويقارن بينها وبين الكتب الأخرى. (والهوامش هى من بين أطرف وأهم جوانب هذا الكتاب، وإن كانت تصبح فى بعض الأحيان موضع جدل، إذ يقبلها البعض أو يرفضونها على الفور، وتتحول فى بعض الأحيان إلى محاضرات موجزة عن طبيعة التاريخ وغير ذلك من المواضيع التى تطرأ على ذهن المؤلف).

ومن بين الكتب التى يناقشها، هناك عدد من الكتب المفضلة لدى لوكاتش. وهو يعتقد أن السيرة التى كتبها يواقيم فست فى سنة ١٩٧٣ هى أفضلها. ومن بين الدراسات الأقل طولاً فإنه يعجب بكتابات بيرسى شرام وأرنست دويرلين والمؤرخ النمسوى فريدريك هير – وهو دائماً على حذر من «أنصار النسبية» وأنصار التصحيح. ويقول عن هذين الاتجاهين إنه بعد خمسين سنة من البحث فإننا الآن ندرك أن هتلر كان شخصاً أكثر تعقيداً وتعددا للجوانب مما يبدو فى اللوحة ذات البعد الواحد للفوهرر التى رسمها آلان بولوك فى سنة ١٩٥٢ ووصفه فيها بأنه انتهازى صميم، وندرك أن قواه الفكرية كانت كبيرة. وقد أدى ذلك بالبعض إلى التركيز المفرط على الجانب الحساس، والفنى، والإنسانى فى شخصيته على حساب جوانبها الأخرى، مثل ميله إلى التحرك فى الخفاء وقدرته على ارتكاب الأعمال الوحشية.

> «كما أن هناك تصويراً أحادى الجانب لما حققه هتلر من سعادة ورخاء لأغلبية الشعب الألمانى فى الثلاثينيات – دون إشارة إلى الجوانب المظلمة لتلك الصورة الشاملة. وكما أن هناك من يلتزمون الحذر فى محاولة لإصلاح الصورة، بين من يفرطون فى الدفاع عنه، هناك اتجاه لتبرئة هتلر – ولو جزئيا – من مسئولية إشعال الحرب العالمية الثانية. وهم يفعلون ذلك بإبراز الأغراض العدوانية لأعدائه، وتشبثهم بعدم الوصول إلى حلول وسط، ولاسيما البولنديون والبريطانيون. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك ميل متزايد لأن يغفر البعض لهتلر، جزئيا على الأقل، خطوته التى حددت مصيره فى الحرب، ألا وهى قراره بمهاجمة روسيا فى سنة ١٩٤١، وذلك بالقول – استناداً إلى وثائق مشكوك فى صحتها – بأن ستالين كان على وشك مهاجمة ألمانيا فى سنة ١٩٤١».

إن من يسعون إلى تصحيح الصورة، وبينهم يضع لوكاتش الكاتب البريطانى غزير الإنتاج دافيد إيرفنج، يفعلون ذلك لمساندة إنكارهم مسئولية هتلر الأدبية عن فظائع مثل محاولة إبادة الشعب اليهودى.

إن نظرتنا إلى الماضى لا يمكن أن تكون دائمة لا تتغير. فالمراجعة هى جزء من العملية التاريخية، وهى عملية حتمية بسبب مرور الزمن وما يصحبه من تغير فى زاوية الرؤية وتراكم المعلومات الجديدة. كما يمكن أن يعجل بها وقوع أحداث طارئة. وكانت الضجة التى ثارت فى أمريكا بشأن الزيارة التى قام بها الرئيس ريجان لبيتسبرج فى سنة ١٩٨٥، عندما دُعى لزيارة المقبرة التى دفنت فيها رفات

The Hitler of History

(هتلر فى الكتابات التاريخية)

John Lukacs
New York: Knopf, 1997.

انقسم المؤرخون وجانب كبير من الأكاديميين انقساما حادا حول ماضى النازية. . وكان من أهم الحجج أن ألمانيا اختيرت وحدها بغير حق لإلقاء اللوم عليها، فى حين أن الاتحاد السوفيتى كان لا يقل وحشية وقمعا

أعضاء من منظمة الصاعقة الألمانية، كانت كافية لإثارة جو من الاستياء والانتقاد فى ألمانيا، وكذلك إثارة مناقشات طويلة حول ماضى النازى كانت لها نتائجها المهمة. واتخذ ذلك الحوار صورة الجدل التاريخى الذى دار فى عامى ١٩٨٦ – ١٩٨٧ والذى فجره ما بدا أنه محاولة من جانب اثنين من الباحثين – هما أرنست نولته وأندريا هيلجروبر – لتحسين صورة هتلر ونظامه. وردا على ذلك قام الفيلسوف الاجتماعى يورجن هابرماس بهجوم ساحق على ما أسماه النزعة المحافظة الجديدة لدى المشتغلين بمهنة التاريخ. وقبل أن ينتهى الجدل كان قد شارك فيه كل كبار المؤرخين فى ألمانيا تقريباً، وكان قد بيَّن أن المؤرخين وجانباً كبيراً من الأكاديميين عموماً ينقسمون انقساماً حادا. إذ اتهم مؤيدو نولته وهيلجروبر معارضيهم بأنهم من قتلة الشخصيات، وأنهم يحاولون منع نشر الآراء التى لا تلقى تأييداً شعبياً، وأنهم يلقون الظلال على ماضى الأمة. وكان من أهم الحجج التى استخدموها القول بأن ألمانيا اختيرت وحدها بغير حق لإلقاء اللوم عليها، فى حين أن الاتحاد السوفيتى كان لا يقل وحشية وقمعاً، إن لم يكن أشد.

ونتيجة لذلك، ظهر اتجاه لمقاومة ما أسماه بعض الباحثين النظرة الأحادية لتاريخ ألمانيا القريب، وهى النظرة التى فرضها أعداء ألمانيا السابقون، وأن ذلك لم يلبث أن أثر على الدراسات المتعلقة بهتلر. ويوضح لوكاتش أنه جاء فى طبعة عام ١٩٩٥ من السيرة التى كتبها يواقيم فيست عن هتلر الذى كان مؤيداً لنولته أثناء الجدل، أن النهج التاريخى الموضوعى إزاء هتلر وعصره ـ والذى دعا إليه المؤرخ مارتين بروسات فى سنة ١٩٨٤ باعتباره وسيلة للخروج من الحصار الذى فرضته الاشتراكية الوطنية على الوعى التاريخى الألمانى ـ لم يتحقق. بل إن فيست يقول إن هتلر مازال يصوَّر فى صورة الشيطان، وإن شخصيته زادت بعداً عن الواقع، وأنه مازال «يعيش معنا» وأن «ظلال معايشته لنا (كذا) تصبح أعمق فأعمق» إنه ليس من المتوقع أن يتحسن هذا الوضع مادامت هناك أسئلة مهمة ومواضيع تتعلق بالفوهرر تعتبر من «المحرمات» مثل مسألة ما إذا كان عداؤه للبلشفية ليس له ما يبرره.

فى سنة ١٩٨٩ نشر أكثر المؤرخين الشبان تأثيراً ونفوذاً، رينار سيتلمان، سيرة سياسية مختصرة لهتلر، كانت نغمة المراجعة واضحة فيها. كتب سيتلمان يقول: إن الصورة المرسومة لهتلر هنا تختلف عن الصورة الأخرى اختلافاً جوهريا. فهو هنا يبدو سياسيا، له أفكاره وأعماله التى هى فى الواقع أكثر عقلانية مما كان يبدو فى السابق. ثم أضاف: «فى بعض المجالات مازال البحث المتعلق بالاشتراكية الوطنية فى بدايته... وفى النهاية فإن صورة هتلر تبدو فى الجوهر أكثر تركيباً وتعدداً فى الجوانب وبعيدة عن اليقين». وبعد ذلك، وبعد إلقاء نظرة على السير السابقة التى يراها سيتلمان ممتازة بالنسبة لعصرها ولكن الزمن تجاوزها الآن فى كثير من الجوانب، فهو يرى أن الأوان قد آن للحد من نغمة السخط فى مناقشة هتلر. كما أن النغمة الهادئة مطلوبة أيضاً فى اللغة. وذلك أمر بعيد عن الواقع فى كل السير التى كتبت عن هتلر (بما فى ذلك السيرة التى كتبها فيست).

وليس فى شيء من ذلك ما يدل على أن ثمة موجة لإعادة النظر تتجمع الآن، بالرغم من أن سيتلمان قد اعتمد فى بعض الأحيان على البحوث التى أجراها دافيد إيرفنج وأثنى عليه مع إبداء بعض التحفظات، وبالرغم من أن لوكاتش يبدى قلقه من أنه لا يوجد فى بعض الأحيان تمييز بين المراجعة التى أجراها سيتلمان و«السعى إلى تحسين صورة هتلر». لكن هذه المراجعة توحى بأن الصورة المقبولة لهتلر تتعرض لتعديل مستمر، وأن هناك تفسيرات جديدة ستمثل تحدياً للقدرات الانتقادية للمؤرخين الذين يكرسون جهودهم لمعرفة الحقيقة.

[٣]

هذا ليس جديداً بطبيعة الحال. وقد انقضت عشرات السنين تراجعت خلالها الآراء الراسخة المتعلقة بمختلف جوانب حياة هتلر وأعماله ولكنها الآن تتهاوى تحت تأثير الاكتشافات الجديدة. ولنأخذ على سبيل المثال مسألة متى أصبح هتلر فعلاً الشخصية التى يعرفها التاريخ؟، أو بعبارة أخرى: متى تبلورت أفكاره واكتسبت شخصيته صورتها الناضجة؟. فحتى وقت قريب كان معظم المؤرخين يميلون إلى قبول ما ذكره هتلر بنفسه فى كتاب «كفاحى» من أن السنوات الست التى قضاها فى فيينا بعد وفاة أمه فى سنة ١٩٠٧ كانت «أهم سنوات التكوين فى حياته» فهو يقول: «أثناءها اكتسبت جوهر نظرتى للعالم، الأساس الجرانيتى الذى بنيت عليه تصرفاتى فيما بعد».

ومن الطبيعى أن سنوات فيينا كانت لها أهميتها (وإن كانت بحوث فيرنر مازر قد أثبتت أنها لم تكن فترة من الفقر المدقع كما يدعى هتلر) وقد كان فى سنواته الأخيرة يتحدث كثيراً عن فيينا بنغمة ودية لا نجد لها أثراً فى «كفاحى». ولكن ليس فى الوسع القول بأن أفكاره تبلورت فى فيينا أو أنه اكتسب رؤية



واضحة لمستقبله هناك. فبالرغم من أنه يقول إنه ترك فيينا «وهو على عداء تام للسامية» فإن لوكاتش يوضح أنه ليس هناك فى تصريحاته، سواء منها الخاصة أو العامة، ما يتضمن عداء للسامية قبل أن يبلغ سن الواحدة والثلاثين. وهناك دليل آخر وهو أن عرضه لفترة فيينا لا يكشف إلا نادراً عن طموح سياسى من جانبه. وكانت الحرب التى خدم فيها هتلر من يومها الأول إلى يومها الأخير – وهزيمة ألمانيا – هى التى أيقظت وعيه السياسى. وتطلب الأمر تجربة إقامة مجلس للسوفييت فى ميونيخ فى سنة ١٩١٩، واكتشافه بعد ذلك أنه قادر على إلقاء خطب عامة، وأنه قادر على إقناع الناس، هى التى جعلته يقرر اقتحام مجال السياسة.

وحتى بعد ذلك – حدث التطور فى أيديولوجيا هتلر بالتدريج، والأرجح أنها لم تستكمل إلا بعد إتمامه كتابه «كفاحى» فى سنة ١٩٢٤.

وبالمثل فإن السؤال عما إذا كان ينبغى اعتبار هتلر رجعيا أو ثوريا يلقى ردا من المؤرخين اليوم يختلف عن الردود التى كانت شائعة فى الثلاثينيات والأربعينيات. فقد كان فى مقدمة اهتماماتهم فى ذلك الوقت معرفتهم بأن وصوله إلى السلطة جاء عن طريق المناورات التى قامت بها عصابة محافظة على رأسها «فرانز فون بابن» وكانت نتيجتها تدمير جمهورية فيمر الديمقراطية. وكان من السهل افتراض أنه بصدور «قانون التمكين» فى مارس ١٩٣٣ الذى أعطى هتلر عمليا كل السلطات، أن ألمانيا ستعود – كما قال بول رينو فى سنة ١٩٤٠ – «إلى العصور الوسطى مرة أخرى، ولكن دون أن تنيرها رحمة المسيح».

ولكن برنامج هتلر الداخلى بعد ١٩٣٣ لم يؤيد هذا الفرض لأنه – كما يقول المؤرخ الأمريكى دافيد شونباوم، وكان أول القائلين بذلك – أتى بما يمكن أن يوصف بأنه ثورة اجتماعية فى ألمانيا وأنه يصعب القول بأنها كانت ثورة لصالح المؤسسة السياسية والاجتماعية القديمة. وغالباً ما كان المؤرخون الألمان يترددون فى التخلى عن لافتة الرجعية وقبول أوراق اعتماد هتلر كسياسى ثورى: وقد وجه هانز مومزن مرة السؤال «هل يصح أن توصف الاشتراكية الوطنية بأنها ثورية وبالتالى توضع بين تلك التطورات فى تاريخ أوربا التى بدأت بالثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩؟».

ويعلق لوكاتش على ذلك بقوله: «إن هناك قدراً من الحذر الذى لا موجب له فى هذا التردد، لأنه من الصعب إنكار أن أفكار هتلر، وقدرته الخطابية، وخططه، وطريقته فى تنفيذها كانت كلها جديدة تماماً على السياسة الألمانية. وعلى الرغم من قدرة هتلر عند اللزوم على كسب تأييد الطبقات المستقرة فإنه كان فى الواقع يمثل انفصالاً كاملاً عن الماضى. يقول لوكاتش إنه حتى قبل وصوله إلى السلطة:

> «لم يكن يلقى تأييداً من جانب القيم التقليدية للبرجوازية الألمانية. إذ إنه كان يحتقر حذرها وبخلها واحترامها للأنظمة الملكية، وطموحاتها الاجتماعية، وحرصها على الأمان، ووعيها الطبقى، ومجموعة خصائصها التى تمتد من الحرص البرجوازى إلى المعايير العتيقة للنزعة المحلية».

وقد تحول هتلر بأسرع ما يستطيع عن هذه الفئات إلى جمهوره الحقيقى، وهو المجتمع الوطنى العريض. وكان قيام ما سمى «الوحدة الوطنية» المبنية على القبول الكامل والطوعى من جانب الشعب بمثابة ثورة فريدة فى تاريخ ألمانيا.

وكانت تلك الثورة فوق ذلك ثورة عصرية، نفذها حزب كان يفخر بأنه حزب الشباب (فى سنة ١٩٣١ كان ٧٠ فى المائة من المنتمين للحزب فى برلين يقل عمرهم عن ثلاثين سنة، وكان ٦٠ فى المائة من أعضاء البرلمان النازى فى سنة ١٩٣٠ يقل عمرهم عن أربعين سنة) وكانت خططه لتغيير المجتمع تمثل انفصالاً عن الماضى. وقد كتب سيتلمان فى سنة ١٩٩٤ يقول إن هتلر:

> «لم يسمح بأن ينقاد للرؤى المتخلفة بشأن نظام اجتماعى ينتمى للعصور الوسطى. وكان النموذج الذى يتطلع إليه فى جوانب كثيرة هو الولايات المتحدة. وبالرغم من أنه رفض الاقتصاد الرأسمالى والنظام الديمقراطى للولايات المتحدة فقد كان مع ذلك معجباً بتطورها التكنولوجى الصناعى».

كما أنه كان معجباً بالأساليب الأمريكية فى الدعاية، وقدرتها على حساب واستغلال رغبات الأغلبية، وهى القدرة التى حاكاها ببراعة. ولا شك فى أن هتلر لم يكن مستنيراً فى آرائه بشأن دور المرأة فى المجتمع، كما أن آراءه عن الفنون (ولكن ليس عن العمارة) لم تكن متقدمة. ولكنه لم يكن رجعيا، وكانت سياساته الاجتماعية أكثر نجاحاً من سياسات جمهورية



فيمر فى تدمير الحواجز الطبقية وبناء مجتمع جديد للطبقة المتوسطة. ولوكاتش على حق فى وصفه بأنه «ثورى شعبى فى عصر ديمقراطى، على الرغم من كل العناصر القديمة المتبقية من المؤسسات الألمانية والمجتمع الألمانى القديم والتى عرف كيف يستخدم الكثير منها (مثل الكنائس والجامعات) لتحقيق أغراضه».

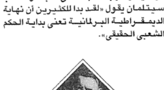
وينبغى تأكيد الطابع الشعبى للنظام النازى. فألمانيا الهتلرية كثيراً ما توصف بأنها «دولة شمولية» أو «دولة بوليسية»، ولكن ذلك الوصف لا ينطبق عليها إلا بدرجة محدودة. وباستثناء اليهود الذين كان هتلر يكن لهم كراهية عنيفة، والمنشقين السابقين والمحتملين، والشاذين جنسيا والغجر، ظلت أغلبية الشعب، على الأقل حتى سنوات الحرب، غير مقيدة بسيطرة الدولة بدرجة تدعو إلى الدهشة. وحتى أولئك الذين كانوا يتآمرون للإطاحة بالنظام، وجدوا سهولة نسبية فى السفر إلى الخارج سعياً للحصول على المساعدة. ونادراً ما استخدم هتلر كلمة «الشمول»، كما أنه أنكر أنه يريد أن يكون دكتاتوراً. وقد قال فى خطبة ألقاها فى ميونيخ فى سنة ١٩٣٤:

> «إن البنادق فى ألمانيا لا تخيف الشعب. فالحكومة هنا تستند إلى تأييد وثقة الشعب كله.. إن أحداً لم يفرضنى على هذا الشعب. لقد تربيت بين أحضان هؤلاء الناس، وظللت بين صفوفهم، وإليهم أعود، ومن دواعى فخرى أنه لا يوجد رجل دولة فى العالم يستطيع أن يقول إنه يمثل الشعب بصدق أكثر منى».

والأرجح أن معظم مستمعيه وجدوا هذا القول مقنعاً، لأن سقوط جمهورية فيمر قوبل بارتياح وشعور بأن عصراً جديداً من الوحدة

لقد قادهم إلى الرخاء والكبرياء وبعث فيهم الثقة التى هزموا بهـا أوربا كلها تقريبا، وحقـق هيمنة ألمانية لم تلبث أن ضاعت لأنه سعى لتحقيق أهداف أكبر من طاقته؟

الوطنية والترابط الاجتماعى قد بدأ. وقد كتب ستيلمان يقول «لقد بدا للكثيرين أن نهاية الديمقراطية البرلمانية تعنى بداية الحكم الشعبى الحقيقى».




وقد لوحظ أنه حتى قبل وصول هتلر للسلطة كانت هناك موجة قوية من المشاعر الوطنية تجتاح ألمانيا، وهو شعور بأن الأوان قد آن لأن يفخر الألمان بأنفسهم مرة أخرى، وأن يكون لهم قول فى شئون العالم. ويذكر لوكاتش أن الوطنية، على خلاف النزعة المحلية القديمة، هى ظاهرة عصرية وشعبية، لا تنفصل عن أسطورة التضامن بين الأهالى التى تتعرض لاستنكار شديد من جانب من لا ينتمون إليها. ومنذ أيام وجود هتلر فى فيينا كان من أنصار الوطنية التى تجمع كل الألمان بمعناها المتطرف، وكانت تسرى فى وطنيته تلك الكراهية التى مثلت دائماً جزءاً من ذاته السرية، وهى التى أدت به فى خطاب ألقاه فى سنة ١٩٢٣ لأن يصيح: «إن تحرير الشعب يحتاج إلى شىء أكثر من السياسات الاقتصادية، وأكثر من الصناعة: إذا أريد للشعب أن يتحرر فإنه يحتاج إلى الكبرياء، والإرادة، والتحدى، والكراهية ثم الكراهية، والكراهية مرة أخرى». وبمجرد أن تقلد السلطة فإن تلك النزعة الوطنية التى تبدت فى المجال الخارجى فى خدمة سياساته العنصرية، كانت بمثابة كارثة للدول المجاورة لألمانيا التى كان يعتبرها أعداءها الداخليين. ولكن لم يكن لدى هتلر أى شك فى أن هذه السياسة ستلقى التأييد من جانب أغلبية الشعب الألمانى.

[٤]

ومعالجة لوكاتش لسياسة هتلر الخارجية وإدارته للحرب التى أشعلها فى ١٩٣٩ أقل جدارة بالرضى عن الأجزاء الأخرى فى كتابه المهم، ويبدو فى كثير من جوانب هذا الجزء مجادلاً بل دوجماتيا فى بعض الأحيان. وهو يبدو رافضاً لإبداء أهمية كبيرة للمبادئ الأساسية للسياسة الخارجية التى تضمنها كتاب «كفاحى»، بما فى ذلك حاجة ألمانيا للسيطرة على أوروبا الشرقية. ولكن بولوك ومؤرخين آخرين أشاروا إلى أن هتلر كرر الإعراب عن تلك السياسة بقوة فى كتابه الثانى الصادر فى ١٩٢٨ وفى الخطب التى ألقاها فى اجتماعات رجال الصناعة فى دوسلدورف سنة ١٩٣٠، والكلمات التى وجهها لجنرالاته العسكريين فى فبراير ١٩٣٣. وإذا راعينا مرونته التكتيكية التى يقول هيرمان رواشننج إنها وصلت إلى «حافة الارتجال» فقد كانت تلك فى الواقع هى المبادئ التى اتبعها فى تنفيذ سياسته.

وعندما يناقش لوكاتش أزمة إقليم السوديت يقول إن الأمر لم يكن يتطلب غير أيام معدودات حتى تهزم ألمانيا تشيكوسلوفاكيا لو وصل الأمر إلى الحرب، وإن كان لا يقدم تقديراً لنوعية القوات التشيكية أو صلابة دفاع تشيكوسلوفاكيا (التى أبدى الضباط الألمان إعجابهم بها بعد انتهاء الأزمة). كما أن لوكاتش يرفض بشكل قاطع لا موجب له حجة فيست القائلة بأن هتلر لم يكن ليستطيع أن ينجو من المؤامرة العسكرية فى سنة ١٩٣٨ وهو يقول بحق إن هتلر كان قد أحدث بحلول سنة ١٩٣٨ ثورة دبلوماسية فى أوروبا، حيث كانت إيطاليا إلى جانبه، وفرنسا وبريطانيا تقفان منه موقف الدفاع، وكانت النمسا ومنطقة السوديت قد ضمتا إلى الرايخ. ولكنه لا يحدثنا كثيراً عن الطريقة التى تمكن بها هتلر من تحقيق ذلك على نحو ما فعله جيرارد وإينبرج وغيرهما من المؤرخين الدبلوماسيين، الذين وصفوا البراعة الدبلوماسية التى استخدمها هتلر فى السنوات التى لم يكن يستطيع فيها أن يساندها بالقوة، ومزيج الملاطفة والتهديد والجرأة الزائدة التى بدأت بانقلاب الراينلاند فى سنة ١٩٣٦. وهو لا يذكر أن جوانب ضعف الدبلوماسية الغربية فى الثلاثينيات أثرت عليه وأعطته شعوراً مهلكاً بالاطمئنان الزائد، بحيث أصبح عاجزاً عن إدراك مؤشرات القوة المتنامية والتصميم الذى بات يواجهه من جانب بريطانيا فى سنة ١٩٣٩. فقد قال لجنرالاته وهو يعلن قراره بمهاجمة بولندا إن بريطانيا وفرنسا لن تتدخلا. وقد تفاخر بقوله: «إن أعداءنا هم من الأسماك الصغيرة، وقد رأيتهم فى ميونيخ». وربما كان لهذا الاطمئنان دور مهم فى دفعه إلى الأمام، بقدر ما كان لخوفه الخفى - الذى يبرزه لوكاتش - من أن الوقت يمر بسرعة وأنه ربما يموت قبل أن يحقق أهدافه.

ولكن أين كانت تلك الأهداف مثلاً عندما انقض على روسيا فى سنة ١٩٤١؟. من الموضوعات الأساسية فى معالجة لوكاتش لإستراتيجية هتلر، مسألة ما إذا كان ذلك الهجوم قد تم بدافع من الأيديولوجيا أو من السياسة الواقعية، وهو موضوع كان موضع خلافات كبيرة بين المؤرخين. ويعرض علينا لوكاتش عينة من آرائهم، بينما يقول هو إن الدافع السياسى فى سنة ١٩٤١ كان الرغبة فى أن يؤدى دحر روسيا إلى إحباط الجهد الحربى لبريطانيا، وربما يدفع بريطانيا إلى الخروج من ساحة الحرب وكان الدافع الأيديولوجى هو الحصول على مجال حيوى للرايخ الألمانى الكبير فى المستقبل والرغبة فى القضاء على «البلشفية اليهودية» باعتباره هدفاً ثانويا، ولكنه ليس قليل الأهمية.

وظل ذلك صحيحاً بعد أن فشلت الجيوش الألمانية فى الاستيلاء على موسكو وبعد أن أدرك هتلر، قبل معظم الناس، أنه لا يستطيع أن يكسب الحرب بشروطه الخاصة. ويقول لوكاتش إن إستراتيجيته الآن أصبحت التمسك بمواقعه كما فعل فردريك الثانى فى حرب السنوات السبع، فى مواجهة مجموعة من الأعداء الأقوياء، مع الاستمرار فى توجيه ضربات قوية إلى قواتهم وانتظار أن يفقد واحد من كبار أعدائه حماسته ويخرج من الحرب. وكان الجانب الأيديولوجى فى هذه الإستراتيجية، وهو القضاء على اليهود، والذى بدأ بحماسة بعد الهجوم على الاتحاد السوفيتى فى ١٩٤١ واستمر حتى نهاية الصراع، هنا أيضاً عنصر ثانوى بالقياس بالجانب العسكرى السياسى. وبالرغم من أن الهولوكوست لقى تأييداً بغير شك من جانب هتلر وكان نابعاً من كراهيته لليهود، فقد ظل بعيداً عن عمليات تنفيذه. ومن الواضح أنه لم يكن يرغب «فى أن يقرأ أو يسمع أو يرى تقارير عما يحدث واقعيا لليهود فى الشرق».

ولأى مدى كان هتلر موهوباً كقائد عسكرى؟ لقد وصفه الجنود الألمان فى نهاية الحرب ساخرين بأنه أعظم الخاسرين فى جميع العصور! لقد كانت لديه قدرة تدعو إلى الدهشة على إدراك التفاصيل، وخيال إبداعى فى المسائل الفنية ومسائل التسليح، وكانت مساهماته الشخصية فى مجال الأسلحة - اختياره للمدافع المضادة للدبابات فى الحملة الروسية مثلاً - ناجحة إلى حد كبير. وكانت لديه بالإضافة إلى ذلك موهبة الإستراتيجى. وقد استشهد ألفريد يودل على ذلك مرة بخطته بشأن الحملة الإسكندنافية، وفكرته عن غزو فرنسا، وما أمر به فى شتاء عامى ١٩٤١ - ١٩٤٢ بعدم التراجع من المواقع التى تم



اكتسابها. ولكن يودل أوضح أيضاً أنه، بعد ستالينجراد، عندما بات من الواضح للجميع أن تيار المعركة قد انعكس، وأن دوره كإستراتيجى قد انتهى، شرع يتدخل فى شئون العمليات بطريقة مضرة أفضت إلى كوارث.

وعندما يناقش لوكاتش مواهب هتلر العسكرية فإنه يقول إنه تعلم كثيراً من الخدمة العسكرية التى قام بها فى الحرب العالمية الأولى. وذلك صحيح بغير شك، ولكن من الصحيح أيضاً أن بعض ما تعلمه كان مصدراً للخطر، ومن بين ما ينطبق عليه ذلك فكرة أن الحروب تُكسب بقوة الإرادة. وكان هذا الاعتقاد هو سبب وقوف هتلر بقوة ضد سرعة الحركة فى العمليات العسكرية الدفاعية وإصراره الخاطئ - فى روسيا، وفى شمال أفريقيا، وفى فرنسا فى سنة ١٩٤٤ـ على ضرورة عدم التراجع حتى من المواقع التى تهددها قوات تفوق قواته بكثير. وكان الخطأ فى ذلك أنه مهما كان من إيمان هتلر بقوة إرادة الجندى الألمانى العادى، فقد نسى أن لدى العدو أيضاً قوة إرادة. وقد ظهر ذلك على الصعيد التكتيكى كما ظهر على الصعيد السياسى. ولم يكن أقل الأسباب التى أدت إلى فشل الإستراتيجية الفريدريكية لهتلر.

[٥]

فى نقطة مبكرة من هذا الكتاب المثير يبدو أن لوكاتش يرشح هتلر ليكون «شخصية القرن» حيث يقول:

«إنه ربما كان أكثر الزعماء الثوريين شعبية فى تاريخ العالم الحديث. والتركيز هنا هو على كلمة شعبى لأن هتلر ينتمى إلى العصر الديمقراطى من التاريخ وليس العصر الأرستقراطى. ولا يجوز مقارنته بيوليوس قيصر أو بكرومويل أو نابليون. فهو مختلف عنهم تماماً، وكان أقدر من أى منهم على بث الحيوية فى الأغلبية الساحقة من شعب عظيم، كان فى حياته أكثر الشعوب ثقافة فى العالم، وأقنعهم بالسير وراء قيادته لتحقيق إنجازات مدهشة، وبذل جهود استثنائية. ودفعهم إلى الاعتقاد بأن ما يدافعون هم (وهو أيضاً) عنه هو نقيض الشر. وقد قادهم إلى الرخاء والكبرياء، وبعث فيهم الثقة التى هزموا بها أوروبا كلها تقريباً، وحقق هيمنة ألمانية لم تلبث أن ضاعت لأنه سعى لتحقيق أهداف أكبر من طاقته. وكان الرايخ الذى أنشأه، وكان يرجو أن يعيش ألف عام، قد انتهى بعد اثنى عشر عاماً، ومع ذلك فقد كان له أثر هائل وترك بصمة لا تمحى على هذا القرن أكثر من أى دكتاتور آخر، سواء كان لينين أو ستالين أو ماو».

وبعد الحرب والهزيمة اختفى الولاء والحب اللذان أوجدهما حتى النهاية المريرة بشكل مفاجئ يدعو إلى الدهشة. وقد كتب فريدريك هير يقول إنه فى الأراضى الألمانية، ولاسيما فى الدوائر المسيحية والمحافظة، كان الناس على استعداد لأن يروا فيه:

> «شيطاناً ومسيحاً دجالاً وظاهرة تتخطى الفهم وتختفى فى ظلال ميتافيزيقية. إن هذا التراجع إلى جحيم ميتافيزيقى كان قبل كل شىء نوعاً من الخلاص: ولم يكن المرء مستعداً للاعتراف بأنه هو أيضاً مسئول عن النهوض وتقلد السلطة والإنجازات المدمرة على نطاق أوروبا لهذا الرجل».

وهناك أسباب قوية تدعو للاعتقاد بأن هذا الموقف تغير تغيراً جوهريا فى العقود الأخيرة. وإلا فكيف نفسر رد الفعل الإيجابى فى ألمانيا لكتاب دانيال جولد هاجن المسمى «قتلة هتلر المرحبون» وما ورد فيه من زعم مبالغ فيه بأن جميع جرائم هتلر قد ارتكبت وفقاً لإرادة الشعب الألمانى. وربما يبين ذلك أن عملية تحويل هتلر إلى جزء من تاريخ ألمانيا بدلاً من جعله قوة يصعب تفسيرها من خارجه ـ حققت تقدماً أكبر مما كان يواقيم فيست يعتقد. غير أن من المشكوك فيه أن يكون الكتاب قد وصل إلى حد ارتياح الألمان لصورة هتلر التى يرسمها لوكاتش على ضوء الأشعة القاتمة لحالة الحضارة الغربية فى نهاية كتابه، حيث يتساءل عما إذا كانت سمعة هتلر، فى فترة انهيار عام للمؤسسات والقيم الاجتماعية، لا يُنتظر أن تنهض فى عين «الأهالى المنظمين الذين قد يرون فيه مهندساً قويا من آخر المهندسين الذين شادوا الإمبراطوريات».

إن الألمان الذين وجدوا صعوبة فى قبول هتلر كجزء من ماضيهم، سيجدون من الصعب عليهم أيضا أن يقبلوا مثل هذه التخمينات بشان تاثيره على مستقبلهم. ■

ترجمة: أسعد حليم

«إيفا بيرون، الشخصية الأسطورية
فى الأرجنتين والتى ماتت فى ريعان الشباب عام ١٩٥٢،
عاشت حياة شديدة الاضطراب: من البؤس الشديد إلى قمة السلطة والأضواء،
ثم انتهت حياتها بمرض عضال وصارت قديسة..
سارة كير تعرض حياة إيفيتا من خلال الفيلم السينمائى الذى مثلته مادونا
وعدد من الكتب الصادرة حديثا».



إيفــا بيــرون

بــين الأســطورة وصــناعة الشــهرة !

سـارة كيـر

■■ نظراً لأن موضوع فيلم إيڤيتا هو الشهرة، تجدر الإشارة إلى أنه فى أوائل الثلاثينيات، عندما كانت إيفا دوارتى فتاة نحيلة عليلة منبوذة، تعيش فى سهول الأرجنتين، كان هناك عنصران للعزاء فى حياتها، وهما إلقاء قصائد الشعر المنمقة عن الموت، وشراء مجلة تنشر أخبار الفنانين وصوراً جذابة وأنباء عن ممثلة كانت مغرمة بها، وهى نورما شيرر. وهو اختيار يبدو من وجهة نظرنا غريبا. فنحن نتذكر بسهولة ممثلات مثل بيتى ديفز وبربارا ستانويك، ونتذكر ما تميزن به من شراسة، ومن قوام مترفع، والطريقة التى كن يرتدين بها الشورتات القصيرة لفتيات الكورس، والفساتين التى تنتمى لموضة ما قبل الحرب. وعندما نقارن الممثلة المفضلة لدى إيفيتا بهن، تبدو كأنها خارجة من صفحات التاريخ، كأنها كائن من خلية واحدة من الكائنات التى سبقت النجمات الحقيقيات اللاتى كن على وشك الظهور.

فماذا كان الشىء الذى اجتذب إيفيتا؟ كانت نورما شيرر متعددة المواهب، تعمل باجتهاد، وتستطيع أن تلعب أدوار الكوميديا، وأدوار البطولة القوية، وحتى جولييت شكسبير. وتذكر بعض كتب السيرة أن إيفيتا أحبت بوجه خاص دور مارى انطوانيت، فقد كان ذلك النوع من العظمة والأداء الذى يستدر الدموع هو الدور الذى لعبته بعد سنوات قليلة فى مسلسل إذاعى فى الأرجنتين عن «أعظم نساء التاريخ»[١]. ثم إن نورما شيرر كانت متزوجة من ايرفنج تالبرج، الرئيس «العبقرى» لشركة مترو جولدن ماير الذى استخدم سلطته ليطلق على زوجته اسم «سيدة الشاشة الأولى». ولعل إيفيتا استشعرت منذ ذلك الوقت مزايا أن يكون زوجها من أصحاب السلطة.

وبرغم أن نورما شيرر لم تكن قبيحة الشكل، فقد كانت قصيرة القامة، شعرها مبتذل، بنى اللون، وعيناها بهما حول، ولم تكن لها شخصية قوية تنتقل بها من فيلم إلى آخر. وكان اختيار أى شخص لها لتكون معبوده المفضل يحتاج إلى الاعتقاد بأن الشهرة والنجاح يولدان العظمة، وليس العكس. فإذا كان المرء شاباً وطموحاً، وإذا كانت حياته حافلة بالألم، فإنه ربما يتجاوز عن بعض النواقص، مثل الافتقار إلى البحث داخل النفس، تلك السمة الخاصة التى وصفتها لليان هلمان بأنها «عقل لا يلقى عليه الفكر بظلاله».

وقد أفل نجم نورما شيرر. ولكن روحها القوية مازالت موجودة. ويكفى أن نتتبع حملة الدعاية لفيلم إيفيتا الجديد، والتى بدأت فى نوفمبر الماضى (١٩٩٥) عندما جلست مادونا لالتقاط صورها لأغلفة مجلتى «فوج» و«فانيتى فير». كان أول ما يلفت النظر فى الصور الفوتوغرافية هو خلوها من الصدور المثيرة، والجلسات غير المحتشمة، والملابس الموحية التى كنا نتوقعها من مادونا. فقد ارتدت ملابس أنيقة من ثياب وقبعات الأربعينيات، ومشطت شعرها إلى الخلف فى الشينيون المعروف عن إيفيتا، كما وضعت على عينيها عدسات لاصقة بنية اللون، ساعدتها فى محاولتها لأن تصبح شبيهة بإيڤيتا، ولكنها أضفت على وجهها طابعًا غير إنسانى، وكأنها مانيكان. وأشارت كل من المجلتين فى غلافها إلى أن مادونا أصبحت أمًا منذ قريب (وعدت مجلة فانيتى فير بنشر «يوميات خاصة» فى داخل العدد وتحدثت عن «الأحلام وأوجاع القلب»). ولكن لم يبد عليها أنها على استعداد لأن تفضفض بحرارة وكان يبدو عليها

١ـ (إيڤيتا) **Evita**
A film directed by Alan Parker,
with music by Andrew Loyd Webber
and lyrics by Tim Rice.
(فيلم من إخراج آلان باركر)

٢ـ (صناعة إيڤيتا) **The Making of Evita**
by Alan Parker
introduction by Madonna
Collins Publishers, 125pp.

٣ـ (سانتا إيڤيتا) **Santa Evita**
by Tomas Eloy Martinez,
translated from the Spanish
by Helen Lange.
Knopf, 371pp.

٤ـ (إيفا بيرون) **Eva Peron**
by Alicia Dujouvne Oritz.,
translated from the Spanish
by Shawn Fields
St. Martin's Press, 325pp.

٥ـ (إيڤيتا : بكلماتى أنا)
Evita: In My Own Words
Translated from the Spanish
by Laura Dail
New Press, 119 pp.,

شىء من الإجهاد. غير أن هذا الإجهاد بدا وكأنه رسالة تريد أن تقول فيها أنها برغم تعبها فإنها تعمل باجتهاد.



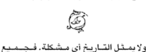
وكان العمل الشاق هو الرسالة التى اعتمد عليها الفيلم. وقد ظهر فيلم إيفيتا معتمدًا على جهود منسقة بشكل مدهش من جانب الناشرين والصحافة وعالم الأزياء (أغلفة المجلات، وكتب جديدة، وعروض لكريستيان ديور، وسلسلة من مستحضرات التجميل من استى لاودر). وجاء أيضًا ومعه تقارير مدروسة عن عدد المخرجين ١٠ الذين اقترحت أسماؤهم على امتداد السنوات، وسلسلة النجمات (ستة عشر، من شارون إلى ميريل ستريب) اللاتى كن فى وقت من الأوقات على وشك التوقيع للقيام بالدور الرئيسى. ولكن هذه القصص تداخلت مع القصة الحقيقية للبطلة الشهيرة التى تسعى لخلق أسطورة أكبر حول التغلب على العقبات، بل إن الفيلم اكتسب قوة روحية من هذه الوقائع، كما لو كان هذا المشروع ـ وكأنه كاتدرائية قوطية ـ لا يمكن تنفيذه على عجل.

ونظرًا لأن الجهد الكبير يمكن أن يكون فى حد ذاته عاملاً مؤثرًا: فقد توجهت لمشاهدة فيلم إيفيتا وفى ذهنى بعض الشكوك، ولكنى كنت مستعدة أيضا لأن أتأثر بما أرى. ومن حسن الحظ أن الفيلم يبدأ بنفس اللحظة التى تموت فيها البطلة، فى الساعة ٨,٢٥ مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢، ولا تنقضى لحظات حتى يكون الحزن قد جرفنا.

والعنصر الذى يحرك القلب هنا فى البداية هو موسيقى اندرو ليود ويبر. وهى موسيقى كان قد ألفها للمسرح منذ عشرين عاما، ومازالت تمثل روح الاستخفاف والكآبة التى كانت سائدة فى السنوات التى أعقبت حكاية ووتر جيت ـ الحزن الناشىء من الشعور المؤلم بأن كل شىء زائف، والرغبة فى السخرية من السلطة. وهناك كورال يصحب الموسيقى الجنائزية يكاد أن يكون ترديدًا للموسيقى الكنسية الإنجليزية، ولكنه يستبعد منها طابعها السماوى، ويحتفظ فيها ببعض سمات أغانى الروك. وعلى حين غرة تقتحم هذا الموضوع الحزين موسيقى للجيتار تعزف بالإيقاع السريع المبالغ فيه الذى عرف عن العازف اريك كلابتون.

وينتمى شريط الصوت إلى أيام دوريس داى، وليس به وجه للتشابه مع مادونا المبقلة المغرمة بالعمل الشاق، والتى أكثرت الإعلانات من الحديث عنها. ولكن بينما تعزف تلك الموسيقى نشهد شيئا آخر يجرى على الشاشة، شيئا ليس من مخلفات المسرحية. ففى مونتاج تركيبى للحزن، نرى المدينة بوينس أيرس كما كانت فى سنة ١٩٥٢، أعيد إنشاؤها بوصة بعد بوصة.

ومنذ عشرين عامًا حظرت الأرجنتين إذاعة المسرحية الموسيقية عن حياة إيفا بيرون. وكان الكثيرون يخشون أن يخرج الفيلم عن حقائق حياة إيفيتا. ولكن هذه المخاوف لم يكن لها مكان فى الفيلم الذى أخرجه آلان باركر(٢).



ولا يمثل التاريخ أى مشكلة. فجميع الأحداث الرئيسية موجودة، وهى بوجه عام لا تعرض من أجل إثارة الفضائح. (والأغنية التى ثار حولها بعض الجدل) واستمر المال فى التدفق إلى الداخل (وإلى الخارج) «تتعلق بالتصرفات المالية لمؤسسة خيرية». وهناك مشهد يتقاطع مع جنازة إيفيتا نرى فيه إيفيتا وهى فى سن السابعة عشرة وعيناها مغرورقتان بالدموع، تحاول المشاركة فى جنازة أبيها ولكن زوجته الشرعية الأنيقة تمنعها من ذلك، لأنها هى وإخوتها غير شرعيين ـ وكان ذلك مصدرا للإذلال أدى بها دائما «للسخط على الظلم». وتقوم مادونا بدور إيفيتا عندما تبلغ سن الخامسة عشرة. ونشهدها وهى تغادر مدينة جونين متجهة إلى بوينس أيرس ساعية للشهرة. وبالرغم من أن الفيلم يؤكد بعض الشائعات التى لم تثبت صحتها بأنها شقت طريقها عن طريق استخدام جسدها فى التعامل مع ناشرى المجلات، والعروض المسرحية، والعمل فى إحدى الفرق الهزلية، وأية وظيفة عرضت لها، حتى وصلت إلى منصب السيدة الأولى، فإن المشاهد التى تعرض ذلك ليست قاسية ولا انتقادية بل يغلب عليها التعاطف. وعرض الفيلم مشاهد ثورة الرابع من يونيو، وهى الثورة التى تغيرت فيها الأحوال، ونصب أثناءها ثلاثة رؤساء للجمهورية على التوالى فى يوم واحد، وأتاحت لبيرون أن يتقلد السلطة. وهى معروضة ببراعة. وكذلك المشاهد المتعلقة بالاستجابة السريعة للزلزال الذى أصاب مدينة سان خوان فى جبال الإنديز، وهى الاستجابة التى أكدت شعبيته والتى تعرف من خلالها بإيفيتا، واستفاد الضحايا من ذلك.

وعادة ما تجرى المسرحيات الموسيقية فى ظل خلفية تجريدية؛ حتى تتمكن من تضخيم المشاعر ـ مثل شوق الفتاة إلى حبيبها، وثورة الرجل الغيور. أما فيلم إيفيتا فيجرى على عكس ذلك. وهو مازال هادئًا كما كان الأمر على المسرح، ولكن نظرا لأن المخرج أراد أن يحدث أثرا واقعيا، فقد سجلت الموسيقى على الشريط فى لندن، ثم تم تصوير الفيلم بعد ذلك فى الأرجنتين (وفى المجر بالنسبة لبعض المشاهد) اعتمادًا على موسيقى مسجلة من قبل. وليس من المستغرب أن ذلك تطلب عمل مونتاج دقيق، كما أن جزءا من الأداء يبدو معلبًا بعض الشىء.

وزاد من الابتعاد عن الواقع، طريقة معالجة الشخصية الرجالية الثانية بعد بيرون. ففى الأصل الذى أعد فى سنة ١٩٧٨، ويبدو أن ذلك كان بناءً على إصرار المخرج هال برنس. كانت شخصية شى جيفارا هى شخصية الزعيم الفدائى الأرجنتينى. وكان يظهر على خشبة المسرح يلبس البيريه ويحمل البندقية: ليعلق على عمل إيفيتا عندما بدأت فى تجميع العمال والعاملات، وتستبدل ثيابها الزرية بثياب من صنع كرستيان ديور وتتحلى بالمجوهرات(٣).

ونجد فى الفيلم شخصية جيفارا مازالت معروضة بشكل مسرحى، وكأنه كورس مؤلف من شخص واحد. فهو مازال يرى طموح إيفيتا جنونيا، ولكنه يوحى بنوع من الرقة إزاءها وراءمظهره التعليمى القاسى. غير أن المخرج باركر يحوله إلى شخص أقرب إلى الراوية. ويعرض إلى مشاهد فى بوينس أيرس لإعطاء إحساس بالأحوال الاجتماعية التى كانت سائدة فى الأرجنتين فى الأربعينيات: تمثل غطرسة الجيش، والأنانية والفساد المنتشرين بين أعداء بيرون من رجال الأرستقراطية والحماسة التى يبديها أنصار بيرون، والفلاحون والمهاجرون الذين اقتحموا بوينس أيرس فى الجزء الأول من القرن، والاستعداد المشئوم من جانب كل الأطراف لارتكاب أعمال العنف. والأهم من ذلك فى الفيلم أن «شى» استبعد الجزء الأخير من اسمه وأصبح مجرد الشخص العادى فى مسرحيات برخت. وفى المشاهد الجماعية يبدو «شى» شخصا مليئا بالحيوية، وعاملا لا يهتم بأناقة ثيابه، ولكن عندما تنتقل الكاميرا ببطء إلى مباراة فى البولو نراه متأنقا مرتديا قميصا من الكتان الأبيض.

وهنا أيضا نجد أن الفيلم تجنب الطابع الخشن للمسرح، ونجده بدلا من ذلك تأملا فكريا وأدبيا وكأننا إزاءفيلم تسجيلى هادئ.

ويجب أن نذكر أن الأغانى التى كتبها تيم رايس قد مهدت الطريق لذلك عندما قال: «لا تبك من أجلى يا بلدى الأرجنتين» وهى الأغنية الشهيرة التى تغنيها إيفيتا أمام جمهور اجتمع خارج قصر الرئاسة، والتى تطمح فيها أن تصل إلى روعة الأنغام التى كتبها بوتشينى. ولكن الكلمات تدور حول ارتباط أحد الأشخاص بالملايين من الشخصيات المجردة. ومع ذلك فقد كتبت الرواية المسرحية فى عصر كانت السياسة فيه مباراة محفوفة بالمخاطر شأن العروض المسرحية، وكانت تجمع بين البلاغة والاتجاه البوهيمى الحزين الذى يتجلى فى موت إيفيتا المبكر من أجل تشكيل مأساة مؤثرة.



وربما كان الفيلم أكثر مدعاة للحزن. فهو يدور حول الطموح والشهرة كما يراهما أشخاص يأخذون هذين الأمرين مأخذ الجد الخالص(٤). ولكن الفيلم لا يهتم بأن يرينا النجمة وهى تصعد إلى النجومية اعتمادا على طاقتها الخاصة المتفردة، لأنه يفترض أشياءً لم تكن المسرحية تستطيع أن تصورها. ويفترض الفيلم أننا بدأنا نهتم بإيفيتا لأننا سمعنا عنها الكثير ـ لأن المسرحية جعلت منها نجمة بالفعل، من الناحية التاريخية. وبالتالى فإن الجوانب التى يهملها الفيلم يفترض أنها معروفة ومرتبطة بالشخصية. وهنا يتضاءل دور إيفيتا المرأة، وإنما تنفعل مشاعرنا بالخلفية التى تتحرك إزاءها، وخاصة خلفية الجمهور، وقدرته على التصفيق والصياح مؤيدا أو معارضا.

وليس من الصعب أن نفهم ميل الفيلم للرجوع إلى قصة استجابة الأهالى لإيفيتا، لأن شخصيتها كانت غير محددة، وقصتها مليئة بالثغرات. فأعداء بيرون ألقوا عليها بالاتهامات، وهى شخصيا لم تكن فوق الكذب. كما أن قدرتها الخطابية العاطفية لم تكن فى حاجة إلى بحث، كما يتبين من هذه العبارة المقتبسة من كلمة أذاعتها فى سنة ١٩٤٤:

> «إن الثورة لم تقم بلا سبب. لقد جاءت لأن شيئا مؤلما وقاسيا قد نشأ فى وطننا، فى الأعماق التى تختزن الكراهية والانفعال والإحساس بالظلم الذى يجعل الدماء تندفع إلى أيدينا وعقولنا».

« لا شك فى أن جانبًا على الأقل من جاذبية إيفيتا أثناء حياتها كان يرجع إلى هذا الضعف الجسدى، وقد أحاطت بها هالة قوية اتخذت أبعادًا أكثر تأثيرًا بعد وفاتها »



مادونا .. فى دور ايفا بيرون

« شيئا فشيئا بدأت إيفيتا تتحول إلى قصة لا تكاد تقترب من نهايتها حتى تشعل قصة أخرى. فهى لم تعد ما كانت تقوله أو ما كانت تفعله، بل أصبحت ما يعتقد الناس أنها قالته أو فعلته »

وحتى الكتب التى ألفت عنها وحاولت أن تحل لغز شخصيتها - وآخرها كتاب «إيفا بيرون» بقلم أليشيا ديجون أورتيز - تميل لأن تتوه أثناء البحث عن الحقيقة أو الكذب فى الأقاويل العديدة، والتى تتركز على الأشياء التى يصعب معرفتها. فمثلا هل فعلا قدمت إيفيتا العون للنازيين فى الأرجنتين، أم أن الأمر لا يتجاوز معرفتها ببعضهم؟ وهل امتدت معتقداتها السياسية إلى ما هو أبعد من الارتباط الوثيق بالفئات المحرومة؟ ولماذا بعد رحلتها الشهيرة فى ١٩٤٧ إلى القارة الأوروبية التى تألقت فيها كما لو كانت ملكة، وكانت تلقى فيها بالأموال على الجموع التى دمرتها الحرب - لماذا بعد هذا النصر يبدو أنها أصبحت أكثر تعقلاً وأكثر استعدادا لأن تمارس العمل الشاق من أجل فقراء الأرجنتين؟ وهناك سؤال آخر يرتبط بذلك: فى أى لحظة بدأت تخمن، وفى أى لحظة أصبحت تعرف عن يقين أنها مريضة مرضا لا شفاء منه؟



إن ما يتفق عليه كتّاب سيرتها، وما يبدو أنه ليس موجودا فى الفيلم، هو شعور إيفيتا القوى بحالتها البدنية المقلقة(٥). فقد كان الناس يستجيبون بدنيًا لهذه المرأة التى تتحدث عن اندفاع الدم إلى يديها ورأسها، وظلوا يتذكرون تلك التجربة بعد انقضاء وقت طويل. وقد دهش أصدقاؤها من أيام اشتغالها بالتمثيل لضآلة حجم ثدييها، وأسنانها الملتوية وبشرتها الشاحبة التى كانت دائما باردة الملمس. وقد ذكر بيرون أنه عند أول لقاء بينهما «كانت يداها محمرتين من التوتر، لكن أصابعها كانت متماسكة بقوة. لقد كانت كتلة من الأعصاب». وحتى بعد أن أزالت لون شعرها وأصبح لجمالها طابع القديسين استمر مظهرها غير مستقر. ويتساءل الناس الآن عما إذا كان مرض السرطان الذى تسبب فى موتها فى سن الثالثة والثلاثين جعل عظام وجنتيها أكثر بروزا. وكان كثير من الرجال يرون أنها أصبحت أكثر جمالا، مع تقديم وصف غريب بأن جانبها الجنسى أصبح أقل وضوحا عن أى امرأة أخرى على وجه الأرض.



ولا شك فى أن جانبا على الأقل من جاذبية إيفيتا أثناء حياتها، كان يرجع إلى هذا الضعف الجسدى. وقد أحاطت بها هالة قوية اتخذت أبعادًا أكثر تأثيرا بعد وفاتها. وكانت رغبتها الأخيرة هى ألا يلمس رجل جسدها. ولكن لم تمض ساعات على وفاتها حتى سلموا جسدها لرجل يقوم بالتحنيط. كان مهووسا بها. وأصبح معروفا فى دوائر الطب بأنه قام بوضع يدى الموسيقار الأسبانى مانويل دى فلا بحيث تبدوان كما لو كان حيا ويعزف أشهر مقطوعاته. وفى كل يوم، وطوال اليوم، كان هذا الرجل يكرس وقته لإيفيتا، ويصفى الدم من كعبيها، ويستخرج الصفراء من بطنها، ويضع مكانها سوائل مثل الجلسرين والفورمالين. ويغطى جسمها بالزيوت ذات الرائحة الزكية. وقد استمر فى عمله سنة كاملة، حتى اطمأن إلى أن جسدها «لن يصيبه البلى».

هذه الحكاية، والحكاية الأغرب عما حدث بعد ذلك، واردة فى كتاب «سانتا إيفيتا» وهى حكاية طريفة للغاية وإن كانت محزنة، كتبها توماس إيلوى مارتينيز. وهى حكاية مبنية على الوقائع. وقد قامت على العمل خلال سنوات تمت أثناءها مقابلات مع أشخاص عديدين وبحث عن الحقائق من جانب المؤلف. وتبدأ الحكاية التى يرويها هذا الكتاب بعد موت إيفيتا بثلاث سنوات، عندما بدأت الخطط توضع للإطاحة ببيرون، وعندما أدركت العصبة العسكرية الجديدة القوة الرمزية لجسد إيفيتا، فكلفت أحد الكولونيلات بأن يعمل على إخفاء جسدها بحيث لا يعود إلى الظهور مرة أخرى. وانتهى الأمر بهذا الكولونيل الذى كان جاسوسا، ومحاضرا فى الشئون السرية والشائعات، وكان من المعجبين بكانت وإدموند بيرك، باختطاف الجثة ووضع خطة لنقلها المستمر من مكان إلى آخر بحيث لا يعثر عليها أحد.

وقد قيل أن جثة إيفيتا وضعت وراءالشاشة فى دار للسينما تعرض أفلام بود أبوت ولو كوستيللو: وأن ابنة مالك الدار تعلقت بها وأطلقت عليها اسم «عزيزتى». وبعد ذلك انتقلت الجثة من مكان لآخر. ويبدو أن لها قوة خاصة، وأنه تنبعث من داخلها روائح مخدرة، أو لعلها رائحة ذكية، أشبه بالزهور أو الأعشاب النقية، وأنها أحياناً تتألق فى الظلام. ويقال أيضاً أنها قضت على حياة بعض الأشخاص. فأحد ضباط الجيش الذى أودع الجثة فى أعلى مسكنه وقع فى غرامها، وعندما صعدت زوجته الحامل لتشاهد ما يجرى أصابه الفزع وأطلق عليها النار. وفى نهاية الأمر يصبح الكولونيل صاحب الفكرة رجلا مخمورا وبائسا، ويقتنع بأن إيفيتا قد سُرقت منه ودفنت على سطح القمر.

أما إيلوى مارتينيز فهو من المغرمين بالسينما، ويضفى على قصته طابعا سينمائيا: فالراوى فى القصة تحركه الشفقة والسخط معا. ويؤدى نفس الدور الذى قام به جوزيف كوتين وهو يحاول أن يكشف أسرار شخصية المواطن كين. ولكن الرواية تتركنا دون أن نصل إلى الحقيقة فهى تقول «شيئا فشيئا بدأت إيفيتا تتحول إلى قصة لا تكاد تقترب من نهايتها حتى تشعل قصة أخرى. فهى لم تعد ما كانت تقوله أو ما كانت تفعله بل أصبحت ما يعتقد الناس أنها قالته أو فعلته». فالبطلة يجب أن تظل سرًا خفيًا. والموضوع الحقيقى هو ما تمثله فى ذاكرة الجمهور.

وهكذا نعود مرة أخرى إلى الأسرار المحيطة بالشهرة. فهذا هو المجال المرتبط بتعلق الأرجنتين بإيفيتا، واهتمام الأمريكيين بما حدث لها. ومن الطبيعى أن هذين النوعين من الاهتمام مختلفان: فالأول ملح وقائم على الذكريات القوية والتى اتسمت بالعنف فى كثير من الأحيان، أما الثانى فعارض ومحب للاستطلاع ولكنه ينظر من بعيد.

ولن يكون الفيلم مرضيا لأى من هذين الجانبين. ومع ذلك فهناك ما يحرك العاطفة فيما حواه من مغامرة هائلة اعتمادا على أن الموضوع يكفى، وأن كل الجهد الذى بذل فيه كان له ما يبرره. وهذا الشعور يتجلى بوضوح فى الأغنية الجديدة التى وضعها ويبر ورايس وعنوانها: «إنك يجب أن تحبنى» التى أضيفت قرب نهاية الفيلم لتهدئة مشاعر الجمهور التى استهلكت من قبل. إن مادونا / إيفيتا إذ ترقد مريضة ومنهكة فى فراشها فى المستشفى وتغنى بصوت هادئ متقطع، تردد المقاطع المؤثرة، وتوجه سؤالا لا جواب له (إلى أين نمضى من هنا؟ ولماذا تجلس إلى جانبى؟) وتكرر عنوان الأغنية مرة بعد أخرى: فى البداية بلهجة الأمر وفى النهاية كطلب يائس لطمأنتها. إنها تريد أن يحبها زوجها. ولكن كما يحدث كثيرًا فى هذا الفيلم، فإننا نشعر بأن ما تطلبه فى الواقع هو حبنا نحن. ومن المؤسف أنها لم تتمكن من الحصول عليه. ■



خـــوان بـــيرون

«ذكر بيرون أنه عند أول لقاء بينهما كانت يداها محمرتين من التوتر، ولكن أصابعها كانت متماسكة بقوة.. لقد كانت كتلة من الأعصاب..»

«لم تمض ساعات على وفاتها حتى سلموا جسدها لرجل يقوم بالتحنيط. كان مهووسا بها.. استمر فى عمله سنة كاملة، حتى اطمأن إلى أن جسدها لن يصيبه البلى»

«بعد موت إيفيتا، بثلاث سنوات.. وعندما أدركت السلطة العسكرية القوة الرمزية لجسد إيفيتا، كلفت أحد الكولونيلات بأن يعمل على إخفاء جسدها.. وانتهى الأمر.. باختطاف الجثة ووضع خطة لنقلها المستمر من مكان إلى آخر بحيث لا يعثر عليها أحد»

الهوامش

(١) هذه المصادفة، مثل مصادفة انجذابها فى بداية حياتها إلى قصائد الموت، هى من المواضع العديدة التى يبدو فيها أن الفتاة المسكينة كانت تتنبأ بمصيرها: ومن المصادفات الأخرى أن أباها وأخاها كانا يحملان اسم خوان، مثل زوجها المقبل، وأن اسم أمها كان خوانا.

(٢) ومع ذلك فقد ظهرت بعض الاعتراضات فى الأرجنتين على الطابع الإنجليزى للفيلم، فاختيار الشخصيات وكتابة الأغانى قام بهما شخصان إنجليزيان، واستعانا بمجموعة غريبة من الأشياء الدولية ابتداء من فيكتور هوجو إلى فيتنام إلى العهدين القديم والجديد.

(٣) وفقًا لما يقول به جون لى أندرسون الذى نشر كتابًا عن سيرة شى جيفارا لم يحدث لقاء بين شى وإيفيتا فى أى وقت. وإذا كان اللقاءقد حدث فقد كان فى أحسن الأحوال حدثا من طرف واحد، ويتمثل فى خطاب وجهه جيفارا إلى أيفيتا عن طريق المؤسسة التى تشرف عليها .وهى رسالة لا تزيد على كونها واحدة من آلاف عديدة. يطلب فيها نقودًا لشراء سيارة جيب ليطوف بها فى أنحاء أمريكا الجنوبية. وليس من المعروف أنها ردت عليها.

(٤) كان ألان باركر هو أيضا مخرج فيلم «Fame»، وهو عن مجموعة من طلبة إحدى الكليات الفنية.

(٥) وهو لا يحوى أيضًا أية إشارة إلى شكوى خوان بيرون المستمرة من مرض الصدفية، والذى كان يحتاج إلى علاج يومى لإخفائه، وإن كان يتضمن إشارة إلى فقدان الطاقة نتيجة للإجهاد.

ترجمة: أسعد حليم



التديـن الشـعبى

من الموالد إلى شم النسيم.. رباط بين العقيدة والحياة اليومية

هبة رءوف عزت

■■ للسياسة بريق، وللسلطة سحر، ينطبق هذا على الواقع المعاش وعلى تطلعات البشر، كما ينطبق على النظرية والتفكير ودراسة هذا الواقع.

وتكسب السلطة للمفكر أو الباحث ثقلاً إذا ما اقترب منها وأجاد وصفها وتحليلها، وهى لديها - كظاهرة إنسانية - من الجاذبية والمحورية ما يشد إليها العقل ويلفت الانتباه.

وعلى مدى عقدين من الزمان انصرف اهتمام الباحثين فى العلوم السياسية والاجتماعية عن دراسة الإسلام إلى دخوله ساحة الصراع السياسى. وصارت دراسة الحركات الدينية ورؤيتها السياسية وعلاقتها المتشابكة مع الدولة هى موضوع الساعة الذى جذب الانتباه واستحوذ على الرصد والتحليل، خاصة حين تصاعدت هذه العلاقة إلى حد الصدام المسلح. ويلحظ المتابع، الاهتمام نفسه فى دراسة الدين والدولة فى جميع بقاع الأرض، وبالنسبة لشتى الأديان والمذاهب.

وفى المقابل، بقيت هناك دراسات ترصد التدين الشعبى، الفردى والجماعى، وخاصة فى مجالى علم الاجتماع والأنثروبولوچيا، بيد أن التوليفة الأولى ظلت هى المتصدرة على الساحة لما لها من طبيعة إشكالية وشائكة.

لكن التحولات التى شهدتها نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من تعثر للمد الدينى، بسبب المواجهة الحاسمة مع شرعية الأنظمة، وتحول طبيعته نحو مزيد من إثبات الوجود على الساحة الاجتماعية / الأهلية، ومراجعته النقدية الذاتية لرؤيته للدولة والسلطة، وتغير أوسع تشهده الساحة الدولية فى مجال الاقتصاد والاتصال، أعادت جميعها للضوء مرة أخرى مظاهر التدين الشعبى الجماهيرى الذى كان موجودا قبل الحركات المنظمة، وظل معها وسيبقى بعدها.

ويتوازى مع الحديث عن التيارات الاجتماعية والمجتمع المدنى والجماعة "Community" الصاعد الآن، ويأتى على قمة جدول أعمال المؤتمرات العلمية السنوية فى أفرع العلوم الاجتماعية والسياسية حديث واهتمام بالثقافات الشعبية وتجلياتها اليومية فى حياة الناس وممارساتهم العفوية الاعتيادية للدين، سواء أكان ذلك فى صورة تدين فردى أم تدين شعبى جماعى. ولعل أبرز مظاهره الاحتفالات الدينية والطقوس الجمعية. . . والموالد . وربما كانت الأخيرة من أكثر المظاهر التى تعرضت فى مدارس فكرية مختلفة للنقد والهجوم. فما بين اعتبار هذه الممارسة ذات الأبعاد «الميتافيزيقية» رمزًا للخرافة وانتشارها بين العوام لتكون أفيونًا للشعوب كما رأى أهل اليسار، وما بين تجريم هذه الصيغ من أهل التدين باعتبارها بدعًا لا يقرها الدين الصحيح، كما أكد أنصار الصحوة الإسلامية التجديدية ثم الحركات الدينية المنظمة، وقفت الملايين من العامة والبسطاء برؤيتها المتميزة للغيب والألوهية والعبودية، وبقيت محافظة على تقاليد الاحتفاء بالأولياء وآل البيت، ومارست الدين كما فهمته واستوعبته فى حياتها، غير عابئة إلى حد كبير بخطاب «المثقفين» المتعالى ولا هجوم «الملتزمين» المغالى.

إن إعادة اكتشاف التدين الشعبى وديناميته وفاعليته يصبح فى ظل هذه التحولات إعادة اكتشاف للناس، لتلك الغالبية التى بقيت خارج الأحزاب والجماعات والحركات المنظمة. وفى عمل متميز كدراسة د. نادية أبو زهرة لا نجد هذه العودة للاهتمام بالناس مجرد إعادة اكتشاف، بل يمكن القول أنها إعادة اعتبار.. وإعادة قراءة.. واستعادة مكانة.

The Pure and Powerful: Studies in Contemporary Muslim Society

(النقاء والقوة: دراسات فى المجتمع الإسلامى المعاصر)

Nadia Abu Zahra
Ithaca Press, 1997.

ما بين تجريم الاحتفالات الدينية الشعبية - الموالد - من أهل التدين باعتبارها بدعًا لا يقرها الدين الصحيح، وما بين اعتبارها رمزا للخرافة وانتشارها بين العوام أفيونا للشعوب، وقفت الملايين من العامة والبسطاء برؤيتها المتميزة للغيب والألوهية والعبودية غير عابئة بخطاب «المثقفين» المتعالى ولا بهجوم الملتزمين المغالى

ولكى تقرأ كتابًا يجب أن تعرف كاتبه، وخلفيته، وتحيزاته التى لا مفر منها، وبنية عقله، وبنية ثقافته، اللهم إلا إذا كنت من مصدقى مقولات ما بعد الحداثة حول «موت المؤلف» وحرية القارئ فى فهم النص دون أى اعتبار لكاتبه.

فكتاب د. نادية أبو زهرة الصادر مؤخرا عن دار إيتاكا للنشر بإنجلترا تحت عنوان «النقاء والقوة: دراسات فى المجتمع الإسلامى المعاصر» هو من الكتب التى تتجلى فيها خلفية الباحث المركبة وتنعكس على منهاجيته وطريقة تناوله للظواهر محل الدراسة. فهى ابنة العلامة الأزهرى الشيخ محمد أبو زهرة، وهى أستاذة الأنثروبولوچيا التى نالت درجة الدكتوراة من جامعة أوكسفورد ثم حاضرت ودرست فى جامعات كندا وإنجلترا، وزارت لفترات قصيرة للتدريس فى عدة جامعات عربية. برصانة ومهارة تجمع نادية أبو زهرة بين خلفيتها الإسلامية ومعرفتها العميقة بالنص الدينى بحكم نشأتها، وبين تخصصها فى العلوم الاجتماعية كباحثة متميزة بارزة فى مجالها. وفى القسم الأول من كتابها تقدم دراستين، الأولى: حول صلاة الاستسقاء فى إحدى قرى تونس، وكيف يطوع الناس النص الثابت فى حياتهم اليومية ومعاناتهم من تقلب الظروف الطبيعية. والثانية: دراسة تحليلية نقدية لأبرز الدراسات الأنثروبولوچية حول المجتمع الإسلامى ونقض لمقولاتها وفرضياتها الأساسية.

تتحدى الباحثة أبرز أساطين هذا المجال، «أرنست جلنر»، ورؤيته التى أثرت على دراسة المجتمع الإسلامى فى الغرب وافترضت الانفصال بين المجتمع من ناحية، والنص الدينى من ناحية أخرى. حيث انطلقت من هذا لتدرس المجتمع الإسلامى دون أدنى شعور بالحاجة لقراءة أو فهم النص الدينى الذى يؤثر فى حياة الناس.

ولا تنقد نادية أبو زهرة هذه الرؤية وحسب، بل توضح كيف قادت إلى نتائج مثيرة مثل افتراض وجود أصول مسيحية للطقوس الدينية الإسلامية، دون اعتبار لعلم الأديان المقارن، والاختلاف البين ما بين الإسلام والمسيحية فى تصور الإله وعلاقة الإنسان بالكون وبالآخرة وطبيعة النظرة لفلسفة التجمع الإنسانى ذاته. لذا فإن فصل العلم الاجتماعى الغربى بين الدين والمجتمع والثقافة ليس فقط غير ممكن أو غير مفيد، بل يعوق - فى نظرها - الباحث عن فهم دقائق العلاقات التى يدرسها ويحجم إلى حد بعيد قدرته على التحليل والتفسير.

وتقترب نادية أبو زهرة من طقسين دينيين غاية فى الأهمية. الأول: هو صلاة الاستسقاء التى تمثل شعائر التطهر والتوبة التماسًا للرحمة الإلهية ومغفرة للذنوب وغيثًا من السماء يسقى الأرض وينبت الزرع ويعيد الحياة للأرض الجدباء، وتقارن بين صيغ الدعاء الشرعية المأثورة، وكيف أضاف لها الناس من بيئتهم وثقافتهم، وقاموا بتوزيع للأدوار فى هذه اللحظات الطقوسية وتقاليدها بين الرجال والنساء والأطفال. والدلالات الرمزية للألفاظ المستخدمة فى الصلاة، بما يربط بين الغيب والحياة المعاشة بمشكلاتها، ليست خرافة «أو هروبا»، بل مزجًا للعقيدة بالحياة وربطًا ما بين السماء والأرض وتجميعًا للأفراد فى كيان متماسك فى أوقات الشدة.

أما الدراسة الإثنوغرافية الثانية التى تسوقها للتدليل على فرضيتها الخاصة بالارتباط الوثيق بين النص والحياة اليومية للناس، فتدور حول طقوس الوفاة فى المجتمع المصرى، وكيف يتبع الناس التعاليم الدينية بدقة شديدة، وكيف تم تحويلها إلى تقاليد صارمة يتبعها الجميع، بغض النظر عن درجة التزامهم بالإسلام فى جوانب حياتهم الأخرى، حتى غابت هذه الجذور الدينية القوية التى لن يفهموها ، عن نظر الباحثين، إلا إذا قارنوا الممارسة بالنص والتعاليم فى قضايا التعامل مع لحظة الوفاة، وطقوس غسل المتوفى وتكفينه، ثم دفنه، ثم طقوس العزاء، بل وصيغ المراثى و«العديد». وهى التى تجاهلها كثير من الباحثين رغم محوريتها فى حياة البسطاء، وخاصة النساء، والتفت إليها من قبل فى دراسته الرائدة د. عبد الحليم حفنى وكانت بعنوان «العديد: فن المراثى الشعبية».

ركزت نادية أبو زهرة على هذين التعبيرين عن التدين تحت عنوان «طقوس التطهر والانتقال» من حال المعصية إلى حال التوبة. أو من حال الحياة إلى حال الموت. بيد أن القارئ يستطيع بناءً على فكرتها الأساسية حول ارتباط النص الدينى بحياة الناس وتأثيره الجم فيها، أن يقارن ما كتبته بدراسة د. حسن الساعاتى حول - لغة القرآن - فى الحياة اليومية. ويربط الطقوس باللغة ألفاظًا ومفاهيم، وهو بعد من الأبعاد المهمة التى تجب إضافتها إلى دراساتنا الاجتماعية، وهو علم اجتماع اللغة الذى يرصد كيف استخدم الناس اللغة، وهى فى هذه الحال اللغة العربية - لغة القرآن - فى شتى شئونهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل وفى فنونهم المعمارية والعمرانية. وهذا البعد الأخير من الأمور التى تنفرد بها اللغة العربية والثقافة الإسلامية بشكل واضح، انطلاقا من رؤيتها العقيدية لقضايا التجسيد وفلسفة الفن، ومحورية الكلمة والوحى فى مقابل مركزية التجسد والحلول فى عقائد أخرى.

ولعل أبرز ملاحظات د. حسن الساعاتى فى هذا الصدد كان تجاوزه، مثل نادية أبو زهرة لهذه الثنائية بين الفصحى والعامية، حيث لاحظ أن لغة القرآن وهى رمز البلاغة المبينة قد تغلغلت فى الاستخدام العامى الشعبى بما يسمح حتى للفرد الأمى أن يفهم القرآن ويدرك دلالات الحديث دونما قطيعة أو تناقض، وهو ما رصدته نادية أبو زهرة على مستوى التعاليم والتوجيهات والنصوص التى تجلت فى حياة الناس واستوعبوها دونما إشكال.



لا يتحدى كتاب نادية أبو زهرة فقط افتراض انفصال النص عن الواقع، وأن الناس تمارس إسلامًا لا صلة له بالنص الشرعى، بل يحوى من التقاليد أكثر بكثير مما يحوى من الأصول الدينية، كما يتحدى أيضا افتراض انفصال دوائر الإسلام الصحيح والإسلام الشعبى والإسلام الرسمى / المؤسسى والعلماء. ويدور الجزء الأكبر من كتابها حول السيدة زينب كأحد أبرز رموز آل البيت فى مصر. وهى «أم العواجز» التى تحتل فى التدين الشعبى منزلة لا تدانيها منزلة.

تدرس نادية أبو زهرة شخصية السيدة زينب فى الكتب التاريخية، وتدرس محوريتها فى الثقافة الدينية الشعبية، وكيف اختصها الناس فى مصر بحب أقرب لحبهم لأمهاتهم اللاتى ولدنهم، فصارت ملجأ المستضعفين وصارت الساحة الرخامية فى مسجدها ملاذ المتعبين، وقبرها / مقامها موضع تقدير الناس وتكريمهم، بل وقسمهم. وصارت مآثرها موضوعًا ثريًا للشعراء والأدباء. وتستخدم هذه الدراسة الميدانية لمنزلة السيدة زينب، التى تأخذ ذروتها فى أيام مولد السيدة زينب، للتدليل على عدم انفصال الدوائر السابق ذكرها وتجاورها فى هدوء ثم امتزاجها وتداخلها فى أيام المولد، وانفكاك ارتباطها بعده فى سلاسة لتتجاوز ثانية وتتعايش.

وتدخل نادية أبو زهرة إلى تلك المساحة الثرية من التدين الشعبى من مقصورة أو ساحة النساء فى مسجد السيدة زينب. فهى تجلس معهن وتلاحظ وترصد سلوكهن وهمومهن وخلفياتهن، وتدرس بعض الحالات بالتفصيل لترى لماذا يلجأن للسيدة ويلتمسن السلوى لديها. تلك التى توهب محبة مطلقة، وعندها يتم الوفاء بالنذور والاحتفال بمولد الأطفال و«السبوع»، ولديها يبحث الناس عن العدل بعد أن ضاقت بهم السبل. إنها «رئيسة الديوان» كما يسمونها، اعتقادًا من العامة بأن لأولياء الله وآل بيته ديوانا ومجلسا فى الملأ الأعلى ترأسه السيدة زينب، أو ربما كانوا يرمزون أيضًا إلى أنها سيدة ديوان المظالم، ليس ذلك الديوان الرسمى الذى عجز عن الفصل بالعدل بين الناس، بل ديوان المظالم . . . الشعبى.

تتشابه الموالد الإسلامية مع الموالد المسيحية. فهناك أيضا تجد النشاط التجارى والترفيهى الموازى. وفى مقابل شرائط المديح يعلو صوت الترانيم. وتوهب الأضاحى وتوزع على الفقراء



ليس بمستغرب أن تقابل فى جناح النساء بمسجد السيدة زينب نساء من طبقات اقتصادية عليا أو حاملات لشهادة الدكتوراه



واللافت للنظر حين يقرأ المطالع لهذه الدراسة بأجزائها المختلفة أنها أثبتت دون ضجيج نسوى ولا موقف دفاعى أن الثقافة الشعبية / الدينية / التقليدية التى طالما اتُهِمَت بالأبوية والذكورية قد اختارت سيدات آل البيت رموزًا محورية، وأبرزهن السيدة زينب. وإذا كان قائل سيذهب إلى أنها نظرت لهن كأمهات، أى فى ظل بنية تقليدية ترى المرأة أمًا وحسب، ثم تحولها فى المجال الدينى إلى أم المؤمنين. وفى المجال الشعبى إلى أم العواجز، فإن هذا لا ينقض دلالة هذه المنزلة. وفى التفاصيل التى تسوقها نادية أبو زهرة حول منزلة السيدة لدى الرجال من زوارها وطلابها دلالة على تهافت هذا النقد وضعفه. بل تذكر الباحثة أن الرجال أكثر بكاءً وتأثرًا عند زيارتها وفى مولدها من النساء. . . بعكس الشائع عن ضعف النساء وسرعة تأثرهن وعاطفتهن. وعبر حوارات وبورتريهات مرسومة بعناية ودقة لكثير من النساء اللاتى يزرن السيدة، تكشف الدراسة عن ثقافة النساء الدينية الثرية حتى فى أشد حالات الفقر والأمية. فالمرأة فى المجتمع التقليدى والطبقات الفقيرة شديدة التدين، تلتمس العلم و الفقه السليم من العلماء، وتطلب الفتوى فى اللقاءات الدورية مع إمام المسجد حرصًا على صحة ممارستها للإسلام. فلا انفصال فى الواقع بين الدين الصحيح نصًا أو فقهًا لدى العالم والإمام، وبين معرفة الناس وسلوكهم. إذ تتداخل فى الحياة اليومية، ويجدها الناظر فى الانعقاد اليومى للجنة الفتوى بالأزهر، وفى التوجه المستمر من الناس من شتى الفئات والأصول الاجتماعية للعلماء فى الأزهر وخارجه بحثًا عن حكم الشرع أو طلبًا للرأى والمشورة.

العلماء إذاً، ليسوا طبقة أو فئة معزولة كما افترضت دراسات اجتماعية مختلفة تشير لها الدراسة وتراجعها، بل هم يعيشون مع الناس وينشغلون بهمومهم ويتفاعلون عبر آلية الفتوى والاجتهاد مع مشكلاتهم المتجددة، ويصححون مسارهم، ويوجهون سلوكهم، خاصة فى المشكلات الأسرية التى تحتل حيزًا كبيرًا من هموم البسطاء، وخاصة النساء.

وكانت نادية أبو زهرة تعتزم إجراء دراسة صغيرة حول مضمون الخطابات التى يكتبها الناس للسيدة زينب ويتركونها عند الضريح، على غرار دراسة د. سيد عويس الرائدة حول مضمون رسائل البسطاء للإمام الشافعى، بيد أنها حين اقتربت من الظاهرة وجدتها أكثر تعقيدًا وتركيبًا. ولذا وسعت من دراستها لتضم شتى الأبعاد الرمزية والاجتماعية والطقوسية. فجاءت شديدة الثراء والريادة والتميز.



لا نهاية للموالد التى تقام فى مصر ويصعب عدها وحصرها، ولا نهاية للقصص التى تروى عن كرامات آل البيت والأولياء. وعلى مدار العام هناك دائمًا احتفال بمولد لأحد الأولياء فى مكان ما بمصر المحروسة. وساد اعتقاد بأن البسطاء يرون الأولياء كواسطة بين الإنسان وخالقه، ويعترفون لهم بسلطان لا حدود له، ويضفون عليهم صفات خارقة. لكن نادية أبو زهرة حين تقترب من الناس وتعيش بينهم ترى أنهم يحرصون فى الزيارة وفى الموالد على تأكيد التزامهم بمفهوم التوحيد الخالص لله، وأنهم يبدأون وينهون تحيتهم وزيارتهم للأضرحة بالشهادتين وصيغ التوحيد الواردة فى الدعاء القرآنى، مؤكدين أن الزيارة محبة ومودة وليست شركًا بالله ولا التماس واسطة. وربما كان هذا ما فهمه الأئمة والدعاة الذين يعايشون الناس فى الربوع وأقاصى النجوع، مما جعل حكمهم على هذه الممارسات أقل حدة وأكثر تفهمًا ورحابة، وهو ما جعل المولد النبوى من الاحتفالات الأساسية فى الحياة المصرية، بل يرصد المؤرخون أمثال المقريزى وابن إياس والجبرتى وغيرهم كيف كانت الموالد مناسبة لسعى الحكام لتكريس شرعيتهم الدينية بمنح العطايا وإقامة الولائم للفقراء، فى محاولة لتوظيف هذه الطقوس لخدمة سياساتهم وتثبيت أركان سلطانهم. وللحملة الفرنسية على مصر طرائف مشهورة فى مسألة إظهار احترام الموالد المختلفة وادعاء التقدير لآل البيت. فالتدين الشعبى، وإن كان يسعى للابتعاد عن دائرة السياسة بنزاعاتها وصراعاتها وينشد ممارسة العبادات والشعائر فى هدوء وسلام، إلا أن توظيفه سياسيًا أمر متكرر عبر التاريخ، إذ كيف يمكن الإفلات من سعى الحكام الحثيث إلى التغلغل والاختراق والسيطرة على شتى المستويات وصولاً إلى أدق التفاصيل الصغيرة. وفى المولد، الذى يمثل ذروة الاحتفاء بالولى، تعيد نادية أبو زهرة اكتشاف هذا التلاحم بين الدوائر المختلفة. ففى مولد السيدة زينب تتلاقى الجماهير التى جاءت من شتى أنحاء مصر، دون ترتيب أو تنسيق، مع أتباع الطرق الصوفية الذين يمثلون بأعلامهم ولافتاتهم ويتميزون بمظهرهم ويتجمعون حول خيامهم مع ممثلى الهيئات الرسمية التى تحرص على التواجد، بل يقام المولد قانونًا تحت إشرافها، وأهمها وزارة الأوقاف وكذا الدولة بأجهزتها الأمنية التى تنظم المرور وتمنح تراخيص الأنشطة التجارية المؤقتة، وتضمن سلامة وأمن مئات الألوف المشاركة فى المولد، وخاصة فى «الليلة الكبيرة» التى تمثل ذروة الاحتفال.

فى هذه اللحظة الطقوسية تتداخل الدوائر وتتشابك. لذا فإن دراستها تصبح ضرورية لدحض افتراض انفصالها أو تعارضها. وهذا التداخل يتم على أرضية الناس البسطاء والفقراء الذين يمهد تدينهم الشعبى اليومى لهذه اللحظة ويستمر بعد أن ينفض المولد فى مساره المعتاد المنتظم.

والمولد ليس فقط مناسبة للذكر والطقوس والتلاوة والصلاة على النبى وآل بيته، بل هو كذلك مناسبة لإخراج الصدقات وإطعام الفقراء وذبح الذبائح، بل والدعاية الانتخابية للأحزاب إذا تزامنت معه، ولتأكيد النفوذ المحلى والسياسى، وللنشاط التجارى والترفيهى. كما أنه أهم مناسبات تجديد العلاقة وتوثيقها بين أتباع الطرق الصوفية الذين يتجاوز عددهم عدد المنخرطين فى الأحزاب السياسية أو الجماعات الدينية والحركات السياسية أضعافًا مضاعفة. ورغم تفاوت طقوس الموالد إلا أن لها سمات مشتركة سواء ذهبت إلى مولد الحسين أم السيدة زينب أم نفيسة العلم، أو قصدت السيد أحمد البدوى أو أبو الحسن الشاذلى أو بلغ بك المدى حضور مولد أبو حجاج الأقصرى.

ومازالت هذه الموالد المختلفة فى انتظار من يدرسها دراسة وافية بل ومقارنة، وهى المساحة التى حاول د. عرفة عبده على فى كتابه المنشور حديثًا « موالد مصر المحروسة» الاقتراب منها بشكل انطباعى وصفى كما أكد هو وتحتاج لمزيد دراسة وبحث متعمق ربما تمثل دراسة الباحثة الفرنسية كاترين مايور جاوان عن شخصية السيد أحمد البدوى وحياته وكراماته وتاريخ الكتابة عنه ومنزلته فى الأدب والشعر الصوفى عن الأولياء والصادرة عام ١٩٩٤ عن المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، تمثل هذه الدراسة جهدًا رصينا فى هذا الاتجاه يلزمه بحث ميدانى

لديها - السيدة زينب - يبحث الناس عن العدل بعد أن ضاقت بهم السبل. إنها «رئيسة الديوان» كما يسمونها، اعتقادًا من العامة بأن لأولياء الله وآل بيته ديوانا ومجلسا فى الملأ الأعلى ترأسه السيدة زينب

إثنوغرافى جاد لإثراء هذه الدراسات الاجتماعية فى التدين الشعبى ومظاهره، ليس فقط الإسلامى منه، بل كذلك المسيحى / القبطى إذ تتشابه الموالد الإسلامية مع الموالد المسيحية، فهناك أيضًا تجد النشاط التجارى والترفيهى الموازى. وفى مقابل شرائط المديح يعلو صوت الترانيم، وتوهب الأضاحى وتوزع على الفقراء. وهناك صناديق النذور، بل والليلة الختامية و«الزفة». وفى مقابل عمليات الختان هناك عمليات التعميد، وحرق البخور، ورفع الرايات، بل وقد يقصد المسيحى موالد المسلمين ويحتفى المسلم بمنزلة القديسين ويزورهم، وهى ظاهرة لم تعطها نادية أبو زهرة مساحة فى دراستها، وهى تستحق مزيد اهتمام من «تقرير الحالة الدينية فى مصر» الذى تصدره الأهرام فى المستقبل والذى تضمن فى عدده الثانى الصادر حديثًا جزءًا صغيرًا حول مولد السيد أحمد البدوى ومولد مارجرجس فى ميت دمسيس، وإن كان الربط بين الموالد فى التقاليد المسيحية والإسلامية ودراسة الطبيعة المصرية المشتركة ورمزيتها فى حاجة لالتفاتة أكبر، وخاصة فى سياق دراسة مكانة المرأة فى هذه التقاليد، إذ لا يمكن تجاهل هذه الاستمرارية فى محورية منزلة المرأة من إيزيس فى أساطير الفراعنة مرورًا بالقديسات القبطيات اللاتى تقام لهن أيضًا موالد واحتفاليات وأشهرهن القديسة دميانة، واستمرار هذا فى التقاليد الإسلامية بالاحتفاء والمنزلة الرفيعة لسيدات بيت النبوة وآل البيت مثل السيدة زينب والسيدة نفيسة وغيرهما، بما يستحق التأمل والنظر فى مكانة ورمزية المرأة فى التراث الدينى والتى كانت كما ذكرنا آنفًا موضع انتقاد وهجوم من جانب الكثير من التيارات التقدمية فى سياق نقدها للتراث الدينى بشكل عام، وكذا موضع نقد الكتابات النسوية الغربية والعربية لفترة طويلة.



هل التدين الشعبى هو تدين الفقراء؟ الإجابة عند نادية أبو زهرة بالنفى. فالشعبى هنا يقصد به الجماهيرى / العفوى / غير المنظم أو المقنن الذى يجمع الناس ويمثل مساحة مشتركة من القيم والمفاهيم والممارسات. لذا فليس بمستغرب أن تقابل فى جناح النساء بمسجد السيدة زينب نساء من طبقات اقتصادية عليا، أو حاملات لشهادة الدكتوراه. كما أن الشعبى ليس هو المرتبط بالخرافة أو ما شابه، بل تعد طقوس الاحتفال بشهر رمضان ذات السمت المصرى المتميز من مظاهر التدين الشعبى / الجماهيرى. ولكن هل محت هذه الطقوس الدينية طقوسًا كان يمارسها المصريون قبل الفتح الإسلامى؟ ربما كانت عبقرية الإسلام أنه استوعب واحتوى ثقافات وممارسات سابقة عليه دون صدام أو محاولة للمصادرة. ومن هنا، استمرت الاحتفالات بشم النسيم لترى فيها العين الفاحصة بعضًا من تقاليد الفراعنة وشيئًا من الثقافة القبطية، ثم التعامل معها بسماحة لتشارك الجموع الغفيرة من المسلمين فيها احتفاءً بالطبيعة وقدوم الربيع دونما إبراز للدينى، بل تقديم للوطنى الإنسانى المشترك فى التفاعل مع الطبيعة والأرض.

وفى الجزء الأخير من كتابها تقدم نادية أبو زهرة دراسة مقارنة بين احتفال المصريين بشهر رمضان الذى تقام فيه صلاة التراويح ويمثل شهر عبادة، ويمتاز كذلك فى مصر بسمت اجتماعى وثقافى خاص، فيتفاعل فيه الدينى مع التراثى مع الثقافى، وبين الاحتفال بشم النسيم الذى يمثل احتفالاً «علمانيًا» صرفًا على حد وصفها، لكنه يتم فى وسط محيط أوسع من التدين الشعبى يكسبه طبيعة خاصة.

ما هو القاسم المشترك بين طقوس الاستسقاء وطقوس الوفاة والدفن والحداد، ومولد السيدة زينب، ورمضان، وشم النسيم؟

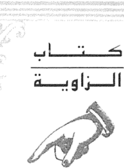
القاسم المشترك هو الناس، وتفاعلهم مع الكون، ورؤيتهم للغيب، وربطهم المتراكم عبر القرون بين الدين والحياة، وإن اختلفت عقائدهم جيلاً بعد جيل، أو تجاورت هذه العقائد.

إن عودة الاهتمام بالتدين الشعبى هو - فى حقيقة الأمر - عودة للاهتمام بالناس، هؤلاء الذين تواروا حين سُلط الضوء على الحركات الاحتجاجية والجماعات المنظمة وغاب عن الباحثين أنهم الرصيد الحقيقى لأى حركة تغيير وهم المحيط الأوسع من التدين الذى لولاه لما تبلورت الحركات الدينية السياسية ولولا بقاؤه بعدها لما بقى الإسلام.

وعبر طقوس الميلاد والموت وما بينهما فى كل بيت وكل حى وكل منطقة وقرية ومدينة ودائرة حضارية يستمر الدين من جيل إلى جيل ويتم تناقله، ثم تبرز حركات التجديد والإحياء لتكسب هذا التدين العام أبعادًا وثقلاً فى المساحة الاجتماعية أو السياسية أو الفقهية. وعلى هذه الأرضية الصلبة تبنى الحركات. وحين تواجه الأزمات تبقى هذه الأرضية الصلبة حافظة للعقيدة حية فى حياة الناس انتظارًا لدورة تجديد أو حركة إصلاح جديدة.

وحين يأتى المرء من حقل العلوم السياسية وهوامش تلاقيه مع العلوم الاجتماعية الأخرى متخمًا بالقراءة حول الحركات الاحتجاجية وحركات الرفض وتصارع النخب المتنافسة على السلطة وغيرها من القضايا «الكبرى»، ثم يدلف مع نادية أبو زهرة إلى ساحة «سيدة الديوان» و «أم العواجز»، أو يراقب أحزان الناس فى مناسبات الوفاة، أو تلاقيهم على موائد رمضان، يدرك أن هناك جوانب مهمة فى واقعنا الاجتماعى غائبة عن الصورة الفكرية والأكاديمية، وأننا قد أغفلنا تلك المساحة الثرية. وآن لنا أن نعيد اكتشافها.. مساحة الأمة والناس .. والله أعلم. ■

كتاب الزاوية



من شعر إبراهيم ناجى

السراب على البحر

لا القوم راحوا بأخبار ولا جاءوا
ولا لقلبك عن ليلاك أنباءُ،
جفا الربيع ليالينا وغادرها
وأقفر الروض لا ظل ولا ماءُ
يا شافى الداء قد أودى بى الداء
أما لذا الظمأ القتال إرواءُ
ولا لطائر قلب أن يقر ولا
لمركب فزع فى الشط إرساءُ!
عندى سماء شتاء غير ممطرة
سوداء فى جنبَات النفس جرداء
خرساء آونة هوجاء آونة
وليس تخدع ظنى وهى خرساء
وكيف تخدعنى البيداء غافية
وللسواقى على البيداء إغفاء
أأنت ناديتِ أم صوت يخيل لى
فلى إليك بإذن الوهم إصغاء

* * *

تفرق الناس حول الشط واجتمعوا
لهم به صخب عالٍ وضوضاءُ
مالى بهم، أنت لى الدنيا بأجمعها
وما وعت ولقلبى منك إغناءُ
لو أنه أبدٌ ما زاد عن سنة
ومدة الحلم بالجفنين إغفاء
أرنو إليك وبى خوف يساورنى
وأنثنى ولطرفى عنك إغضاء
إذا نطقت فما بالقول منتفع
وإن سكت فإن الصمت إفشاء
وأيما لفظة فالريح ناقلة
والشط حاك لها والأفق أصداء
يا ليل من علم الأطيار قصتنا
وكيف تدرى الصبا أنا أحِباء
لما أفقنا رأينا الشمس مائلة
إلى المغيب وما للبين إرجاءُ

عـــــروض مـــــوجـــزة

كتب عربية

السيف والهلال

رضا هلال

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

هذا الكتاب، يحمل ثلاثة عناوين فوق غلافه لا عنوانًا واحدا: السيف والهلال - تركيا من أتاتورك إلى أربكان - الصراع بين المؤسسة العسكرية والإسلام السياسي. لكنه في الحقيقة يركز على الدور المهم الذي يلعبه الجيش التركي في تحديد مصير تركيا ومسار الحكم فيها، ففي عديد من الانقلابات التي جرت في تركيا أعوام ١٩٦٠ و١٩٧١ و١٩٨٠، كان الجيش يتدخل لوضع حد للفوضى الاجتماعية، أو لحسم الصراع بين الإسلام السياسي والمجتمع المدني - وفق رؤيته - كما جرى في تدخله عام ١٩٩٧، لإقالة حكومة أربكان وحظر أنشطة الرفاه، ومقاومة الإحياء الإسلامي، وهو دور ينظر إليه الجيش التركي باعتزاز، بوصفه صاحب الإسهام الأكبر في «تتريك» تركيا بدءا من أواسط العشرينيات، ورغم أن المبادئ التي أرساها أتاتورك، جرّمت انخراط ضباط الجيش في السياسة، فإنها منحت الجيش شرف حماية التعاليم التي قامت عليها الحكومة التركية والحفاظ على الدستور ضد أي انتهاك. وهو ما جعل الجيش في موقف أعلى من السلطة التنفيذية.

ويرصد الكتاب كيف كانت أزمة نهاية السبعينيات في تركيا حالة ضرورية لتدخل العسكر لوضع حد للفوضى الاجتماعية آنذاك. إذ تعاقب على حكم تركيا ١٢ حكومة أقلية وائتلافية خلال الفترة من يناير ١٩٧١ وحتى ديسمبر ١٩٧٩، بينما تدهور معدل النمو الاقتصادي من ٨٪ عام ١٩٧٥ إلى ١,٧٪ عام ١٩٧٩، وارتفع معدل التضخم إلى ٨٥٪، ووصلت نسبة البطالة إلى ٢٠٪. لهذا كله، تدخل الجيش فيما عرف بانقلاب سبتمبر ١٩٨٠ الذي قاده الجنرال كنعان إفرين. فأغلق الأحزاب السياسية وحل البرلمان وأقال العمد وأعضاء المجالس المحلية، وزادت سلطات العسكريين بشكل غير مسبوق، وقبل أن يعيد الجيش السلطة للمدنيين في الانتخابات العامة التي جرت عام ١٩٨٣، فرض دستورًا جديدًا وإطارًا عاما للحياة السياسية، مكّنه من الإشراف على الحياة السياسية. وبعدها بدأ الصعود المتنامي لتيار الإسلام السياسي،وحين وصل أربكان إلى الحكم كان عليه أن يثبت للعسكريين حرصه على علاقات تركيا بالغرب وولائه للدستور التركي العلماني، ولذا قدم تنازلات عديدة، بدءًا من التزامه بعلمانية تركيا، إلى اتفاقه الاستراتيجي الثاني مع إسرائيل، إلى نبذه لشعارات الأممية الإسلامية والبنك المركزي الإسلامي والدينار الإسلامي،إلى تخليه عن الوزارات المهمة لشريكته في الائتلاف «تانسو تشيللر» وبرغم كل هذه التنازلات، فقد أقصي أربكان في «انقلاب مدني» قاده الجيش من وراء ستار ليخلفه مسعود يلماظ، وفرض قادة الأركان على حكومة أربكان ١٨ إجراء لضمان التصدي للنزعة الإسلامية. وأعلنوا صراحة أن الأصولية الإسلامية خطر داهم يهدد تركيا.

والنتيجة التي يتوصل إليها الكتاب في رصده للصراع بين السيف والهلال في تركيا هي أن الإسلام هناك لم ينته بإقالة حكومة أربكان، وربما كان قدر تركيا - كما - يشير المؤلف في الختام - أن تجمع بين الإسلام والحداثة، وأن تقيم مجتمعا إسلاميا حديثا لا دولة إسلامية أصولية.



المثقف والسلطة

مصطفى مرتضى علي محمود

القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨

يقدم هذا الكتاب دراسة تحليلية لأوضاع المثقف المصري في الفترة من عام ١٩٧٠ وحتى عام ١٩٩٥ خصوصا على صعيد علاقته بالسلطة. وهو يبدأ بفصول ثلاثة تحدد المفاهيم وتبحث عن إطار نظري ملائم ثم تقدم رؤية نقدية للدراسات السابقة في الموضوع، وفي الفصول الخمسة التالية يدرس التحولات البنائية وانعكاساتها على أوضاع المثقفين المصريين، وعلى العلاقة بين الدولة والمثقف على التوالي،قبل أن يقدم في الفصول الثلاثة الأخيرة رؤى المثقفين المصريين للعديد من الإشكاليات المهمة: قضية العدالة الاجتماعية، الديمقراطية، إشكالية الأصالة والمعاصرة.

لكن المؤلف لا يقفز بنا إلى فترة حكم الرئيس السادات دون أن يعرج على المرحلة الناصرية، والتي تميزت بعلاقة ملتبسة بين المثقفين والسلطة، ويلاحظ المؤلف أن فترة الخمسينيات والستينيات تميزت بنوعين من المثقفين: مثقف خاطر بحياته في رهان تاريخي على الثورة ومبادئها. وهو نفسه الذي صدمته الإجراءات التي اتخذتها الدولة لتضييق الحريات دون تبريرات مختلفة، لكنه مع ذلك كان يؤمن بأن هذه الإجراءات مؤقتة وستزول حالما تنتهي الثورة من تثبيت مواقعها في مواجهة أعدائها. وفي مقابل هذا النمط، كان هناك مثقفون من الضباط والبيروقراطيين والتكنوقراط، سرعان ما وضعوا أنفسهم في القوالب التي أرادتها السلطة لهم وتحدثوا لغتها، وصار المثقف الملتزم يعاني قهرا دفعه إلى الاغتراب أو الغربة داخل وطنه.

وينبه المؤلف إلى أن حقبة السبعينيات التي شهدت تعميق السلطة بعلاقتها بالرأسمالية العالمية، أفرزت مثقفين معارضين رافضين لتلك التوجهات وللغرب بشكل عام، وعلى الجانب الآخر، كانت هناك ثقافة رسمية تضخ عبر وسائل الإعلام الجماهيرية ثقافة تقمع التوجهات النقدية والعقلانية والمبادرات الإبداعية، وتنمي روح الاستهلاك والتغريب والابتذال والإذعان، وكان أخطر الإجراءات استغلال السلطة السياسية للدين كأيديولوچيا لتزييف وعي الجماهير.

ويعرض المؤلف في الفصول الثلاثة الأخيرة لموقف وآراء المثقفين المصريين من التيارات الثلاثة الأساسية، الماركسي والليبرالي والإسلامي، من قضايا الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والأصالة والمعاصرة.

وحين يسعى المؤلف لاستشراف طبيعة هذه العلاقة في المستقبل، فإنه لا يقدم إجابات جاهزة، وإنما أسئلة يتركها مفتوحة لاجتهادات المثقفين والسلطة، وربما لفعل المستقبل ذاته.



سرير الغريبة

شعر: محمود درويش

لندن: دار رياض الريس، ١٩٩٩

هذا هو آخر دواوين الشاعر الفلسطيني محمود درويش، الذي ما زال، رغم غزوة قصيدة النثر - وهو صرح أنه لا يعترف بها ويخشى ميليشياتها - ينظم قصائده محافظا على الوزن، ومحتفيا بالإيقاع وموسيقى الشعر إلى آخر مدى.

ولا تحضر فلسطين بشكل مباشر في قصائد الديوان الذي يتنقل بين كل مدينة عربية، وتسافر حروفه في أروقة التاريخ وأساطيره، حيث آلهات مصر وسومر، وسحر روما وقرطاج. وأبيات جميل بثينة وقيس ليلى، وغياب فلسطين المباشر مقصود على ما يبدو، كي يؤكد الشاعر من جديد، رحابة عالمه من ناحية، وفجيعة الألم الإنساني بصرف النظر عن سوابق التاريخ ومحدودية الجغرافيا من ناحية ثانية.

غنائية محمود درويش التي ميزته دائما، تأتي في هذا الديوان كثيفة وعالية، لكنها مشحونة بحس إنساني وثقافي رفيع، يضع صاحبه ضمن من يتبوأون قمة الهرم الشعري العربي في لحظته الراهنة.

الديوان هو الثامن عشر لمحمود درويش، ويتضمن نحو ثلاثين قصيدة كتبت بين عامي ١٩٩٦و ١٩٩٧.



الحركة الإسلامية المسلحة في الجزائر من الإنقاذ إلى الجماعة

كميل الطويل

بيروت: دار النهار، ١٩٩٨

يعرض الكتاب لتاريخ الأزمة في الجزائر بين عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٧، وهي مرحلة أبدت فيها السلطة في العالم العربي قدرا من الانفتاح على التيار الذي يرى أن الانتقال إلى الحكم الإسلامي ينبغي أن يكون سلميا، وهو انفتاح جاء على حساب تيار لا يرى سبيلا لإقامة حكم إسلامي إلا بالجهاد، وبرغم هذا الانفتاح فإن الأنظمة العربية اعتبرت أن التيار الأول ليس سوى واجهة للأخير، ومن ثم، ألغت السلطة في الجزائر نتائج الانتخابات التي فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالأغلبية عام ١٩٩٢، مما فجّر الصراع بين الجبهة والحكومة من ناحية، وعزّز من ناحية ثانية موقف التيار الرافض للحكومة والمجتمع ومؤسساته.

وقد نشأت الجبهة كتكتل جمع تيارات إسلامية عدة، بعضها كان موجودًا في الساحة، وإن لم يمارس نشاطًا علنيا بسبب احتكار جبهة التحرير للأنشطة السياسية في البلاد، أما الجماعة الإسلامية المسلحة، فإن نشأتها كفكرة ليست معروفة، وإن كانت بداية نشاطها الرسمي ترجع إلى العام ١٩٩٢.

وبسبب الضربات الموجعة التي وجهتها السلطة للإنقاذ، تراجعت الأخيرة، وبسطت الجماعة المسلحة نفوذها حتى في مناطق نفوذ جبهة الإنقاذ ذاتها.

ويعرض المؤلف للعلاقات داخل الجماعة المسلحة ذاتها، وبينها وبين الجماعات الأخرى، فأمير الجماعة الذي أمر بقتل الرهبان الفرنسيين السبعة (جمال زيتوني) قتل على يد معارضين من الجماعة، وبرغم بشاعة ما قام به، فإن ما جرى في إمارة خلفه «عنتر الزوابري» يتجاوزه عشرات المرات، حتى أن الجزائريين يعرفونه بـ«عهد المذابح». وبدا أن الجماعة المسلحة تصر على فرض رؤيتها على المجتمع، فرفضت الخصخصة، والتحاكم أمام القضاء الجزائري، وأعلنت أنها ستقتص من تارك الصلاة أو الزكاة، أما الجناح المسلح للإنقاذ، فقد أعلن عن هدنة مع الحكومة عام ١٩٩٧، وطلب زعماؤه إجراء حوار معها، فهل تؤدي هذه الهدنة إلى أوضاع جديدة في الجزائر؟ سؤال يحمل رائحة الأمل، يسوقه المؤلف في نهاية كتابه.



شكسبير واليهود

رمسيس عوض

القاهرة: سينا للنشر، مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٩

حتى الآن، لم يظهَر في الأدب الغربي يهودي أشهر من «شيلوك»، التاجر المرابي في مسرحية شكسبير الشهيرة «تاجر البندقية»، وكثير من الكتاب الذين جاءوا بعد شكسبير استفادوا من هذه الشخصية ووظفوها بطريقتهم، وتحول شيلوك بفضل شكسبير إلى أسطورة نسجت عبرها حكايات عديدة، خصوصا في مرحلة كان اليهود يمثلون فيها مشكلة مؤرقة لأوربا.

لهذا السبب يحتل «شيلوك» نحو ثلثي مساحة كتاب «شكسبير واليهود»، إذ يخصص له المؤلف الفصلين الثاني والثالث، فيقدم في الفصل الثاني

عـــــروض مـــــوجـــــزة

تلخيصا لمسرحية «تاجر البندقية» ومصادرها، ويدرس في الثالث نظائر المسرحية في الثقافات غير الإنجليزية، والتحليل الفرويدي لها. وأخيرا يقدم أصداءها بعد الحرب العالمية الثانية. أما الفصل الأول، فهو دراسة تاريخية عن اليهودي وصورته في أوروبا العصور الوسطى.

وقد حفلت روايات ومسرحيات القرن الثامن عشر بشخصيات يهودية مقيتة، تتسم بالمكر والجشع وتشتغل بالسمسرة والربا، غير أن ذلك لم يمنع مؤلفا مثل الكاتب المسرحي «ريتشارد كمبرلاند» من كتابة مسرحية عنوانها «اليهودي عام ١٧٩٤» بدا فيها بطله اليهودي «شيفا» محسنًا وكريمًا على نقيض شخصية شيلوك تماما. لكن «شيفا» اندثر وبقي «شيلوك»، وبقي بعده اليهودي زعيم العصابة في رواية تشارلز ديكنز الشهيرة «أوليڤر تويست» والمرابي في رواية الروائي الإنجليزي ترولوب «رئيس الوزارة» وكذلك فعل الشاعر ت.س. إليوت في قصيدة بعنوان «بيربانك» نظمها عام ١٩١٩، وفيليب لاركين في روايته «جيل» عام ١٩٤٦، دون أن ينفي ذلك السعي لتغيير صورة اليهودي في الأدب الغربي في القرن العشرين.



عصافير النيل

إبراهيم أصلان

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩.

هذا هو آخر الأعمال الإبداعية للأديب إبراهيم أصلان. وهو مقل بدرجة ملحوظة. فبرغم انتمائه إلى جيل الستينيات الأدبي، وبداياته الملفتة قبل أكثر من خمسة وثلاثين عاما، لم يصدر سوى مجموعتين قصصيتين هما «بحيرة المساء» و «يوسف والرداء» وثلاث روايات هي «مالك الحزين» و «وردية ليل» والرواية التي بين أيدينا.

وتدور رواية أصلان الأخيرة في عالمه «الأثير» الكيت الكات، بالتحديد في شارع فضل الله عثمان. وبين شخوص يبدون كما لو كانوا يبزغون من أطياف حلم، أو هم على وجه الدقة، يقفون على الخيط الواهي بين الحلم والواقع، ويمثلون أربعة أجيال مختلفة، بدءًا من الجدة نرجس التي تبدأ الرواية باختفائها وتنتهي دون تحديد واضح لمصيرها، وانتهاءً بنرجس الصغيرة والولد عبد الله، مرورا بالبهي عثمان والخال عبد الرحيم وعشرات آخرين ممن صنع بهم أصلان روايته، التي مارس فيها لعبته الأثيرة في تكسير الزمن، بحيث تجرى الانتقالات داخل الرواية بطريقة تبدو مربكة، لكن بالدأب ومتابعة القراءة تتكشف الصورة تدريجيا. فأبطال أصلان كما هم دائما من البسطاء، أحلامهم تماثلهم، لكنهم شديدو الطرافة والدهاء. منكبون مثل كل المصريين على لقمة العيش، ويوقنون بمكر تاريخي، أن الكبراء غير معنيين بهم. وأنهم مجرد أدوات يتم استخدامها كي ينجحوا في الانتخابات أو تمتلئ كروشهم على حساب بطون الفقراء الخاوية.

لايطرح أصلان هذه المعاني بصوت زاعق، إنما كالعادة، بصوته الهامس الخفيض المحايد، ولاتجد بين أبطاله - كالعادة أيضا - من يمكن الاستناد إليه بوصفه العمود الفقري للعمل الروائي. فالبطل هنا هو المكان بتفاعله المستمر والجدلي مع شخوصه وزمنهم. ويبقى الراوي مثل عدسة لاقطة، تنقل أدق التفاصيل بحياد مماثل.



كنوز من السنة

الشيخ محمد الغزالي

القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٨.

هذا الكتاب، هو آخر الأوراق التي تركها الداعية الإسلامي الراحل الشيخ محمد الغزالي، اختار عنوانها لكنه لم يتمكن من الانتهاء منها، فقد وافته المنية قبل إتمام كتابه، وهو يتضمن تعليقات وتفسيرًا لعشرات الأحاديث النبوية، يربطها بوقائع معاصرة ليبين كيف إذا ما استمسك الناس بالتشريع الإسلامي، والسنة النبوية مصدره الثاني - صلحت أحوالهم ونجوا من تيار المادية الذي طغى، حتى بات يهدد الروح والقيم الإنسانية الصحيحة في الصميم.

ويشتمل الكتاب على عدة أقسام يضم كل قسم منها عدة مقالات، ويجمع بينها خيط واحد هي : بين الغفلة والمكائد، كلمات في الإيمان، الإنسان بين الطاعة والمعصية، دعائم اليقين بالله، سلوكيات، شئون المرأة والأسرة، بعض المفاهيم.

يصحح الشيخ الغزالي في كتابه مفاهيم البعض حول حديث صحيح روى عن رسول الله ﷺ يقول :«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى» .

يضع الشيخ الغزالي الحديث في سياقه ويؤكد على أن الإسلام لا يعرف الإكراه في الدين، ولم يعلن المسلمون حربا أبدا على قوم ليعتنقوا الإسلام. هذه عينة مما تحفل به مقالات وتفسيرات الشيخ الغزالي.



تراث الغناء العربي

كمال النجمي

القاهرة: دار الشروق - مكتبة الأسرة - ١٩٩٨

يتجاوز الناقد الراحل كمال النجمي في هذا الكتاب، حالة الخفة التي يتعامل بها كثيرون مع موضوع الغناء بوصفه لهوًا أو ترويحا عن النفس. فيؤصل للمسألة متنقلا بين الموصلي وزرياب وعبده الحامولي والقصبجي وسيد درويش وزكريا أحمد، وصولا إلى أم كلثوم وعبد الوهاب وليلى مراد وشادية.

ويكشف لنا النجمي عن مناظرات ممتعة بين إسحق الموصلي والأمير إبراهيم بن المهدي، والتي امتدت من أواخر القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الثالث، ويكشف كذلك مدى التلفيق في قصة العداوة المختلقة بين الموصلي وتلميذه زرياب، ويشير أيضا إلى كتاب الإمام الغزالي عن «آداب السماع والوجد»، مؤكدا حرص واحد من أبرز فلاسفة المسلمين على أن يضمن كتابه الموسوعي الضخم «إحياء علوم الدين» شيئا عن السماع والغناء، خصوصا عند الصوفية. ويورد النجمي حكايات عن خلفاء العصرين الأموي والعباسي، تبين شغفهم بالغناء والمغنين. وفي مصر اضطلع كثير من المشايخ بمهمة نشر الغناء والتلحين وتطويرهما، ويشير بشكل خاص إلى الدور المهم الذي لعبه عبده الحامولي، الذي لم يكن أزهريا بنشأته، لكنه اكتسب علمه ورهافة حسه من الأزهريين، وغنى أشعارهم وألحانهم، برغم أنه كان من أكبر الملحنين، ثم ظهر فن «الدور»، وتطور على يد المغنين والملحنين من الرجال من أمثال القصبجي وزكريا أحمد وسيد درويش والسنباطي. وما إن نصل إلى عصر عبدالوهاب وأم كلثوم، حتى يشهد فن الغناء، الذي هو الأصل في الموسيقى العربية تطورا ملحوظا. يتناوله المؤلف بإسهاب محاولا الإجابة عن عديد من المشكلات التي تواجه فن الغناء العربي، الذي كانت حركة النهضة فيه، إحياءً بكل معنى الكلمة، وتزامنت مع النهضة في مجالات عدة، ويؤكد المؤلف أن أم كلثوم وملحنيها، وضعوا الأسس المتطورة للغناء العربي.

وبقدر المتعة المتحققة من متابعة تاريخ الغناء العربي منذ الموصلي وحتى اليوم، فإن حالة من الإحباط تلازمنا بالضرورة بسبب ما آل إليه حال الغناء خصوصا، ونحن نتذكر قول ابن خلدون في مقدمته: «أول ما ينقطع في الدولة عند انقطاع العمران صناعة الغناء» .



من المشرق والمغرب

بحوث في الأدب

شوقي ضيف

القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨.

يشتمل هذا الكتاب على مجموعة من المقالات في التراث العربي، ست مقالات عن الأدب في المشرق العربي، وست أخرى عن الأدب في المغرب العربي.

من المشرق العربي يكتب المؤلف عن المثل العليا في شعر الفروسية الجاهلية، وينتهي إلى أن الحب العفيف نشأ منذ الجاهلية في ظلال الفروسية وما رسمت من خصال كريمة عند عنترة وأضرابه. ويتحدث في مقالة ثانية عن بعض صور الأدب المقارن في الأدب العربي القديم، مؤكدا على الصلات الوثيقة التي قامت بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، وتبادل التأثير بينهما حتى على مستوى الأجناس الأدبية. ويستدل المؤلف في مقالته عن أبي حيان التوحيدي بمدى تغلغل الثقافة العربية في الطبقات الشعبية عبر حلقات المساجد والمكتبات العامة التي أنشأها أثرياء بغداد والنشاط الهائل الذي قام به الوراقون ، وهي مهنة كانت تدر على أصحابها آنذاك مبالغ طائلة.

ويشير المؤلف في مقالة رابعة إلى الدور الذي لعبه المتصوفة في نشر الجهاد والإسلام، ويرى أنه «دور تاريخي» (...) يشهد لهم شهادة بنية قاطعة بأنهم جديرون بكل تجلة وإكبار»، ويبرهن في المقال الخامس على الدور الذي لعبته القاهرة في الثقافة العربية، والذي يرى أنه دور قيادي أكد الروابط الحميمة بين القاهرة والبلدان العربية، وينبه في مقاله السادس عن الثقافة العربية الإسلامية في مواجهة الثقافة الغربية، إلى أهمية الترجمة .

ويكتب المؤلف في القسم الخاص بالمغرب العربي عن عقيدة الموحدين بين التشيع والاعتزال، وعن حضارة الأندلس التي لعبت دورًا كبيرًا - كما يقول - في بث الإشعاع الحضاري في ربوع أوروبا، ويخصص مقالة كاملة للحديث عن استقلال القضاء في الأندلس والذي كان للفقهاء فيه دور لا يقل عن دور المفوضين بجانب محاكم مجلس الدولة في صورتها الراهنة. ويعرض الدكتور ضيف في مقالة رابعة للأصول الإسلامية لقصة حي بن يقظان كما كتبها ابن طفيل، ويعرض في الفصلين الأخيرين للبلاغة عند ابن رشد، ولسان الدين بن الخطيب الذي يرى المؤلف أنه أكبر كاتب أبدعته الأندلس.



المياه

مصدر للتوتر في القرن ٢١

محمود أبوزيد

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٨

يشير خبراء عديدون إلى أن حروب القرن المقبل - إذا نشبت - سيكون سببها المياه، والأرقام تدعو للقلق فعلا، فالمياه العذبة تمثل حوالي ٣٪ من مياه العالم، أكثرمن ثلاثة أرباعها في هيئة جليد، وحوالي ٢٢٪ مياه جوفية، ويوجه الجزء الباقي ٦,٠٪ لتغطية احتياجات ٦ مليارات من البشر.

وفي هذا الكتاب ، يناقش الدكتور محمود أبوزيد وزير الأشغال العامة والموارد المائية في مصر، الأسباب التي جعلت من المياه مشكلة على النطاق العالمي، ويركز على المنطقة العربية باحثا



في مصادر المياه فيها واستخداماتها وبؤر التوتر المتوقعة بسببها، وكيفية تحسين استخدام المياه، والعلاقة بين المياه وقضايا السلام والتعاون الاقتصادي، ويقدم في الفصل الأخير توصيات بحلول لمشاكل ندرة المياه في الوطن العربي.

ويطالب الدول العربية بالإفادة من التطورات التكنولوجية المتلاحقة في المجال المائي، وأن تطور تشريعاتها المائية بما يخدم أهدافها، وأن تتعاون فيما بينها لتمويل وتنفيذ مشروعات عديدة مثل مشروع أنابيب السلام التركي ومشروع جنوب شرق الأناضول ومشروعات أعالي النيل في حوض بحر الجبل وبحر الغزال والهضبة الأثيوبية، ويطالب أيضا بإقامة صندوق عربي للأمن المائي، مهمته تمويل إعداد وتنفيذ مخططات الأمن المائي العربي، الذي يعتبره المؤلف: «ركنا أساسيا من أركان الأمن القومي للأمة العربية».

كتب أجنبية

Aux Sources du Renouveau Musulman: d'al Afghani a' Hassan al-Banna, un Siecle de Réformisme Islamique

(من مصادر الإحياء الإسلامي: من الأفغاني إلى حسن البنا. قرن من الإصلاح الإسلامي).

de Tariq Ramadan
Paris: Bayards Editions, 1998. 480p.140F.

رفضت جميع دور النشر التي تقدم إليها طارق رمضان بهذا الكتاب أن تنشره. ما عدا إحدى دور النشر الكاثوليكية التي قبلت هذه المجازفة إيمانا منها بضرورة عقد مواجهة بناءة بين الأفكار الدينية، وإيمانا بأن المواجهة الحقيقية لأي فكر مختلف لا تكون بالقمع ولا بالتقديس، ولكن بنشر هذا الفكر وتعريضه للنقد.

والمؤلف الشاب طارق رمضان، هو حفيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وابن سعيد رمضان أحد الذين فروا إلى جنيف خلال الفترة الناصرية. وهو يعتبر من أهم المراقبين للحركة الإسلامية في فرنسا ومن أكثر الواعظين جمهورا في الضواحي الفرنسية خارج باريس. والواقع أن طارق رمضان صديق لكثير من الآباء الكاثوليك مثل كريستيان ديلورم وميشيل لالونج وبعض العلمانيين.

ويختلف هذا الكتاب عن الأعمال الأخرى لعلماء الإسلام الفرنسيين من أمثال جيل كيبل التي تفتقد البعد التاريخي وتتمسك بآراء محايدة تعبر عن الحركة الإسلامية في الآونة الأخيرة فقط متجاهلة لماضي وتاريخ الإسلام.

ويقوم الكتاب بإحياء الكثير من الأعمال القديمة، مركزا على أعمال الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس ورشيد رضا لكنه يعطي الأولوية لجده حسن البنا. فيروي بكل حرارة وعمق مشواره الديني وصفاته ومميزاته كإمام ومنظم للحركة الناشئة للإخوان المسلمين. ونتيجة لصلته العائلية استطاع طارق أن يعرض أعماله التي لم تنشر من قبل.

يظهر المؤلف للغرب حسن البنا في صورة غاندي المسلم، ولكنه لا ينكر أن مؤسس الإخوان نادى بالمقاومة داخل مصر وفلسطين كما استطاع أن يوحد بين صفوف جميع الحركات الإسلامية وأعطاهم دورا اجتماعيا وتعليميا. ولكنه يؤكد أنه لم يؤسس جناحا عسكريا ولم يقم بتدبير عمليات اغتيال، ففكره نبع من إيمان عميق وملتزم، ولكن موت المئات من أفراد الإخوان خلال فترات القمع هو الذي غير من اتجاهها الثقافي إلى الاتجاه السياسي.

The Persian Gulf at the Millenium

(الخليج الفارسي في الألفية)

Gory Sick and Lawrence Potter (editors)
Macmillan, 366 p, $ 49.95

استحوذ الخليج ونفطه على اهتمام الغرب، وتفوق على الصراع العربي الإسرائيلي كمصدر قلق بالنسبة للدول الغربية. وهذا الكتاب يضم مجموعة من المقالات التي هي ثمرة حلقات النقاش التي انعقدت فيما بين ١٩٩٤ و ١٩٩٥، حيث تبادل مواطنون من ثماني دول خليجية الآراء مع عدد أقل من الغربيين. وقد قام جاري سك الذي بادر بالمشروع والذي يعمل الآن بجامعة كولومبيا بتحرير الكتاب مع زميله لورانس بوتر، وكان يعمل قبل ذلك خبيرا في البيت الأبيض للشئون الخليجية. وفي مقاله الذي يضمه هذا الكتاب يرصد «سيك» الأزمة التي يراها تزحف ببطء على دول الخليج والتي تبلغ من الكثافة بحيث يمكن أن تبدل وتغير من سياساتها الداخلية وعلاقاتها مع بعضها البعض وكذلك علاقاتها مع القوى التي تعيش خارج منطقتها. فيناقش «سيك» القصور الهيكلي في دول الخليج والمتمثل في غياب المشاركة السياسية والمحاسبية كما يقوم بتحطيم عدة أساطير، من بينها تلك الخاصة بالثروات الخلابة التي تمتلكها تلك الدول: فقد وجد «سيك» أن الناتج القومي الإجمالي للدول الخليجية الثماني مجتمعة يساوي ذلك الخاص بسويسرا وحدها. وكذلك يزعم أن البترول أصبح بالنسبة لحكومات الخليج بمثابة مخدر يلهيها بأوهام مزيفة، ويبرر لها ما يسميه بالشلل المريح الذي تحيا فيه.

وتعالج بقية فصول الكتاب مشكلات الأمن والمنازعات الحدودية والقدرات العسكرية لإيران. ويقوم فرانك فوجل خبير القانون الإسلامي بجامعة هارفارد بعقد مقارنة بين النظامين الإسلاميين القائمين في كل من إيران والسعودية.

أما منيرة فخرو الأستاذة بجامعة البحرين فتقوم بفحص الصعود الثوري في بلدها، وتتوصل إلى أنه من الصعب عدم تصور وجود تطورات مماثلة في دول أخرى من دول الخليج.

Zarafa

(زرافة)

Michael Allin
Head Line, 1998.

انتشرت فجأة في عام ١٨٢٧ موضة باريسية سميت بموضة الزرافة. فلبس الرجال قبعات لها نفس نقشة الزرافة وصففت سيدات المجتمع الراقي شعورهن على شكل رأس وعنق الزرافة حتى أنهن كن يضطررن للجلوس على أرضية العربات لارتفاع شعورهن.

يكشف المؤلف كيف وصلت هذه الموضة الغريبة إلى باريس. بدأت القصة حينما ساعد محمد على السلطان العثماني على قمع ثورات بلاد اليونان فكرهه الأوروبيون. إلا أن القنصل الفرنسي بالإسكندرية أقنع محمد على بأن أنسب طريقة لتغيير هذه الصورة السيئة هي أن يغرق ملوك أوروبا بالهدايا غير الأثرية حيث فضل القنصل أن تظل الآثار مجالا للتجارة الخاصة. ووقع الاختيار على إرسال زرافتين أفريقيتين إحداهما إلى لندن حيث ماتت من قلة العناية بها وأخرى إلى ملك فرنسا شارل العاشر والذي كان مهتما بحدائق الحيوان.

ويتتبع المؤلف حياة هذه الزرافة الثانية منذ ولدت عام ١٩٢٤ بمدينة سنار بالسودان ونقلها على فلوكة في النيل إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا لتصل أخيرا إلى ميناء مرسيليا أواخر عام ١٩٢٦. وظلت هذه الزرافة هي الوحيدة بأوروبا لمدة ٣٥٠ عاما. أطلق عليها الأجانب اسم «زرافة» كما تنطق بالعربية وكان طولها اثني عشر قدما، لها حارس عربي اسمه حسن وكانت تشرب خمسة وعشرين جالونا من الحليب حيث رافقها عدد من الأبقار منذ بداية رحلتها. ودرس العلماء هذا المخلوق الجديد عليهم بعناية وتتبع الشعب الفرنسي رحلتها من مرسيليا إلى باريس بشغف شديد فرسموها وكتبوا فيها المقالات والأشعار وزارها خلال اليومين الأولين من عرضها للجمهور مائة ألف فرنسي.

ومع ذلك لم تتحسن سمعة محمد على حتى عندما حاول إهداء الأوروبيين بعض المسلات أيضا. وتوفي القنصل رجلا ثريا من تجارة الآثار، وعندما ماتت «زرافة» حنطوها ومازالت معروضة حتى الآن بمتحف «لا روشيل».

The Emperors of Chocolate: Inside the Secret World of Hershey and Mars

(أباطرة الشوكولاتة: داخل العالم السري لهيرشي ومارز)

Joel Glenn Brenner
Random House, 1999, 366 pp, 25.95

تعد مؤلفة هذا الكتاب ـ وهي محررة سابقة بالواشنطن بوست الصحفية الوحيدة التي استطاعت أن تقتحم شركة مارز لصناعة الشوكولاتة. فهي شركة شديدة السرية، حتى أنه عند استعانتهم بخبراء من الخارج لمعالجة أمر ما في المصنع يتم تغمية أعينهم إلى أن يقتادوا للموقع المراد معالجته.

أما فورست مارز الابن والذي يدير الشركة مع أخيه جون، فهو يرفض أن يتم تصويره «فوتوغرافيا» منذ أن كان بالجامعة، وهو يتنكر كلما كان لديه اجتماعات خارجية. وهذا الكتاب يحوي أول مقابلة تجرى مع كليهما، كما يروي قصة أكبر عملاقين في صناعة الشوكولاتة بالعالم أجمع: مارز وهرشي.

إن هذين المنافسين يسيطران على ٧٥٪ من سوق الحلوى في الولايات المتحدة، كما أنهما يصنعان ١٨ صنفًا من بين أكثر من ٢٠ صنفًا مبيعًا من الحلويات. وفي الوقت الذي يتوقع فيه البعض أن يدخل المنافسة في ظل نمو الأسواق الخارجية، صناع آخرون إلا أن العملاقين الكبيرين أصبحا أكثر سيطرة وأشد احتكارًا للسوق. وتزايد عدد المتساقطين من الصناع المستقلين. وبينما كان عدد صناع الحلوى في أمريكا عام ١٩٤٥ يبلغ ٦٠٠٠، يتوقع أن ينكمش هذا الرقم عام ٢٠١٠ ليصل إلى ١٥٠.

وبعيدًا عن ذلك، فإن الكتاب يركز بالأساس على شخصية وحياة كل من فورست مارز الأب وملتون هيرشي. وما دار بينهما من معارك وحروب.

وتختلف شخصية هذان الرجلان أشد الاختلاف، فأحدهما وهو فورست مارز تسيطر عليه الرغبة في غزو وامتلاك العالم، والآخر ملتون هيرشي تسيطر عليه الرغبة في بناء يوتوبيا صناعية. وقد كان فورست مارز الأب رجل أعمال موهوبا وغليظا في الوقت نفسه قام باختراع بعض من أنجح أنواع الحلوى في تاريخ الشركة مثل ميلكي واي وإم & إمز، كما طوّر من صناعة الشوكولاتة مستفيدًا من الصناعات الكيميائية وصناعات الحديد لكي يخفض الزمن الذي يستلزمه إنتاج عبوة من الحلوى من ١٦ ساعة إلى ٣٥ دقيقة. ولم يتورع حتى عن التجسس لصالح شركته بنفسه، فقد

عروض موجزة

تنكر في صورة عامل مصنع في سويسرا ليدخل مصانع «نستله» و«توبليرون». وفي مسألة الجودة كان شديد التطرف. فقطعة الشوكولاتة من نوع «سنيكرز» يجب أن تحمل ١٥ حبة فول سوداني بالتمام.

وقد خلق فورست مارز في شركته مناخًا من الثقافة الداروينية، فقد كان المدير الذي يبدأ تعيينه يوقع على جواب استقالة نافذ المفعول في حالة الإخفاق في تحقيق أحد الأهداف. ولكنهم في المقابل كانوا يحصلون على رواتب عالية (مربوطة بالأرباح). وكان الطريق مفتوحًا للصعود أمام ذوي الكفاءة - ولكن ليس إلى القمة التي كانت محجوزة لأبنائه.

ولا يعني هذا أنه كان رحيمًا معهم، فأبناؤه لم يذوقوا حلوى الـ إم & إمز وهم أطفال. وذات مرة في أحد الاجتماعات جعل مارز ابنه الأصغر جون يصلي على ركبتيه من أجل الشركة لمدة ساعة.

وعلى الجانب الآخر كان ملتون هيرشي شخصا كريما للغاية، وكانت تدفعه رؤيته أكثر مما يدفعه الربح. ففي بدايات القرن قام هرشي ببناء مدينة هرشي في ولاية بنسلفانيا لتكون يوتوبيا صناعية. كان المصنع يتحمل نفقات كل شيء من السباكة الداخلية في البيوت إلى التدفئة بالبخار بل وملاعب الجولف. ولم يقم هرشي في أي وقت من الأوقات برفد أحد موظفيه حتى أثناء فترة الكساد الكبير ولأنه لم يكن لديه أبناء، أوقف كل أمواله على الإنفاق على أكبر دار رعاية أيتام في الولايات المتحدة وأكثرها ثراءً.

وكانت النتيجة أن تراجع هرشي الطيب أمام منافسه العتيد مارز، وفي عام ١٩٧٦ تولى قيادة الشركة وليام ديردن أحد متخرجي دار رعاية الأيتام، وقام بتحديث الشركة وأنشأ قسمًا للتسويق، وأخذت الشركة موقع الصدارة من جديد بعد عدة معارك مع مارز. كان أنجح هذه المعارك على الإطلاق صفقة فيلم الخيال العلمي السينمائي الشهير إي.تي (E.T.). فقد كانت فكرة منتجي الفيلم في ستوديوهات يونيفرسال أن يستخدموا حبات إم & إمز كسبيل لدفع كائن الفضاء إلى الهرب خارج الغابة، وعندما رفض مارز، لجأوا إلى المنتج المشابه (ريسز بيسز) والذي يصنعه هيرشي. واستطاع هرشي استخدام إي.تي في الدعاية لمنتجاته التي تضاعفت مبيعاتها في ظرف أسبوعين.

Crossing The Jordan: Israel Hard Road to Peace

(عبور نهر الأردن: طريق إسرائيل الصعب نحو السلام)

Samuel Segev

New York : St. Martin's Press,1998, 420 pp., $ 29.95

يتناول مراسل سابق لجريدة معاريف الإسرائيلية بتفصيل يكاد يكون يوميا تطور المباحثات الإسرائيلية العربية، مثل كامب ديفيد، والمباحثات الإسرائيلية الأردنية السرية، واتصالاتها مع المغرب، واتفاقيات أوسلو.

ويبتعد المؤلف تماما عن التصورات المسبقة الثابتة عن العرب كهمج والإسرائيليين كحملة مشعل الحرية والإنسانية والتقدم في المنطقة. فكل الشخصيات متحايلة ولها خططها السرية ولايمكن الوثوق بأي منها، من رابين مرورا بكارتر إلى عرفات. ويعتقد أن إسرائيل قد استُغلت في بعض الأحيان من الدول العربية مثل العراق والأردن والمغرب في صراعاتها الشخصية.

ويكشف الكتاب بوضوح العلاقة المعقدة بين العدوين اللدودين شيمون بيريز وإسحق رابين. فبيريز وموشي ديان كانا يعتبران من تلاميذ بن جوريون وأعداء كل من رابين وأستاذه إيجال آلون. ولكن عندما انتخب رابين رئيسا للوزراء للمرة الأولى بعد حرب أكتوبر اضطر سياسيا إلى تعيين بيريز وزيرا للدفاع. ومن وقتها لم يتوقفا يوما عن الشد والجذب والخيانة وإخفاء المعلومات والأحداث الهامة عن بعضهما البعض، ومحاولة كل منهما إقصاء الآخر عن السلطة.

ويتناول المؤلف فترة بيريز كوزير خارجية في حكومة رابين الثانية في أوائل التسعينيات وكيف كان يتصرف في جميع القرارات السياسية الحاسمة الخاصة بعملية السلام بدون علم أو تصريح من رئيس وزارته. ولم تكن بداية مباحثات أوسلو بدون علم رابين فقط، بل إنه عندما طلب رئيس الوزراء من وزير خارجيته تأجيل المباحثات لما بعد انتهاء رحلة وزير الخارجية الأمريكي في الشرق الأوسط، تجاهل بيريز طلبه تماما، وإن كانت جهوده الفردية هذه هي التي أدت في النهاية إلى توقيع إسرائيل على اتفاقيات أوسلو.

ومن أدل المواقف على طبيعة علاقتهما التنافسية صراعهما حول الفوز بمجد أوسلو. فكان رابين على علم بجهود بيريز الأساسية في المباحثات بل وباركها. وبمجرد الانتهاء من الاتفاق قرر رابين وبيريز أن يقوم بيريز وأبو مازن بالتوقيع على إعلان المبادئ في احتفال بالبيت الأبيض. فلم يكن رابين يريد التوقيع رسميا لما في الإعلان من نقاط قد تؤثر على شعبيته. ولكن كلينتون رتب لقدوم عرفات، وبالتالي أراد أن يكون رابين موجودا أيضا، وقبل رابين في النهاية تحت الضغط.

وبينما كان بيريز الذي ناور وحارب وجاهد خلال المباحثات المتعبة يقضي ليلته في إعداد الخطبة التي سيلقيها بعد التوقيع، إذا به يسمع في الإذاعة أن رابين سيكون رئيس البعثة الإسرائيلية إلى واشنطن. ويقول المؤلف إن (بيريز) صرخ ليلتها في ألم :

«لماذا يفعل بي ذلك؟ ألم يخسرني بما يكفي؟ لماذا يستمر في الإضرار بي؟ لقد حاربت أنا من أجل اتفاقية أوسلو بينما لم يكن لديه أي أمل فيها والآن يريد الذهاب إلى واشنطن؟ فليذهب! ولتقولوا له إنني باق في إسرائيل وإنني مستقيل من وزارة الخارجية!» ..

ولكن بيريز ذهب في النهاية إلى واشنطن وشاهدهما يوقعان بينما هو واقف وراءهما كما أنه بقي وزيرا للخارجية.

ويرى المؤلف أن السلام كان بالنسبة لرابين هدفا سياسيا. فهو لم يسع إليه من أجل الإنسانية أو الحق أو ما إلى ذلك، بل كان يريد السلام لتأمين استمرار إسرائيل وتحسين وضعها الاقتصادي وتقديم بعض من الحياة الطبيعية لشعبها.



Le Sang, La justice, La Politique

(الدماء والعدالة والسياسة)

de Blandine Crigelle

Plon,156p., 98fr.

بدأت في التاسع من فبراير الماضي محاكمة ثلاثة من كبار المسئولين السابقين في الحكومة الفرنسية السابقة وهم : «لوران فابيوس» - «جورجينا ديوفو» و«ادموند ارفي». فيما يطلق عليه وصف «فضيحة الدماء الملوثة». ويناقش هذا الكتاب الأبعاد المختلفة لهذه القضية شديدة التعقيد من الناحية السياسية، والطبية والاجتماعية بالإضافة إلى الناحية القضائية.

تأخذ المؤلفة جانب الدفاع عن الوزراء الثلاثة في هذه القضية. فعلى ضوء تحليلها للدعوى القضائية الموجهة ضد هؤلاء الوزراء، إلى جانب بعض الحقائق الطبية والإحصائية التي كانت متوفرة عن فيروس الإيدز في الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٥، تؤكد «كريجل» أن موقف «لوران فابيوس» من موضوع الدماء الملوثة ينم عن نوايا حسنة وموقف إيجابي. حيث إنه نادى في فترة توليه رئاسة الوزارة بضرورة وضع أسس إجراء التحاليل الأساسية على عينات الدماء لمنع انتشار فيروس الإيدز عن طريق نقل الدم وهو إن دل على شيء فإنما يدل على معرفة قوية بالمشاكل الطبية المعاصرة.

وتضيف في دفاعها عن المتهمين الثلاثة أن هناك عوامل كثيرة حالت دون إتباع المسئولين لخطوات الوقاية الضرورية لحماية الدماء من التلوث. ومن هذه العوامل ضغوط صحفية وضغوط من أصحاب الرأي المختلف في جمعيات «الهيموفيلين» و«الشواذ جنسيا» ممن هاجموا تحديد المتبرعين بالدماء خارج نطاق معين للحد من أخطار تلوث الدماء بفيروس الـ HIV. وبذلك لا يمكن إغفال العنصر الاجتماعي في تحديد المسئولية الجنائية في هذه القضية وما يمثله هذا البعد من ضغوط تؤثر على أصحاب القرار.

ويعتبر عدد المصابين بفيروس «الإيدز» كنتيجة مباشرة لعملية نقل دماء في فرنسا يساوي ثلاثة أضعاف العدد في أي دولة أوربية أخرى. وفي كتابها تركز كيجل بشكل أساسي على البعد الاجتماعي للمسئولية بما ينفي إلى حد ما خطورة مسئولية كل من الوزراء المتهمين الثلاثة نظراً لأن الجانب الاجتماعي له تأثير كبير على اتجاه قراراتهم.



Derrière L'Epaule

de François Sagan

(خلف الكتف)

Plon, 236 p., 120 F.

تستعيد «فرانسواز ساجان» ذكرياتها بتقديم عرض موجز لعشرين رواية قامت بكتابتها منذ أول قصة نشرت عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها وهي «صباح الخير أيتها التعاسة» "Bonjour Tristess" والتي كانت نقطة انطلاقها نحو شهرة أدبية واسعة.

وتؤكد «ساجان» أنها لا تملك أية ذكريات خاصة - وأن ذكرياتها الوحيدة تكمن في كتبها التي تقرأها الآن للمرة الأولى والأخيرة.

وتعرض «ساجان» في ٢٠٠ صفحة تقريبا عشرين من كتبها، وتعترف أنها تدهش أحيانا للنجاح العظيم والذي لايزال مستمرا، وخاصة بين الشباب لأولى قصصها. وتشعر أن هذا النجاح أضفى بعض الظلال على قصص أخرى لا تقل قيمة عن هذه القصة الأولى، بل وقد يكون بعضها أقرب إلى قلب «ساجان». فقصتها (قليل من الشمس في الماء البارد) "Un Peu de Soleil dans l'eau Froide" لم تحظ بنفس القدر من النجاح، ولكنها على حد قول «ساجان» أكثر كتبها رومانسية وعمقا.

تستعرض «ساجان» أيضا بعض ذكرياتها عن كتب أخرى لها، أقل قيمة أدبية مثل «الملامح الضائعة» "Un Profil perdu" وتشعر بالخجل والاستياء منها، وتلتمس الكاتبة لنفسها ولغيرها من الكتاب بعض الأعذار عن الكتابة الضعيفة، حيث تكون الحاجة المادية دافعا للكتابة السيئة أحيانا.. ويفتقر الكاتب إلى الخيال والقدرة الإبداعية أحيانا أخرى.

وتعترف «ساجان» أنها تتمنى أن تستطيع في يوم ما أن تعبر عن ما بداخلها عن طريق الشعر الذي تعتبره أسمى وسائل التعبير الأدبي على الإطلاق.

قـــــــراءات جـــــــــديـــدة

اجتمـــــاع

الأعمال الكاملة للدكتور سيد عويس
سيد عويس
القاهرة: المحروسة للنشر، ١٩٩٩
هذا هو المجلد الأول من أعمال عالم الاجتماع الراحل الدكتور سيد عويس صاحب الدراسات الرائدة والمهمة في المجتمع المصرى، ويضم المجلد الأول أربعة كتب هي: «ظاهرة إرسال الرسائل للإمام الشافعي»، و«الخلود في التراث الثقافي المصرى»، و«الإبداع على الطريقة المصرية»، و«الازدواجية في التراث الديني المصرى».

□ □ □

العنف الأسرى
إجلال إسماعيل
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩
بحث في الأسباب التي تقود إلى العنف داخل الأسرة، وانعكاساتها على الصحة النفسية للأفراد داخل الأسرة الواحدة، وكيفية تلافي هذه الأسباب.

□ □ □

ضعف الثقافة الجنسية: سر شقاء الزوجين
عبد الهادي مصباح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.
دراسة علمية عن واحد من الموضوعات المهمة التي اعتبرت في بعض الأوساط ضمن دوائر المحرمات، لكن المؤلف يؤكد على أن الاقتراب منها والغوص فيها بعلمية وموضوعية، يفتح أبوابا للسعادة الزوجية بما يحقق الاستقرار الأسرى.

أدب ونقد

الآخرون (رواية)
حسونة المصباحي
تونس: دار بتر الزمان، ١٩٩٩
رواية جديدة عن المهمشين والصعاليك والمنفيين والمطاردين، وهو العالم الذي دأب المصباحي على اكتشافه وسبر أغواره دون تنميق.

□ □ □

الأعمال الكاملة للشاعر محمد عفيفي مطر
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨
تضم ثلاثة مجلدات تحتوى على كل النتاج الشعرى لواحد من أهم الأصوات الشعرية العربية في هذا القرن، وترسم ملامح مسيرته الشعرية الممتدة منذ أواسط الخمسينيات حتى اليوم. وحملت المجلدات الثلاثة أسماء لثلاثة دواوين هي «من مجمرة البدايات»، و«ملامح من الوجه الأمبيذوقليسي»، و«احتفالات المومياء المتوحشة».

□ □ □

التناص في شعر السبعينيات
فاطمة قنديل
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩.
وهو في الأصل رسالة ماجستير حصلت بها الشاعرة فاطمة قنديل على الدرجة العلمية، وناقشت عبرها استفادة جيل السبعينيات الشعرى في مصر من جماعتي «إضاءة» و«أصوات» من شعراء سابقين عرب وأجانب. وممن تناولتهم الدراسة حسن طلب وعبد المنعم رمضان وحلمي سالم ورفعت سلام.

□ □ □

الحب العذرى عند العرب
شوقي ضيف
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩
يتناول أشهر قصص الحب العذرى التي خلدها الشعراء العرب بنظمها في قصائد، مثل مجنون ليلى وجميل وبثينة وقيس بن ذريح ولبنى وكُثير وعزة وذوالرمة وميّة والعباس بن الأحنف وفوز وغيرهم. ويقدم نماذج بشرية لما أبدعه هؤلاء المحبون.

□ □ □

الشرخ/ رواية
إبراهيم الكوني
بيروت: دار النهار، ١٩٩٩.
هذا هو الجزء الأول من ملحمة قصصية للأديب الليبي الذي يعيش في جبال الألب السويسرية إبراهيم الكوني، وتدور في عالم الروائي الأثير، الصحراء، حيث يختلط الواقعي بالسحرى بالمتخيل.

□ □ □

الهويات القاتلة
أمين معلوف
بيروت: دار النهار، ١٩٩٩
صدر هذا الكتاب بالفرنسية قبل عام. وهو يناقش تعدد الهويات للأديب اللبناني الذي سبق له الحصول على جائزة جونكور الأدبية في فرنسا، وهو مسيحي ماروني ينتمي حضاريًا إلى الثقافة الإسلامية، ويعيش في فرنسا ويبدع بلغة أهلها.

□ □ □

اليهود في الأدب الإنجليزي
رمسيس عوض
القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩
يستعرض صورة اليهود في الأدب الإنجليزي منذ مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» وما بعدها، وكيف تغيرت هذه الصورة بفعل تغير النظرة إلى اليهود في أوروبا، وبفعل الضغط اليهودي نفسه.

□ □ □

ديوان الشعر المغربي المعاصر
صلاح بوسريف ومصطفى النيسابوري
المغرب: دار الثقافة، ١٩٩٩.
يستعرض أهم الأسماء في مسيرة الشعر المغربي عبر مختارات دالة ترسم ملامح هذه المسيرة، والكتاب يقدم إسهامًا مهمًا لإبداع شعرى ظل متواريًا ومغيبًا لأسباب مختلفة، ويعرِّف بخصائصه وتمايزاته.

□ □ □

طيران نحو الجنون (شعر)
ممدوح عدوان
بيروت: رياض الريس، ١٩٩٩
الديوان الجديد للشاعر السورى ليس سوى قصيدة طويلة، يستلهم فيها ممدوح عدوان تجربة جلال الدين الرومي الصوفية ويحاكيها.

□ □ □

Liebeserklärung An Eine Hässliche Stadt
(في حب مدينة قبيحة)
Bodo Morshäuser
Suhrkamp, 1998, 155pp, Dm 12.80.
مجموعة من المقالات النثرية والأشعار، كتبها الأديب الشاب عن مدينة برلين.

□ □ □

Secrets
(أســـــرار)
Nuruddin Farah
Arcade: 1998, 304 pp; 23.95
رواية باللغة الإنجليزية للكاتب الصومالي نور الدين فرح، تدور أحداثها في مقديشيو في الأيام الأخيرة من عهد سياد برى.

□ □ □

The Arts and Sciences of Criticism
(فنون وعلوم النقد)
David Fuller, Patricia Waugh (editors)
Clarendon Press, 1999 (£ 25.00)
مجموعة مقالات كتبها أكاديميون وروائيون ونقاد حول دور كل من الأدب والنقد الأدبي وما يجب أن يهدفا إليه.

أديـــان

الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا
تأليف: عبد الفتاح مقلد
القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٨
يدرس المؤلف الدور الذي لعبه الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، وخصوصًا أن الحبشة كانت أول أرض خارج مكة يطؤها المسلمون. وينبه كيف توطدت الصلات بين المسلمين وشعوب تلك المناطق.

□ □ □

الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر
مونتجمرى وات، ترجمة: د. عبد الله الشيخ
القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩٨
دعوة للحوار بين الديانتين الكبيرتين، والبحث عن أسباب الائتلاف والوحدة، ونبذ دعاوى الشقاق المفتعلة. والمؤلف يدرس الإسلام ويقرأ مؤلفات عنه منذ أكثر من ثلاثين عاما.

□ □ □

قدمت أعذاري
عبد الوهاب مطاوع
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
يختلف هذا الكتاب عما قدمه من قبل الكاتب، فهو ليس قصصًا مما يتابعها القراء في بابه الشهير «بريد الجمعة» بالأهرام، وليس صورًا إنسانية وأدبية، إنما هو تسابيح خاشعة، أو مناجاة لله عز وجل في صياغة أدبية رفيعة.

Two Thousand years of Coptic Christianity
(ألفا عام من المسيحية القبطية)
Otto F.A. Meinardus
Cairo: AUC Press, 1999, 368 pp, L.E.80
المؤلف يقوم في هذا الكتاب بمراجعة وتحديث ما سبق أن كتبه في الماضي من كتب ودراسات عن المسيحية القبطية ليضمها في كتاب واحد يؤرخ لعشرين قرنًا من حياة أقدم كنيسة في العالم.

اقتصـــاد

الاقتصاد الليبي. دراسة للأزمة والحلول
مجموعة من الباحثين
ليبيا: دار أخبار ليبيا، ١٩٩٩
الكتاب حصيلة مناقشات أجراها أعضاء هيئة التدريس في جامعة قاريونس في بنغازي، ويناقش الأزمات التي واجهها الاقتصاد الليبي على مدى عقدين من الزمان، في الفترة من ١٩٧٥ وحتى ١٩٩٥، ويتعرض لسياسات الاستثمار ومخاطر السوق السوداء وكيفية تلافيها. ويقدم توصيات ومقترحات لعبور الأزمة.

□ □ □

السوق العربية المشتركة في عصر العولمة
سليمان المنذرى
القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩
يطرح الكتاب من جديد فكرة السوق العربية المشتركة في ضوء التحديات التي يواجهها الاقتصاد العربي، والتي تأخذ مسميات من نوع شرق أوسطية أو عولمة وغيرها، ويقدم مجموعة من الأفكار العملية لإحياء هذه السوق.

□ □ □

The Fortune Sellers: The Big Business of Buying and Selling Predictions.
(بائعو الحظ: التجارة المربحة لبيع وشراء التوقعات)
William A.Sherdan
New York: John Wiley& Sons, 1998,308 pp. $ 29.95
يرى المؤلف أن المحللين الاقتصاديين وخبراء الأرصاد الجوية ليسوا أفضل من قارئي الكف أو الطالع، ويقوم بإثبات أن مؤسسات التوقعات الاقتصادية والتي تبتلع ما لا يقل عن ٢٠٠ بليون دولار«سنويا» ليس لتنبؤاتها أي أساس علمي.

□ □ □

The Mediterranean Basin in the World Petroleum Market
(الوعاء المتوسطي في السوق العالمية للبترول)
Paul Horsnell, Peter Greenhalgh,
Richard Hepnorth Steve Marxin,
and Kerry Preston
Oxford University Press, 1999.
تحليل لصناعة البترول في منطقة البحر المتوسط مع اهتمام خاص بأثر كل

من الاحـتـيـاطى العـراقى وظهـور بتـرول قزوين على المنطقة.

بيئة

الألغام الأرضية وتدمير البيئة الكويتية مجموعة من المختصين

الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ١٩٩٨

يقدم عبر مجموعة من الدراسات رؤية لواحد من الآثار البيئية المدمرة التى نجمت عن الغـزو العـراقى للكويت، والتى تمثل مخاطر حقيقية على الناس والبيئة فى الخليج.

□ □ □

التصحر - تدهور الأراضى فى المناطق الجافة.

محمد عبد الفتاح القصاص

الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٩

يكشف عن واحد من المخاطر التى تهدد العالم على أبواب الألفية الثالثة، خصوصًا مع تزايد مخاطر الجفاف فى بقاع عديدة، ويعرض المؤلف لأساليب المواجهة، ولدور الأمم المتحدة فى الحد من الآثار السلبية المتوقعة للظاهرة.

□ □ □

Earth Odyssey

(أوديسيا الأرض)

Mark Herts gaard

Broadway, 1998,372pp,$26.

يتساءل المؤلف عن مصير الإنسان فى ظل تدمير البيئة المستمر من خلال رحلات ومقابلات قام بها فى كثير من مناطق العالم الموبوءة.

□ □ □

Economics of Water Pollution :The Indian Experience

(اقتصاديات تلوث المياه: التجربة الهندية)

M.N .Murty, A.J. James, Smita Misra

Oxford University Press, 1999.

يتناول محاولة السيطرة على التلوث فى الدول النامية والجدوى من استخدام الأدوات الاقتصادية فى محاربة تلوث المياه من خلال نتائج الأبحاث الميدانية.

تاريخ

أزياء المرأة فى العصر العثمانى

آمال المصرى

القاهرة: دار الآفاق، ١٩٩٩.

تدرس المؤلفة العوامل التى أثرت فى الزى النسائى منذ العصر العثمانى وحتى عصر محمد على، ومكونات أزياء النساء فى تلك الفترة، ثم الحلى التى مثلت استكمالاً لهذه الأزياء. ومدى استجابة المصريات لهذه الموضات.

□ □ □

مشرقيات: فى صلات التجارة والفكر

نقولا زيادة

بيروت: دار السويس، ١٩٩٨.

يتناول الكتاب الصلات التجارية بين المشرق العربى والشرق الأقصى. وتقدم فصوله أخبار بلاد العرب كما عرفها الصينيون، وكذلك تطور الفكر العربى الإسلامى فى بلاد الخلافة الشرقية.

□ □ □

Frontiers of Medicine in the Anglo-Egyptian Sudan, 1899 -1940

Heather Bell

Clarendon, 1999, 45£.

بحث فى العلاقة المركبة التى تربط بين الطب والاستعمار السياسى ورأس المال.

□ □ □

Kuwait, (1950 - 1965) Britain, The al -Sabah, and Oil

(الكويت ١٩٥٠ - ١٩٧٠، بريطانيا وآل صباح والبترول)

Simon C.Smith

Oxford University Press/ British Academy, 1999, £20.00

يفحص المؤلف تطور العلاقات بين الكويت وبريطانيا أثناء حكم الشيخ عبد الله سالم. وهى فترة التوسع فى إنتاج البترول. ويتناول دور الكويت فى الاقتصاد البريطانى فى مرحلة ما بعد الحرب، والعلاقات بين بريطانيا والعائلة الحاكمة والكويت والعالم العربى.

□ □ □

Pan Arabism Before Nasser: Egyptian Power Politics and the Palestine Question

(القومية العربية قبل ناصر: سياسات القوة المصرية ومسألة فلسطين)

Michael Doran

Oxford University Press, 1999, 27.50 (hb)

يرى المؤلف أنه لم تكن هناك جبهة قومية عربية عندما أنشئت الجامعة العربية. وبدراسة القرارات السياسية المصرية أثناء السنوات من ١٩٤٤ - ١٩٤٨ يخلص إلى أن الصهيونية والمسألة الفلسطينية كانت أقل أهمية بالنسبة للمصالح القومية المصرية من مواجهة الاحتلال الإنجليزى والتوسع الأردنى - العراقى.

□ □ □

The Kingdom of the Hittites

(مملكة الحيثيين)

Trevor Bryce

Oxford University Press, 1999, £18.99 (pb)

فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أصبح الحيثيون أكبر قوة سياسية وعسكرية فى الشرق الأدنى. يتناول الكتاب أسباب حصولهم على هذه المكانة ومدى نجاحهم فى الحفاظ عليها وأسباب انهيارهم واختفائهم مستعينا باكتشافات أثرية حديثة ومخطوطات أصلية.

□ □ □

تربية

المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق

حسن شحاتة

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٨.

يتضمن عرضًا لمفاهيم وقضايا ومشكلات علم المناهج، حيث يؤلف بين النظرية والأفكار الحديثة فى ميدان المناهج من ناحية، والتطبيقات الميدانية الحقلية من ناحية ثانية.

□ □ □

Illusury Freedoms: Liberalism, Education and the market

(حريات وهمية: الليبرالية والتعليم والسوق)

Ruth Jonathan

Oxford: Blackwell, 244pp. £14.99

نقد لاذع توجهه أستاذ التربية بجامعة أدنبرة لعملية إدخال آليات السوق فى التعليم، مؤكدة على مدى اختلاف التعليم عن أى سلعة أخرى.

تراجم وسير

المرافئ القديمة - من دفاتر الصحافة

نبيل خورى

بيروت: رياض الريس، ١٩٩٨.

يمثل الكتاب سيرة لصحافى عاشر أجيالا من الصحافيين فى بلاده وفى المهجر، وخاض معارك يتذكرها قراء مجلة الحوادث اللبنانية، وكتابه يجمع بين التوثيق التاريخى، ومتعة الكتابة السلسة التى تنهل من الذاكرة.

□ □ □

كان صرحًا من خيال

سليم تركية - ترجمة بسام حجار

بيروت: دار المسار، ١٩٩٨

يعرض الكتاب للعلاقة العاطفية الفريدة التى جمعت أحمد رامى بكوكب الشرق «أم كلثوم». وهى علاقة نمت من طرف واحد، وارتضى فيها الشاعر الكبير أن يبقى محترقا كى تنطلق كلماته عبر حنجرة أم كلثوم دون غيرها، وقد عرفت أم كلثوم بذكائها. كيف أن هذا الحب سيشعل مخيلة الشاعر ويفجر ينابيع إبداعه.

□ □ □

مى زيادة - الكاتبة العربية

سميحة كريم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩

يعرض الكتاب لحياة مى زيادة وأعمالها وعلاقاتها بعشرات من الأدباء والفنانين والمفكرين الذين عاشوا فى عصرها وترددوا على صالونها الشهير. كما يعرض لآرائها فى الموضوعات التى شغلت الحياة العامة فى مصر فى ذلك العصر.

□ □ □

Prophet: The Life and Times of Kahlil Gibran

(نبى: حياة خليل جبران)

Robih Water Field

New York: St. Martin's Press, 1998, 366 pp. $25.95

يتناول المؤلف الإنجليزى الأصل حياة الشاعر جبران خليل جبران، فيتحدث عن أصوله اللبنانية وعلاقاته العاطفية والمالية واصفًا إياه بأنه كان شخصًا انتهازيًا ومخادعًا.

□ □ □

Still Me

(لازلت أنا)

Christopher Reeve

Random House, 1998,$25.

السيرة الذاتية للمثل الأمريكى الشهير بدور (سوبرمان) والذى تعرض لحادث مروع فى عام ١٩٩٥ أدى إلى إصابته بالشلل. يقول ريف فى كتابه «أنا لست إنسانا متدينا» ولكنى وجدت أنه يجب أن أنشىء علاقة مع الله وإلا أصبحت ضائعا».

رحلات

استانبول - عبق التاريخ وروعة الحضارة

الصفصافى أحمد مرسى

القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩

دراسة عن مدينة إستانبول التى عاش فيها المؤلف ٧ سنوات كاملة للدراسة ولم تنقطع صلته بها بعد ذلك، دراسة فى عمارتها ومتنزهاتها وطبيعتها وفنونها وثقافتها.

□ □ □

The Last Barbarians: The Discovery of the Source of the Mekong in Tibet

(آخر البرابرة: اكتشاف منبع الميكونج فى التبت)

Michael Peissel

Souvenir, 1998, 253pp. $ 18.99

ست وعشرون رحلة قام بها المؤلف إلى التبت بغرض اكتشاف منبع نهر الميكونج ويحتوى كتابه على الكثير من المشاهدات حول تاريخ وشخصية وفلسفة الشعب التبتى.

سياسة

الصراع العربى الإسرائيلى - أزمة الديمقراطية والسلام

أمين المهدى

القاهرة: الدار العربية للدراسات، ١٩٩٩.

يتعرض للصراع العربى الإسرائيلى وما يفرضه من تحديات السلام أو حتمية الحرب، فيقدم رؤية تاريخية وتحليلية للصراع فى مراحله المختلفة، وإشكاليات التعامل مع إسرائيل فى ظل الحرب والسلام معًا.

□ □ □

النظام السياسى والتحول الديمقراطى فى مصر

هالة مصطفى

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩

يقدم رؤية تحليلية لهيكل النظام السياسى المصرى وتحوله التدريجى نحو الديمقراطية منذ أواسط السبعينيات وحتى اليوم، وفرص توسيع الهامش الديمقراطى فى المستقبل المنظور.

□ □ □

نفقات الدفاع فى منطقة الشرق الأوسط

عبد المنعم كاطو

القاهرة: المركز العربى للدراسات الإستراتيجية

يعرض إحصائيًا لنفقات الدفاع فى دول المنطقة وتأثير التهديدات المحيطة بها فى زيادة هذه النفقات.

□ □ □

دولة حزب الله

وضاح شرارة

بيروت: النهار، ١٩٩٨

يلقى الكتاب أضواء مهمة على حزب الله الذى يحمل لواء المقاومة فى جنوب لبنان. ويتناول صلاته بإيران وعلاقاته وتأثيراته على الحركة السياسية فى لبنان، عبر تحليل الخطاب السياسى لقادة حزب الله.

□ □ □

A Tangled Web: The Making of Foreign Policy in the Nixon Presidency

(صناعة السياسة الخارجية أثناء رئاسة نيكسون)

William Bundy

Tauris, 1998, 647 pp. $24.50

يتناول الكتاب التاريخ الدبلوماسى للفترة (من ١٩٦٩ وإلى ١٩٧٤) ويغطى السياسات الخاصة بمناطق جنوب شرقى آسيا والشرق الأوسط وأوروبا.

□ □ □

Democratisation and Auhoritarianism in Post - Communist Societies

(التحول الديمقراطى والسلطوى فى مجتمعات ما بعد الشيوعية)

Edited By Karen Darwisha And Bruce Parrott

Cambridge University Press, 1998, 4 Volumes, $ 55

تستعرض هذه المجلدات الأربعة التحولات الحالية فى البلدان الشيوعية السابقة كالصراع فى وسط آسيا والقوقاز من خلال تناول حالة كل دولة كل على حدة (تركمانستان، وأذربيجان، وأرمينيا، وجورجيا، وكازاخستان، وقيرجستان، وطاجكستان، وأوز بكستان). والتغيير الديمقراطى ومردوده السلطوى فى روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء، وملدوفيا. كما تتعرض للكفاح من أجل الديمقراطية فى جنوب شرق أوروبا. إلى جانب الرأسمالية المزدهرة فى سلوفانيا والفوضى فى ألبانيا، ومحاولات رومانيا فى التحول نحو تعددية الأحزاب.

□ □ □

Rebirth: An Anatomy of Russia

(ميلاد أمة من جديد: تشريح روسيا)

John Lloyd

London: Michael Joseph, 1998, $20.

شغل جون لويد منصب مدير مكتب جريدة Financial Times بموسكو فى الأربع سنوات الأخيرة، ويحاول من خلال هذا الكتاب التعرف على الملامح الأساسية لروسيا بعد سقوط الحكم الشيوعى من خلال تناول مجالات مختلفة: سياسية واقتصادية وقانونية وثقافية.

علم نفس

التعايش مع الخوف - فهم القلق ومكافحته

إيزاك ماركس - ترجمة: محمد عثمان نجاتى

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

يدرس فى ثلاثة أبواب طبيعة الخوف والقلق وأشكال التوتر العصبى وعلاجها. ثم كيفية علاج القلق. ويهدف الكتاب أخيرًا إلى إحداث قدر من التوازن النفسى والعصبى تمكن الإنسان من تجاوز ضغوط الحياة، والتعامل مع المشكلات بأكبر قدر ممكن من النجاح.

□ □ □

About Face

(عن الوجـــه)

Jonathan Cole

M.I.T., 1998

يتناول الكاتب ما يحدث عندما لا يستطيع الإنسان التعبير عن ذاته من خلال وجهه. مثل مرضى أعراض موبيوس. والذين يعانون من مرض باركنسون «الشلل الرعاش». ويناقش المؤلف كذلك دور تعبيرات الوجه فى حياة فاقدى البصر أو المكفوفين.

وينتقل فى الجزء الثانى من الكتاب ليحلل دور الوجه كمرآة لحالتنا الداخلية وعلاقاتنا الإجتماعية والصورة التى نصنعها لأنفسنا وللآخرين.

□ □ □

Questions for Freud: The Secret History of Psychoanalysis

(أسئلة لفرويد: التاريخ السرى للتحليل النفسى)

Nicholas Rand and Maria Torok

Harvard University Press, 1998, 239pp, £16.50

تحليل لكتابات فرويد وبحث فى انعكاسات حياته الأولى على هذه الكتابات.

علـــوم

الإنترنت - المنافع والمحاذير

سامر محمد سعيد

الكويت: دار سعاد الصباح للنشر، ١٩٩٨

يناقش الكتاب الآثار المترتبة على هذا الوافد الجديد الذى يربط العالم بشبكة هائلة من المعلومات، ويحذر من مخاطر سوء استخدامه فى الحاضر والمستقبل.

□ □ □

عوالم فى تصادم - الكوارث الكونية والحضارة الفرعونية

إيمانويل فلايكوفسكى - ترجمة: رفعت السيد

القاهرة: حور، ١٩٩٩

يتناول الكتاب بالتحليل العلمى، الكوارث الكونية التى أثرت على كل سكان كوكب الأرض ومسار حضاراتهم القديمة، والتى ردها الناس إلى معجزات أو أساطير أو أفعال خارقة، وهى فى حقيقتها ظواهر علمية بحتة.

□ □ □

Life on Other Worlds: The Twentieth Century Extraterrestrial Life Debate

(الحياة فى عوالم أخرى: جدال القرن العشرين)

Steven J.Dick

Cambridge University Press, 1998, 240 pp. £17.95

تطور فكرة وجود حياة خارج كوكب الأرض وأثر التقدم التكنولوجى فى ذلك.

□ □ □

What Remains to be Discovered: Mapping the Secrets of the Universe, the Origins of Life, and the Future of the Human Race

(ما تبقى للاكتشاف: أسرار الكون وأصل الحياة ومستقبل النوع الإنسانى)

John Maddox

Macmillan,1998.

يقدم المؤلف الذى رأس مجلة Nature لمدة ثلاثة وعشرين عاما نظرة متفائلة لمستقبل التقدم العلمى، وخاصة فى مجال الاكتشافات الجديدة فى الفيزياء والعلوم الطبيعية. وينتقد رأى علماء ما بعد الحداثة الذين لا يجدون مجالا للتقدم العملى فى المستقبل ويشككون فى قدرة العلم على اكتشاف الحقيقة.

فكـــر

الإعلان الإسلامى

على عزت بيجوفيتش - ترجمة: محمد يوسف عدس

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

أثار هذا الكتاب حين صدوره عاصفة سياسية وإعلامية فى العالم الغربى كله، واعتبرته السلطات اليوغوسلافية وثيقة لإدانة صاحبه فى محكمة سراييفو التى انعقدت عام ١٩٨٣ لتجريم بيجوفيتش البوسنى، وخصوصًا على صعيد دعوته لإقامة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة.

□ □ □

إسرائيل - ماذا تقول الوقائع والكتب

نعمات أحمد فؤاد

القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٩

يتناول الكتاب الصهيونية الدينية والسياسية. ويناقش أسطورة الحقوق التاريخية ويفندها، كما يحلل طبائع اليهود وبروتوكولات حكماء صهيون، ويشير إلى مدى تسامح الإسلام مع اليهود فى الوقت الذى عانوا فيه اضطهادًا من دول وأمم أخرى.

□ □ □

التغيير - الصراع والضرورة

رفيق حبيب

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

يواصل المؤلف فى هذا الكتاب ما بدأه فى كتاباته السابقة عن مشروع النهضة العربى المرتبط بالضرورة - وفق تصوراته - بالإحياء الإسلامى الذى تمثل وسطيته طوق النجاة للأمة، وهو ينطلق فى كتابه من عام ١٩٩٢، ويعتبره منعطفًا تاريخيًا مهمًا فى مسيرة البشرية لأسباب يشرحها تفصيلاً فى كتابه.

□ □ □

الغرب والشرق الأوسط: سجال وتباين

برنارد لويس

ترجمة وتعليق: سمير مرقص

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩.

عينة نموذجية للكتابات الاستشراقية عن العالم العربى ترجمها وعلق عليها بصورة نقدية سمير مرقص، وقام بتقديم الكتاب السيد ياسين.

□ □ □

المرأة العربية فى الدين والسياسة

محمد طلال

المغرب: دار النشر المغربية، ١٩٩٩

يسعى الباحث إلى تحليل دور المرأة العربية، والأبعاد المختلفة التى تؤثر فى هذا الدور وتحجمه، عبر مجموعة من الدراسات أنجزها المؤلف على مدى عقد كامل فى الفترة من ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٥.

□ □ □

المسألة الثقافية فى العالم العربى / الإسلامى

رضوان السيد، أحمد برقاوى

دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨

يناقش بدايات طرح المسألة الثقافية منذ حملة نابليون بونابرت، ويقدم رصدًا لتشعبات المسألة الثقافية فى هذا الموضوع، ويستقرئ الإخفاقات التى واجهها مشروع النهضة العربى ومراوحته بين رفض الآخر كلية، أو التماهى معه دون شروط مسبقة، وأزمة هذه المراوحة مع بدايات قرن جديد.

□ □ □

مصر: ولع فرنسى

روبير سوليه - ترجمة: لطيف فرج

القاهرة: المستقبل العربى، ١٩٩٩

يتناول كيفية تحويل الولع الفرنسى بمصر، وخصوصًا حضارتها القديمة فيما يعرف بالإجيبتمونيا، إلى مبادئ عملية

□ □ □

ترسخ العلاقات بين مصر وفرنسا، وتفتح الباب لتبادل ثقافى أوسع نطاقًا على المستوى الشعبى.

□ □ □

Moral Aspects of Economic Growth, and other Essays

(الجوانب الأخلاقية للنمو الاقتصادى ومقالات أخرى)

Barrington Moore, Jr

Ithaca, NY: Cornell University Press, 186 pp. .23.95

تساؤلات محورية يعالجها العالم والمنظر الكبير فى هذا الكتاب.

هل تقوم الأنظمة المبنية على السوق بتشجيع أشكال من السلوك غير الأخلاقى، مما يؤدى إلى تآكل الرأسمال الاجتماعى والأخلاقى الذى تعتمد عليه هذه الأنظمة فى شرعيتها؟

هل هناك ظروفًا اقتصادية لازمة لظهور نظم سياسية ليبرالية؟

هل اللامساواة صفة حتمية لجميع المجتمعات الإنسانية بحيث لاتوجد مساحة كبيرة للعمل السياسى فى القضاء عليها؟

□ □ □

Reason before Identity

(المنطق قبل الهوية)

Amartya Sen

Oxford University Press, 1999. £6.00 (pb)

محاضرة حول الهوية المجتمعية ودورها وآثارها. ألقاها أمارتيا سن الفائز بجائزة نوبل ٩٨ فى الاقتصاد فى ١٧ نوفمبر ١٩٩٨ بجامعة أكسفورد ضمن سلسلة «محاضرات رومانيز» الشهيرة.

فنون

أثر الغرب فى الموسيقى العربية

فيكتور سحاب

بيروت: دار الحمراء، ١٩٩٨

يعرض الكتاب للآثار الغربية فى الموسيقى العربية من حيث المقامات والتوزيع وغيرها عبر دراسة علمية نظرية وتطبيقية فى نفس الوقت.

□ □ □

الرقص التركى

القاهرة: مركز النشر بأكاديمية الفنون، ١٩٩٩

ويعرض بشكل علمى للرقص التركى وتطوره خلال حقبة زمنية طويلة.

□ □ □

سينما الحب والسياسة

عبد المنعم صبحى

القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩٩

يرى المؤلف أن الحب والسياسة هما الموضوعان الكبيران اللذان دارت حولهما جميع الأفلام السينمائية فى مصر، أو معظمها. يدرس ويحلل بعضًا من هذه الأفلام وحدود ارتباطها بموضوعى الحب والسياسة.

□ □ □

Castel Del Mante: Geometric Marvel of the Middle Ages

(كاستيل ديل مونته: أعجوبة القرون الوسطى الهندسية)

Heinz Götze

Prestel / te Neues, 1998, illustrated, $ 65.

كاستيل ديل مونته - أو قلعة الجبل - عبارة عن إسهاب معمارى موسع بنى فى القرن الثالث عشر بأمر من فريديريك الثانى أحد أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وبالإضافة إلى التأثيرات القوطية والنورماندية والإغريقية والبيزنطية، كان التأثير الأساسى من الناحية الفكرية والإبداعية فى مجال التصميم والرياضيات إسلاميًا بحتًا. فالتخطيط الأساسى للقلعة مبنى على فكرة النجمة الإسلامية المثمنة.

□ □ □

Opera in History: From Monteverdi to Cage

الأوبرا فى التاريخ: من مونتيفردى حتى كيدج

Herbert Lindenberger

Stanford University Press,1998.

تاريخ فن الأوبرا منذ مونتيفردى حتى العصر الحديث وجون كيدج، وعلاقة هذا الفن بالمجتمع وظروفه.

□ □ □

Stranger Than Paradise: Makers in Recent American Cinema.

أغرب من الفردوس: المخرجون الجدد فى السينما الأمريكية حاليا.

Geoff Andrew

Prior, 1998.

يتناول دافيدلينش، وسبايك لى، وجون سايلز، والإخوان جول، وإيثان كوين، وكوينتن ترانتينو، بالإضافة إلى جارموش، وهارتلى، وهاينز.

□ □ □

Visions of Jazz

(رؤى من موسيقى الجاز)

Gary Giddens

Oxford University Press,1998.690 pp.$35

تاريخ موسيقى الجاز من قبل أن يتم تسميته وتطور أشكاله من حقبة لأخرى.

قانون

رقابة دستورية القوانين. دراسة مقارنة بين مصر وأمريكا

هشام محمد فوزى

مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ١٩٩٩

أطروحة دكتوراة تعنى بالرقابة على دستورية القوانين، بوصفها الوسيلة الفعالة لرد طغيان السلطة التشريعية وإرجاعها إلى حدودها الدستورية. مع عمل دراسة مقارنة بين فعالية هذه الرقابة فى كل من مصر وأمريكا.

□ □ □

نظام الإرث فى التشريع الإسلامى

أحمد حسين

بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، ١٩٩٨.

يدرس نظام الإرث ومقاصده فى التشريع الإسلامى، وكيف يسهم فى تحقيق مفاهيم العدالة والتكافل فى المجتمع الإسلامى.

لغات

الكتابة والأسلوب

وحيد سامى

القاهرة: الجامعة الأمريكية، ١٩٩٩

تحليل للكتابة الإنشائية العربية ومكوناتها من مفردات ونحو وتركيبات لغوية.

□ □ □

The Reform of Turkish: A Revolution in Language

(إصلاح التركية: ثورة فى لغة)

Geoffrey Lwuis

Oxford University Press, 1999, £ 40

دراسة لأكبر عملية هندسة لغوية فى التاريخ. والتى تم بها القضاء على اللغة التركية - العثمانية فى خمس عشرة سنة.

متنوعات

طيب جدا. المطبخ المغربى

فاطمة الزهراء

بيروت: دار الراتب الجامعية، ١٩٩٨

يقدم أطباقا شهية من المطبخ المغربى وكيفية صناعتها.

□ □ □

كيف أتأكد من صحة جنينى

لاكان دى كرسبنى

السعودية: دار العبيكان للنشر، ١٩٩٨.

يناقش واحدا من الموضوعات التى تشغل بال كل أم، ويعرض لبعض المشكلات التى تواجهها فى تنشئة الطفل وكيفية التعامل معه.

□ □ □

The Cat and the Human Imagination: Feline Images from Bast to Garfield

(القط والخيال الإنسانى)

Katherine M. Rogers

University of Michigan, 1999, $ 29.95

تطور المفهوم الثقافى للقط من مصر القديمة وحتى يومنا هذا.

تستعرض المؤلفة صورة القط لدى الكتاب والفنانين والمفكرين الغربيين إلى جانب دراستها للمنظور الدينى والشعبى للقط. وخلال ذلك تناقش سبب تشبيه النساء بالقطط وسبب كره بعض الناس الشديد للقطط.

□ □ □

The New Diet Revolution

(الثورة الجديدة فى الريجيم)

Robert C. Atkins

Vermilion, 1999, £ 6.99

برنامج جديد للريجيم صممه الطبيب الشهير للمحافظة على النحافة إلى الأبد.

□ □ □

The Treasures of the Egyptian museum

(كنوز المتحف المصرى)

Introduced by H.E. Mrs. Suzanne Mubarak

Edited by Francesco Tiradritti

Photographs by Araldo De Luca

Cairo: AUC Press, 1999, 416pp. L.E.200.

أكثر من عشرين خبيرا من بينهم زاهى حواس يقدمون شرحًا ووصفًا لمحتويات المتحف المصرى بمصاحبة الصور الفوتوغرافية والرسومات الملونة فى كتاب قامت بتقديمه السيدة سوزان مبارك.

مراجع

المعجم الفلسفى

مراد وهبة

القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨، ط ٤.

المصطلحات الفلسفية ومعانيها فى طبعة مزيدة ومنقحة من العمل الذى بدأه يوسف كرم منذ أربعين عاما.

□ □ □

دائرة المعارف العربية فى علوم الكتب والمكتبات والمعلومات

شعبان خليفة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨

تضم فى مجلدها الأول دراسات مستفيضة وإحصائية عن الكتب والمكتبات فى آسيا، وكيفية معالجة المعلومات فى مراكز التوثيق بها.

□ □ □

A Guide to World Language Dictionaries

(دليل قواميس لغات العالم)

Andrew Dalby

Library Association, 448pp. £ 59.95

يضم أسماء قواميس لخمسة آلاف لغة.

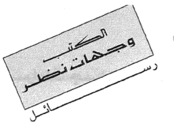
□ □ □

Encyclopedia of Africa: South of the Sahara (four volumes)

(موسوعة أفريقيا جنوب الصحراء)

New York: Scribners, 1998, 2.466pp,£320

معلومات ومقالات مفهرسة جيدا عن كل ما فى أفريقيا جنوب الصحراء: اللغات والجماعات الإثنية، التاريخ، الأديان، الصناعات، الموارد الطبيعية...الخ.



حول الكنيسة القبطية:
إمكانيات التطور المستقبلية يجب أن ترتبط بالديمقراطية والعلمانية

على الرغم من اللغة الرومانسية الحالمة والهادئة التى كتب بها المستشار وليم سليمان قلادة مقالته «تصويب الأخطاء وتجديد الذاكرة» والتى عرض فيها بشكل موجز لكتاب المسيحية المصرية التقليدية: تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ثم تعقيبه المحكم من على أرضية الدعوة لتماسك الجماعة الوطنية المصرية، إلا أن المقالة تفجر العديد من القضايا والإشكاليات ليست فقط المرتبطة بالتاريخ المصرى عمومًا، أو بتاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ولكن أساسًا بالقضايا التى ترتبط بالمستقبل والتحديات التى تواجه وطننا المصرى، وكنيستنا المصرية، وهى التحديات التى تتقاطع خلالها لحظات دخولنا القرن الجديد بشكل درامى مع القدرة على «الاستمرارية والبقاء الحى الفاعل».

وهذه التحديات / الإشكاليات سوف نحاول الإشارة إليها فى عجالة:

[١] إذا كان تاريخ الكنيسة المصرية قد شهد نشوء وتطور حركة الرهبنة، والتى لم تكن حركة روحية فقط، كان الآباء الرهبان المصريون هم روادها ومعلموها، إلا أنها كانت في جوهرها أحد التعبيرات عن عبقرية الشعب المصرى في ابتكار أشكال وأساليب المواجهة للاضطهاد والظلم عبر المقاومة السلبية الجماعية، والتى يمنحها زخمها الجماعى الفاعلية التى حولتها فى النهاية إلي ما يشبه حركات العصيان المدنى في العصر الحديث.

لقد كان نشوء وتطور مثل هذه الأشكال من المواجهة تعبيرًا عن روح الاستقلال ورفض التبعية، القهر، والاضطهاد.. فهل مازال الجسد المصرى يتمتع بنفس الحيوية والمناعة على مواجهة هذه الأمراض؟

[٢] يشير الاستعراض السريع لتاريخ مصر أن الشعب المصرى منذ انتهاء عهد الأسرات الفرعونية وحتى ١٩٥٢، لم يحكمه مصرى مسلم أو مسيحى، بل إن المراكز الأساسية فى جهاز الدولة كانت للأجنبى، بل حرم الشعب من بناء جيش مصرى حتى عصر محمد على،الذى اضطر للجوء للمصريين كجند فى الجيش بعد فشل محاولاته فى بناء جيش حديث غير مصرى. لقد ظل المصريون على امتداد هذه القرون الطويلة (مسيحيين / مسلمين) موضوعًا للاضطهاد والنهب والتهميش، وهو ما جعل قضية الاستقلال المصرى، إحدى أهم قواعد بناء الجماعة الوطنية وتماسكها، ولكن بعد يوليو ٥٢ وخروج الاحتلال البريطانى ومصرنة الدولة، وعلى امتداد سبعة وأربعين عاما تعرض مفهوم الجماعة الوطنية لهزات عنيفة بدت آثارها في الانسحاب التدريجى للأقباط من الحياة العامة، وظهور الاحتقانات الطائفية، وتراجع مفهوم المواطنة.

[٣] إذا كان تاريخ الكنيسة المصرية يشير إلى أنها استطاعت بلورة عقيدتها المسيحية الخاصة التى امتد تأثيرها خارج مصر، وهو ما دفع الكنيسة البيزنطية والرومانية لعزل وحصار تأثيرها عن المسيحيين فى أوروبا شرقًا وغربًا عبر مجمع خلقدونية عام ٤٥١م، فهناك الآن سيناريو شبيه يتم مع الإسلام، حيث أثرت مصر بموقعها وظروفها على فهم وتدين المصريين المسلمين ورؤيتهم لدينهم، فجاء هذا الفهم سمحًا وسطًا مختلفًا عما هو سائد فى دول الجوار العربى.. فهل ما تتعرض له مصر الآن من نشر وتسييد للفكر الذى تجسده جماعات الإسلام السياسى، يسعى للاستفادة من خبرة عزل تأثير الكنيسة المصرية؟ وإذا كان الانحصار فى مصر فى الماضى قد دعم الارتباط بين الكيان المصرى وكنيسته، فهل يمكن فى ظل عالم اليوم بثورة الاتصالات والتكنولوچيا، وظواهر العولمة، اللجوء للتحصن والعزلة كشكل للمواجهة،وهل هناك جدوى أصلا من ذلك، فى ظل وجود تعددية دينية من المفترض أن تحكمها حقوق المواطنة؟ وهل مزيد من الارتباط بالثقافة والمؤسسة الدينية لا يهدر إمكانيات التطور المستقبلية التى نرى أنها يجب أن تكون مرتبطة بالديمقراطية والعلمانية؟

[٤] القضية الأخيرة، التى أشار إليها المستشار وليم قلادة خلال عرضه للكتاب سالف الذكر، هى حركة التجديد التى قادها البابا كيرلس الرابع، والتى شملت برامج وتنظيمات المؤسسة الكنسية منذ منتصف القرن التاسع عشر، والتى جعلت الكنيسة قادرة على الاستمرار والحيوية تطرح قضية التجديد فى البرامج والمنظمات والمفاهيم التى تحكم المؤسسة الكنسية ومشوار التجديد الذى قطعته الكنيسة المصرية منذ المصلح العظيم البابا كيرلس الرابع، وهل تحتاج الكنيسة لحركة إصلاحية جديدة تستوعب متغيرات العصر التى تهب على مصر بشكل عاصف؟

منى مكرم عبيد
عضو مجلس الشعب سابقا

تصويب «تصويب الأخطاء»

«جمال حمدان: كما أن مصر «فلتة» جغرافية، فإن الأقباط «فلتة» طائفية.. أو بالأحرى إنسانية».

هل ثمة استمرارية فى المسيحية المصرية التقليدية؟، لقد عاشت فى مصر ثلاث لغات، وثلاث حضارات منذ بدء ظهور المسيحية فى القرن الأول الميلادى.. فماذا كان تأثير ذلك على الكنيسة المصرية.

.. هذا هوالسؤال الذى ذكره المستشار وليم قلادة فى عرضه النقدى لكتاب (المسيحية المصرية التقليدية: تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية) لمؤلفه ثيودور هول بارتريك فى العدد الماضى. وهو سؤال يمثل إشكالية ختم بها المؤلف كتابه الذى يثير العديد من الأطروحات الشائكة الأبعاد والمفاهيم، ويسعدنا أن نورد عليها عدة ملاحظات عامة وخاصة من قبيل تصويب الأخطاء التى لا تفسد للود قضية.

أما الملاحظات العامة.. فهى تتلخص فى أن المقالة تنتمى إلى كاتبها أكثر من كاتب الكتاب الذى أشار إليه، كما أن القبطية انحسارها أو مدها.. لم يكن الموضوع الأول فى الكتاب، وإنما يظل استمرار مصر وحيويتها هو المحور الرئيسى فى الكتاب، أما عن الملاحظات الخاصة فهى تتحدد فى ثلاث:

* يردد البعض موضوع إهمال الحقبة القبطية من مناهج التاريخ المصرى المعاصر، وإذا صح هذا، فربما يعود إلى أن السمة الرئيسية لهذه الحقبة هى فكرة النضال ورفض التعاون مع المستعمر، وصد محاولات التدخل الأجنبى سواء تحت عنوان الرعاية أو الحماية. وهو ما نجده حديثًا فى مشاريع الكونجرس الأمريكى بشأن إصدار قوانين الانعتاق من الاضطهاد الدينى!! وهو ما يفسر - فى جانب منه - استمرارية وجود الكنيسة المصرية كاقدم مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدنى فى مصر، مؤسسة شعبية ذات كيان مستقل له رئاسته وتنظيمه المكتمل والمكتفى بذاته داخل مصر على حد قول وليم سليمان قلادة، إذ كانت الكنيسة القبطية فى الوعى الشعبى رمزًا للاستقلال الدينى والقومى طيلة التاريخ المصرى.

* أما الملاحظة الثانية: فهى تتحدد فى أن عزلة المسيحية المصرية عن المسيحية الأوروبية التى جاءت بإيعاز من (روما وبيزنطة) منذ منتصف القرن الخامس الميلادى تعود فى الأساس الأول إلى البعد السياسى، وليس البعد الدينى.. لأن مكانة آباء الكنيسة المصرية - كما يردد كاتب المقال - فى قيادة حركة الفكر المسيحى فى العالم.. بدت أمام كل من روما وبيزنطة غير متسقة مع قيادة الإمبراطورية الرومانية ومكانتها، وخاصة فى ظل وضع مصر كولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية، وبشكل أخص، فى ظل رفض المصريين للهيمنة والسيطرة الرومانية عليهم سياسيًا ودينيًا.

* أما الملاحظة الثالثة: فمن المعروف أن التزام الكنيسة المصرية بالتقاليد التزامًا دقيقًا منذ نشأتها وإلى اليوم، لا يتعارض مع حيويتها فى مختلف المجالات كما جاء فى المقالة المشار إليها.. وهذا التقليد هو الذى يشكل الأصل التاريخى فى مصر لمفهوم التعددية وحرية الرأى من خلال إرساء مبدأ المواطنة وسيادة الوطن، وهو ما أكسبها مقومات الاستمرارية إلى الآن..

وعلى هذا النحو، لم يفلح الغرب بوجه خاص مع الكنيسة القبطية فى أن تكون بمثابة الجسر الذى يعبر عليه للتدخل فى شئوننا الداخلية سواء تحت المسميات الدينية أو برداء المصطلحات السياسية. وإنما ظل استقلال الكنيسة متمثلاً فى حيويتها واستمرارها كما تفضل د. وليم سليمان قلادة.

هانى لبيب

ديمقراطية للبيع:
ولكن.. البينة على من ادعى!!

أثار العرض النقدى الذى قدمه نيلسون لكتاب تشارلز لويس «ديمقراطية للبيع» (العدد الثانى - مارس ١٩٩٩)، مجموعة من الأفكار المهمة التى تفتح باب النقاش حول قضية المال والسياسة عموما فى الولايات المتحدة الأمريكية. رأى الناقد أن الكتاب يبالغ أحيانا في تقديره لحجم الدور الذى يلعبه المال فى العملية السياسية الأمريكية، وعاب عليه أنه يميل إلى تقديم صورة أقرب إلى تبنى نظرية المؤامرة الخفية التى تحدث فيها صفقات غامضة خلف أبواب مغلقة.

وفي هذا السياق قدم نيلسون أمثلة قوية بشأن وقائع محددة من الصعب القول إن المال كان العامل الحاسم فيها عند اتخاذ القرار. إلا أن هذا النقد لا يعدو أن يكون اختلافا حول التفاصيل لا يمكن له أن يتطرق إلي ما هو أعمق من رد الأمثلة بأمثلة تثبت العكس أو الاختلاف - على أفضل تقدير - حول أى مجالات السياسة العامة هى الأكثر عرضة لتأثير المال على صنع القرار. ويرجع السبب فى ذلك إلي أنه من المستحيل السعى إلى التوصل لتحليل دقيق لأبعاد هذه القضية المعقدة بالاقتصار علي رصيد «مخرجات» العملية السياسية، إذ إن المسألة تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير حيث تتعلق بجوهر وطبيعة النظام السياسى الأمريكي نفسه، والأفكار الرئيسية التى تمثل أهم مرتكزاته. وترتبط هذه المشكلة أصلا بروح الدستور الأمريكى الذى عكس موقفا يميل بوضوح نحو اعتبار الحكومة «شرًا لابد منه»، يستوجب فرض أعلى قدر ممكن من القيود عليها لئلا تتوحش على نحو يؤدى للافتئات على حقوق الأفراد أو السلطات المحلية الأدنى. ومن ثم تم تصميم الدستور الأمريكى على نحو لا



يسمح فقط، وإنما يشجع أيضا على ممارسة النفوذ على العملية السياسية. فمن الناحية العملية فإن التعددية السياسية الأمريكية تقوم في جوهرها على «تعددية جماعات المصالح» على حد تعبير البروفيسور تيودور لوى، ولأن هذه المصالح تتنافس فيما بينها على ممارسة النفوذ، فإنها تحيد بعضها البعض مما ينتج عنه - وفق هذا الفكر - سياسة عامة تحقق الصالح العام. وبعبارة أخرى فإن «المصلحة العامة» في الفكر الليبرالي الأمريكي هي حاصل جمع المصالح المتعددة نتيجة تنافسها على ممارسة النفوذ.

هذه الروح المتميزة للفكر الأمريكي هي المسئولة في الواقع عن مسألة على جانب كبير من الأهمية، وهي الموقف الذي طالما تبنته المحكمة العليا ومثل إحدى أهم العقبات أمام أية محاولة جادة لتقييد دور المال في السياسة.

فقد درجت المحكمة العليا الأمريكية على اعتبار إنفاق المال في العمل السياسي أحد أشكال «حرية الكلمة» إذ يسعى كل طرح إلى شرح القضايا العامة و«توعية» الجماهير بشأن أبعادها. ومن هذا المنطلق، اعتبرت المحكمة أن أية محاولة لتقييد قدرة الأفراد والجماعات على إنفاق الأموال لهذا الغرض عمل غير دستوري لأنه «مرادف» لانتهاك «حرية الكلمة» التي يكفلها الدستور. وهذه في الواقع هي إحدى العقبات الكؤود التي برع أصحاب المصالح في استغلالها لحماية نفوذهم ضد أي محاولة لتقييد قدرتهم على الإنفاق لأهداف سياسية.

في هذا السياق الأوسع، يمكن مناقشة الانتقادات التي وجهها نيلسون لأطروحات لويس. فبغض النظر عما إذا كانت هذه الواقعة أو تلك تثبت أو تنفي نفوذ المال، فإن القضية المحورية هي أن دور المال في السياسة دور مشروع تماما في السياق الأمريكي، بل اكتسب غطاء دستوريا بفضل موقف المحكمة العليا. أما الاختلاف فيتمثل في التفاصيل المتعلقة بتنظيم أساليب إنفاق هذا المال وسد الثغرات القانونية التي تخرج هذه الممارسة من النطاق المسموح به قانونا.

ومن ناحية أخرى، فإن المسألة ليست ما إذا كانت هناك مؤامرة من عدمه، وإنما هي الصعوبة البالغة التي تواجهها أية محاولة «لإثبات» حجم نفوذ المال في السياسة، وهي صعوبة مصدرها خصوصية النظام السياسي نفسه وقوانينه الحاكمة، بل وطبيعة تفاعلاته التي أفرزت أساليب وتقنيات بالغة الحذق والمهارة يستخدمها أصحاب الأموال للتأثير على صنع القرار، بينما تعقد من قدرة المواطن العادي، بل والأكاديمي على الإمساك بأدلة قاطعة عن نفوذ المال في هذه الواقعة أو تلك.

وتزعم كاتبة هذه السطور أن بحث الأوجه المتعددة وراء صعوبة إثبات دور المال في السياسة هي القضية الأهم التي لا يمكن دونها التعرف على أبعاد ذلك الدور وحجم تأثيره. وهي القضية التي كانت تستحق أن يفرد لها الكاتب والناقد مساحة أكبر لأنها في حد ذاتها القرينة الأهم على الإطلاق على خطورة هذا النفوذ وتغلغله العميق في شتى خلايا النظام السياسي الأمريكي.

منار الشوربجي



آية الله جورباتشوف: وصاية المثقف على المثقف

خالص التهاني على الإصدار الجديد ذي المستوى الرفيع والعميق، وقد جاء في وقته وسط هذا الركام من الكتابات والإصدارات المتدنية والغثة. ولكن يبدو دائمًا أن أمورنا لا تكتمل لا أدري بسبب هفوات فنية أم هي عقلية كاملة تكمن وراء هذه الهفوات؟

دفعني إلى هذه الملاحظة ما ورد في العدد الثاني في موضوع: شاؤول بخش: هل يصبح خاتمي آية الله جورباتشوف؟ ص ٣٤ وما بعدها. فقد تصدر المقالة تحذير أو توجيه بقلم فهمي هويدي، هذه وجهة نظر علمانية، ولم أستطع فهم منطقية مثل هذا التعليق رغم أنني في البداية تعاملت معه بسخرية وقارنته بما يكتب على علب السجائر: التدخين مضر بصحتك! ولكن قلت الأمر أكبر وأخطر، فهذه وصاية يمارسها المثقف على المثقف. ومازلنا نشكو من رقابة السلطة السياسية ولكن الآن ظهرت السلطة الثقافية - الدينية وهي الأشد خطرًا مهما ادعت الاعتدال والملمس اللين. كان يجب على مجلتكم الغراء في مستهل عهدها أن تحترم عقولنا وحريتنا الفكرية في تقييم وتقويم ما نقرأ. وكان يمكن للمعلق أن ينتظر حتى العدد القادم وإذا لم يستطع صبرًا كان يمكن أن يعقب بعد نهاية المقال.

د. حيدر إبراهيم علي
مدير مركز الدراسات السودانية

في البدء كانت الكتابة: نموذج ممتاز لناقد قرر أن يتخلى عن هدفه

استوقفني بخاصة مقال الكاتب «سايمون ليز» في البدء كانت الكتابة. وقد ذيّل ناقد الكتاب مقاله المكثّف والقصير نسبيا بخلفية عن المؤلف واهتماماته بالتراث والفلسفة الصينية.

ولم يخطر ببالي في البدء أن أسهم برأيي في المقال. إلا أن إعادة القراءة لبعض فقراته كشفت لي عن جاذبية في المقال، ربما كان سرُّها غير قليل من الغموض المستتر والمحرّض للقارئ، وهو غموض كشف عنه الناقد بكثير من الصراحة في ثنايا استعراضه للكتاب. فهو مثلاً يصرّح بأنه كان يتعامل مع الكتاب بمشاعر مختلطة.. فيها من الحيرة والدهشة بقدر ما فيها من الإحساس بالعجز في إعطاء الكتاب حقّه من الإنصاف.. وهي نغمة نادرة في عالم النقد!

إن ارتياد المجهول غريزة بشرية.. وما أفقرنا جميعا بدونها.. وقد نجح ناقد الكتاب تماما في كسب أحد قراء مجلة «الكتب: وجهات نظر» بإثارة غريزة حبّ الاستطلاع لديه.. وهو كاتب هذه السطور. فها أنا بعد تردد وقراءة ثانية متمعنة للمقال أحاول أن أتلمس هذا السر فأجده مختبئا بين ثنايا نصوص الكاتب وانفعال الناقد الصريح بها.. وأجده أكثر وضوحًا في موقف الناقد من المؤلف. وخرجت بالحكمة الأولى في هذه التجربة.. وتساءلت: هل يلزم أن يكون النقد لأي عمل علمي أو أدبي حبيس مفهوم «التقييم» وحده؟ إن العلاقة الكلاسيكية المعتمدة بين العمل الإنشائي أي الأساسي والنقد مازالت في كثير من صورها علاقة رأسية.. تتجه من الأعلى «الناقد» إلى الأسفل «المؤلف» ولم تتطور حتى الآن لتصبح أفقية تكاملية كما ينبغي لها أن تكون.

والنص الذي بين أيدينا نموذج ممتاز لناقد قرر في ضوء تجربته الشخصية أن يتخلى عن هدفه في إنصاف الكاتب لعجزه عن ذلك، وأن يكتفي بتحريض القرّاء - أمثالنا - على خوض التجربة بأنفسهم ليجدوا في ذلك كل أو بعض ما وجده الناقد من متعة وإثارة في هذه التجربة.

الدكتور محمد خير عثمان
أستاذ جامعي وسفير السودان سابقا
في المملكة المتحدة



وداعا للطبقة الوسطى: .. وأهلا بالفئات الوسيطة

أعجبني التقييم الذي كتبه الدكتور جلال أمين لكتاب الدكتور رمزي زكي «وداعا للطبقة الوسطى»، فلقد فتح هذا التقييم الباب لتناول هذا الموضوع المحيّر.. ألا وهو «وضع الطبقة الوسطى في مصر، ذلك الموضوع الذي يعتبر حقلا كاملا من الألغام السياسية والاجتماعية ناهيك عن الألغام العلمية مما يصعب معه الولوج إليه وخوض غماره.

ومنذ بداية مرحلة «الانفتاح الاقتصادي» وإلى الآن، والمعنيون بالفكر السياسي والفكر الاجتماعي في مصر يتساءلون عن «حالة الطبقي الوسطى».. هل هي في نمو واتساع مادي ومعنوي أم هي في حالة تدهور وانكسار؟ وتشعر من تلك التساؤلات أن هناك حرصا على التعامل مع هذه الطبقة والحفاظ على حيويتها بصفتها العمود الفقري للمجتمع، والقوة الرئيسية في البناء القائم، والمحافظة على الاستقرار السياسي والاستقرار الاجتماعي، وأنها عنصر التوازن مع الطبقات الأخرى وبالأخص الطبقة العاملة والفلاحين. ويمكن القول إن هذا الاهتمام الذي تحول إلى قناعة انتهى في تقديري إلى أن يكون وهما كبيرا، وخاصة مع غياب عمل علمي حقيقي حول الطبقات في مصر خلال الربع الأخير من هذا القرن. وأحسب أن كتاب دكتور رمزي زكي هو محاولة للاقتراب من الموضوع، وقد أضفت مداخلة الدكتور جلال أمين بانتقاداتها الرصينة أبعادا مستنيرة له. ولعل وجهة نظري في الكتاب والمداخلة تختلف من زاوية أنهما لا يقدمان إجابة شافية أو دقيقة عن موضوع الطبقة الوسطى.

فموضوع دراسة الطبقات مسألة شديدة التعقيد وبالذات «مفهوم وإشكالية ودور الطبقة الوسطى».. وأزعم أن النظرة الجزئية أو النظرة الخاصة المرتبطة بصاحبها، أو مجرد الانطباعات الذكية، إنما هي مجرد محاولات للاقتراب الظاهري من الموضوع، ثم إن موضوع الطبقات يرتبط بالهندسة الاجتماعية للمجتمع، وبالتالي يأتي الحرص الشديد على أعلى درجات الدقة والمنهجية، فهذه النوعية من الهندسة ترتبط بآفاق عملية التنمية والنهضة والتحديث، وأساسها الفعلي هو الدراسة الحقيقية للواقع الاجتماعي وأوضاع الطبقات فيه وقياس الوزن النسبي لكل طبقة في هذه العملية الكبيرة، ومدى قوة كل طبقة وفكرياتها الخاصة.

* * *

وأزعم أنه لا يوجد من يعرف على وجه الدقة في بلدنا الخريطة الاجتماعية الحالية. فلقد حدثت تحولات وتغيرات، ولم تعد الأدوات القديمة في التحليل تصلح لذلك.. ناهيك عن التصنيفات الكلاسيكية التي تعودنا على اجترارها وتمثلها وإعادة استخدامها حتى فقدت صلاحيتها وعمرها الافتراضي! في حين أن ماكينة الفكر الاجتماعي تغذينا بمدارس جديدة سواء في الفكر اليميني أو اليساري الجديد.. بينما الفكر الاجتماعي المصري منكمش على ذاته حاليا ولديه عسر في العملية الإبداعية اللهم إلا بعض الإرهاصات النادرة.

وينقلنا ذلك للنقطة التي أريد التركيز عليها، وهي أن موضوع الحكم على اتساع أو تدهور الطبقة الوسطى، لا يصح التعامل معه إلا من خلال «مشروع بحثي منظم له معايير علمية منضبطة وبوجود فريق عمل يضم مجموعة منتقاة من

الباحثين تتوفر على الجزء النظرى وعلى البحث الميدانى في شعبه المختلفة (ريف - حضر - مجتمع مدنى - منظمات أعمال - مهن - حرف... إلخ)، وتكون مهمة هذا الفريق داخل الإطار النظرى، هى التشريح الاجتماعى ثم بيان أجزاء الخريطة الطبقية وأبعاد الواقع الاجتماعى والاقتصادى القائم.

ومن العجائب والغرائب عدم اهتمام جهاز الدولة المصرية وكذلك الأحزاب السياسية بمثل هذا المشروع، وكأن الطرفين يفضلان ممارسة اللعبة السياسية بلا قواعد من العلم الراسخ.. وهذا نوع من الانفصال الشبكى عن الواقع، حسب علمنا فإن جميع الأحزاب السياسية فى مصر تقدم برامجها السياسية لجمهور الناخبين دون الاستناد على أبحاث ميدانية أو قياسات حقيقية لأحوال الطبقات فى مصر. إلا أنه للحقيقة فإن المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية التابع للدولة اهتم بالموضوع، وأعد مشروعا لدراسة الخريطة الطبقية فى مصر، وذلك منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما، وأصدر كتابا أول ممتازا أعده الدكتور إبراهيم العيسوى حول المفاهيم المختلفة للموضوع، بالإضافة لعدة حلقات نقاشية جادة تناولت تفاصيل المشروع البحثى.. ثم سكتت شهرزاد عن الكلام المباح، وتعثر المشروع، وتفرقت الهيئة البحثية وانفرط العقد ولم نعد نسمع أى جديد عنه.. فهل يدل ذلك على عدم اهتمام النخبة السياسية بالموضوع أم عدم اكتراثها أصلا أم ماذا بالضبط؟

***

يشعر المرء بحرج كبير ورهبة أكبر إزاء الكتابة أو حتى التعليق بالنسبة لموضوع الخريطة الطبقية للمجتمع أو موضوع «الطبقة الوسطى» لأن الحديث هنا سيفتقر للمعايير والموازين الدقيقة. فعلى سبيل المثال، فإن لكل طبقة مشروعا تسعى لتطبيقه تلبية لمصالحها وطموحاتها وفكرياتها.. فهل ما نطلق عليه «طبقة وسطى» لها مشروع حاليا فى مصر؟ هل يمكن الإجابة على هذا السؤال دون تشريح علمى؟ ثم أين هذا المشروع؟

ربما لا توجد طبقة وسطى، إنما بالأحرى «فئات وسيطة» لا تُكَوِّن طبقة، ولكن تسعى وتتواجد بين طبقات أخرى لها تحديد أكثر ومعالم أوضح. وفي ضوء ذلك، قد يكون من الأوفق أن نبحث في الدور والحجم والوزن النسبى لهذه الفئات الوسيطة فى عملية التنمية وإمكانيات التحديث والتغيير.. وقد نفاجأ (بعد الدراسة والتحليل) أنها أكثر رجعية وتقوقعا عما نتصور، أو أنها حائرة بين طبقات مختلفة. (على سبيل المثال: كيف يمكن تصنيف مُشغل الكمبيوتر أو مصمم البرامج للحاسب الآلى أو تصنيف سائق يمتلك «تاكسى» يعمل فى مدينة القاهرة ويقيم فى محافظة القليوبية بإحدى قراها ولديه قطعة أرض يزرعها أو يستأجر من يزرعها ويقوم بتربية بعض الماشية بغرض الاتجار فيها).

الحاصل أن التحولات فى الواقع وأيضا متغيراته تزيل مصطلحات ومفاهيم قديمة ثم تطرح بالضرورة مفاهيم ومصطلحات جديدة.. فقد نقول لمفهوم الطبقة الوسطى وداعًا ونقول لمصطلح الفئات الوسيطة أهلا.. وفى كل الأحوال يجب أن نفتح الباب على مصراعيه للدراسة والتحليل والبحث العلمى فى قضايا الحالة المجتمعية إذا كنا نرغب بحق في النهضة والتغيير وإعادة تشكيل الهندسة الاجتماعية لبلدنا.

عمرو كمال حمودة

الدور المصرى فى اكتشاف آثار الإسكندرية الغارقة

إشارة إلى موضوع «آثار الإسكندرية الغارقة، أسرار تحت الأمواج»، الذى نشر فى العدد الثانى من مجلة «الكتب: وجهات نظر» أود أن أسجل بعض الملاحظات التى تلقى الضوء على الجهود التى بذلتها الإدارة المصرية للآثار الغارقة فى الإسهام فى هذه الاكتشافات.

فقد شهدت السنوات الأخيرة عدة اكتشافات أثرية بهرت العالم وجذبت انتباه وسائل الإعلام العالمية المرئية والمقروءة، بفضل ما كشفته عن صفحات غامضة كانت مجهولة من التاريخ المصرى القديم وتتمثل هذه الاكتشافات فى موقع قلعة قايتباى والآثار الغارقة بجوارها واحتمال أن تكون أطلال فنار الإسكندرية القديم إحدى عجائب الدنيا السبع.. وكذلك اكتشافات الأحياء الملكية وأطلال قصور البطالمة والموانئ الملكية القديمة فى منطقة الميناء الشرقى بالإسكندرية وغيرها من الاكتشافات التى مازالت تجذب انتباه المتخصصين فى جميع أنحاء العالم.

فأين الدور المصرى من هذه الاكتشافات التى تنسبها وسائل الإعلام العالمية للبعثات الأجنبية سواء الفرنسية أو غيرها؟

** من المعروف أن سواحل مصر حافلة بالتراث الغارق سواء فى الإسكندرية أو الساحل الشمالى أو خليج أبى قير أو البحر الأحمر وغيرها، وقد كان أبناء مصر أسبق من غيرهم فى البحث عن هذا التراث. وكانت أول محاولة مصرية فى عام ١٩٣٣ عندما قام الأمير عمر طوسون بتكوين أول بعثة آثار تنقب عن التراث الغارق فى خليج أبى قير.

** ثم كانت المحاولة الثانية عندما قام الغواص المصرى كامل أبو السعادات

والذى كان غواصا هاويا بالغوص فى المواقع التى تحوى آثارا غارقة فى سواحل الإسكندرية وذلك طوال فترة الستينيات وسجل مشاهداته فى موقع قلعة قايتباى والميناء الشرقى على خرائط حدد فيها أماكن بعض التوابيت والتماثيل والأعمدة. كما قام بالغوص فى خليج أبى قير واستطاع أن يحدد مواقع بعض السفن الغارقة من أسطول نابليون وسجل مواقعها على الخرائط. وقد ظلت أعمال أبو السعادات مرجعا أساسيا لكل البعثات التى قامت بالتنقيب عن حطام أسطول نابليون فى أبى قير.

ومع بداية فترة التسعينيات بدأ مجال الآثار الغارقة يشهد طفرة كبيرة وانطلاقة علمية حيث بدأت البعثات الأجنبية تتسابق للكشف عن هذا التراث الغارق مثل بعثة مركز الدراسات السكندرية وهى بعثة فرنسية تعمل فى موقع قلعة قايتباى، وبعثة المعهد الأوروبى للآثار الغارقة وهى بعثة فرنسية تعمل فى الميناء الشرقى وخليج أبى قير، وبعثة معهد الآثار البحرية وهى بعثة أمريكية تعمل فى الساحل الشمالى والبحر الأحمر، وبعثة المعهد الهلينى للحفاظ على التراث الغارق وهى بعثة يونانية تعمل فى منطقة الشاطبى ورشدى بالإسكندرية.

وأمام هذه الأهمية الكبيرة والمتزايدة لهذا المجال، وتزايد المواقع الأثرية التى يتم اكتشافها، ومع تزايد البعثات الأجنبية العاملة فى هذا المجال والذى سبقتنا فيه العديد من دول العالم، ومع الاهتمام الإعلامى العالمى وأمام كل هذه العوامل كانت الحاجة الملحة لإنشاء إدارة مصرية متخصصة للآثار الغارقة، وبالفعل صدر قرار الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار فى عام ١٩٩٦ بإنشاء الإدارة العامة للآثار الغارقة ومقرها مدينة الإسكندرية.

* * لقد تضمن القرار انتداب ١٤ أثريا يعملون بالفعل فى مجال الآثار الغارقة وكانوا ينتمون إداريا للمتحف اليونانى وتفتيش آثار غرب الدلتا والمناطق الأثرية الأخرى بالإسكندرية وهم يمثلون جميع التخصصات الأثرية الفرعونية واليونانية والرومانية والإسلامية، وكلهم حاصلون على دورات تدريبية متقدمة فى مجال الغوص ويجمع معظمهم بين الدراسات العليا والعمل الميدانى بالغوص فى المواقع الأثرية.

* * ثم كانت الخطوة التالية وهى مرحلة اقتحام هذا المجال عمليا، حيث أصبحت الإدارة قادرة على تكوين أول بعثة آثار غارقة بإمكانيات فنية وبشرية مصرية خالصة، وكانت البداية عام ١٩٩٧ فى منطقة شرق السلسلة بالإسكندرية عندما قامت هيئة حماية الشواطئ بإلقاء كتل خرسانية على الموقع، فقامت الإدارة بإيقاف عمل هيئة حماية الشواطئ وبدأت أول مسح أثرى بأفراد الإدارة، وتم عمل خريطة للموقع وتحديد الشواهد الأثرية به، ثم كانت الخطوة التالية عندما تقدم الجانب الفرنسى بطلب لبناء فنار يعمل بأشعة الليزر فى منطقة الميناء الشرقى وقامت الإدارة بعمل مسح أثرى فى الموقع المطلوب بجوار نادى الكشافة البحرية وتم اكتشاف أرصفة بحرية تمثل ميناء قديما، وكتل جرانيتية وأعمدة وتم عمل تقرير وخرائط بالشواهد التى كشفت عنها ورفعه للأمين العام.

* * والواقع أن الاكتشافات التى أعلن عنها مؤخرا والتى نسب فيها الفضل الأول والأخير للبعثات الأجنبية كان لأفراد الإدارة دور مهم فى تحقيقها فكيف كان ذلك؟

من المعروف أن البعثات الأجنبية تتحمل التكاليف المادية لإجراء الحفائر والتنقيب عن التراث الغارق وهذه حقيقة واضحة بما يتوافر لها من إمكانيات لم تكن متوافرة لإدارة الآثار الغارقة فى السنوات السابقة، وقد اعتمدت هذه البعثات بدرجة كبيرة على مفتشى الآثار المصريين وكان لهم دور كبير فى هذه الاكتشافات، وعلى سبيل المثال، فقد قام الأثريون المصريون المتخصصون فى الآثار المصرية بنقل وترجمة كل النصوص الهيروغليفية فى كل من الميناء الشرقى وقلعة قايتباى وقام كذلك الأثريون المصريون المتخصصون فى الآثار اليونانية بترجمة النصوص اللاتينية واليونانية وهى ترجمات اعتمدت عليها البعثات الأجنبية فى نشرها العلمى لهذه الاكتشافات. كما استطاع الأثريون المصريون الكشف عن العديد من القطع الأثرية التى تعتبر من روائع الحضارة المصرية سواء الأعمدة أو التماثيل أو المسلات أو قطع العملات وغيرها من القطع الأثرية. وقد استطاعت هذه المجموعة من الشباب إثبات وجودهم فى هذا المجال لدرجة أن البعثات الأجنبية أصبحت تعتمد عليهم بدرجة كبيرة فى أعمال الحفائر والمسح الأثرى والتصوير تحت الماء.

ومن ناحية أخرى، يجب توافر خبرات خاصة للأثرى الذى يعمل فى هذا المجال فى كيفية التعامل مع الأثر ورسمه وتسجيله وتصويره فى كل مراحل الاكتشاف.

* * والواقع أن هذه المجموعة من الشباب يمثلون نموذجا للشباب المصرى الذى استطاع أن يقتحم مجالا ظل قاصرا على البعثات الأجنبية لسنوات طويلة وهو مجال سبقتنا إليه العديد من الدول فى حوض البحر المتوسط وسائر بلدان العالم، وفى خلال شهور قليلة استطاعوا اكتساب خبرات واسعة نالت احترام وتقدير الدول الأخرى التى لها باع طويل فى هذا المجال.

إبراهيم درويش
مدير إدارة الآثار الغارقة بالإسكندرية

“ نـون ”

الفكـــــر الحـــافــى

تمتلئ الساحة الفكرية والثقافية في العالم العربى هذه الأيام بمعارك أشبه ما تكون بعواصف الخماسين الرملية، تثير من زوابع الجدل العقيم أكثر مما تثير من قضايا جوهرية، وتسد العيون والآذان عن الرؤية السليمة، وتعيد طرح مشكلات لا تمس صميم الإبداع والتجديد بقدر ما تكشف عن الارتباك والتخبط الذى يمس موقف مجتمعاتنا العربية فى العصر الحديث من حرية الفكر والثقافة والانفتاح على العالم.

وأخطر هذه القضايا بدون شك وأكثرها دلالة على الغياب الحقيقى عن عالم أصبح الحديث فيه عن غزو الفضاء والسيبرسبيس والعولمة، زادًا يوميا للفكر والتأمل فى جميع مجالات الحياة، هى قضية التدخل الخارجى من جانب مراكز للسلطة لا علاقة لها بالتعليم الأكاديمى، ولا بالبحث الحر، ولا بتربية أجيال جديدة قادرة على القراءة والفهم والحكم السليم على إنتاج عالمى متدفق وغزير ومتنوع بغير قيود.. احتماءً بذرائع «أخلاقية»، وادعاءً بالدفاع عن «الفضيلة»، والوقوف فى وجه الإباحية والتبذل.

والقضية التى نشير إليها هنا هى قضية تدخل وزير التعليم العالى ومن بعده لجنة التعليم بمجلس الشعب لمنع تدريس قصة فى الأدب المعاصر من تأليف الأديب المغربى محمد شكرى هى «الخبز الحافى»، بحجة أن بعض أولياء الأمور رأوا فى الكتاب نوعا من الأدب الإباحى أو البورنو. وهو ما يمثل فى رأيهم خطرا على أخلاق الشباب، ينبغى أن نعصمهم منه ونغلق عيونهم عنه. وهى حجج تافهة سقيمة، تخفى وراءها نوعا من السلطوية الفكرية البغيضة، والظلامية العمياء، والتحرش العقلى بأجيال ينبغى أن تتعلم فى الجامعة كيف وماذا ولماذا تقرأ، دون وصاية من الشارع ولا من الوزير ولا من الخفير، لأنه حين يموت كل هؤلاء، فمن الذى سيعلم أبناءنا ماذا يقرأون وماذا يشاهدون؟ من الذى سيربى لديهم ملكة الحكم على الغث والسمين؟ وإذا لم تكن هذه هى مهمة التعليم الأكاديمى فمن تكون مهمته؟ ولماذا يدفع الناس بأبنائهم وبناتهم إلى تعليم جامعى عال، هو بحكم تعريفه وطبيعته انفتاح على المعرفة الإنسانية فى آفاقها المختلفة، وتدريب لملكة النقد الأكاديمى على توخى الموضوعية وسلامة الحكم والتقويم.

ومع ذلك فالكتاب فى حد ذاته نوع من أدب السيرة الذاتية، صدر قبل نحو ثلاثة عقود، وترجم إلى لغات مختلفة، وبيعت منه ألوف النسخ فى المغرب والعالم العربى، وطرح فى المكتبات ومعرض الكتاب فى القاهرة. وتعبر القصة بصاحبها مرحلة الطفولة والمراهقة، وما صاحبها من تحولات نفسية واجتماعية ومكانية.. تناوله نقاد الأدب باعتباره بعض تجليات الأدب المغربى الحديث، ولم تثر حوله مثل هذه الضجة الغوغائية التى ملأت بعض الصحف فى مصر وشغلت من لا شاغل لهم.. ولم يؤخذ ما فيه من عُرى فى العبارة أو خشونة فى اللفظ على أنه أدب جنسى بالمعنى الذى يجرد الكتاب من قيمته الأدبية. فقد عرف الأدب العربى أشعار أبى نواس الإباحية وقصص ألف ليلة وليلة قديما، وروايات أخرى لأدباء معروفين مثل رواية الطيب صالح «موسم الهجرة للشمال» حديثا، دون أن تعلن حالة الطوارئ الفكرية فى الجامعات ويفرض عليها منع التجول.

والحقيقة هى أنه لم يكن ذلك الكتاب وحده هو الذى تعرض للحظر داخل النطاق الأكاديمى، بل شهدت كلية الآداب فى جامعة القاهرة مشهدا مماثلا لكتاب ليس فيه أدب مكشوف أو غير مكشوف. ولكنه كتاب حاد العبارة شديد اللهجة، كتبه عبد الله النديم فى الرد على بعض الخصوم السياسيين، وهو كتاب «المسامير» الذى يدرسه أساتذة التاريخ كنموذج للكتابة السياسية فى مصر فى القرن التاسع عشر. وثارت حوله ضجة مفتعلة وجرى فيه التحقيق مع الأستاذ الذى قرأ الكتاب على طلابه فى الجامعة أو استشهد ببعض صفحاته.

وهنا يصح أن نتوقف لنسأل: ما هو الهدف من التعليم الجامعى فى العالم العربى؟ وما هو الهدف من تدريس الآداب العربية والعالمية فى الجامعات إذا تركنا للشارع تحديد المناهج الأكاديمية والمقررات الدراسية، واضطرت الجامعات إلى الخضوع لما يفرض عليها من معايير غوغائية؟

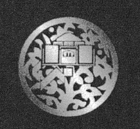
الجواب على ذلك، أننا سوف نجد أنفسنا بإزاء نوع من الفكر الحافى أو الأدب الحافى أو الثقافة الحافية.. مجرد كسرة من الزاد لا تقيم أودًا ثقافيًا، ولا تشبع جوعًا فكريًا، ولا تملأ عقلاً مفتوحًا، ولا تربط بين الإنسان العربى والعصر الذى يعيش فيه.. سوف نرتد إلى عصر البغال والحمير، ننتقل بها فى الزمان والمكان داخل قوقعة.. مغلقة.. ننتفض جزعًا وفرقًا مع كل إنتاج عقلى لا يرضى البعض عنه!

ولهذا لم يكن غريبا أن يتحول السجال الصحى الذى جرى رعدًا ومطرًا فى معرض الكتاب بين الشاعرين الكبيرين أحمد عبد المعطى حجازى، وأدونيس إلى معركة طاحنة.. ترتفع فيها نبرة الإقليمية والشوفينية، وتضيع فيها العناصر الجوهرية لاختلاف الرأى والذوق الشعرى وتعدد المدارس الأدبية. هذا التعدد الذى يثرى الحياة الفكرية والعقلية، ويعيد للعقل العربى خصوبته وغناه. ومن أسف أن الذين حولوا هذا السجال إلى خصومة سياسية أو شعوبية، لم يكن حجازى ولا أدونيس، ولكن بعض الحواريين من أكثر الناس بعدا عن الإبداع، وأقلهم ذيوعًا واعترافًا فى دنيا الشعر العربى الحديث وما بعد الحديث.

يتصل بهذا من قريب ذلك التحزب الأعمى، والميل إلى إثارة المعارك الكلامية الجوفاء، ونبش قبور الموتى.. بالدعوة إلى نقل رفات مى زيادة من مثواها الأخير فى القاهرة لدفنها فى وطنها الأصلى لبنان. وكأن مى زيادة التى ولدت فى فلسطين (الناصرة) وتعلمت فى لبنان، ثم تفتحت مواهبها فى مصر لتغدو قبلة المفكرين والأدباء والمبدعين فى صالونها الأدبى.. سوف تزداد مجدا وخلودا وتكريما لو نقلت عظامها من أرض مصر إلى أرض لبنان.

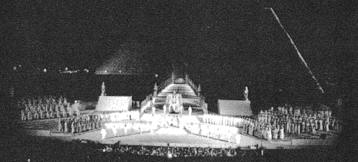
هذا العبث بالعقول، والانصراف إلى القشور، والانغماس فى شكليات لا طائل من ورائها، والوقوف على أطلال قضايا لا تقدم ولا تؤخر، هى أسوأ الأعراض لمرض عربى عضال، يتفشى فى جميع المستويات، وينعكس على جميع التصرفات والسياسات. فلا يخرج لنا غير أجيال من الحفاة العراة التى تعيش على الكفاف العقلى والإملاق الروحى.. جهودهم تذهب هباء فلا يبقى منها شىء.

سلامة أحمد سلامة

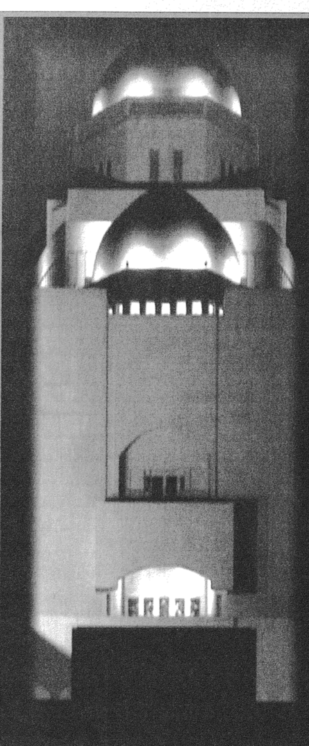


دار الأوبرا
المصرية
ترحب بكم









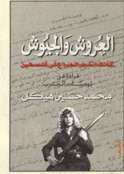


دار الشروق

تقدم أحدث إصداراتها

تطلب من دار الشروق ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية مدينة نصر ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق ١ ميدان طلعت حرب ت: ٣٩١٢٤٨٠

ومن المكتبات الكبرى



العروش والجيوش
محمد حسنين هيكل



التأزم السياسى عند العرب وسوسيولوجيا الإسلام
د. محمد جابر الأنصارى



الحماية الدستورية للحقوق والحريات
د. أحمد فتحى سرور

زمن الانكسار والانتصار
د. عصمت عبد المجيد



محاكمة الصهيونية الإسرائيلية
روجيه جارودى



حفارو القبور
روجيه جارودى
ترجمة: عزة صبحى



التعايش مع الخوف
إيزاك م. ماركس
ترجمة: د. محمد عثمان نجاتى



الأعمال الشعرية
محمد عفيفى مطر



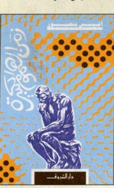
كيف نتعامل مع القرآن الكريم
د. يوسف القرضاوى



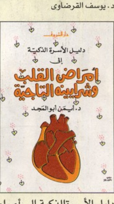
من فقه الدولة فى الإسلام
د. يوسف القرضاوى



كل معانى الحب
أنيس منصور



زمن الهموم الكبيرة
أنيس منصور



دليل الأسرة الذكية إلى أمراض القلب وشرايينه التاجية
د. أيمن أبو المجد



حكاية الكتاب
محيى الدين اللباد



المستكشفون الميكروسكوبيون
ترجمة: زينب شحاتة



فراشة الأميرة الحمراء
نبيل خلف
رسوم: حلمى التونى